جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراســـات العليا

# النقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري.

إعداد
ميسون محمود فخري العبهري

إشراف
أ.د. إبراهيم الخواجة

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس, فلسطين.
1426هـ/2005م

# النقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري

إعداد

ميسون محمود فخري العبهري

نوقشت هذه الاطروحة بتاريخ 2005/08/13 واجيزت.

| اعضاء لجنة المناقشة | التوقيـــــــــع |
|---|---|
| 1. أ. د. ابراهيم شحاده الخواجة/ مشرفا ورئيسا | .............................. |
| 2. د. نبيل زياده/ ممتحنا خارجيا | .............................. |
| 3. د. احسان الديك/ ممتحنا داخليا | .............................. |

# الإهداء

إلى كلّ معاق صاحب إرادة في الحياة, وعزم على المواجهة, وإيمان بالتواصل.

إلى كلّ إنسان أسعده القدر بما حُرم منه سواه.

إلى ذلك العظيم الذي علّمني الاجتهاد والعزيمة...أبي.

إلى من نهلت من نبعها الحنان والصفاء...أمي

إلى من علّمني روح المصابرة والمساعدة...زوجي

إلى من كانوا لي يد العون والمساندة... إخوتي وأخواتي

أهدي هذه الأطروحة المتواضعة.. مع كل الاحترام والتقدير إليهم جميعاً,

ووفاء الابنة والزوجة والأخت المخلصة.

ميسون العبهري

# شكر وتقدير

الآن وبعد أن فرغت من إعداد هذا البحث أقدم الشكر أجزله لأستاذي الفاضل الدكتور إبراهيم الخواجة الذي تولى إرشادي ونصحي طوال فترة الدراسة ولم يبخل عليّ بتوجيهاته وإرشاداته فقد كانت لتوجيهاته القيمة الأثر الأكبر في إخراج هذا البحث.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأساتذة الأفاضل في لجنة المناقشة؛ فإليهم جميعاً وفاء المعترفة بالجميل, وشكر التلميذة البارة.

وكل الاحترام والتقدير إلى الأساتذة الأفاضل والعاملين في مكتبات جامعة النجاح الوطنية, والجامعة الأردنية, وأمانة عمان الكبرى, وبلديات البيرة ونابلس و جنين الذين مدّوا لي يد العون والمساعدة لإثراء هذه الدراسة بالنصوص والمعلومات اللازمة, سائلة الله عزّ وجلّ أن يجزيهم عنّي خير الجزاء.

ميسون العبهري

# ـ فهرس الموضوعات ـ


| رقم الصفحة | الموضوع |
|---|---|
| ت | الإهداء |
| ث | شكر وتقدير |
| ج | فهرس الموضوعات |
| خ | الملخص |
| 1 | المقدمة |
| 6 | التمهيد |
| 8 | الباب الأول: كفيف المعرة بين فلسفته ومعتقده الديني. |
| 9 | الفصل الأول: سيرة أبي العلاء المعري. |
| 33 | الفصل الثاني: صدى آفة العمى على أبي العلاء المعري. |
| 34 | المبحث الأول: صدى آفة العمى على نفسية أبي العلاء المعري. |
| 53 | المبحث الثاني: صدى آفة العمى ومظاهرها على شعر أبي العلاء المعري. |
| 68 | الفصل الثالث: فلسفة أبي العلاء المعري. |
| 69 | المبحث الأول: أبو العلاء...فيلسوفاً. |
| 76 | المبحث الثاني: مصادر فلسفة أبي العلاء المعري. |
| 89 | المبحث الثالث: موضوعات فلسفة أبي العلاء المعري. |
| 140 | الفصل الرابع: معتقد أبي العلاء المعري الديني. |
| 185 | الباب الثاني: النقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري. |
| 186 | الفصل الأول: مفهوم النقد الاجتماعي عند أبي العلاء المعري. |
| 192 | الفصل الثاني: بواعث النقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري. |
| 193 | المبحث الأول: بواعث ذاتية ( إباؤه وعزة نفسه ـ نشأته الدينية ـ عدم تكيفه مع البيئة المحيطة به) |
| 213 | المبحث الثاني: بواعث خارجية (اضطراب الحياة السياسة والاقتصادية والاجتماعية والدينية في عصر المعري) |
| 225 | الفصل الثالث: ضروب النقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري. |
| 226 | المبحث الأول: النقد السياسي. |
| 237 | المبحث الثاني: النقد الاقتصادي. |

| الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|
| المبحث الثالث: النقد الديني. | 244 |
| المبحث الرابع: النقد الاجتماعي. | 257 |
| المبحث الخامس: النقد الأدبي. | 278 |
| الفصل الرابع: الخصائص الفنية في لزوميات أبي العلاء المعري. | 284 |
| المبحث الأول: اللغة والأسلوب. | 285 |
| المبحث الثاني: الصورة. | 308 |
| المبحث الثالث: الموسيقا | 317 |
| الخاتمة | 323 |
| قائمة المصادر والمراجع. | 327 |
| الملخص باللغة الانجليزية. | b |

**النقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري**
**إعداد**
**ميسون محمود فخري العبهري**
**إشراف**
**أ.د. إبراهيم الخواجة**


## الملخّص

تناولت في هذه الدراسة موضوعاً بعنوان "النقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري" وعنيتُ بالوقوف على منهج أبي العلاء في نقده معتمدة في ذلك كله على النصوص الشعرية من أبيات ومقطوعات في ديوانه "اللزوميات", وعلى أهم المصادر والمراجع الأدبية والتاريخية الموثوقة التي اهتمت بأبي العلاء ولزومياته, حيث تناولتُ تلك النصوص بالتحليل والتدقيق, وتلك الموضوعات التي اهتم بها الباحثون بالدراسة والتنقيب.

ومن خلال دراسة تلك النماذج, أمكن التعرف إلى لزوميات أبي العلاء عن كثب, والبحث في معظم الموضوعات التي تطرق إليها في لزومياته, فالمجتمع والاقتصاد والدنيا والزمن والموت والقضاء والدهر والسياسة والدين كانت جميعاً تؤلّف ديوانه الضخم "اللزوميات" الذي أطال فيه التأمل والتفكير, فجاءت تأملاته عميقة وممزوجة بحكم ومواعظ, واستحق من خلالها لقب الشاعر الفيلسوف بجدارة, لأنه نظم شعراً فلسفياً حسن الجودة, وجيد البناء, أدى به إلى التعرف على الأصول والمصادر التي أسهمت في تنمية فلسفته تنمية حسنة, والمساهمة في تكوين ملكة النقد البنّاءة لديه, منكراً عاهته, مبرزاً أهمية بصيرته وعقله, لأنهما ــ من وجهة نظره ــ الأساس في إثبات الذات والتأكيد على إبراز الشخصية المتميزة والمبدعة, غير أنّ لزومياته لم تخلُ من طابعي الحزن والألم, فكونت لديه رؤية جديدة للكشف عن عيوب المجتمع, ونقدها من أجل الوصول إلى مجتمع أكثر كمالاً ومثالية؛ فكان نعم الدارس الصادق والأمين الذي درس أحوال الملوك والأمراء, ومن تبعهم درساً متقناً, وتتابع أخبار وأحوال بعضهم بما تقشعر منه الأبدان؛ فرآهم يتكالبون على السلطة في سبيل تحقيق أغراضهم وأهوائهم, وتناول فيها أيضاً صورة بعض الذين يحرّمون السعي, ويحللون الاستعطاء, وانتظار الرزق دون تعب أو إرهاق, فرأى أن العمل والسعي والحرفة أدعى إلى التقوى من التواكل والانتظار.

وأخيراً اعتمدتُ في هذه الدراسة على المنهج التكاملي في العرض والتحليل, وتنوع الدراسات من مصادر ومراجع وكتب الأدب والفلسفة والتاريخ, وطائفة أخرى من العلوم التي تخدم في سبيل الوصول إلى المعرفة, تحت إشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجة الذي أعترفُ له بالفضل الأول في توجيه هذه الدراسة, وتوسيع آفاقها إلى خير طريق؛ فأرجو أن تكون نتيجة هذا الجهد مرضية, والشكر للـــه على تسديد الخطا.

## المقدِّمة

الحمد لله رب العالمين الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم, وجعله من عباده الظامئين إلى علمه وهديه إلى يوم الدين, والصلاة والسلام على سيدنا محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فقد أُعدّت هذه الدراسة للتعمق في لزوميات أبي العلاء المعري, وتحديداً في نقده الاجتماعي الذي دعا فيه إلى إصلاح المجتمع, وتقويم اعوجاجه, وعلى الرغم من القيمة الأدبية العظيمة لديوانه " اللزوميات", فإنه لم يحظ بعناية الدارسين عناية كاملة, ولم يظفر ببحوث تلقي الضوء على أبي العلاء الناقد والمصلح الاجتماعي الذي آلمه ضياع مجتمعه وانهياره.

ومن هنا آثرتُ الخوض في غمار هذه الدراسة, واتخذتُ من نقده الاجتماعي في ديوانه "اللزوميات" موضوعاً لدراستي؛ ولاسيما أن تاريخ اهتمامي بأبي العلاء المعري يرجع إلى أيام دراستي الجامعية الأولى ــ حين كتبت بحثاً متواضعاً عن نقده الاجتماعي في لزومياته ــ وألقيتُ الضوء في هذه الدراسة على اتجاهات جديدة في لزومياته لم يعرها الدارسون اهتماماً جليّاً, وإن أشاروا إليها كمقتطفات أو جزئيات متناثرة هنا وهناك, إضافة إلى إشارة بعضهم إلى هذه القضية بشكل عام دون الالتزام بلزومياته, كما فعل كل من الأستاذين؛ الدكتور زكي المحاسني في كتابه الموسوم بـ"أبو العلاء ناقد المجتمع", والأستاذ الدكتور يسري سلامة في كتابه الموسوم بـ "النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري", ومنذ ذلك الوقت وصلتي بلزومياته لا تنقطع.

وإذا كانت العادة قد جرت بأن توصف البحوث الأدبية ذات القيمة بأنها مبتكرة؛ فإني لست أدعي أن هذا البحث المتواضع قد كشف أسراراً كانت طي الكتمان, ولكني أزعم أنه قد توصّل إلى بعض النتائج الجديدة التي كانت الوسيلة إليها دراسة النصوص الشعرية, وكتب الأدب القديمة ذات الصلة الوثيقة بأبي العلاء كانت دراسة متأنية وصابرة؛ لهذا كان التأني والاستقصاء ضروريين في دراسة أبي العلاء, قبل درس جانب من أدبه أو فكره, وكان لا بد من اعتماد المنهج التكاملي, والتناول العام الذي يسلط الضوء على شخصيته وحياته وفكره,

إضافة إلى منهجي التحليل والوصف اللذين يتطلبهما فهم النصوص الشعرية فهماً جيداً, ومما لا شك فيه أن البحث الأدبي المبتكر هو في الحقيقة ـــ وقبل كل شيء ـــ هو البحث المستوعب الذي لا يتجاهل صاحبه شيئاً مما كتب قبله في موضوعه, وبغير هذا الاستيعاب العلمي الضروري لا يمكن للبحث الجديد أن يسجّل في ميدان العلم خطوة التقدم التي لا بد منها ليكون بحثاً مبتكراً, إذ لا بد من تسجيل أو ذكر لأهم الدراسات السابقة التي كانت بمثابة معالم على الطريق في هذا البحث, وهذه الدراسات نوعان: قديمة وحديثة؛ أما القديمة فهي المصادر الأساسية التي لا بدّ منها للباحث في الأدب, ككتاب "تعريف القدماء بأبي العلاء المعري", وكتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان, و"رسائل أبي العلاء", وكتابه "زجر النابح" الذي ردّ فيه على النابحين الذين طعنوا في معتقده الديني, وما إلى ذلك من مصادر, إلى جانب ديوانه "اللزوميات" الذي اهتممت بدراسته اهتماماً بالغاً, الذي أمدني بالمعلومات الرئيسة التي لا غنى عنها, لتمثل الشعر الناقد والهادف, ومن ثم الوقوف على أفكاره واتجاهاته, والمؤثرات التي أدت به إلى نظم مثل هذا النوع من الشعر, ووجدت أنّ المصادر التي تم ذكرها آنفاً في غنى عن التعريف بها, أو التحدث عنها, أما الدراسات الحديثة فهي التي تحتاج إلى التنويه, والتقديم لأنها بمحاولتها الدراسة الجزئية لموضوع هذا البحث قد أمدتني بعض الأفكار, وسددتني في كثير من الآراء, وأخذتْ بيدي في متاهات وغياهب هذا الأديب الفيلسوف الشاعر التي يضّل فيها الباحث إن لم يجد على الطريق هدىً.

ويمكننا أن نذكر تلك الدراسات التي تتصل بهذا البحث بوشيجة أو بأخرى, وكلها كانت كتب تناولته بصورة عامة دون تخصيص للزومياته وهي على النحو الآتي:

1. تجديد ذكرى أبي العلاء المعري لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين.
2. النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري للدكتور يسري سلامة.
3. أبو العلاء ناقد المجتمع للدكتور زكي المحاسني.
4. أبو العلاء في لزومياته للدكتور كمال اليازجي.

5. المعري في فكره وسخريته للدكتور عدنان عبيد العلي.

6. المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري لمجموعة من الأساتذة.

7. الجامع في أخبار أبي العلاء المعري, ج1,ج2,ج3 للدكتور محمد سليم الجندي.

8. شعر المكفوفين في العصر العباسي للدكتور عدنان عبيد العلي.

وإذ تسنّى لي ذكر بعض أسماء تلك الدراسات وأسماء مؤلفيها؛ فإنه لن يكون في استطاعتي ذكرها جميعاً, إذ إن ذلك يستلزم اتساعاً لا تنهض به هذه المقدمة, إلا أنها جميعاً أسعفتني وأفادتني وأغنت بحثي بما فيها من آراء وتعليقات دفاعاً وإعجاباً بأبي العلاء.

وقد اعترضتني جملة من المشكلات والعقبات في أثناء جمع المعلومات والدراسات اللازمة للبحث, يتعلق أوّلها بندرة المشاركين في الحديث عن الجانب الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء أو بمشاركتهم في نظرة خاصة بلزومياته دون التطرق إلى أعماله الأخرى ومؤلفاته, ومرد هذا الأمر اعتمادهم على آثار أبي العلاء دون الاهتمام باللزوميات بشكل خاص, ولعل هذه النظرة تفتقر إلى الشمولية التي يجب أن تتصف بها الأحكام قبل صدورها, إذ لابد من قراءة دقيقة لكل ما وصل من كتب ودراسات في لزوميات أبي العلاء في سبيل تكوين صورة متكاملة عن نقده الاجتماعي في اللزوميات, ومن ثم الخروج بنتائج تقترب من الصحة, ولهذا فإن ما ذهب إليه بعض الباحثين بسبب هذه النظرة الجزئية كان مدعاة لاضطراب صورة المعري الناقد الاجتماعي ـــ وتحديداً في لزومياته ـــ في ذهن الباحثة, ولم تستو الصورة الحقيقية إلا بعد الاطلاع على جميع ما وصل من دراسات وأبحاث, والوقوف عندها وقفة تمعّن وإدراك في ضوء ذلك الاطلاع.

ونظراً إلى طبيعة البحث, وحجم مادة اللزوميات الكبير؛ فقد اقتضت الضرورة بأن تأتي الدراسة في مقدمة وتمهيد وبابين اثنين وخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع.

وقد تعرضتُ في التمهيد للحديث عن أبي العلاء المعري, لتلك الشخصية الفذّة التي ألهبت مشاعره وفكره عقول الدارسين, وأشغلت فكرهم؛ فأضحى شغلهم الشاغل, وأما البابان

الاثنان, فقد جاء ترتيبها على النحو الآتي:

**أولاً: الباب الأول؛ كفيف المعرة بين فلسفته ومعتقده الديني؛** وقسّمته إلى أربعة فصول؛ الفصل الأول: سيرة أبي العلاء المعري, وفيه تطرقت إلى مباحث عدة, مروراً باسمه وكنيته ولقبه, ثم بمولده ونشأته وبلدته وشخصيته وأخلاقه وثقافته وسعة ذكائه, وتطرقت كذلك إلى الكشف عن أغراضه الشعرية وآثاره الأدبية أيام شبابه, وشيخوخته.

الفصل الثاني: آفة العمى وأثرها على أبي العلاء, حيث قسّمته إلى مبحثين اثنين؛ الأول: آفة العمى وأثرها على نفسية أبي العلاء, والثاني آفة العمى وأثرها على شعره.

الفصل الثالث: فلسفة أبي العلاء؛ وقسمته إلى مباحث ثلاثة؛ الأول: أبو العلاء...فيلسوفاً, والثاني: مصادر فلسفة أبي العلاء, والثالث: موضوعات فلسفته.

وأما الفصل الرابع والأخير: فقد خصصته لمعتقد أبي العلاء الديني؛ وفيه تناولت معتقده من وجهة نظر القدامى والمحدثين, ثم انتهيت إلى وجهة نظر تكاد تقترب إلى الحقيقة, معتمدة بذلك على نصوصه الشعرية والنثرية في المرتبة الأولىٰ.

**ثانياً: الباب الثاني, النقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري؛** وقسّمته إلى فصول أربعة؛ الفصل الأول: تناولت فيه مفهوم النقد الاجتماعي عند أبي العلاء, والفصل الثاني؛ في بواعث هذا النقد الاجتماعي في اللزوميات بخاصة, وقسمته إلى مبحثين؛ تناول أحدهما البواعث الذاتية لنقده, والآخر تناول البواعث الخارجية والمحيطة بالوسط الذي عاش فيه.

وأما الفصل الثالث؛ فقد خصصته لدراسة أضرب النقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري؛ وتناولت فيه مباحث عدّة؛ متمثلة بالنقد السياسي, والاقتصادي, والديني, والاجتماعي, والأدبي.

وأما الفصل الرابع والأخير؛ فقد تناولتُ فيه الخصائص الفنية لشعر اللزوميات بعامة وشعر النقد الاجتماعي بخاصة؛ وتناولت فيه الحديث عن أطر ثلاثة: اللغة والصورة والموسيقا.

وفي الخاتمة أوجزت بعض النتائج التي توصلتُ إليها بعد بحث وفحص عميقين في لزومياته, وكل ما أتمناه أن أكون قد وفّقت في هذه الدراسة, واستطعت بما عرضته أن أكشف ــ قليلاً أو كثيراً ــ عن آراء تلك الشخصية وفكرها ونقدها, أما إذا لم أتمكن من إيفاء الموضوع حقّه من البحث والاستقصاء, فحسبي أنني حاولت, وعسى أن تكون هذه المحاولة المتواضعة فاتحة دراسة أوسع وأشمل, وعلى الله قصد السّبيل.

# التمهيد

جذب أبو العلاء انتباه معاصريه ومن بعده, بمؤلفاته الكثيرة, ونمط حياته الفريدة, ووقف في مصاف كبار صانعي التراث العربي, وصار موضع اهتمام المؤرخين والنقاد والدارسين, وأصبح ظاهرة يمتد تأثيرها إلى أوساط ثقافية متعددة, لا تقتصر على الشعر فحسب؛ بل راحت تشمل الفكر والفلسفة والزهد والنقد الاجتماعي الذي هو موضوع دراستنا.

وقد كان الدكتور طه حسين من أوائل من نبّه إلى جوانب المعري الثقافية المتعددة؛ ففتح الباب واسعاً أمام الباحثين للبحث في تلك الجوانب, فتنوعت الدراسات, واختلفت الآراء حوله, وكانت الباحثة تقرأ كل ما يصل إلى يديها من هذه الدراسات, وتسمع اختلاف الأطراف فيه, لأن أبا العلاء من أكثر شعراء العربية إثارة للجدل, واستقطاباً لاهتمام الباحثين قديماً وحديثاً, عرباً وغير عرب, فهو ذات مدهشة, أفرزت إبداعاً خلاقاً يتكشف بالطريف لكل فكر متيقظ, وتوحي له بالمضامين الجديدة, ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أهمية دراسة أبي العلاء دراسة تكاملية, لأنه لا يُعرف إلا بتناول عام يُسلّط الضّوء على شخصيته وحياته, وفكره الفلسفي والعقائدي, حتى يتسنى لنا معرفة بواعث نقده الاجتماعي القائم على الأدب العقلاني أو المنهج التقويمي, لأن نقده ليس هجاء تقليدياً قائماً على الطعن والتشهير, وإنما كان ثورة قائمة على الإصلاح والإعمار, ومثل هذه الدراسة كان لابدَّ من النظر إليها, والاهتمام بها, لأنها دراسة شاملة تكشف لنا عن شخصيته ونشأته, وعن العوامل المساعدة في تكوينه فكرياً وفلسفياً وعقائدياً, وعن الظروف المحيطة بحياته, التي تتلخص في جانبين اثنين؛ هما موروثه الفطري من مواهب وإمكانات وخصائص, وثانيهما؛ بيئته التي نشأ فيها, والمناخ الذي تتنفّس منه بخاصة حين تكون تلك البيئة, وهذا المناخ مظاهر وعوامل غير عادية تجعل التأثير قوياً لا يمكن إغفاله؛ فقد وُلد أبو العلاء في بيت علمي مشهود له بالفضل والتربية, وعاصر ظروفاً عامة من الفساد والاضطراب والقلق, وحين نحسب لهذه العوامل حسابها؛ فإنما هو إيمان منا بأن المرء تشترك في تكوينه مجموعة من الأسباب والعلل, فمن الخطأ النظر إليه مستقلاً عن كل ذلك, لأن هذا المستقل عن ظروفه, وظروف بيئته المضطربة فكرياً وفلسفياً وعقائدياً ليس له وجود في هذا العالم وبناء على هذا؛ فقد جاءت الدراسة في بابين اثنين كان كل منهما حجر الأساس للآخر؛

ففي الباب الأول لزمنا الأمر بأن نسلك ــ في البحث عن حياة أبي العلاء ــ طريقاً خاصة, موضّحين فيها نشأة أبي العلاء, وطريقة تربيته الخاصة, إضافة إلى أثر العاهة التي أصيب بها مذ كان صغيراً على نفسيته من ناحية, وأثرها على شعره من ناحية أخرى, مما أثّر على إنتاجه الفكري والفلسفي, وقد عمل في إنضاجها الزمان والمكان والحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية, ومن هنا جاءت دراسة الباب الثاني التي تتضمن الحديث عن نقده الاجتماعي لتلك الأحوال والظروف المتعلقة بعصره آنذاك, والكشف عن أهم البواعث والأسباب التي أدت به إلى الإعلان عن نقده هذا دون خوف أو وجل.

باب الأول: كفيف المعرة بين فلسفته ومعتقده الديني, ويشتمل على:

الفصل الأول: سيرة أبي العلاء المعري.

الفصل الثاني: صدى آفة العمى على أبي العلاء المعري.

الفصل الثالث: فلسفة أبي العلاء المعري.

الفصل الرابع: معتقد أبي العلاء المعري الديني.

# الفصل الأول

## سيرة أبي العلاء المعري, ويشتمل على:

- اسمه – كنيته – لقبه.
- مولده ونشأته.
- بلدته (معرة النعمان).
- شخصيته.
- أخلاقه.
- ثقافته وسعة ذكائه.
- شاعريته.
- آثاره الأدبية.
- وفاته.

## الفصل الاول

**1ـ اسمه – كنيته – لقبه:**

أما اسمه؛ فهو أحمد بن عبد الله بن سليمان أبو العلاء التنوخي[1], المعروف بالمعري نسبةً إلى بلده, معرة النعمان, وأما اسمه هذا, فقد كرهه, لأنه رأى أن من النفاق والكذب اشتقاق اسمه من الحمد, إذ ينبغي أن يشتق من الذم, من مثل قوله:

**وأحمدُ سَمّاني كبيـــريْ, وقلما فعلتُ سوى ما أَستَحِقُّ به الذّمّا**[2] (الطويل)

وأما كنيته؛ فقد كُنّي بأبي العلاء, لأنه من عادة الآباء في ذلك العصر أن يكنّوا أبناءهم وقت تسميتهم, لكن أبا العلاء كره هذه الكنية أيضاً, ورأى أن من الظلم أن يضاف إلى التصعيد والعلوّ, وإنما العدل أن يضاف إلى السقوط والهبوط, كقوله :

**دُعيتُ أبا العَلاءِ, وذلك مَيْنٌ, ولكنّ الصّحيحَ أبو النُّزول**[3] (الوافر)

وأما اللقب الذي اختاره لنفسه, وأحبه كثيراً فهو "رهين المحبسين", وقد لقب نفسه بهذا اللقب بعد رجوعه من بغداد, واعتزاله الناس, وأراد بالمحبسين منزله الذي احتجب فيه, وذهاب بصره الذي منعه من مشاهدة الأشياء[4].

ولم يكتف –رحمه الله– بهذين السجنين، فقد أضاف إليهما سجنا ثالثاً, وخاصة بعد نضوج أفكاره الفلسفية, وهو سجن نفسه الطاهرة في جسده الخبيث, على نحو ما جاء في شعره الذي يقول فيه :

**أرانِي في الثّلاثةِ من سجــونِي فلا تَــسْأَلْ عن الخـــبرِ النّبيثِ**
**لفقــدي ناظري ولزومِ بيـــتي, وكونِ النّفسِ في الجسدِ الخبيثِ**[5] (الوافر)

---

([1]) القفطي, أبو الحسن: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, إشراف د. طه حسين, القاهرة, دار الكتب المصرية, 1944م, ص27.

([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, بيروت, دار صادر ودار بيروت, 1961م, 416/2.

([3]) نفسه, 348/2.

([4]) ابن الجوزي, سبط: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء , ص143.

([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 249/1, النبيث: الشرير, وهو أيضاً من نبث التراب: أخرجه, ونبث عن السر: بحث عنه

**2- مولده ونشأته:**

وُلد أبو العلاء يوم الجمعة لثلاثٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة(1), وقد ولد أحمد مبصراً كما يولد سائر البشر, ولكنه ابتلي بصدمة فادحة, قبل أن تستقيم خطوته الصغيرة على درب الحياة, "إذ اعتل في سنته الرابعة بعلّة الجدريّ"(2), فما قام منها إلا بعد أن شوهت وجهه بندوب وحفر ما برىء منها, ذهبت بنور بصره, فأسدلت بينه وبين الدنيا حجابا َكثيفاً لا أمل في خلعه حتى آخر رمق في حياته, ونتيجة هذه الآفة التي هاجمته صغيراً, لم يعرف من الألوان إلا اللون الأحمر,لأنه أُلبس ثوباً أحمر وقت اعتلاله مرض الجدري, إذ كان يقول: " لا أعرف من الألوان إلا الأحمر؛ لأني أُلبست في مرض الجُدري ثوباً مصبوغاً بالعُصفُر, فأنا لا أعقل غير ذلك؛و كل ما أذكره من الألوان في شعري ونثري, إنما هو تقليد الغير واستعارة منه(3).

ولكننا مع ذلك نراه حامداً ربه, جامعاً روح الطرفة والظرافة في لسانه حين قال: " أنا أحمدُ اللهَ على العمى, كما يحمده غيري على البصر؛ وقد صنعَ لي وأحسنَ بي؛ إذ كفاني رؤيةَ الثقلاءِ والبغضاء(4).

أما نشأته؛ فكانت في بيت صغير من بيوتات معرة النعمان, هذا البيت الذي عرف بالعلم والفضل والأدب, فجده سليمان بن أحمد قاضي المعرة كان أديباً شاعراً, وكذلك كان أبوه عبد الله, وعمّه أبو بكر بن محمد, وأخواه أبو المجد محمد, وأبو الهيثم عبد الواحد,(5), كانوا كلّهم أدباء وشعراء, تولوّا أمور القضاء في مدينتهم, واحتلّوا مقام الإجلال والتعظيم بين مواطنيهم,(6)وكذلك عرف أخواله من "بني سبيكة" بالعلم والدين أيضاً, وهم مشهورون في

(1) القفطي, أبو الحسن: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص29.

(2) الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص67.

(3) نقلاً عن القفطي, أبو الحسن: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص30.

(4) نقلاً عن ابن العديم, ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص558.

(5) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص493.

(6) الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص68.

حلب[1].

تتلمذ أبو العلاء في بداية عمره على أبيه الذي قاده إلى عالم يمنحه نور البصيرة ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق أمام بصره, فقرأ القرآن على أئمة من شيوخ القراءات وسمع الحديث من أبيه وجده وجدته, وجماعته من مُحَدِّثي بلده في زمانه. وتلقى العربية على أبيه, وعلى جماعة من أصحاب "ابن خالويه", فظهر من تفوق نجابته وفطنته ما جعل والده يمضي به إلى حلب حيث أخواله "بنو سبيكة", إذ تلقى النحو على إمام العربية في حلب محمد بن عبد الله بن سعد النحوي[2].

ففي هذا البيت الكريم ولد أبو العلاء, ومن تلك السلالة العريقة في الفضل والعزة والعلم تلقى ميراثه الفريد .

**3- <u>بلدته ( معرة النعمان ):</u>**

يقول الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن المغربي [3]في وصف المعرة:

**مَا على سَاكنِي المعرّةِ لـو أنَّ — دِيَاراً نبتْ بهمْ أو طُلولاَ**
**يسكنونَ العـُلاَ معاقـلَ شُمّاً — و يَرونَ الآدابَ ظِلاً ظليلاَ**
**منزلٌ شاقَنـي أنـيسٌ وماكـا — نَ رسومـاً نواحـلاً وطلولاَ**
**حيثُ يُدعَى النّسيم فَظّاً ويُلْفَى — سَبَلُ الغادياتِ شَكْساً بخيـلاَ**
**أينما تَلْتفِتْ تجدْ ظِلَّ طُوبَى — وتَجِدْ كوثراً أغرَّ صَقِيـلاَ**
**تُرْبُها طيِّبَ الشّبـابَ فما يَصْـ — حَبُ إلا السُّرورَ منها خليـلاَ**
**فترى الـلهَو إنْ أردتَ طليقـاً — والتُّقَى إنْ أردتَـه مَغـلولا**
**و سـلامٌ علـى بَنِيها ولا زا — لَ نعيمُ الحيـاةِ فيهم نزيـلا[4]** (الخفيف)

ففي الأبيات السابقة وصف للمعرة وأهلها, فالوزير يصف المعرة بأنها ديار قديمة

---

([1]) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص511.

([2]) ابن الوردي, عمر: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص206.

([3]) هو الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي, من ولد بهران جور ملك فارس, ويُعرف بالوزير المغربي, وهو أديب وشاعر, ولد سنة 370, وكان صاحب مغامرات سياسية, توفي سنة 418.

([4]) نقلاً عن ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص591 وما بعدها, السَبَل: المطر.

يسكنها أُناس مثقفون بالعلم والأدب, حتى أضحى الأدب مظلة يستظلون بها, وسواء عليك التفت يمينا أو شمالاً, فسترى النعيم في أراضيها, وتلقى حسن المعاشرة من أهلها, ويقول القزويني: "إنها بليدة بين حلب وحماة"[1].

ولقد كانت المعرة قديماً تسمى بـ (ذات القصور)[2], ولكنها عرفت فيما بعد بمعرة النعمان النعمان نسبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي له ولد أيام إمارته على حمص, فدفنه فيها [3]. ومنذ ذلك الحين أصبحت تعرف بمعرة النعمان.

ويقول الدكتور طه حسين نقلاً عن الأستاذ الجليل إسماعيل بك رأفت إنَّ الصليبيين أغاروا على المعرة سنة تسع وتسعين وألف للمسيح وافتتحوها ودمروها؛ وتسمى في كتب الحوادث الصليبية بالمعرة فقط, أو معّر, وعرفت في زمان الرومان باسم "خاليس"[4].

وأما المعرة بمعنى الجرب؛ فإن د. طه حسين يستبعد ذلك المعنى, فيقول: " إنَّ أبا العلاء حين قال في لزومياته:

**يُعيّرنا, لفظَ المعرّةِ أنّها        من العُرِّ ,قومٌ في العلا, غرباءُ**[5]    (الطويل)

لم يرد بهذا البيت تحقيق الاسم ولا الدلالة على معناه؛ فنحن لا نعرف أن قوماً عيروه بهذا اللفظ, وإنما ذهب بهذه القصيدة كلها مذهب الاستهزاء بالذين تخدعهم الأسماء, فيتفاءلون أو يتطيرون"[6].

ولعلنا نرى أنفسنا ميالة إلى وجهة نظر الدكتور طه حسين, ومصداق ذلك قوله متابعاً في الأبيات الآتيةً:

---

([1]) القزويني, زكريا: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص595.

([2]) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص588 .

([3]) ابن بطوطة: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص597 .

([4]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء ,ط6 , القاهرة, دار المعارف, 1963م , ص 102 .

([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,43/1, المعرة : العيب والمسبة, العّر: من المعرة .

([6]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء , ص96 .

وذو نَجَب, إنْ كانَ ما قيلَ صادقاً فمـــا فيـــهِ إلاّ مَعْشَرُ نُجباءُ
تفــزَّعُ أعرابيَّـــةٌ, إنْ جرتْ لـــها نواعبُ يستعرضْنَـــها, وظِباءُ
وما الأُرَبى للحـــيّ ِ إلا مُسِفَّـــةٌ على أنهم, في أمـــرهِمْ أُربَـــاءُ[1] (الطويل)

فأبو العلاء كما بدا لنا في تلك الأبيات أنه ما نظم قصيدته تلك لتحقيق معنى لغوي, وإنما نظمها لتوضيح ما طبع عليه الناس من عادات سيئة, وما عليه إلا أن ينقدها ويستقبحها.

ومن الجدير بالذكر أن المعرة "هي مدينة حسنة, وكان لها سور من الحجارة, وأبنيتها حسنة بالحجر, وهي كثيرة الأشجار والفواكه, لاسيما التين والزيتون والفستق, ويغلب على أهلها الذكاء المفرط, ولقد خرج منها جماعة من العلماء والشعراء, وكان الفرنجة قد هاجموها, وتشتت أهلها في البلاد سنة ست وسبعين وأربعمائة, ثم فتحها من أيديهم "أَتابك زنكي بن آقْ سُنْقُرْ" وردَّ على أهلها أملاكهم, فعادوا إليها وسكنوها, وعَمِرَت المدينة عِمارة حسنة, لكنَّ سورها خرب, وبنى بها الملك المظفر محمود بن ناصر الدين محمد بن تقيّ الدين عمر بن شاهنشاه, حين كانت في يده, قلعة حسنة حصينة, ولكنها ما لبثت وأن صارت بين يدي أبي المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز بن الملك الظاهر؛ فزاد في عمارتها وتقويتها, فقويت قلوب أهلها بالقلعة, ورغبوا في عمارة البلاد وسكناه, وهي اليوم من أعمر البلاد, وقد صار أكثرُ عبور القوافل عليها"[2], "وفيها عدة مساجد وجوامع لبعضها شهرة, ومن مبانيها أيضاً خان جميل عرف بخان النعمان"[3], "ولها سبعة أبواب..وعلى ميل منها دير سمعان, وفيه قبر سيدنا عمر بن عبد العزيز ــ رضي الله عنه ــ ويُذكر أن قبر شيث بن آدم عليهما السلام عند الباب المنسوب إليه منها, وداخل المعرة قبر يوشع بن نون"[4].

ويقول ابن العديم نقلاً عن كتاب الشيخ أبي الفتح عبد العزيز بن الحسين بن علي بن زبيد المصري في المعرة؛ أنها واسعة الأسواق, كثيرة الأرفاق, صحيحة الأهواء, واسعة

---

([1]) المعري, أبو العلاء: اللزوميات, 44/1, ذو نجب: واد, النجباء: الكرام ذوو الأحساب واحدهم نجيب, نواعب: واحدها ناعب: الغراب, الأربى: الداهية, مسفة: مدنية, الأرباء: واحدهم الأريب: العاقل .

([2]) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص 587 وما بعدها .

([3]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص 102, نقلاً عن إسماعيل بك رأفت .

([4]) شرارة, عبد اللطيف: أبو العلاء المعري (دراسة ومختارات),ط1, بيروت, دار الكتاب العالمي, 1990م, ص 15, نقلاً عن محمد بن عبد المنعم الحميري في قاموسه الجغرافي (الروض المعطار في خير الأقطار) .

الفضاء, مياهها غزيرة, وفواكهها كثيرة, وأهلها يميلون إلى الخير والتعفف, ويعيشون بالقناعة والتعفف, وفيهم بعض الحمية, وشيء من العصبية, ولهم في هذا معرفة بالشر والخصومة, وعادة السعاية والنميمة[1].

وعن محمد بن أحمد بن الحسين يقول واصفاً معرة النعمان: "هي مقرّ الروح والريحان, بل زهرة العين والجنان, بل معدن البيان واللسان والرجحان في الأدب والشعر والإتقان, بل محل كل كريم وهجان, وهي مدينة تبلُّ غُلّة الظمآن"[2].

ولكن القفطي رأى أن أهلها كانوا بخلاء أيام أبي العلاء, وأنه كان يضيق بذلك لكثرة الوافدين عليه من الطلاب, وقلة ما كان يملك من النفقة عليهم[3].

وفي نهاية حديثنا عن معرة النعمان, كان لابدّ لنا من الحديث عن قبر المعري في تلك البلدة, ذلك القبر الذي أوصى المعري أن يكتب عليه هذا البيت.

**هذا جناهُ أبي عليَّ وما جنيتُ على أَحَدْ**[4] (مجزوء الكامل)

فقد كان يكرر هذا البيت كثيراً على مسامع تلاميذه, لكنَّ الأستاذ محمد سليم الجندي يقول خلافاً لما ذكر: "إن أحد أبناء المعرة الصادقين المحدثين كان يقول: لم أرَ هذا البيت على قبره, ولا أعرف أحداً ذكر أنه رآه عليه"[5].

ولعلنا نرى في قول الجندي قولاً مقبولاً, لعلمنا أن الجندي رجل شآميّ, وكان يقصد تلك البيوت الشآمية؛ فلا عجب من أنه صادف رجلاً صادقاً تقياً, واخبره بذلك النبأ, ولعل ما جاء به

---

([1]) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص 589-590 .

([2]) نفسه، ص 590 .

([3]) القفطي: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص37 , الذهبي: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص192.

([4]) نقلاً عن الحنبلي, ابن عماد: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص348, وقد ورد هذا البيت كثيراً ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري .

([5]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره, تعليق عبد الهادي هاشم, دمشق, مط المجمع العلمي العربي, 1962م, 443/1 .

القفطي خير دليل على ذلك, حينما سئل عن قبر المعري, فقال: "قصدت إلى قبره, فإذا هو في ساحة من دور أهله, وعلى الساحة باب؛ فدخلنا إليه, فإذا القبر لا احتفال لأهله به, ورأيت على القبر خبّازي وقد طلعت وجفّت, والموضع على غاية ما يكون من الشعث والإهمال"[1].

"وقبره موجود إلى اليوم بالمعرة, ولأهلها اعتقاد كبير فيه, ويزعمون أن الماء إذا بُيِّتَ في قارورة عند قبره, وشربه في الغد صبيّ به حبسة في لسانه, أو بلادة في ذهنه, زال ذلك ببركة أبي العلاء" [2].

**4- <u>شخصيته:</u>**

كان أبو العلاء نادرة وأعجوبة من نوادر وأعاجيب الزمن, لما منح من ذكاء متوقد, وحافظة عجيبة, وروح ساخرة, وثقافة واسعة, وشعور ملتهب, وعقل نفاد يغوص في أعماق الأعماق[3].

فكفّ البصر لم يمنعه من أن يهب نفسه للعلم, ورغبته الطامحة في الانطلاق إلى آفاق أوسع, جعلته ذا شخصية فذّة طموحة, قادرة على خلق المعجزات, مما جعله"يرحل إلى بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة للهجرة "[4], طالباً العلم وفنونه, ولكنّ مقامه في بغداد لم يدم طويلاً, إذ رجع إلى مسقط رأسه (المعرة), وقد غزا الألم والطبع السوداوي نفسيته وقلبه, إذ أصبح لا يرى بعدها في الوجود إلا الشر والسوء, والتشاؤم والحسرة, والألم والحزن لما أصاب بلاده وأهلها من انحراف وفساد, ولعل ما قاله لتلميذه التميمي عندما جاءه طالباً منه المجيء معه إلى والي مصر خير دليل على ذلك:

"رغّبتني به يا إسماعيل التميمي, وزيّنت لي لقاءه لو أني لم أكن في قيدين, وقيد واحد منها كافٍ: العمى والطبع, العمى يا تميمي مصيبة, إذا رافقه طبع سوداوي كطبعي, ما أنا أول

---

([1]) القفطي, ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري , ص 53 .

([2]) تيمور, أحمد: أبو العلاء المعري, ط2 , القاهرة, المكتبة الانجلو مصرية, 1970م, ص 9 .

([3]) الفاخوري, حنا: الجامع في تاريخ الأدب العربي, بيروت, دار الجليل, ص 842 .

([4]) القفطي, أبو الحسن: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص 28 .

أعمى, ولكني أول رجل من العميان في هذه الغريزة, آنف أن أقاد كالكبش, ولا أغتفر لنفسي ذلة وتقصيراً "[1].

وإن دل قوله على شيء؛ فإنما يدل على أنه رجل ذو طبع سوداوي, شديد التشاؤم, يرفض الإهانة والذل, لأنه عنيد جبار مكابر, إذ بلغت مكابرته أرقى مدى إذ رُئِيَ في شبابه الباكر "يلعب النرد والشطرنج, ويأخذ في فنون اللهو والجدّ كما يفعل أقرانه المبصرون" [2].

"هذا كله إلى جانب جسم نحيل, وقامة قصيرة, ووجه مجدور,وعصب مسعور"[3], "وحكى العباسي عن ابن غريب الإيادي أنه دخل مع عمه على أبي العلاء يزوره, فوجده قاعداً على سجادة لبد, وهو شيخ فانٍ, قال: فدعا لي ومسح على رأسي, قال: وكأني أنظر إليه الساعة, وإلى عينيه, إحداهما نادرة, والأخرى غائرة جداً, وهو مجدور الوجه نحيف الجسم"[4].

## 5- أخلاقه:

عُرف أبو العلاء برقة قلبه وشدة رحمته, وكثرة عطفه على الضعيف "ولو قرأت ما في اللزوميات من محاورات للديك والحمامة, ورثائه الشاه والنحل, وبكائه الناقة والفصيل؛ لقدّرت ما كان له من رقة القلب أحسن تقدير"[5].

ويذكر أنه حين اعتل أبو العلاء وصف له أحد الأطباء لحم الدجاج, إلا أنه امتنع عن تناوله, ولكنه بعد إلحاح شديد أظهر بعض الرضا, فلما قدم إليه لمسه بيده فجزع, وقال: "استضعفوك, فوصفوك, هَّلا وصفوا شبل الأسد؟"[6].

كما كان ــ رحمه الله ــ على عوزه وقلة حاله, بذولاً معطاءً لما عنده, غير مانع

---

([1]) نقلاً عن ابن خلكان, أبو العباس: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, تحقيق إحسان عباس, بيروت, دار الثقافة, 127/1-128.

([2]) الثعالبي, أبو منصور: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص4.

([3]) العقاد, عباس محمود: رجعة أبي العلاء , ط3 ,بيروت, دار الكتاب العربي, 1967م, ص 592.

([4]) العباسي, أبو الفتح: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص 335.

([5]) حسين, طه: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي(2)), ط1, بيروت, دار العلم للملايين, 1974م, 862/3.

([6]) نقلاً عن الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص 76 .

معروفاً عن مستحق, يتكلّف في ذلك قدر المستطاع, إذ بلغه مرّة أن شاعراً يلقب بصريع البيْن ضاقت به الحال, فمنحه قدراً من ماله وأتبعه بقصيدة يقول فيها [1]:

**قد اسْتَحْيَيْتُ منــك فلا تَكِلْني　　إلى شيءٍ سوى عُــذْرٍ جميل**
**وقد أنْفَــذْتُ مــا حَــقّي عليهِ　　قبيحُ الهجو أو شَتْـمُ الرَّسُولِ**
**وذاك, على انفرادِك قُوتُ يوم　　إذا أَنْفَقْـــت إنفــاقَ البخـيلِ**
**فإنْ يــكُ ما بعثْــتُ بهِ قليلاً,　　فلــي حــالٌ أقــلُّ من القــليلِ**[2] (الوافر)

إنَّ من يقرأ الأبيات السابقة يجد أن أبا العلاء مُسْتحٍ من "صريع البين" لأنه كان يتمنى أن يمنحه المزيد من المال, ولكن عسر الحال, وسوء وضعه المادي حال دون ذلك, وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على كرمه وسخائه اللامتناهي, وحبه لمساعدة الآخرين لسد رمقهم وجوعهم.

كما عرف بحيائه الشديد, بحيث اعتبر بعضهم هذا الحياء فطرة فُطر عليها. وكان شديد التواضع, قليل الاعتداد بنفسه, شديد الازدراء لها[3].

ومن أخلاقيات المعري أيضاً أنه لم يمدح الأمراء قط, وكان يكره المبــالغة والريــاء, وتزييف الحقائق[4], فقد كان عدوه وخصمه الكذب والنفاق, "فما من مؤلف أو مؤرخ استطاع أن يمسك عليه كذبة, على كثرة أعدائه وخصومه"[5].

وعُرِفَ بصبره وجَلَده, وكان جباراً, قادراً على تحمل مالا يحتمله البشر, يقول:

**أُجاهدُ بالظَّــهارةِ حينَ أشتو,　　وذاكَ جِهــادُ مثلي والرِّبَاطُ**
**مَضَى كانونُ ما استَعملتُ فيه　　حَميمَ الماءِ, فاقْدُمْ يا سُباطُ**[6] (الوافر)

---

([1]) تيمور, أحمد: أبو العلاء المعري, ص 78 .

([2]) المعري, أبو العلاء: شرح سقط الزند, شرح ن.رضا, بيروت, دار مكتبة الحياة, 1987م, ص 139 .

([3]) حسين, طه: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي(2)), ص862 .

([4]) اليظي, صالح: الفكر والفن في شعر أبي العلاء, الاسكندرية , دار المعارف , 1981م , ص 18 .

([5]) الرافعي, مصطفى: تاريخ آداب العرب , ص 520 و ما بعدها .

([6]) المعري, أبو العلاء: اللزوميات, 101/2, الظهارة: خلاف البطانة, الرباط: المرابط للجهاد, الماء الحميم: الماء السّاخن, سباط: لغة في شباط.

إنه يحتمل برد الشتاء القارس, ويقدر على الاغتسال بالماء البارد حين يقسو الشتاء, كما أنه "ارتدى خشن الثياب من القطن وافترش اللباد والحصر البردية وأكل العدس, والتين"[1] "وظل صائماً عن اللحوم والألبان"[2] على نحو ما نفهم من مثل قوله:

**يُقْنِعني بُلْسُنٌ يُمارَسُ لي,     فإنْ أَتَتنْي حَلاوةٌ , فَبَلَس**[3]   (المنسرح)

وقوله أيضا:

**أبَى اللهُ أخذي دَرَّ ضَأنٍ وماعزٍ,     وإدخاليَ الأمرَ المضرَّ على السَّخلِ**[4] (الطويل)

وإذا كان المعري يميل إلى الزهد والتقشف في الحياة؛ فلا بد أنه كان يمتنع عن الرذائل, ومن هذه الرذائل شرب الخمر, وللمعري أبيات لا حصر لها يؤكد فيها أنه كان يكره شرب الخمرة ويحذّر منها؛ فهي مفسدة للعقل والنفس, يقول:

**وهيهات َ,لو حلّتْ لما كنتُ شارباً     مُخَفِّفةً,في الحِلمِ, كِفّةَ ميزانِي**[5] (الطويل)

وقوله محذّراً من عواقبها السيئة على شاربها :

**أخو الرّاحِ إنْ قال قولاً و جَ     دْتَ أحسنَ ممّا يقولُ , الصُّموتا**
**ويشرَبُ منها إلى أن يقــيءَ     ولا غَروَ إنْ قُلتَ: حتى يموتا**[6] (المتقارب)

وقوله:

**قُلّ للمُدامةِ, وهيَ ضدٌّ للنُّهى   تَنْضو لها أبداً سيوفَ محاربِ** [7] (الكامل)

حقاً إن المعري كان على درجة من الخُلُق الرفيع المتميز.

---

(1) العباسي, أبو الفتح : ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء , ص 341 .
(2) ابن حجر, أبو الفضل: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص315 .
(3) المعري , أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,70/2 , بُلْسن: عدس, بلس: تين.
(4) نفسه, 317/2 .
(5) نفسه, 540/2 .
(6) نفسه, 218/1 .
(7) نفسه, 173/1 , النهى: العقول لأنها تنهى عن القبيح, تنضو: تستل.

## 6- ثقافته وسعة ذكائه:

أقبل أبو العلاء على العلم, يغترف منه في بيئة سخية بأسباب المعرفة والفكر, فذكاؤه واجتهاده جعلاه ينهل العلم من حلب وطرابلس الشام واللاذقية وأنطاكية, إذ أخذ يطّلع على خزائن البلاد الشامية بكل ما فيها من علم وفكر, ويعمل على حفظها, وذكر أن العلويّ خازن مكتبة أنطاقيه, كان يحفّظ أبا العلاء عدة كتب في أيام قلائل لماله من سعة الحفظ والذكاء العجيبين[1].

لم يقنع المعري في نهله العلوم من الشام، بل راح ينهلها من بغداد؛ حيث وجد فيها ما كان يحلم به؛ قال: "وجدت العلم ببغداذَ أكثر من الحَصَى عند جَمْرَةِ العَقَبَة."[2]إذ كان معجباً ببغداد كل الإعجاب لأنه تمكَّنَ فيها من التوسّع والتبحر في العلوم العربية, والنحو والحديث, وهذا ما جعله ينتصب للتدريس والعطاء الأدبي, فبرز نجمه وصار قبلة لكلّ طالب علم, وهذا ليس بكثير على صاحب الذكاء النادر, والحافظة الغريبة, والقادر على الخوض في كل قول, والمتقِن لفني النظم والنثر, إلا " أن بقاءه في بغداد لم يدم طويلاً, وذلك لخلافٍ وقع بينه, وبين الشريف الرضيّ"[3].

كان واسع الثقافات, يعرف الديانات والمعتقدات, كما يعرف الفلسفة والتنجيم والتاريخ والتصوّف, وما يُطوى في ذلك من ثقافات يونانية وفارسية وهندية, وعُني عناية خاصة بالثقافة العربية [4].

وكان السابقون يلاحظون مهارته في هذا الجانب, يقول ابن العديم: " ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة, ولم يعرفها المعري[5], فكانوا يقرنونه إلى ابن سيدة اللغوي المعروف, ويقولون: "كان بالمشرق لغوي, وبالمغرب لغوي في عصر واحد, لم يكن لهما ثالث, وهما أبو

---

([1]) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء , ص 554 .
([2]) المعري, أبو العلاء: رسائل أبي العلاء المعري, شرح شاهين عطية, بيروت, دار القاموس الحديث, ص 74 .
([3]) الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بابي العلاء , ص 76 .
([4]) الإسكندري, محمد: المفصل في تاريخ الأدب العربي , القاهرة , مكتبة الآداب , 579/3 .
([5]) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء , ص 569 .

العلاء وابن سيدة"[1].

كان المعرّي متقفاً ثقافة لغوية واسعة, ويضيف إليها هذا الخليط المضطرب من ثقافاته المتنوعة, وخاصة ما اتصل بالثقافة الفنية من الشعر, إذ كان يُعنى عناية شديدة بجمع الأفكار والصور القديمة, وحشدها في أشعاره وكتاباته[2]على نحو ما سنرى في لزومياته لاحقاً.

أما سعة ذكائه؛ فلم يتفق مؤرخوه ــ بعد اتفاقهم على اسمه ــ على شيء كما اتفقوا على فرط ذكائه وحدة ذهنه, وقوة حافظته, وسعة اطلاعه؛ ففي صباه حفظ عدة كتب في أيام قلائل, "ونظم الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة"[3], "وفي هذه السّن اختير لمناظرة شعرية جرت بينه وبين جمع من أدباء حلب" [4].

ولقد ذُكر من نادرة فطنته, وسرعة بديهته, ما يكاد يدخل في عداد العجائب والمستحيلات, يقول العباسي:"وللناس حكايات يضعونها في عجائب ذكائه, وهي مشهورة وغالبها مستحيل [5].

روى ابن العديم عن ذكائه فقال: "وسمعت والدي أبو الحسن أحمد ابن هبة الله بن أبي جرادة يقول, فيما يأثره عن أسلافه, قال: كان أبو العلاء على غاية من الذكاء والحفظ. وقيل له: بم بلغت هذه الرتبة في العلم؟ فقال: ما سمعت شيئاً إلا وحفظته, وما حفظت شيئاً فنسيته"[6].

ويقال إن سَمّاناً حاسب عميلاً له برقاع كان يثبت فيها كل ما يأخذه منه عند حاجته, وكان أبو العلاء في غرفة يسمع محاسبتهما, وبعد مدة من الزمن ضاعت الرقاع من السمان, فأخذ يتململ ويتأذّى, وبلغ أبا العلاء خبره, فقال له: بأنه سيملي عليه حسابه, فأخذ السمان يكتب ما قاله المعري, ثم بعد فترة من الزمن وجد السمان رقاعه, فإذا هي مطابقة لما أملاه عليه

---

([1]) الشكعة, مصطفى: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية, ط3, الدار المصرية اللبنانية, 1993م, ص 378 .
([2]) نفسه, ص378.
([3]) الحموي , ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص68 .
([4]) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص558 وما بعدها .
([5]) العباسي, أبو الفتح: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص337 .
([6]) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص 551 .

أبو العلاء[1].

وقيل: "إنه مر ّمع راكبه بشجرة في طريقه إلى بغداد, فقال له من يقوده: "طأطىء رأسك". ففعل, وبعد مرور عام وبعض العام, عاد المعري إلى نفس المكان, فطأطأ رأسه من تلقاء نفسه, فسألوه عن سبب طأطأته, فأجاب دالاً على وجود شجرة في هذا الطريق, ولكنهم لم يجدوا هذه الشجرة, ولكن بعد الفحص والتنقيب, وجدوا أن هذه الشجرة كانت موجودة سابقاً ولكنها قطعت فيما بعد"[2], وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على رهافة حسه وشدة ذكائه وسرعة فهمه.

وقد ذكر القفطي " أنه كان لأبي العلاء سرداب, إذا أراد الأكل, نزل إليه, وذكر أنه نزل ذات يوم, وأكل شيئاً من الدبس, وإذ بنقطة منه تسيل على صدره, فلما جلس للإقراء لمحه أحد الطلبة, وسأله عن ذلك, فأسرع إلى مسح صدره, مجيباً: لعن الله النهم, فاستُحسن منه فهمه بما على صدره من أثر للدبس"[3].

وهناك حكاية ذكرها بعض مؤرخيه, خلاصتها أن أهل حلب سمعوا بفطنة المعري وذكائه, فسافر جماعة من أكابر المعرة ليمتحنوا ذلك الغلام الموصوف بالتوقد والتوهج, فقال لهم: هل لكم في المقافاة والشعر؟ فجعل كل واحد منهم ينشد بيتاً, فينشد أبو العلاء الصبي من حفظه بيتاً على قافيته حتى نَفَدَ حفظهم, فقال: أعجزتم أن يعمل الواحد منكم بيتاً عند الحاجة إليه, وعلى القافية التي يريد؟ قالوا: فافعل أنت ذلك, فجعل كلما أنشد واحد منهم بيتاً أجابه من نظمه على قافية البيت, حتى قطعهم جميعاً[4].

وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على قوة حافظته, وشدة فطنته وذكائه, وسعة حفظه وإلمامه بأشعار غيره من الشعراء.

---

([1]) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص553 وما بعدها .

([2]) نفسه, ص559 .

([3]) القفطي: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص558 وما بعدها .

([4]) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص 558 وما بعدها.

ومن نوادر ذكائه أيضاً, ما ذكره أبو البكر التبريزي ,تلميذ أبي العلاء حيث ذكر أنه كان قد انقطع عن وطنه بضع سنين, وإذا به يفاجأ بأحد جيرانه من أهل وطنه يدخل المسجد للصلاة, فأستأذن من أستاذه, لرؤية قريبه, ولما أذن له أخذا يتكلمان, وجرى بينهما حديث طويل باللغة الآذرية حتى إذا انتهيا من الحديث, عاد إلى أستاذه, فسأله عن اللسان الذي تفاهما به, فقال له: إنها لغة أذربيجان, فقال له المعري, ما عرفت اللسان ولا فهمته, ولكني حفظت ما قلتما, ثم أعاد عليه الحديث كله من غير أن ينقص منه شيئاً[1].

وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على أنه كان شعلة في الذكاء, ومنارةً في ذاكرته المدهشة التي تُروى عنها النوادر, وأعجوبة زمانه, لم يُسمع بمثلها قطّ, فلم يقعده كف البصر عن مشاركته المبصرين لعبهم, يقول الحموي: "لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب, رأيت شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج و النرد, ويدخل في كل فن من الجد و الهزل يكنى أبا العلاء"[2].

7-**<u>شاعريته:</u>**

مَرَّ أبو العلاء في شعره بطورين الأول؛ ويمثله شعر "سقط الزند", حيث بدأ منذ حداثته أو شبابه الأول, بنظم الشعر, وينتهي هذا الطور بعودته من بغداد التي أقام فيها أقل من سنتين عام (400هـ), حيث بلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً وحينذاك قال: إن شبيبته قد انقضت وإنه عازم على العزلة في رسالته التي بعث بها إلى أهله وأصحابه في معرة النعمان قبيل مغادرته مدينة بغداد[3].

ولم يكن شعر أبي العلاء في هذا الطور مختلفاً في شكله ومضامينه عن غيره من دواوين الشعر العربي عامة, وقد صرَّح المعري فيه بمحاكاته الشعراء القدامى في أساليبهم خلال هذا الطور من حياته[4].

---

([1]) نقلاً عن الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص80 .

([2]) نفسه, ص79 .

([3]) المعري, أبو العلاء: رسائل أبي العلاء المعري , ص 81 وما بعدها .

([4]) التبريزي وزملاؤه: شروح سقط الزند, تحقيق مصطفى السقا وآخرين, إشراف د. طه حسين,د.م, الدار القومية للطباعة والنشر, 1964م, 10/1 .

وأما **الطور الثاني**؛ فيمثله ديوان "اللزوميات", وهو طور العزلة والنضج, ويعكس نظام حياته القاسي على شعره, ويوسمه بهذا الطابع الملتزم؛ فالتزم (مالا يلزم) في أمور حياته, كما سنرى لاحقاً.

وينفرد هذا الديوان بمزيتين؛ خلوه من أبواب الشعر المطروقة ( المديح والرثاء والفخر وما إليها) من جهة, وانصراف ناظمه إلى نقد الحياة, وقد نظمه بعد رجوعه من بغداد, ولزومه المعرة من جهة أخرى, كما أنه يمثل نضج شاعريته,ونظراته الفلسفية في الكون والعمران[1], وبما أن لزومياته ديوان في الفكر والفلسفة والعظة والتأمل, فمن الطبيعي أن لا نعثر على أي غرض شعري فيها, وبالتالي سينصبّ الحديث كله على الأغراض الشعرية في ديوانه "سقط الزند" وهو الطور الأول الذي تنوعت فيه الأغراض الشعرية, ومن هذه الأغراض الشعرية:

أ- **المديح:** حازت قصائد المديح على القسط الأكبر من الديوان, وقد قسّم الدكتور طه حسين هذه المدائح قسمين: الأول وكان عبارة عن قصائد شعرية, قُصِدَ بها شخص خيالي أو موجود, لم يُرد بنظمها التكسّب أو النيل، فقد ذكر في مقدمة كتابه أنه لم يتكسب بشعره قطّ, وأما القسم الثاني فهو عبارة عن مجموعة قصائد لم ينظمها إلا ليجيب بها شاعراً مدحه, أو صديقاً كتب إليه وهذا من قبيل الإخوانيات, وبين هذين النوعين من المدح فرق ظاهر, ذلك أن النوع الأول تكثر فيه المبالغات, يلحظ فيها أثر الخيال, لأن الشاعر هنا هو شخص مخترع لا يريد بنظمه إلا إتقان الصناعة الفنية, فهو لا يخشى أن يلقاه ممدوحه بنقد أو إنكار, بخلاف النوع الثاني الذي تقلّ فيه المبالغة قلّة ظاهرة, وربما خلت منها القصيدة خلواً تاماً[2], من مثل قوله:

**والكِبــْرُ والحمــدُ ضــدّانِ اتفاقُهُمَا     مثــلُ اتّفَــاقِ فتــاءِ السّن والكِبَرِ**

**يُجنـــى تزايــُدُ هــذا من تنـــاقُصِ ذا     والليلُ إنْ طَالَ غالَ اليومَ بالقِصَرِ**[3] (البسيط)

ب_ **الفخر**: يقول الدكتور طه حسين إن "سقط الزند" ليس فيه من الفخر الشيء الكبير,

---

([1]) المقدسي, أنيس: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي, ط5, بيروت, دار العلم للملايين, 1961م, ص406 .

([2]) حسين, طه : تجديد ذكرى أبي العلاء , ص 190 وما بعدها .

([3]) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص21, فتاء: الفتوة والصِّغَر الكبر: الاسم من التكبر وهو العظمة والخيلاء (أو هو الإثم الكبير ) .

وإنما هي قصائد قليلة أنبلها اثنتان؛ أوّلهما الهمزية التي مطلعها:

**ورائي أمامٌ والأمام وَرَاءُ   إذا أنا لم تُكْبِرْنيَ الكُبَراء**[1]   (الطويل)

وثانيهما اللامية التي مطلعها[2].

**ألا في سبيل المجدِ ما أنا فاعلُ   عَفَافٌ وإقْدامٌ وحَزْمٌ و نَائِلُ**[3]   (الطويل)

**نَائِلُ**[3]

فالشاعر يفخر بنفسه بما كان عليه من شجاعة وكرم وذكاء, وأما فخره بعائلته الكريمة فكثير, لأنه متباهٍ بها, فتحتَ علمها ولوائها تسير القوافي وهم جديرون بها, على نحو ما يفهم من قوله:

**بـــأيّ لســـانٍ ذامنـــي متـــجاهلٌ   عليّ, وخفقُ الريـــح فيّ ثناءُ**
**تكـــلّمَ بالقـــول المضـــلّل حـــاسدٌ   وكلُّ كـــلامِ الحاســـدين هُراءُ**
**أتمشي القوافي تحـــتَ غَيرِ لوائنَا   ونحنُ علـــى قُوَّالِـــهَا أُمراءُ؟**
**ولا سَارَ في عرض السّماوة بارِقٌ   وليس لَه مُـــن قومنا خُفَراءُ !**[4]   (الطويل)

ولعل البيت الأخير يشير إلى مدى تفاخره بقومه القضاة, وأنهم الحاكمون في كل مكان, لأنه كان يرى أن قومه في حياتهم يضفون على الأرض الجمال والبهجة, وبعد مماتهم يضفون ذلك الجمال الساحر على الكتب بسيرهم الحميدة, وأدبهم الخالد الذي تركوه, لأنهم عرب أصلاء كانت بيوتهم الخيام, وسيبقون كذلك, ولن ينزلوا المدينة حيث يفقد العزّ, على نحو ما نرى في قوله:

**جمالُ ذي الأرض كانوا في الحَيَاةِ وهُمْ   بعدَ المماتِ, جَمالُ الكُتْبِ والسِّـــيَرِ,**
**المـــوقـــدونَ بنـــجدٍ نـــارَ بـــاديـــةٍ   لا يَحْضُرُونَ وفقدُ العزِّ في الحَضَرِ**[5]   (البسيط)

---

([1]) المعري،أبو العلاء : شرح سقط الزند ، ص258 .
([2]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء , ص192 .
([3]) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص56.
([4])نفسه ، ص258 , ذام: ذمَّ، السّماوة: بادية في العراق عُرف أهلها بالفصاحة والبلاغة، وعلى رأسهم المتنبي الشاعر.
([5]) نفسه, ص18 .

ولكن هل يعقل أن أبا العلاء نسي نفسه في الفخر, وهو الذي ملأت شهرته الآفاق, وأتاه الناس من كل صوب و حدب ؟!, ولعل خير دليل على فخره بنفسه, قوله :

**وإنّي وإنْ كُنْتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تَسْتَطِعْهُ الأوائلُ**[1] **(الطويل)**

فهو بذلك يجعل من نفسه الرجل الأول الذي يشير إليه الجميع ببنانهم , لما سيأتي به مما لم يسبقه إليه أحد.

وقد كان له ذلك, وصار حديثه على كلّ لسان, رغم محاولة بعض الحسّاد التقليل من قيمته وتقزيم شهرته, من مثل قوله:

**وقد سارَ ذكْري في البلادِ فَمَنْ لهم بإخفـاءِ شمسٍ ضَوْؤها مُتَكاملُ؟**
**يُهمُّ الليـالي بعـضُ ما أنا مُضْمرٌ ويُثْقِلُ رَضْوَى دون ما أنا حاملُ**
**وأغدو, ولو أنَّ الصَّبـاحَ صوارمُ, وأَسْرِي ولو أنَّ الظلامَ جَحَافلُ**

... إلى أن يقول :

**ينافسُ يومي فِيَّ أمسـي تَشَرُّفا وتحسدُ أسحاريَّ عليْ الأصائلُ**[2] (الطويل)

ومهما فخر أبو العلاء بنفسه, فإنه لم يكن يتجاوز الحد الأعظم في الحديث عن نفسه مقارنة بغيره من الشعراء, والسبب في ذلك يعود إلى أن "طبيعة أبي العلاء لم تكن بطبيعة الرجل الفخور"[3], فحياؤه من أقوى الأخلاق سلطاناً على نفسه, ولعل خير دليل على ذلك, ما قاله الأستاذ سمير الصارم في تواضع المعري: "مهما قرأت شعراً لأبي العلاء في الفخر والمدح القليل, فإننا نجزم أن الآخرين سبقوه بهذا الباب, ولم يقل أكثر مما قاله معاصروه في نفسه, ويشهد الجميع بتواضعه. وعدم ميله إلى التفاخر, ومدح الآخرين"[4].

---

(1) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص56.

(2)نفسه ، ص56 وما بعدها, رضوى: جبل بالمدينة, أسحار: ج سحر وهو وقت إقبال النهار, الأصائل: ج أصيل وهو العشي: أي ما بعد العصر إلى المغرب .

(3) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص 192 .

(4) الصارم, سمير: أبو العلاء المعري (حياته و شعره) , دمشق , دار كرم , ص 44 .

ج- **الرثاء:** إنَّ حياة أبي العلاء المملوءة بالهموم والأحزان, وفلسفته المفعمة بالسّخط على الوجود وما فيه, تعدّانه للنبوغ في الرثاء, "ولكن ليس في "سقط الزند" من المراثي إلا قصائد سبع, رثى المعري أمّه فيها باثنتين, وبكى على أبيه بواحدة, ونعى أبا الشريفين بواحدة أخرى, واستعبر على أبي حمزة الفقيه بالخامسة, وابن جعفر بن علي بن المهذب بالسادسة, وذكر بالسابعة أبا إبراهيم العلوي"[1], وحين توفي والده رثاه رثاءً حاراً, وفي ذلك يقول:

**فليتَكَ فــي جَفْنيَّ مواريً نزاهةً　　بتلك السَّجايا عن حشايَ وعن ضِبْني**
**ولو حَفَروا في دُرَّةٍ ما رَضِيْتُها　　لجسمِكَ إبقاءً عـــليه مــن الدَّفْنِ**[2] (الطويل)

إن أبا العلاء في بيتيه السابقين لا يستعذب الدفن لوالده حتى ولو كان في الدرّة, متمنياً لو أنه استطاع مواراته في جفنه.

ولما رجع المعري من بغداد في أثناء رحلته العلمية لم يرَ والدته؛ فقد أخبروه أنها رحلت هي الأخرى, وتركت العالم, فبدأ إحساسه العميق بالألم والحزن يبزغ, حتى قال في رثاء أمه العظيمة:

**فيا رَكْبَ المنـــون أما رَسُولٌ　　يُبَلِّـــغُ رُوحَـــها أَرَجَ السَّلامِ**
**ذكيّاً يَصْحَـــبُ الكـــافورُ منهُ　　بمثْلِ المِسْكِ مفضوضَ الخِتام**
**سألتُ:متى اللقاءُ فقيل؟ حتّى　　يقومَ الهـــــامدونَ من الرّجامِ**
**فليت أُذَيْن يـــومَ الحشرِ نادى　　فَأجْهَشَتْ الرِّمـــام إلى الرِّمامِ**[3] (الوافر)

أما مرثيته الشهيرة في الفقيه أبي حمزة التنوخي, فهي واحدة من أفضل المرثيات على الإطلاق, على نحو ما نرى في مطلعها :

**غيرُ مجدٍ في مِلّتي واعتقادي　　نَوحُ باكٍ ولا ترنَّمُ شادِ**[4] (الخفيف)

ويعتقد الدكتور طه حسين "أن العرب لم ينظموا في جاهليتهم وإسلامهم, ولا في بداوتهم

---

(1) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص 198 (نقلاً عن الميمني في كتابه (أبو العلاء وما إليه ), ص 67).
(2) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص106, الضبن: الإبط وما يليها, أو بين الكشح والإبط وما تحتهما, أو أو ما بين الخاصرة ورأس الورك .
(3) نفسه, ص 166 وما بعدها, الرجام: جمع الرجمة وهي القبر, أذين: المؤذن, أجهش إليه: فزع و قد تهيأ للبكاء.
(4) نفسه, ص 111 .

وحضارتهم قصيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حسن الرثاء"[1].

إننا نتفق مع الدكتور طه في أن أبا العلاء انفرد في مرثيته تلك من حيث الجودة واللفظ والتصوير, ولعل ذلك يتبين واضحاً عند قراءة مرثيته كاملة.

أما قصيدته في رثاء جعفر بن علي بن المهذّب, فقد غلبت عليها الحكمة, فبدت وكأنها نظمت في فلسفة الموت؛ إذ يصلح كل بيت منها لأن يكون مثلاً سائراً, وحكمة جارية على الألسنة[2], كقوله:

**أحْسَنُ بالواجد مِنْ وَجْدِهِ　　صبرٌ يعيدُ النارَ في زَنْدِه** [3] (السريع)

فإتقان المعري فن الرثاء يكاد ينحصر في هاتين القصيدتين, وقد بزّ بهما شعراء الرثاء جميعاً في الجاهلية والإسلام, لما احتواه مضمونهما من فلسفة وحكمة, ووعظ ليس على الصعيد الفردي, وإنما على صعيد الإنسانية عامة.

د_ **الغزل:** لا نعلم من أخبار المعري ما ينمّ عن حبّه لامرأة, ولكن ما نعلمه حقاً هو بضع قصائد غزلية رقيقة تنمّ عن مدى إحساسه الطاهر إزاء امرأة ما, على نحو ما نرى في قوله:

**أيا جارة البيت المُمَنَّعِ جــارُه,　　غدوتُ ومَنْ لي عندكم بِمقَيلِ**
**لغيري زكاةٌ من جِمَالٍ فإنْ تكُنْ　　زكاةُ جَمالٍ فاذكري ابنَ سبيلِ**
**وأرْسَلتِ طيفاً خَانَ لــما بَعَثْتِهِ　　فلا تَثِقــي من بَعْدِهِ بِرَسُــولِ**[4] (الطويل)

فالأبيات السابقة تشير إلى معاناة أبي العلاء المعري إزاء عواطفه الجياشة تجاه امرأة ما, ففاضت أشواقه تنفيساً عما يكابد من ظمأ وحرمان.

أما الدكتور طه حسين فيرى أن المعري نظم مقطوعاته الغزلية نظماً فنياً, لا مدخل للقلب فيه ولا سبيل للوجدان عليه, وكانت حجته في ذلك أن المعري "كان ضريراً مفجعاً قد ملكه

---

([1]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص199 .
([2]) نفسه, ص201 .
([3]) المعري, أبو العلاء: شرح سقط الزند , ص 116 .
([4]) نفسه, ص123, المقيل: الاستراحة نصف النهار.

الزهد وحالت فلسفته بينه وبين لذات الحياة؛ فلم يرقص قلبه لموعد وصال, ولم يُجب لوشك ارتحال, ولم يسمع من أحاديث الغيد الحسان"(1).

ولعلنا لا نتفق والدكتور طه حسيين في هذا الموضوع, لأن المعري ليس بالذي يزيف وجدانه, أو يقول ما لا يشعر, وإن ما قاله إنما تعبير عن معاناة صادقة لحرمان قاسٍ, فهو لم يكذبنا القول, بل كشف عن وطأة إحساسه العنيف باللهفة والحنين إلى ما لا يدرك ولا ينال, لأن نهج حياته التي أراد, بعيدة كل البعد عن إدراك هذا الزيف والكذب.

**هـ_ الوصف:** يقول الدكتور طه حسين: "إن ضريراً كأبي العلاء ليس له في إجادة الوصف الشعري لشيء من الأشياء المبصرة, لأنها تقتضي أن يحدق الشاعر فيما يريد أن يصفه تحديقاً يظهره على دقائقه وتفصيلها, ثم يرسمها في نفسه رسماً يمس عواطفه وخياله حتى ينطلق لسانه بوصف هذا الشيء نقلاً عما تركت صورته في خياله وقلبه من الشكل المفصّل والتأثير الشديد؛ فليس له من ذلك كله سبيل, ولكن إذا كانت له إجادة في الوصف, فإنما هي في وصف الأشياء المعنوية, كاللذة الألم والحزن والفرح , وكألوان القول وفنون الكلام"(2).

وإذا ما تعرض أبو العلاء لوصف المبصرات, فقد حرص كل الحرص على تقليد الناس فيما قالوه؛ فأبو العلاء مثلاً إذا وصف النجوم, فلا يجاوز وصف القدماء في ذلك, و لكنَّ أثر الأساطير في هذا الوصف شديد, ذلك لأنه يحس من نفسه القصور, ليبلغ نهج المبصرين في هذا الفن؛ فيحتال في أن يعوض شعره عن هذا القصور, بما يزيّن لفظه ويجمّل معناه(3),على نحو ما نرى في قوله:

| | |
|---|---|
| **علّـلاني فإنَّ بيْـضَ الأمـانـي** | **فَنِيَـتْ والظـلامُ ليس بفَـانِ** |
| **إنْ تنـاسيْتُـما وِدادَ أُنـاسٍ** | **فاجعلانِي مِـنْ بعضِ ما تَذْكُرانِ** |
| **رُبَّ ليلٍ كأنه الصّبحُ في الحُسْـ** | **نِ وإنْ كـانَ أَسْـوَدَ الطّيْلَسَانِ** |

(1) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص 201 .

(2) نفسه , ص 193 .

(3)نفسه, ص193 وما بعدها .

**قد رَكَضْـَنا فيـــهِ إلـــى اللهو لما       وَقَــفَ النجــمُ وقفــةَ الحيرانِ**[1]         (الطويل)

ففي البيت الأول والثالث وصف المعري الأماني بالبياض, والطيلسان بالسواد, لا لأنه يعقل هذين اللونين, فهو لا يعقل من الألوان إلا الأحمر, بل لأنه رأى الناس يصفون الجميل بالبياض ويستبشرون به, كما يصفون الظلام بالسواد لأنه باقٍ لبقاء الليل, ولعل بقاء الظلام الداكن دليل على يأسه وقنوطه من المستقبل, ولعل زوال الأماني دليل على أسفه لما فات من الماضي.

## 8_ **آثاره الأدبية:**

تتبع الذهبي وغيره آثار أبي العلاء المعري وما قدمه خلال عمره الطويل وإبان عزلته, نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

كتاب " الفصول والغايات", وهو موضوع على حروف المعجم, ومقداره مائة كراسة, وكتاب "إقليد الغايات" في اللغة, ومقداره عشر كراريس, وكتاب "خطبة الفصيح" نحو خمس عشرة كراسة, وكتاب "لزوم ما لا يلزم" نحو مائة وعشرين كراسة وكان آخرها, وكتاب "زجر النابح" بنحو أربعين كراسة, وكتاب "راحة اللزوم" في شرح كتاب لزوم ما لا يلزم, نحو مائة كراسة, وكتاب "سقط الزند" وفيه أكثر من ثلاثة آلاف بيت, نظم في أول العمر, وكتاب "رسالة الصاهل والشاهج" يتكلم فيه على لسان فرس وبغل ومقداره أربعون كراسة, وكتاب في الزهد يُعرف بكتاب "استغفر واستغفري" منظوم فيه نحو عشرة آلاف بيت, وكتاب " الأمالي" نحو مائة كراسة[2]، وقد أحصى القفطي في كتابه، "إنباه الرواة" أكثر من 55 مؤلفاً  أو مصنفاً له.

ويقول القفطي في آثاره: "إن أكثر كتب أبي العلاء هذه عُدمتْ, وإنما يوجد منها ما خرج عن المعرة قبل هجم الكفار عليها, وقَتْل مَنْ قُتِلَ من أهلها ونهب ما وُجِدَ لهم"[3]، وقد ذكر من مؤرخيه أسماء ثلاثة وستين كتاباً فقط[4]، أما المطبوع المتداول فلا يتجاوز ثمانية كتب ليس

---

([1]) المعري, أبو العلاء: شرح سقط الزند , ص 45.

([2]) الذهبي, أبو عبد الله وغيره:  ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص201-204.

([3]) القفطي: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص49.

([4]) ابن العديم، ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري، ص527 وما بعدها.

بعضها تاماً كاللزوميات والفصول والغايات.

## 9_ وفاته:

طال العمر بأبي العلاء, وتحمل أثقال الشيخوخة المريرة, فسقطت أسنانه, وانحنى ظهره وضعف جسده, وتخاذلت أعضاؤه, فما عاد يستطيع الوقوف إلا بمساعدة غيره, وعجز عن القيام للصلاة وأخذ يصليها قاعداً[1], "وكان مرضه ثلاثةَ أيام, ومات في اليوم الرابع, ولم يكن عنده غير بني عمه, فقال لهم في اليوم الثالث: اكتبوا عني, فتناولوا الدُّويّ والأقلام, فأملى عليهم غير الصواب. فقال القاضي أبو محمد عبد الله التنوخي: أحسن الله عزاءكم في الشيخ؛ فإنه ميت! فمات ثاني يوم". [2].

مات المعري يوم الجمعة ربيع سنة (449هـ) في غداة غد, ودفن في المعرة في ساحة دار صغيرة, وأوصى أن يكتب على قبره:

**هذا جَنَاهُ أبي عليَّ وما جنيتُ على أحدْ**[3] (مجزوء الكامل)

وقام بتشييع جثمانه إلى مثواه الأخير أعداد لا تحصى من الجماهير, إذ أضجعوه في لحده "معرة النعمان", ووقف على قبره ثمانون شاعراً يرثونه وقد كان بعضهم عدواً له في حياته, ولمدة سبعة أيام, أقام مقرئو المعرة على قبره يتلون القرآن حتى أتموا مائة ختمة, ثم انفض المأتم[4],ومما قيل في حفل وداعه ما قاله تلميذه علي بن همام:

**إنْ كُنْتَ لــم تُرِقِ الدِّماءَ زَهَادةً فلقد أرقْتَ اليومَ من عيني دَمَا**
**سيّرتَ ذكرك في البــلادِ كــأنّه مِسْكٌ فسامِعَهُ يُضَمِّــخُ أو فَما**
**وأرى الحجيجَ إذا أرادوا ليــلةً ذكراك أوجَبَ فِدْيةً مَنْ أَحْرَمَا**[5] (الكامل)

ولم يكن مثل هذا الاحتفال غريباً على الذي لقب بأعجوبة الزمان, ونادرة زمانه, فكأن

---

([1]) الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بابي العلاء, ص131.
([2]) نقلاً عن ابن خلكان, أبو العباس: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص184.
([3]) نقلاً عن ابن الجوزي, سبط: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص156.
([4]) الذهبي, أبو عبد الله: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص200.
([5]) نقلاً عن العباسي: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص 338 .

الموت استجاب له بعد تأخر, طالما ناجاه وفكر فيه منادياً إياه, كقوله:

**فيا موتُ زُرْ, إنَّ الحياةَ ذميمةٌ　　　ويا نفسُ جِدّي, إنَّ دهركِ هازلُ**[1] (الطويل)

وهكذا مات شاعر المعرة, بعد قضاء حياته كلها مقطوع النسل, مجتث الفرع, ثابت النفس, راجح الحلم, مصيب الفكر, قوي العقل, صادق الذوق, رفيع المستوى[2].

---

([1]) المعري, أبو العلاء: شرح سقط الزند, ص58 .

([2]) حسين, طه: أبو العلاء المعري ,ط1, بيروت, دار الكتاب العربي, 1974م, 142/10 وما بعدها.

# الفصل الثانـي

**صدى آفة العمى على أبي العلاء المعري, ويشتمل على:**

**المبحث الأول: صدى آفة العمى على نفسيّة أبي العلاء المعري.**

**المبحث الثاني: صدى آفة العمى على شعر أبي العلاء المعري.**

## المبحث الأول: صدى آفة العمى على نفسية أبي العلاء المعري, ويشتمل على:

أ_ صدى العاهة على شخصيةِ المعري من الوجهة النفسية.

ب_ البيئـــة و أثرها على المعري من الوجهـــة النفسية.

جــ _ الأنماط السلوكية عند المعري من الوجهة النفسية.

**أ_ صدى العاهة على شخصية المعري من الوجهة النفسية:**

ولأن الشخصية تتأثر في تكوينها, وفي تطورها بمجموعة من العوامل الفيزيولوجية والاجتماعية؛ فإنه لا بد من الكشف عن هذه العوامل وبيان تأثيرها على الشخصية, لأن الشخصية تتأثر بنشاط الأعضاء وكمالها ودقتها وبقيامها بوظائفها بطريقة أو بأخرى, إذ تبين من خلال الملاحظة اليومية أن الظروف البيولوجية, لها تأثير على الشخصية وعلى السلوك الإنساني[1].

فالكفيف يعاني عجزاً خَلقياً, ألا وهو فقدان البصر, فإذا كنا قد سلمنا بأن العوامل الجسمية تنعكس على سلوك الفرد, فإنه لابد أن نؤكد هنا بأن عجز الكفيف عن الرؤية ينشأ عنه اختلاف في أنماط سلوكه, و عجزه عن الرؤية يجعله في مجال الإدراك أقل حظاً من المبصر؛ فيكون عالمه بسبب ذلك عالماً ضيقاً محدوداً لنقص خبراته في العالم الذي يعيش فيه, كما يجعله في مجال الحركة حذراً و يقظاً حتى لا يصطدم بعقبات أو يقع على الأرض نتيجة تعثره بشيء ما أمامه[2].

كما تسهم الجماعة ــ قليلاً أو كثيراً ــ في تثبيت شعوره بالعجز الذي يفرض عليه عالماً محدداً, ولكنه يرغب في الخروج من عالمه الضيق, للاندماج في عالم المبصرين الذي يخشاه, فتكون النتيجة معاناته لقلق مستمر, فيحيا تحت تأثير هذا القلق حياة تفرض عليه أن يعيش في صراع بين عالم المبصرين, وعالمه الخاص المحدود, لهذا يلجا إلى أنواع من الحيل المساعدة في هروبه من هذا الواقع, فإما أن يسلك سلوكا تعويضياً متحدياً عجزه, محاولاً الاندماج في عالم المبصرين بقدر ما يستطيع, أو أن يلجأ إلى العزلة التي تشعره بالراحة والأمان[3].

وهذا كاف لأنْ يحيا الكفيف حياة نفسية غير سليمة, فيصبح عرضة للإصابة

---

([1]) خير الله, سيد: سيكولوجية الطفل الكفيف وتربيته, القاهرة, مط الفنية الحديث , 1967م , ص 26 .
([2]) نفسه, ص28 وما بعدها .
([3]) نفسه, ص31, وما بعدها .

بالاضطرابات النفسية التي تؤدي به إلى سوء التكيف مع البيئة التي يعيش فيها[1].

وقد يتخذ الكفيف موقفاً مغايراً ومعاكساً من المساعدة المقدمة إليه, فيرفضها رافضاً بذلك عجزه فينمو باتجاه الشخصية القسرية, أو يقبلها قبولاً خاضعاً للمساعدة فينمو باتجاه الشخصية الانسحابية, وكلا الموقفين يؤديان به إلى سوء التكيف[2].

ويتضح هذا جلياً في شخصية المعري, حين قال لتلميذه التميمي الذي عرض عليه السفر معه إلى مصر للقاء واليها, "رغبتني فيه يا إسماعيل التميمي, وزينت لي لقاءه لو أني لم أكن في قيدين, وقيد واحد منهما كاف: العمى والطبع, العمى يا تميمي مصيبة, إذا رافقها طبع سوداوي كطبعي, ما أنا أول أعمى, ولكني أول رجل من العميان في هذه الغريزة, آنف أن أقاد كالكبش, ولا أغفر لنفسي ذلة أو تقصيراً "[3].

وفي ذلك تأكيد على رفض أبي العلاء مساعدة الآخرين له رافضاً بذلك عجزه, لأنه لن يغفر لنفسه أي زلل أو تقصير, فيكون بذلك قد اقترب من الشخصية القسرية الرافضة لأي عون أو مساعدة.

ولعل من أقسى المواقف وأقواها إذلالاً, وإهانة لشخصية الكفيف, هي مواقف السخرية,

والشفقة, والرأفة, لأنها تزيده اقتناعاً بعجزه وتقصيره, كما تزيده شعوراً بالظلم الذي يحيط به, مما يؤدي إلى الانزواء تاركاً لخياله أن يحلق في أحلام اليقظة كوسيلة تعويضية لشعوره بعجزه وتقصيره[4].

ولشعور الكفيف بعجزه وقع عظيم الأثر, إذ نراه صابراً متكلفاً, فلا يلقى من رأفة الناس به, ورحمتهم له, وعطفهم عليه إلا ما يقوي الألم في صدره, مضاعفاً الحزن في قلبه, فاستهانتهم

---

([1]) خير الله , سيد : سيكولوجية الطفل الكفيف وتربيته, ص32 وما بعدها .

([2]) نفسه, نفس الصفحة .

([3]) نقلاً عن ابن خلكان, أبو العباس: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, ص123 وما بعدها .

([4]) أحمد, لطفي بركات :الفكر التربوي في رعاية الطفل الكفيف, القاهرة, مكتبة الخانجي,978, ص283 وما بعدها.

وازدراؤهم له, يشعره بالذل والضعة, منبهاً إياه بالعجز والضعف[1].

وأبو العلاء واحد من المكفوفين الذين شعروا بازدراء الناس له واستهانتهم به, فتقوت في نفسه عاطفة الحياء, وسوء الظن, ولكن تقصيره عن تحقيق الملاءمة بين حياته, وبين أوضاع المجتمع ونظامه بسبب هذه الآفة, آلمه أشد الألم فأصبح أكثر حياءً مبتعداً عن الناس, مسيء الظن بهم, لأنهم إليه كالمجهولين, يسمع أصواتهم ولا يراهم, ويحس أعمالهم ولا يراها أيضاً, فيفهم ما يستطيع تفسيره, ويعجز عن فهم أكثره [2].

ومما ينتج عن هاتين العاطفتين, شعور بخيبة أمل مصحوبٌ بخوف وقلق ملازمين له, وإلى هذا القلق يشير المعري قائلاً:

**إذا فَزِعْنَا فإنَّ الأمْنَ غايَتُنا وإنْ أُمِنَّا فَمَا نَخلو من الفَزَعِ**[3] (البسيط)

وأبو العلاء يحس بأن شخصيته غير مرغوب فيها, ويلمس الشقاء في أي موقف يجد نفسه فيه بين المبصرين؛ وقد يتندرون عليه بإشارات الأيدي, وغمز العيون, وهزّ الرؤوس, وليس له من ذلك إلا ألم يكتمه وحزن يخفيه, مؤثراً العزلة ليهرب من موقف المنافسة[4].

وهذا الموقف المسمى بموقف المنافسة الذي ينتج عنه توتر شديد, كثيراً ما يؤدي إلى تلف حقيقي في شخصيته متوهماً أن ثمة احتمالاً لاعتداء خارجي قد يقع عليه من مثل السخرية والاستهزاء به واغتصاب الحقوق[5], وربما يكون ذلك الاحتمال سبباً أدى به إلى الهروب من الحياة, متخذاً الوضع الذي يرتضيه لنفسه في نهاية المطاف.

**ب _ <u>البيئة وأثرها على المعري من الوجهة النفسية:</u>**

يرى "ادلر" أن غاية الحياة النفسية الفردية هي البحث عن طرائق التوافق الاجتماعي,

---

([1]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص113.

([2]) حسين, طه: مع أبي العلاء في سجنه, القاهرة, دار المعارف, 1963م, ص60 وما بعدها.

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 39/2 .

([4]). حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء , ص 112

([5]) خير الله, سيد: سيكولوجية الطفل الكفيف وتربيته , ص 47 .

فدراسة الحياة الواقعية للفرد تشجعنا على تقدير أهمية العنصر الاجتماعي فيها, إذ إن الفرد لا يصير فرداً إلا في متن المجتمع[1],لأن شخصية الفرد تكون ممثلة لروح الجماعة, وتقاليدها وعاداتها وأخلاقها ونظامها, ولهذا السبب يختلف الأفراد باختلاف الجماعات التي ينتمون إليها.

وتبدو هذه الاختلافات في أنماط السلوك التي يؤديها تجاه المواقف المختلفة؛ فهي أنماط سلوكية متباينة إزاء موقف واحد, ومن هنا كان ينبغي على الفرد, حتى يعيش بسلام مع جماعته أن يوفق ويلائم بين مطالبه ومطالبها, فيكيف نفسه وفق اتجاهات ترضي جماعته حتى لا تعزله عنها بحجة سلوكه السيء الشاذ عن الجماعة[2].

ومن هنا صارت الحاجة إلى التكيف ضرورة الحياة, والبقاء مع الجماعة سواء أكان التكيف شخصياً أم اجتماعياً, ذلك لأن الفرد والبيئة متفاعلان, لا ينجو أحدهما من تأثير الآخر[3].

فالفرد الذي يعيش وفق الجماعة ويرغب في أن يكون عضواً فيها يقوم بتعديل سلوكه, ويستجيب لحاجاته الداخلية وفق الأحداث الخارجية, لأنه في موقف ما يتطلب منه أن يتوافق معها, وأن يتكيف أيضاً لوجود الآخرين و أنواع نشاطهم[4].

كل ما سبق ذكره يتعلق بالإنسان العادي الذي ينعم بحواسه كافة, أما فيما يتعلق بالإنسان الكفيف, "فإن حياته الاجتماعية عموماً تواجه سوءاً في التكيف واضطراباً انفعالياً"[5].

"فالاتجاهات الفردية بما تبديه نحوه من مظاهر الإشفاق والفضول والمساعدات الاضطرارية تولدّ عند الكفيف ضغطاً وشعوراً بالحرمان والقصور, لأن مثل هذه الاتجاهات تسيء إليه أبلغ الإساءة وتفسح المجال لظهور أمراض القلق والاضطراب النفسي عنده"[6].

فبيئة المكفوفين مشبعة بالدنو والتقصير, لذا كان لابد من فهم طبيعة التقصير هذا, حتى

---

([1]) رمزي, اسحق: علم النفس الفردي, القاهرة دار المعارف, 1946م, ص 102.

([2]) خير الله, سيد : سيكولوجية الطفل الكفيف و تربيته , ص 26 وما بعدها .

([3]) فهمي , مصطفى : مجالات علم النفس , القاهرة , دار مصر للطباعة , ص 34 .

([4]) نفسه, ص42 .

([5]) أحمد, لطفي: الفكر التربوي, ص62, وخير الله: سيد: سيكولوجية الطفل الكفيف وتربيته, ص91 .

([6]) خير الله, سيد: سيكولوجية الطفل الكفيف وتربيته, ص90 .

نفهم المكفوفين أنفسهم؛ فاللوم الذي يوجهه المجموع إلى المكفوفين لتقصيرهم وعدم اللحاق بهم يقف عاجزاً بينهم وبين التكيف, إذ يكسوهم برداء الكآبة والسقم, والعمل لعزلهم عن البيئة الاجتماعية المحيطة بهم, ويبدو هذا جلياً في سلوك أبي العلاء المعري, حين آثر العزلة وعدم الاختلاط بالبيئة الاجتماعية المحيطة به.

ولما كان التكيف الاجتماعي يستند إلى عملية تعديل ذاتي أكثر مما يستند لمحاولة تعديل العالم الخارجي, فقد توجب على الفرد الذي يرغب في أن يكون عضواً في الجماعة أن يعدل من سلوكه, لأن التكيف مهمة الفرد لا البيئة[1].

ولعل في أخبار وأشعار أبي العلاء المعري التي سنأتي عند معظمها في ثنايا هذه الدراسة ما يحملنا على القول: إنه لم يكن قادراً على التكيف مع ما كانت تقتضيه مجالات المجتمع ونظامه, " لأنه لم يستطع تعديل ذاته التشاؤمية, تلك الذات التي نظرت إلى المجتمع نظرة بغض وكراهية, لأن الشر هو الذي يجتذب أخلاق ساكنيه, وأفعالهم في رأيه "[2].

اعتقد أبو العلاء أن الدهر قائم على الفساد وأن المجتمع مجبول على الغدر والخيانة, فلا شيء قائم على العدل والمساواة والنظام؛ فلا عجب إذن أن نراه قد تتبع طريق الخطيئة في الكون, ويبحث في مصدره فيجده آدم, فيعتبر خطيئة آدم في ميلاده, فقد كان من الخير أن لا يكون, على نحو ما نرى في قوله :

**سَعَى آدمٌ, جَدُّ البريّةِ, في أذىً لذريّةٍ, في ظَهْرِهِ تُشْبِهُ الذَّرّا**[3] (الطويل)

ولعلنا لا نوقع على أبي العلاء وأمثاله من المكفوفين أيَّ ملامة إزاء هجومه على المجتمع؛ "فمنذ عصور البشرية الأولى نظر المجتمع إلى المكفوفين, وعاملهم على أنهم عبءٌ ومسؤولية عليه أو كقصَّر تحت وصايته, فاتبع المجتمع إثر ذلك موقفاً, صنفه العالم النفساني

---

([1]) فهمي, مصطفى: مجالات علم النفس, ص42 .

([2]) حسين, طه: مع أبي العلاء في سجنه, ص 60 وما بعدها .

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,488/1.

"سومرز" في خمسة أنواع": [1]

1_ القبول, 2_ إنكار وجود أي أثر للعاهة, 3_ التدليل والحماية المسرفة, 4_ الإعراض المقنع 5_ النبذ الظاهر.

فلا يلبث الكفيف أن يسلك ــ بسبب ذلك كله ــ سلوكاً تعويضياً عندما يتحدى عجزه, ويحاول الاندماج في عالم المبصرين, فنراه إما أن يواجه الاتجاهات العدوانية, أو أن يلجا إلى العزلة منسحباً من عالمه الذي يذكّره بعجزه, كل هذا يؤدي به إلى أن يحيا حياة غير سوية, ويصبح عرضة للإصابة بالاضطرابات النفسية التي تؤدي به إلى سوء التكيف مع البيئة التي يعيش فيها[2].

فالمخلوق البشري يرفض نسبة النقص إليه ــ وإن قبله ظاهرياً ــ فإنه في أعماق نفسه يغلي امتعاضاً ورفضاً, لأن " أثر هذه المصيبة من الحزن عظيم يلزم صاحبه في جميع أطوار حياته لا يفارقه ولا يعدوه, لأنه يذكر بصره كلما عرضت له حاجة, وكلما ناله من الناس خير أو شر, بل كلما لقيهم في مجمع عام أو خاص "[3].

وهذا هو الذي دفع أبا العلاء إلى تحدي محنته, فَشَقّ سبيله في عناد إلى حيث يبغي, لم يعقه فقد البصر, " وبلغ المدى في مكابرته وعناده إذ رُئي في شبابه الباكر يلعب النرد والشطرنج, ويأخذ في فنون اللهو والجد كما يفعل أقرانه المبصرون "[4].

وعلى الرغم من كبريائه وعناده العظيمين إلا أنهما ما عادتا من الحُسن والفضل, وخاصة أنهما مزجتا بنظرة تشاؤمية, أدت به إلى إيمانه بعبثية الحياة " فإذا كان قد ابتعد عن ملذات الحياة في المأكل والمشرب والملبس, فإنه لم يفعل ذلك عن كراهية لها, وإنما كان تعبيراً

---

([1]) حمزة, مختار: سيكولوجية المرضى وذوي العاهات, القاهرة, دار المعارف, 1956م, ص104-105.

([2]) خير الله, سيد: سيكولوجية الطفل الكفيف وتربيته, ص32.

([3]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص112.

([4]) الثعالبي, أبو منصور: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري ,ص4 .

عملياً صارْماً عما آلت إليه إرادته العاقلة من إيمان مطلق بعبثية الحياة[1].

لأنه رأى ـــ على الرغم من تفوقه, وعبقريته على أقرانه من المبصرين ـــ, بُغض واضطهاد المجتمع له, سواء أكان مقصوداً أم عفوياً, وأقسى ما واجهه كان الاستخفاف والاستهانة المقصودين, إذ كانا يشكلان كارثة وإحباطاً له[2], فكلما قوي فيه الحياء والحرص على مجاراة الناس في المحافظة على سلوكهم وأنظمتهم العامة قوي أثر الحزن والأسى في نفسه, لأنه لم يوفق في أن يكون نداً لهم, مهما قويت فطنته وملكاته, فقد يهزؤون منه ويسخرون به, وإن كان حظهم من الأدب القليل القليل[3].

وكما أساء أبو العلاء الظن بنفسه, وبالناس, أساء الظّن بالحياة والدنيا أيضاً؛ فلا عجب إذن أن تجده طالباً من الإنسان الإعراض عنهما وألا يغرَّر بهما عن نفسه, لا في شبيبته, ولا في شيخوخته, فما هي إلا نصيحة يسديها إليه مخلصاً, لأنه يؤثره بالحب, ويربأ بالذين أحبهم عن طلب الدنيا والتورط في آثامها[4], كقوله :

**فلا تَطْلُبِ الدنيا وإنْ كنتَ ناشئاً, فإنِّيَ عنها بالأخلاّءِ أَرْبَــأُ**
**وما نُوَبُ الأيّـــــام إلا كَتــَائِبٌ تُبَثُّ, سرايا أو جيوشٌ تُعبَّأُ**[5] (الطويل)

والأنكى من ذلك كله أنه يرى الدنيا وإن عطفت عليه ورفقت به قاسية وعنيفة, من مثل قوله:

**إذا تعطّفتِ يوماً كُـنْـتِ قاسـيةً وإنْ نظرتِ بعينٍ , فهي شَوْسَاءُ**[6] (البسيط)

فما هذا التشاؤم إلا لاضطراب نفسه وشعوره بالنقص الحاد, ألم نره يسمي نفسه "برهين المحبسين", ويعتكف في منزله, ويروح ويسلك في حياته سلوك المتصوفين الذين يرضون

(1) اليظي, صالح: الفكر والفن في شعر أبي العلاء , ص22 .
(2) عبيد العلي, عدنان: شعر المكفوفين في العصر العباسي, عمان, دار أسامة, 1999م, ص24 .
(3) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص112.
(4) حسين , طه : صوت أبي العلاء, القاهرة, مط المعارف ومكتبتها, د.ت, ص23.
(5) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 46/1 .
(6) نفسه, 47/1 ,الشوساء : الناظرة شزراً بتكبر وغضب .

بالعيش القليل؟ فيقول:

**الحمدُ للهِ قد أصبحتُ في دَعــةٍ, أرضى القلــيلَ ولا أهتمُّ بالقــوتِ**
**وشاهــدٌ خالقي أنَّ الصلاةَ لَــهُ, أجَلُّ عنــديَ من دُرّي وياقــوتي**
**ولا أُعاشرُ أهــلَ العصرِ إنهُــمُ إنْ عوشِرُوا بينَ محبوبٍ وممقوتِ**[1] (البسط)

فقد كره الدنيا, وتمنى لو ينتهي ويخلص منها ليستقر في حياته الآخرة, لما كان يحسه من نظرات الناس إليه, الساخرة أحياناً, والمتقززة أو الراثية أحياناً أخرى, ما يزيد ذلك حتى في حقده على نفسه, حتى إنه موقن تمام اليقين بأنه في النحس منذ أن وجد, على نحو ما جاء في قوله:

**ربِّ! متــى أَرحَــلُ عن هــذهِ الــ دّنــيا, فإنّي قــد أطَلــتُ المُــقامْ**
**لــم أدرِ مــا نجمــي, ولكـــنّهُ في النّحس,مُذْ كَانَ جَرَى واستَقَامْ**[2] (السريع)

وبناء على ذلك, فإن المعري كان ساخطاً على الدنيا لا يرى فيها إلا الشر, وأن الشر في الوجود غالب, وأن "الإنسان مجبول على الشر, كما أن نفوسنا لا يمكن أن تتطهر إلا إذا فارقت الأبدان, ففي كل افتراق نعمة وفي كل لقاء نقمة"[3].

"فهو لم يعد طالباً من الحياة حظاً, و قد انكشفت له حقائقها في أبشع صورها, ولا هو كاره للون من ألوان الحياة دون لون, بل كاره للحياة والعيش كله"[4].

**<u>جــ _ الأنماط السلوكية عند المعري من الوجهة النفسية:</u>**

تشير الدراســات النفسية أن المكفوفين يتصرفون وفق أحد الأنماط السلوكية الآتية الذكر

بغية الحصول على ما أسموه بالتكيف, وإن كان بعضها غير مقبول اجتماعياً, وهذه الأنماط هي على النحو الآتي:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 226/1 .
([2]) نفسه, 484/2 .
([3]) صليبا, جميل: تاريخ الفلسفة العربية, بيروت, دار الكتاب اللبناني, 1986م, ص 293 وما بعدها .
([4]) الفاضل, محمد: قصد أبي العلاء من رسالة الغفران, تونس, مجلة الثريا, 1944م, ص 20 .

1_ السلوك التعويضي, 2_ السلوك الإنكاري (إنكار وجود عاهة), 3_ السلوك الدفاعي (التبرير والإسقاط), 4_ الميل نحو الانطواء (العزلة), 5_ السلوك الدال على عدم التكيف[1].

**1ـ السلوك التعويضي:**

يعد التعويض من أفضل الحيل الدفاعية كلها في حَلِّ المشكلات والإنقاص من حدة التوتر[2], لأن الشعور بالقصور يدفع الإنسان منذ نعومة أظافره إلى البحث عما يضمن له ما يخفف من هذا الشعور؛ فمن الحقائق المدروسة أن أعضاء البدن الأساسية للحياة تزيد في النمو, وتجيد أداء وظائفها إذا أصيب جزء منها, أو جانب من الأعضاء الأخرى التي تتصل بها[3].

فصاحب العاهة, ومهما كانت عاهته يلجأ إلى هذه الحيلة التعويضية ليحس بموضع أكثر أمناً واستقراراً, فيجد نفسه من خلالها أنه انتصر على عاهته, وتفوق على شعوره بالنقص معوضاً عنه الشعور بالأمن والاستقرار, ومن هنا كان التعويض سلوكاً مشتركاً بين أصحاب العاهات, نتيجة شعورهم بالنقص الناجم عن العاهة التي أصيبوا بها, وقد تأتي محاولة التعويض بصورة إرادية واعية, كما أنها توجه الحياة النفسية والسلوكية للفرد بصورة غير واعية. وينبغي أن تكون محاولة التعويض هذه أكثر إيجابية ونفعاً لصاحب العاهة, ليستغل إمكاناته الأخرى السليمة إلى أقصى طاقة ممكنة, للوصول إلى مراده, ولكنها قد تكون سلبية تدفع بصاحب العاهة إلى سلوك يضر بعلاقاته الحياتية والاجتماعية, فيؤدي به إلى اضطرابات نفسية يصعب فيها التكيف.

ومما لا شك فيه أن تعويض أبي العلاء, كان تعويضاً إيجابياً إذ إنه حاول بكل إمكاناته الأخرى السليمة, التخلص من وصمة العاهة المميتة, على الرغم من عدم تكيفه مع البيئة المحيطة به, إذ نراه منكباً على العلم, ناهلاً منه ما لا يستطيع نهله مبصر سليم, حتى ذاع صيته في كل مكان, وأصبح علماً من أعلام الأدب العربي .

---

([1]) حمزة, مختار: سيكولوجية المرضى وذوي العاهات, ص 133, وخير الله, سيد: سيكولوجية الطفل الكفيف, ص90.
([2]) فهمي, مصطفى: مجالات علم النفس, ص83 وما بعدها .
([3]) رمزي, اسحق: علم النفس الفردي, ص 83 و ما بعدها .

وبهذا يحاول الكفيف النجاح في ميدان من ميادين النشاط, بعد أن أخفق في ميدان آخر مختلف عنه, أو مرتبط به, وقد يغالي الفرد في التعويض, ليؤكد تفوقه وإبداعه في الميدان الذي أثبت ضعفه فيه, وقلة استعداده له(1).

وأبو العلاء كما ذكرت سابقاً, واحد من هؤلاء المكفوفين الذين غالوا في التعويض, ليؤكد تفوقه وإبداعه في مجال الآداب وعلومها, على الرغم من قلة حيلته في عدم رؤية الأشياء كما هي, " إذ إن الكفيف يستغل حواسه بطريقة أفضل وأوقع, لأن كف البصر يتطلب تسخيراً أكبر للحواس الأخرى, فيركز اهتمامه وعنايته لالتقاط وتفهم المعلومات غير البصرية"(2).

فأخذ يعوض عن فقد حاسة الإبصار بالاعتماد على حاسة السمع تارة, وعن طريق حاسة الشم أو السمع تارة أخرى, فمن المعلوم أن الكفيف يميل بصفة طبيعية إلى الاهتمام بالحديث, فعن طريق حاسة السمع؛ يمكن له أن يتعلم كيف يزن شخصية فرد أمامه, وعن طريق تجارب واسعة يمكنه التمييز بين الأصوات, حتى إنه يمكن أن يميز بين أنواع الطيور, بمجرد سماع صوتها, وبين أنواع الأشجار بمجرد سماع صوت مرور الريح خلال أوراقها, كما يمكنه التلذذ بسماع الموسيقا(3).

ومما لا شك فيه أن قوة الحاسة السمعية عند الكفيف, أو ضعفها تنحصر في التدريب المتواصل للحاسة السمعية, بحيث تجعلها تدق وترهف بدرجة يسهل فيها على الكفيف تنميتها ليصل إلى درجة الإتقان كأي عازف عبقري(4).

إن قوة السمع عند المعري كانت قوية أشد القوة, لأنه كان يتلذذ بسماع الآخرين حين يتكلمون, وذلك للتعرف على شخصية المتكلم وهويته, وخير دليل على ذلك أنه عندما جاءه زائر آذري يسأله عن قريب له, طلب أبو العلاء من الغريب أن يذكر حاجته, وهو مصغٍ إلى حديثه إلى أن فرغ من كلامه, ومضى الغريب من حيث أتى, وعندما عاد جاره الغائب, جاءَه المعري

(1) فهمي, مصطفى: مجالات علم النفس, ص 111 .
(2) حمزة, مختار: سيكولوجية المرضى وذوي العاهات, ص112 .
(3) نفسه, ص113 .
(4) نفسه, ص13 .

مردداً عليه ما سمعه, على الرغم من أنه ما عرف اللسان ولا فهمه, غير أنه حفظ كل ما قاله دون زيادة أو نقصان[1].

فقوة السمع إذن, لا تأتي نتيجة فقد الإنسان إحدى حواسه, لتقوى في بقية الحواس, بل تأتي نتيجة التدريب المتواصل, ولأبي العلاء أبيات كثيرة في التعويض بالسمع, من مثل قوله:

**وأشْرَفُ الناسِ, في أعلى مراتبه, مثلُ الصَّديدِ, ولكــن قيلَ صِنديدُ**
**مَـــا كِبْرُهُ وثقيــلُ اللــّحنِ يَمنعُهُ, من سرعةِ الفَهْمِ, ترسيلٌ وتمديدُ[2]** (البسيط)

وقوله أيضاً حين شبه الخير بالشجر السريع الانطفاء الممطور, وقد أوقده راعٍ لحاجة في إضرامه:

**الخيرُ كالعَرْفَجِ المَمْطورِ, ضَرَّمَهُ راعٍ يَئِطُّ, ولَمّا أن ذكا خَمَدا[3]** (البسيط)

أو قوله :

**لا تَعْرِفُ الوزنَ كفّي, بَلْ غَدَتْ أُذني وزّانةً, ولبعضِ القول مِيزانُ [4]** (البسيط)

أما فيما يتعلق بحاسة الشم, وهي الحاسة ذات المرتبة الثانية بعد السمع عند ضياع البصر, وخاصة لأنها تساهم في التعرف على الروائح بأنواعها, وأبرز ما نلاحظ التعويض بالشم في شعر "سقط الزند" للمعري, قوله وهو يصف ليلة زفاف ممدوحه, وقد أسبغ على تلك الليلة ضروب الوصف من ألوان المشمومات والعطورات, وقد بالغ في وصفه, مما يتعذر على المبصر وصف ما وصفه أبو العلاء, على نحو ما نرى في قوله:

**للطِّيب في حِندِسِهـــا سَوْرَةٌ مناخِرُ البَـــدْرِ بهِ تُفْعَمُ**
**مُضَمَّـــخاً, ينـــظرُ فـــي عِطْفِه كأنَّ مِسْكاً لَونُـــهُ الأسحمُ,**
**وانتشــرتْ في الأرض ريحٌ له يسوقُهَا المُنجِــدُ والْمتْهِمُ,**
**عِطــرٌ لـــمَنْ شَـــمّ, ولــكنّهُ غيرُ الذي جاءَت به مَنْشِمُ**

---

([1]) الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص81 .
([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 331/1, الصديد: القيح المختلط بالدم .
([3]) نفسه, 351/1, العرفج : شجر سهلي شائك , يئط: يصوّت .
([4]) نفسه, 503/2 .

وانتشـــقتْ عَرْفَــكَ طيرُ المـــلا      فزارك الناشِئُ والقَــشْعَمُ,
وماجَ بعضُ الوحشِ في بعضِهَا,      يسألُ ما الشأنُ ويستفهمُ[1]      (السريع)

ومن طيب ليلة الزفاف إلى عطر المحبوبة المطعمة بزهر الخزامي الذي يحبه أبو العلاء كما يبدو, حيث يقول:

كأن الخزامي جَمّعَتْ لكِ حُلّةً      عليك بها في اللون والطّيبِ سِرْبالُ[2] (الطويل)

وتصير الخزامى وعطرها مقام الخزائم عند قيادة "أنيق المعري", من مثل قوله:

وتَسُوفُ رائحةُ الخُزْامى أنْيُقي      فتقودُها ذُلُلاً بغيرِ خزائمِ[3] (الكامل)

وفي رثاء أمه يذكر المسك وريحه, من مثل قوله:

فيا رَكبَ المنون أما رَسُــولٌ      يُبلّــغُ روحَــها أرَجَ السّــلامِ
ذكيّاً يَصْــحَبُ الكافــورُ منهُ      بمثلِ المِسْكِ مفضوضَ الخِتَامِ[4]      (الوافر)

وفي لزومياته رياض واسعة من هذا التعويض, نقتطف منها ما جاء في قوله:

وقد يُصْبِحنَ عن بِرٍّ ونُسْكٍ,      بأطيبِ عَنْبَرٍ متنّسمات[5] (الوافر)

وقوله:

والرُّزْءُ يُبدي, للكريمِ, فضيلةً,      كالمِسْكِ تَرْفَعُ نَشْرَهُ الأَفهارُ[6] (الكامل)

وقوله أيضاً:

---

([1]) المعري,أبو العلاء: شرح سقط الزند, ص96 وما بعدها, السورة: الوثبة, أفعم: ملأ, المنجد: الريح التي تهب من نجد, نجد, المتهم:الريح التي تهب من تهامة, منشم:عطارة جرهمية أو من خزاعة بمكة,كانوا إذا أرادوا القتال وتحالفوا على الاستماتة غمسوا أيديهم بطيبها, الناشىء: الفرخ, القشعم: المسن أو المسنة من الناس والنسور, والضخم المسن من كل شيء.

([2]) نفسه, ص47 .

([3]) نفسه, ص172, ساف: شمّ, الخزامى: نبت طيب الرائحة ومن جنس الزنبقيات, الخزائم:ج خزامة, وهي حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام.

([4]) نفسه, ص 166.

([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 232/1 .

([6]) نفسه, 466/1, الأفهار: واحدها فهر: حجر يسحق به الطيب .

**جليسُ الخيرِ كالدّاريّ ألقى   لكَ الرّيّا كمُنتَسَمِ العَرار**[1] (الوافر)

وقوله ساخراً من المرأة المتعطرة التي تثيره في حاسته:

**ومَشْيُها تَضْرِبُ في أكمامِها,   يَفُوحُ ريّا الطّيبِ من أمامِها**[2] (الرجز)

وقوله ساخراً من الخمرة, ومن ظنون عطرها في مزاعم شاربيها:

**دعِ الرَّاحَ, في راحِ الغُواةِ, مُدارةً,   يظنّونَ فيها حَنْــوَةً وقَرَنفُــلا**
**كأنَّ شَــذَاها العَسْجَــديَّ, بطَبْعِه   تَضَــوَّعَ هنــديّاً, وأُودِعَ فُلفُلا**[3] (الطويل)

وأما حاستا اللمس والذوق فهما أيضاً أكثر أهمية للكفيف من البصر فيما يمكن تسميته الاتصال بعالم الواقع من ملمس ومأكل ومشرب, فأهمية هاتين الحاستين تزيد من تنوع الحياة لديه, لتعوضه عن البصر, غير أننا لا نجد أثراً واضحاً لتعويض المعري بوسيلتي اللمس والذوق, لأن زهد المعري أو تقشفه, وعزوفه عن الملذات, كان سبباً رئيساً لغياب مثل هاتين الحاستين, فهو الذي قام بقهرهما وكبتهما, مقنعاً نفسه بالطعام النباتي, فلم يأكل لحم الحيوان, ولم يأكل شيئا من منتجاته, مقنعاً نفسه بعدم الزواج والنسل, فقضى معظم عمره صائماً, مختاراً هذا النهج, مؤمناً به, راضياً سبيل الزاهدين[4], وحين أراد أن يشغل فنه بشيء من موصوف التذوق, التذوق, قال في وصف الدرع مثلاً:

**تَزاحمَ الزرقُ على ورْدِها   تزاحمَ الورْدِ على زمزمِ**
**لا مُرَّةُ الطّــعم ولا مِلْحَةٌ   وكيفَ بالذوقِ ولم تُعجَمِ**[5] (السريع)

وكما مارس أبو العلاء سلوكه التعويضي في شعره, مارس السلوك نفسه في نثره؛ ففي جنة غفرانه نراه وقد أمل النفس بتعويض كف البصر في الدار الآخرة, إذ صور المكفوفين, وهم

---

([1]) المعري ,أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 561/1, الداري: بائع المسك الداري, نسبة إلى دارين موضع بالبحرين, المنتسم: المشموم, العرار: بهار البر.

([2]) نفسه , 471/2 .

([3]) نفسه, 289/2, الراح, الأولى: الخمر, الثانية: الواحدة راحة: الكف, الحنوة :نبت طيب الرائحة.

([4]) فروخ, عمر: حكيم المعرة (أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري), ط2, بيروت, مطبعة الكشاف, 1948م, ص91 وما بعدها.

([5]) المعري, أبو العلاء شرح سقط الزند, ص 204, زمزم: بئر مكة .

أحسن ما يكونون حدة في البصر, وما يكونون من جمال عيون, عوضهم ربهم ببصر جديد, لحرمانهم في الدار الدنيا, " فالأعشى صَاْرَ عَشَاهُ حَوَرَاً معروفاً"[1], وحميد بن ثور نراه مفتخراً بحدة بصره في الجنة, حيث أنه كان يلمح الصديق من مسافات بعيدة [2].

وبينما هو يطوّف ببطل قصته الغفران "ابن القارح" في رياض الجنة, لقيه خمسة أشخاص على خمس أنيق, فيقول: "ما رَأيتُ أحسنَ مِنْ عيونِكُمْ في أهلِ الجنّةِ, فمن أنتمْ حتى خُلِّدَ عليكم هذا النعيمُ؟ فيجيبه: نحن عُورانُ قَيس[3].

ومما سبق ذكره؛ نستنتج أن جميع الأشخاص الذين ذكرهم المعري في جنة غفرانه هم مكفوفو البصر, و لكنه أبى إلا أن يعوض هذا الشعور بالعجز والنقص الملازم لحياته, ببزوغ أمل, فمنحهم قوة البصر, وأي قوة هذه التي تجعل أصحابه يرون من مسافات لا تستطيع العين المجردة أن تراها, كما منحهم جمال العيون التي طالما تمنوها في الدار الدنيا.

**2 ــ السلوك الإنكاري (إنكار العاهة):**

إن إنكار العاهة يُعَدُّ من أهم الحيل اللاشعورية الهروبية الشائعة لدى المكفوفين, وإنه لدليل يؤكد على عجزه وفشله في طلب التكيف مع المحيط الذي يعيش فيه[4].

ولكن كبرياء أبي العلاء, واعتداده بنفسه وقدرتها على إنتاج العظيم, جعلته يتناسى عاهته, إذ يتخذ كلاً من الكبرياء والتحدي والاعتداد أبعاداً قد تصل إلى حد التندر بالعاهة, فيفخر بالبصيرة التي ينمي من أجلها حواسه, لأن العمى يصيب البصيرة لا البصر ــ في رأيه ــ إذ يرى أن تلف البصائر أفجع وأدهى من فقد الإبصار, من مثل قوله:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: رسالة الغفران, تحقيق عائشة عبد الرحمن, ط5, القاهرة, دار المعارف, 1969م, ص 177 وما بعدها.

([2]) نفسه, ص263 .

([3]) نفسه, ص237, اشتهر هؤلاء الأشخاص الخمسة باسم "عوران قيس" جمع أعور, وكلهم شعراء, وهم تميم بن مقبل العجلاني, وعمرو بن أحمر الباهلي, والشمّاخ معقل بن ضرار, وراعي الإبل عبيد بن الحصين النميري, وحميدُ بن ثور الهلالي.

([4]) خير الله, سيد: سيكولوجية الطفل الكفيف وتربيته , ص48 .

**تلَفُ البصائرِ, والزّمانُ مُفَجَّعٌ,       أدْهَى وأفجَعُ من توى الإبصارِ**[1] (الكامل)

إلا أن الشعور الحقيقي بالمأساة كان أقوى, فلم يكن تعليله ذلك إلا تصبراً ورضىً بواقع لا يمكن تغييره, أما إحساسه الصادق فهو, حين عَدَّ العمى سجناً، وقد شكا ربه هذا السجن قائلاً:

**أَيَسْجُنُني رَبُّ العُلا وهو مُنصِفٌ,       وإنْ تُقْنَ راحٌ فهيَ لا ريبَ تُبْزَلُ**[2] (الطويل)

وعلى الرغم من إحساسه الصادق, إلا أنه مازال يعوض عجزه بإنكاره أهمية البصر وفائدته, فراح يشير إلى التسوية بين سيره, وسير المبصرين, كحتمية زوال الجميع في نهاية واحدة, إذ لا فرق بين مكفوف ومبصر في هذا الأمر, ولكنه مع ذلك لم يستطع حتى التخلص من استخدام كلمة (سير) الموحية إلى الإبصار, كما لم يستطع إخفاء تشاؤمه وحزنه في البيتين الآتيين, كقوله:

**أرى كلَّ خيرٍ في الزّمانِ, مُفارِقاً,       فَلا تأسفَـــنْ فيها لِقِـلَةِ خَيْرِكَا**
**ودُنْيَاكَ ســـارتْ بالأنـــامِ مُغِذّةً,       فلا فَرقَ فيها بينَ سَيرِي وسيركا**[3] (الطويل)

بل إنه يعتقد أن المرض البادي في شكل عينيه ليس إلا اكتحالاً بسواد الحندس,حيث يقول:

**إنْ يَنْظُرَا أعيُنَاً رُمْدَاً, فما رَمِدا,       ولا بغَيْرِ سَوادِ الحِندِسِ اكتَحلا**[4] (البسيط)

وفي فخرياته كثيراً ما ينطوي على الإنكار المكبوت والخفي لعاهته, كقوله:

**واغدو, ولو أنَّ الصَّباحَ صوارمُ,       وأَسْرِي ولو أنَّ الظلامَ جَحَافلُ**[5] (الطويل)

وبالرغم من هذا الفخر, والاعتداد الظاهر, إلا أن البيت انطوى على حزن عميق أوحت به مفردات الزمن (أغدو), (الصباح صوارم), (أسري), لأن كفيفاً مثل أبي العلاء لا يدرك

(1) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 580/1 , توى :هلاك .
(2) نفسه, 260/2 .
(3) نفسه, 226/2 .
(4) نفسه , 293/2 .
(5) المعري, أبو العلاء: شرح سقط الزند ,ص 56 .

الزمن إدراك المبصرين؛ فليس له معرفة بصرية بمفاصل الزمن وحدوده, وكل ما لديه محاكاة وتقليد وسماع, وحصيلته المعرفية, هي حصيلة سماعية لا غير[1].

**3 ــ السلوك الدفاعي (التبرير والإسقاط):**

التبرير في علم النفس هو العملية الدفاعية واللاشعورية التي يتلمس الفرد فيها الأعذار المنطقية المعقولة لتصرفاته, والتبرير يختلف عن الكذب على أساس أن التبرير عملية لا شعورية, في حين أن الكذب عملية تزييف شعورية إرادية, يشوه بها الفرد وجه الحقيقة, وهو على علم تام بما يفعل, وأن ما يصوره للناس محاولاً إقناعهم به ليس صحيحاً, ولكنه محض الخيال[2].

وحين يلجأ الكفيف إلى هذه الحيل الدفاعية, إنما يواجه أنواع الصراع والمخاوف, فهو إذا أخطأ, يبرر أخطاءه بأنه كفيف وعاجز, رغم أن عجزه قد لا يكون سبباً رئيساً فيما ارتكب من أخطاء[3].

إن أبا العلاء يمارس تشاغله الظاهر عن عاهته, بالسلوك الدفاعي (التبرير) حين قال: "أنا أحمد الله على العمى , كما يحمده غيري على البصر, وقد صنع لي, وأحسن بي, إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء"[4], حتى إنه راح يسمو بالتشوه الخلقي, قائلاً:

**وشِقْوَةٌ غَشِيَتْ وجهي, بنضرته,     أَبَرُّ بي من نعيم جَرَّ إشْحَابي**[5] (البسيط)

وقد غالى المعري في تبريره, وخاصة حين أضفى بعض المحاسن المنتزعة من ذهاب عينيه, إذ جعلها وقاية من التيه والضلال والعبث الذي يقع فيه المبصرون, على نحو ما جاء في قوله:

---

([1]) عبيد العلي, عدنان: شعر المكفوفين في العصر العباسي, ص61 .

([2]) فهمي, مصطفى: الصحة النفسية, القاهرة, مط العربية الحديثة, مكتبة الخانجي, 1976م, ص202.

([3]) خير الله, سيد : سيكولوجية الطفل الكفيف وتربيته, ص47 .

([4]) نقلاً عن ابن العديم, ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري , ص 558 .

([5]) المعري,أبو العلاء : اللزوميات, 157/1.

**ذَهابُ عينيّ صَانَ الجسمَ , آونَةً,      عَنْ التَّطرُّحِ في البِيْدِ الأمَاليسِ**[1] (البسيط)

أما الإسقاط فهو نوع من التبرير, وكثير الشيوع في تصرفات الناس, وذلك عندما تنسب ما في نفسك من صفات غير معقولة إلى غيرك من الناس بعد أن تجسّمها وتضاعف من شأنها[2].

شأنها[2].

ولم يكن المعري وحده قد تعرض لهذا الاضطهاد الاجتماعي فحسب, بل إن معظم الشعراء المكفوفين – إن لم يكن كلهم – قد تعرضوا لمثل هذه الإسقاطات أو الاستخفافات التي ذكر بعضاً منها الصفدي في كتابه (نكت الهميان) حيث يقول على لسان امرأة في خطاب زوجها: " ...رزقتَ أحسن الناس وأنت لا تدري!, فقال: يا إمرأة, وأين كان البصراء عنكِ قبلي؟"[3].

أما إسقاطات أبي العلاء فهي كثيرة, ولكنها مصطبغة بتشاؤم حاد, وشعور عارم بالمرارة والأسى, متسمة بالتعميم والإطلاق, وينحاز معظمها نحو الفخر الخفي بالبصيرة الممزوج بالسخرية الفاجعة, على نحو ما نرى في قوله:

**أعمى البصيرةِ لا يَهديه ناظِرُهُ,      إذ كلُّ أعمى لديه, من عصاً,هاد**[4] (البسيط)

وقوله:

**كُمْهُ البصائرِ, لا يَبينُ لها الهُدى      أو مُبصِرٌ, أَبداً, بعيني أَرْمَد**[5] (الكامل)

وقوله:

**ولديّ سِرٌّ ليـــس يُمْكــنُ ذكرُهُ,      يَخْفَى على البصراءِ, وهو نَهارُ**
**أمّا هدىً, فوجــدتُهُ ,مـــا بينَنَا,      سِــرّاً ولكــنّ الضّــلالَ جِهَـــارُ**[1] (الكامل)

---

([1]) المعري ,أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم,51/1 ,الأماليس : الواحد إمليس وإمليسة :الفلاة لا نبات فيها .

([2]) فهمي, مصطفى: الصحة النفسية, ص 203 وما بعدها .

([3]) الصفدي, صلاح الدين: نكت الهميان في نكت العميان, تحقيق أحمد زكي باشا, القاهرة, مط الجمالية,1911م, ص67.

([4]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 379/1 .

([5]) نفسه,392/1.

وقوله:

**جَميعُنا يَخْبِطُ في حِنْدِسٍ,      قدِ استوَى النّاشئُ والكَهلُ**[2] (السريع)

ومن بين الأنماط السلوكية عزلة أبي العلاء وسوء تكيفه مع المحيط الذي يعيش فيه، وسيتبين تفصيلهما لاحقاً.

---

([1]) نفسه, 465/1 .

([2]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 283/2 .

## المبحث الثاني: صدى آفة العمى ومظاهرها على شعر أبي العلاء المعري.

ولكي يتضح تأثير هذه الآفة بشكل جلي وواضح, لا بد لنا من استقراء هذا التأثير من خلال أشعاره, وربطها نفسياً وجدلياً بمجمل سلوكه الفني بدءاً برثائه, مروراً بعاهته وتشاؤمه إلى أن يصل في نهاية المطاف مفتخراً ببصيرته, منكراً الاعتراف بعاهته.

إن رثاء الشاعر ــ مهما يكن ــ لذاته ما هو إلا دليل يكشف به عن بالغ ألمه وواضح أساه, لأنه لم يستطع رغم إنكاره ومكابرته إخفاء عذابه وآلامه نتيجة عماه.

وأبو العلاء المعري واحد من هؤلاء الشعراء الذين ذاقوا مرارة العمى وآلامه, فبالرغم من انصرافه التام للمعرفة والتسامي العقلي, وانشغاله بمحاولاته الفلسفية, إلا أن أثرها كان يشغله, ويشغل فكره, إذ عدّ العمى عورة وعيباً يجب استتاره وإخفاؤه عن الآخرين, فراح يعبر عن عمق إحساسه بالعاهة, ومدى عذابه وآلامه منها, فيقول:

**وما بيَ طِرْقٌ للمَسيرِ ولا السُّرى, لأني ضَريرٌ لا تُضيءُ ليَ الطُّرقُ**[1] (الطويل)

ويقول :

**بِعلْم إلهي يوجِدُ الضّعفُ شيمتي, فلستُ مُطيقاً للغدوِّ ولا المسرى**
**غبرتُ أسيراً في يديهِ ,وَمنْ يكُنْ لهُ كرمٌ تُكْرَمْ بساحتِهِ الأســرى**[2](الطويل)

ويقول :

**ولطالما صابَرْتُ ليلاً عاتماً, فمتى يكونُ الصّبحُ والإسفارُ؟**[3] (الكامل)

وتوضح لنا الأبيات ما كان يحسه من ضعف وعجز أمام الطريق؛ فهو غير قادر على السير في الطريق بشكل جيد لأنه أعمى, والعمى هو الضعف أو العجز بحد ذاته, إذ أصبح أسيراً لهذه الآفة, لا يغدو ولا يمشي, متسائلاً متى سيظل يعاني هذا الظلام المعتم؟ ومتى يكون النهار

---

([1]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,175/2, الطِّرق: القوة, الطُّرق: جمع طريق.
([2]) نفسه, 83/1, غبرت: بقيت.
([3]) نفسه, 464/1 .

المريح لذلك الغمام المعتم؟

كما عدّه أسراً, على نحو ما نرى في قوله:

**غَدَوْتُ أسيراً, في الزَّمانِ,كأنّني    عَروضُ طويل, قَبْضُها ليسَ يُبْسَطُ**[1] (الطويل)

ونراه فيما بعد قد ساوى ظلام القبر بظلام العمى, كقوله:

**وإظلامُ عَيْنٍ بعدَهُ ظُلْمَةُ الثّرى,    فقلْ في ظَلامٍ زيدَ فَوْقَ ظَلامِ**[2] (الطويل)

وبسبب هذا الظلام المطبق, لابد وأن يكون رجاؤه الرحب والنور من بعد الضيق والظلمة, كما في قوله:

**نَرجو من اللهِ رَحباً إثر ضيّقَةٍ    من الأمورِ, ونُوراً بَعْدَ إظلامِ**[3] (البسيط)

ولم يصرفه كبرياؤه وشموخه عن دعوة المبصرين, والإشفاق على المكفوفين وذوي العاهات كافة, محاولاً تخفيف ذلك بشيء من الإسقاط والتبرير الذي تحدثنا عنه سابقاً, فيقول:

**تَصَدَّقْ على الأعمى بأخذِ يمينِهِ,    لتَهدِيَهُ وامنُنْ بإفهامِكَ الصُّمّا**[4] (الطويل)

وقوله:

**إذا مرَّ أعمى, فارْحموهُ وأَيْقِنُوا,    وإنْ لم تُكَفُّوا, أنَّ كلّكُم أعمىَ**[5](الطويل)

كما راح يرثي ذاته التي لا تدرك مفاصل الزمن , فكله سواء لا نهار لديه ولا ليل, كقوله :

**تَداوَلَني صُبْحٌ ومِسْيٌ وحِنْدِسٌ,    وَمَرّ علَيّ اليَوْمُ والغَدُ والأمسُ**

---

([1])المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 97/2, الطويل: من بحور الشعر, وعروضه المقبوضة: مفاعلن.

([2]) نفسه, 446/2 .

([3]) نفسه, 458/2 .

([4]) نفسه, 416/2 .

([5]) نفسه, 419/2 .

**يُضيءُ نَهارٌ, ثُمّ يُخدِرُ مظــلمٌ,        ويَطْلُعُ بَدْرٌ ثم تَعْقِبُهُ شَمسُ**[1] (الطويل)

ولعله يجد في تعاقب الليل والنهارإيذاناً وإعلاناً بانقضاء حياة الإنسان, فلا يأبه لضياء, أو ظلام, ويدعو إلى الحزن والبكاء, حيث يقول:

**بَكيْتُ لَهُ إذ فاتَهُ ما يُريدهُ,      وما شَوْقُهُ شَوْقي ولا وجْدُه وَجْدِي**

**كذاك الليالي لا يجُدْنَ بمطلبٍ      لخلقٍ, ولا يُبْقينَ شيئاً على عهدِ**[2] (الطويل)

ويرثي لنفسه قبحاً غشي وجهه إثر الجدري الذي أصابه طفلاً, قبل فقده نعمة البصر, حيث يقول:

**وشِقْوَةٌ غَشِيَتْ وجهي, بنضرتهِ,     أَبَرُّ بي من نعيمٍ جَرَّ إشحابي**[3] (البسيط)

ولعل الشكوى التي أطلقها المعري في الشطر الثاني من البيت السابق, مستبطنة قدرْاً من السخرية الاجتماعية الفاجعة, لأن معظم الناس ـــ في نظره ـــ يرون الجمال في الأشكال ويعظمونه في الوجوه والأبدان, ولكنهم يعمون عنه في الكمال العقلاني .

وأحياناً أخرى نجد أبا العلاء غير واضح في إظهار حزنه وألمه, إذ كان يتوارى وراء إنكار أو إسقاط, لكنه أسرف في وصف حسن العين, أو قبحها كما أسرف في الحديث عن أمراضها, وحولها و رمدها وملازماتها واستخدامها, فلم تكن تعزيته بالبصيرة, والافتخار بعقله إلا تعليلاً للنفس, وراحة للذات المجروحة بالعاهة, وخير دليل على ما ذكرناه الأبيات الآتية التي يبدو فيها مشغولاً بالعين وملازماتها واستخدامها, فيقول:

**إذا طَفِئَتْ في الثّرى أعينٌ,    فَقَدْ أَمِنَتْ منْ عَمَىً أوْ رَمَدْ**[4] (المتقارب)

وقوله:

---

([1])المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 5/2 , يخدر : يستر و يواري .

([2]) المعري, أبو العلاء : شرح سقط الزند , ص 269 .

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 157/1 .

([4]) نفسه, 403/1

**طفئتْ عيونُ الناظرينَ وأشرقَتْ        عينُ الغزالَةِ, ما بها عُوّارُ**[1] (الكامل)

وما هذه الأبيات إلا جزء صغير من رثائياته المطولة والتي يتضح من خلالها أنه عانى أشد المعاناة, وتعذب أشد العذاب من هذه الآفة التي حرمته الحياة, إذ نراه منذ صغره قد اتجه نحو عقله يسمو به و يتعالى, وفق منهج زاهد في الحياة ومتاعها.

أما فيما يتعلق بعاهته, وربطها بالموت, فإن ما يلفت الانتباه حقاً في شعره كثرة ذكره للموت, إذ عدّ العمى خطوة نحو الموت أو مقدمة له, فعلماء النفس يقرون "بأنه في مستوى اللاشعور يكون فقدان العين مكافئاً للموت."[2].

ومما لا شك فيه أن أبا العلاء شعر بحدة الحزن والألم الذي اعترى نفسيته إثر عاهته المستديمة, إذ عدها في إحدى وقفاته أنها السقم نفسه, وأن الموت شفاء لهذا السقم العنيد, حيث يقول :

**والعيشُ سُقْمٌ, للفتى, مُنْصِبٌ؟    والموتُ يأتي بشفاءِ السّقام**[3] (السريع)

ويؤكد فكرته في قوله :

**والعيشُ داءٌ, وموتُ المَرْءِ عافيَةٌ,    إنْ داؤهُ, بتَواري شخصه,حُسِمَا**[4] (البسيط)

وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على أن المعري فهم الموت, وخلص إلى أنه هو المخلص الوحيد لعاهته التي طالما عانى منها, وكأنه بذلك حذا حذو بعض المفكرين الذين يقولون "إن الحياة إنما هي الموت نفسه, لأن الإنسان يشرع في الموت بمجرد ما يولد, وهذه الفترة المحدودة التي يحياها إنما هي المدة التي تستغرقها عملية وفاته؛ وبهذا المعنى يكون الخوف من الحياة خوفاً من الزمان, والخوف من الزمان خوف من الموت, وقد قيل لرجل حكيم:

---

(1) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 463/1.

(2) عبيد العلي, عدنان: شعر المكفوفين في العصر العباسي, ص26.

(3) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 484/2.

(4) نفسه, 427/2 .

كيف حال أخيك؟ فأجاب: إن أخي قد مات, فقيل له: وما سبب موته ؟ فأجاب: حياته"[1].

وبما أن الحياة مساوية للموت, فإننا نراه متمنياً الموت؛ جاعلاً منه عيداً سعيداً, على نحو ما نرى في قوله:

**أنا صائمٌ طولَ الحياةِ,وإنما, فِطري الحِمامُ, ويومَ ذاك أُعَيِّدُ**[2] (الكامل)

وقوله:

**دَعَا لي, بالحَياةِ, أخو ودادٍ, رُويدَكَ, إنما تَدعو عَلَيّا**
**وما كانَ البقاءُ لي اختِياراً, لوَ أنَّ الأمرَ مَردودٌ إلَيَّا**[3] (الوافر)

ويتضح من الأبيات السابقة أن المعري يجعل لحظة موته عيداً سعيداً, كما أنه يرى أن من يدعو له بالبقاء وطول العمر؛ يدعو عليه البقاء في هذا السجن المعتم وفي ظل حياة عقيمة, ولو أن الأمر بيده لرفض الحياة, وطلب الموت المخلص لآلامه و أحزانه.

وبناء على ما ذكر, فإنه ليس من المستبعد " أن يتحول الموت في تصور المعري خلال رحلة قلقه الوجودي إلى أداة من أدوات الزمان, أو الدهر التدميرية وما تحدثه هذه النبل من وأد لكل دوافع الرغبة والتمني, حتى قبل أن تنطلق من مكامنها, فإنها نذير موت لا يفتدى بشيء"[4],كقوله :

**ومنْ سجايا نَبْلِهِ أنها, كلُّ قتيلٍ قَتَلتْ لم يُبَأ**[5] (السريع)

ومن الجدير بالذكر أن أبا العلاء جعل من الموت مرآة للحياة, وكأنه ينحو منحى "شارل بيجي" الذي كان يمجد الحياة الفانية بقوله: " لقد كان الموت عند هوميروس وسائر رجال

---

([1]) إبراهيم, زكريا : مشكلة الإنسان , ص 112 .
([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 339/1 .
([3]) نفسه, 646/2 .
([4]) زيدان, عبد القادر: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري, القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1986م, ص350.
([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,69/1, لم يبأ: لم يقتل به القاتل.

التراجيديا اليونانية القديمة, تحقيقاً للمصير, واكتمالاً للحياة, فالموت ما هو إلا ضرب من الاكتمال أو الكمال أو التمام"[1]

ويرى المعري أن الموت والحياة سواء, مادامت بداية الوجود مرتبطة بنهايته, وما دام الوليد يحمل بيده بذور فنائه وحتفه, ولا يجد سبيلاً إلى تكريم الآباء والأجداد إلا بالرفق في السير على الأجساد, أن تزعجها الأقدام العابرة, والقبور الممتلئة بالأموات تموت وتندرس وتتلاشى كالإنسان, حاملة معها كل تناقض وتضاد تضحك بجنون, وتطبق فكيها على الأحداث ثم تفغر فاهها دوماً في انتظار المزيد, وليس هناك شاهد على المأساة سوى الفرقدين, فهما أحسّا أزمنة متعاقبة, ومرّا على بلاد وشعوب, وأنارا ظلمةً, وأقاما على زوال النهار, وما هذه الدنيا إلا تعب مستمر, وما أعجب أمر هذا الإنسان الذي يطمع دوماً في المزيد,يقول أبو العلاء :

**غيرُ مُجْـدٍ في مِلَّتِـــي واعتقَادِي　　　نَــوحُ بـــــاكٍ ولا تَرنُّــمُ شـــادِ**
**وشبيهٌ صــوتُ النَّعِـــيِّ إذا قيســ　　　ــسَ بصــوتِ البشيرِ في كلِّ نــــادِ**
**صـــاحِ هذي قبــورُنَا تمــلأ الرُّحــ　　　ــبَ فأينَ القُبُــورُ من عهدِ عـــــادِ؟**
**خــفِّفِ الوطْءَ ما أظــنُّ أديــمَ الأر　　　ضِ إلا مـــن هـــــذه الأَجْـــــسَادِ**
**وقبــيحٌ بــنا وإنْ قَـــدُمَ العـهــ　　　ــدُ هــوانُ الآبـــاءِ والأجـــــدادِ**
**ربّ لحدٍ قــد صارَ لَحْـــداً مِــراراً　　　ضاحــكٍ من تزاحـــــم الأضّـــدادِ**
**ودفـــــينٌ علــى بقـــــايا دَفيــنٍ　　　فـــي طــويلِ الأزمـــــانِ والآبــادِ**
**فاســـألْ الفرقـــدين عَمّنْ أحسّا　　　من قبــيلٍ وآنســا مـــــــن بــلادِ**
**كــم أَقــامَا علـــى زوالِ نهـــارٍ　　　وأنارا لمــدلجٍ فـــي سَــــــوادِ؟**
**تعــبٌ كلُّــها الحـــــياةِ فما أعْجَــ　　　ــبُ إلاّ مــن راغــبٍ في ازديــادِ[2]**　　(الخفيف)

فالزمن يقود إلى القبر, ويسير بالإنسان نحو الموت والفناء, على نحو ما نرى في قوله:

**سارَ الزمانُ بهم إلى أجداثِهِمْ؛　　　وكذا الزّمانُ بأهلِهِ سَيّارُ[3]** (الكامل)

---

([1]) إبراهيم, زكريا: مشكلة الإنسان, ص123 وما بعدها.

([2]) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص111, النعي: المخبر بالموت, أديم الأرض: وجه الأرض, الآباد: ج ج أبد وهو الدهر, الفرقدين: كوكبان في بنات نعش الصغرى قريبان من القطب يُهتدى بهما في السَّفر.

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 466/1 .

وقوله :

**أَوْعَزَ الدّهْرُ بالفَنَاءِ إلى النّا   س, فَواهاً لذلك الإيعازِ**[1] (الخفيف)

فالموت هو الحقيقة المحتومة على كل إنسان, وهذا ما جعل بعض الناس يدأبون على نسيان الموت أو تناسيه بشتى الحيل والأساليب, وهذا ما يؤكده "باسكال" الذي يقول: " لما كان الناس قد يئسوا من أن يجدوا علاجاً للموت والشقاء والجهل, فإنهم قد وجدوا أن خير الطرق لأنْ ينعموا بالسعادة ألا يفكروا في هذه الأمور على الإطلاق"[2].

أما "لاروشيفوكو" فإنه يقول :"إن ثمة شيئين لا يمكن أن يحدق فيهما المرء: الشمس والموت"[3]

أما أبو العلاء فلم ينسَ الموت أو يتناساه, لأن الزمن (الموت) برأيه أعجم لا يفقه, وفظّ لا يلين, وغليظ لا يرحم, وفعله فعل العجماء, من مثل قوله :

**ووجــدتُ الزمانَ أعجمَ فظّاً؛   وجُبَارٌ في حُكْمِهَا العَجْمَــاءُ**
**إنَّ دُنْيَاكَ منْ نَهَارٍ و لَيْــلٍ,   هي, في ذاك,حَيّةٌ عَرْمَاءُ**[4](الخفيف)

فليس للزمان وفاء , لأن الغدر شيمته , كقوله :

**أترومُ من زمنٍ وفاءً مُرْضياً؛   إنَّ الزّمانَ, كأهْــلِهِ, غدَّارُ**
**تقِفونَ, والفُلْكُ المُسَّخرُ دائرٌ,   وتقدِّرون, فَتضحكُ الأقدارُ**[5] (الكامل)

وبهذا يكون أبو العلاء قد وصل إلى نتيجة مفادها؛ أن العمى يقود بصاحبه إلى التشاؤم والاضطراب النفسي, لأن في الإبصار حياة واستمرارية, و في العمى موت ونهاية واضطراب نفسي, ولكنه يعود في أحايين أخرى ليرجع سبب تشاؤمه واكتئابه إلى طبيعة الحياة الفاسدة من

---

(1) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 633/2.

(2) إبراهيم, زكريا: مشكلة الإنسان, ص111.

(3) نفسه, نفس الصفحة.

(4) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 58/1, الأعجم: غير المفصح ,جبار: هو من قولهم جناية العجماء جُبار, أي تذهب هدراً لا تفاد بها ,العرماء: التي فيها سواد وبياض.

(5) نفسه, 454/1.

حوله, فيكون بذلك قد أبعد نفسه عن دائرة اتهامه بالكآبة الناتجة عن فقده بصره؛ فكثيراً ما بحث عن مخارج وأعذار وأسباب تتعدى حالة عماه, منصرفاً إلى ذكر المنغصات الحياتية والعوامل المحيطة به, على نحو ما جاء في قوله:

**وكيفَ أُقضّي ساعةً بمسرّةٍ,     وأعلمُ أنّ الموتَ من غُرَمائي؟[1]** (الطويل)

وقوله:

**فقد عِشْتُ حتّى ملّني ومَلَلْتُه,     زماني,وناجَتْني عيونُ التجارِبِ**[2](الطويل)

فقد كان تشاؤم المعري واضحاً في البيتين السابقين, وخاصةً حين ربطه بالموت الذي عدَّه من أقسى أعدائه وغرمائه, فأصبح يضجر منه, ويمله لكثرة ما عاناه وقاساه في هذه الدنيا الفاسدة, على نحو ما نرى في قوله:

**ياليتَ آدمَ كان طَلَّقَ أُمَّهُمْ,     أو كانَ حَرَّمَها عليه ظِهارُ**[3] (الكامل)

فحين شرح أبو العلاء هذا البيت رادّاً على ناقديه, قال: " لا يَلامُ ابنُ آدمَ على تمنّي العَدَم, وفَقْدُ هذه الدُّنيا المتناهية في الغرورِ والخديعةِ "[4]فكثيراً ما كان يكنّي الدنيا بأبشع الكنيات وأفسدها, إذ وجدها دار هلاك, لا دار كرامة, وكثيراً ما كان يكثر السخرية بها والحقد عليها, حيث يقول:

**يا أُمَّ دَفْـرٍ,لحــاكِ اللــهُ والــدَةً,     منكِ الإضــاعةُ و التفريطُ و السَّرَفُ**
**لو أنّكِ العِرسُ أوقعتُ الطّلاقَ بها,     لكنَّك الأمُّ,هل لي عنك مُنصَرفُ؟**[5] (البسيط)

وقوله:

**وأَحْلِفُ, ما الدنيا بدارِ كــرامةٍ     ولا عَمَرَتْ, من أهلِهَا, بكريمِ[1]** (الطويل)

---

([1]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,65/1 .

([2]) نفسه, 143/1 .

([3]) نفسه , 465/1, لغة: مصدر ظاهر، ظاهر امرأته أو ظاهر منها، قال لها: أنت عليّ حرام كظهر أمي.

([4]) المعري, أبو العلاء: زجر النابح, تحقيق, أمجد الطرابلسي, ط2, دمشق, مط مجمع اللغة العربية, 1982م, ص75.

([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 148/2, الدفر: الذل والنتن, وأم دفر: كنية الدنيا.

نستدل من الأبيات السابقة أن أبا العلاء سخر من الدنيا أيما سخرية, إذ كَنّاها بأمّ الفساد والضلال, كما حقد عليها لأنها كثيرة التقلب لا تبقى على حال.

ومن مظاهر تشاؤمه أيضاً أنه عدّ "الموت وسيلة للخلاص أو التحرر من ربقة الحياة, فعن طريقه يستطيع الإنسان الحصول على الأمان المفقود في دنيا البشر ".[(2)]

وتشاؤم المعري هذا ليس إلا غيضاً من فيض عُرف به واشتهر, حيث يصور رعبه الاجتماعي من الاختلاط بتمنيه الحياة مع الوحش, والعودة إلى أحضان الطبيعة, وفي ذلك يقول:

**تمنّيْتُ أني بَيْنَ رَوضٍ ومَنْهلٍ, مع الوَحْشِ, لا مِصْراً أحُلُّ ولا كَفْرا**[(3)] (الطويل)

ويلازم المعري هذا الرعب الاجتماعي , حتى إنه يفضل العصا في يد الأعمى على القائد الصاحب, كقوله :

**عصا في يدِ الأعمى , يرومُ بها الهُدَى, أبـرُّ لـه مـن كُلِّ خِدْنٍ وصـاحبِ**
**فأوسِعْ بني حَـوّاء هَجْـراً,فإنّهم يسيرونَ في نَهْجٍ من الغدرِ لاحبِ**[(4)] (الطويل)

ومن الجدير بالذكر أن أبا العلاء اتخذ من البصيرة والعقل وسيلتي دفاع نفسية وتعويضية, فقوة بصيرته ونبوغ عقله يثبتان ذاته, ويؤكدان شخصيته المبدعة في مجتمع لا يقدر هذه الشخصية, مما يخفف حدة التوتر والقلق, وبه ينتقم من الجماعة عن طريق أشكال مختلفة من السخرية والنقد اللاذع لهم, فيؤكد في فخره على العقل والبصيرة, والفكر الأصيل والرأي الحكيم وقيمتها جميعاً بجعلها حجر الأساس للوجود الإنساني, وعماد الكينونة البشرية.

وهذا ما يظهر جلياً في شعر أبي العلاء, مفتخراً ببصيرته التي تهدي إلى الحق والصواب, حين قال:

**لو اتّبَعُونِي ـ وَيْحَهُمْ ـ لهديْتُهُمْ إلى الحقِّ, أو نَهجٍ لذاكَ مقاربِ**[(1)] (الطويل)

---

([1]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 445/2.
([2]) زيدان, عبد القادر: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري, ص349, وما بعدها.
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 485/1, الكفر: القرية.
([4]) نفسه, 142/1, اللاحب: الطريق الواضح.

ويبدو أبو العلاء أكثر ظهوراً في فخره ببصيرته وعقله, إذ أكثر من اهتمامه بهما ولكنه كان كثيراً ما يبطن هذا الفخر, بطريقة غير مباشرة, وخاصة عندما شكك في قدرة العقل عند الآخرين, مترفعاً بسمو عقله,على نحو ما نرى في قوله:

**يا أُمّةً من سَفَاهٍ لا حُلومَ لها,    ما أنتِ إلاّ كضأنٍ غابَ راعيها**[2](البسيط)

إذن, فالعقل والبصيرة هما من أسس التفكير والمعرفة عند أبي العلاء, فهما ــ من وجهة نظره ــ الإمام الأوحد, إذ  يجب على كل الناس إطاعته, حيث يقول:

**يرتجي الناسُ أنْ يقـــومَ إمامٌ        نـــاطــقٌ في الكـــتيبةِ الخَرْساءِ**

**كذبَ الظَنُّ لا إمـــامَ سوى الــ        ــعقلِ مشيراً في صبْحــه والمساءِ**

**فــإذا مـــا أطـــــعْتَهُ جلبَ الــرّ        حمةَ عنــد المســير والإرســـاءِ**[3]    (الخفيف)

فأبو العلاء "موقن أن جذوة العقل, تحمي قلب الإنسان من الظلم"[4], فيقول :

**العقلُ يُوضِحُ, للنُّســ        كِ, منهَجَاً, فاحذُ حَذْوَهْ**

**وليسَ يُظْلَــمُ قَلْبٌ ,        وفيهِ للُّبِّ جَـــذْوَهْ**[5]    **(المجتث)**

وقد عد أبو العلاء العقل بمرتبة النبوة, إذ كان يقول:

**أيُّها الغِرُّ, إنْ خُصِصْتَ بعَقْلٍ,    فاسألَنْهُ, فكلُّ عَقْلٍ نَبيُ**[6] (الخفيف)

كما أنه ينظر إلى العقل على أنه كالبحر واسع المعالم , وعد من يهمله سيئاً, لأنه الخير والأمل, على نحو ما نرى في قوله :

---

([1]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,143/1, الويح: الويل, النهج: الطريق .

([2]) نفسه , 616/2 .

([3]) نفسه , 66/1, الكيتبة الخرساء: التي لا يسمع فيها صوت لكثرة الجلبة .

([4]) شرارة , عبد اللطيف : أبو العلاء المعري (دراسات و مختارات) , ص 75 .

([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 637/2 .

([6]) نفسه, 642/2 .

**والعقلُ كالبحرِ, ما غيضَتْ غَوارِبُهُ شيئاً, ومنهُ بَنُو الأيّامِ تَغْتَرِفُ**[1] (البسيط)

ويقول أيضاً :

**وكم غَرّتِ الدّنيـــا بنيها وساءَني, مع النّاسِ, مَيْنٌ في الأحاديثِ والنّقْلِ**
**سأتْبَعُ مَنْ يدعو إلى الخَيْرِ جاهداً, وأرحلُ عنْهَا, ما إمامي سوى عَقلي**[2] **(الطويل)**

فأبو العلاء في هذين البيتين الأخيرين يوجه قوله إلى الذين يعملون بالنصوص المنقولة دون تمحيص, إذ لا بد من بحث عقلي للوصول إلى الهدى, واستخدام المعري لفظة (إمامي) ما هو إلا تعبير عن ثقافة العصر, وتعبير عن تذمر أبي العلاء لكثرة الأئمة والمعايير والشعارات التي كانت تصطنعها أحـــزاب العصر, وفرقه وفلسفـــاته, وبهذا يكون قد ربـــط بين العقل العام بالمعنـــى الشخصي (عقلي) وإنها لجرأة عظيمـــة يعلن فيها عن حضـــوره وســـط هذا الزحام الرهيب[3].

ولعل من مظاهر تقديسه العقل واهتمامه, تحريمه الخمر والحث على الابتعاد عنه, لأنها تعطل العقل عن العمل والفكر,فيقول في ذلك:

**لا أشْرَبُ الرَّاحَ, أشري طيبَ نَشْوَتِها بالعَقْلِ أفضَلُ أنصاري وأعواني**[4] ( البسيط)

وهذا إن دلّ على شيء؛ فإنما يدل على أن اجتنابه لها لم يكن بدافع ديني فحسب, بل بسبب علة الإسكار التي تفقد العقل قدرته على التفكير والتصرف, وأن الدين لو أباحها لكان من الممتنعين عنها لما فيها من مضيعة للحلم والاتزان، على نحو ما جاء في قوله:

**أيأتي نبيٌّ يجـــعَلُ الخَمْـــرَ طِلقَةً فتَحْمِلَ ثُقْلاً من هُمومي وأحزاني**

---

([1]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 151/2 .
([2]) نفسه, 317/2 .
([3]) شيا, محمد شفيق: في الأدب الفلسفي, ط1, بيروت, مؤسسة نوفل, 1980م, ص151.
([4]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 557/2.

**وهيهاتَ, لو حَلّت لما كنتُ شارباً    مُخَفَفِّةً, في الحِلْمِ كِفَّةَ ميــزاني**[1] (الطويل)

ويحذر الناس من تلقي المعرفة المزيفة بضرورة إرجاعها إلى منهج عقلي خالص, فيقول :

**لا يدينونَ بالعُقولِ ولكنْ    بأباطيلِ زُخْرُفٍ كَذّبوه**[2] (الخفيف)

ولهذا كان من الضروري عند أبي العلاء أن تكون قضية الدين والتدين نابعة من أسس عقلية, لا مجرد وراثة يرثها الأبناء عن أبائهم, وإن فعلوا؛ فمشكوك في صحتها, بل مرفوض لأنه تقليد أعمى غير مبني على أسس عقلية, حيث يقول:

**وما دانَ الفتى بحِجىً, ولكنْ    يُعَلّمُهُ التّدَيّنَ أقْرَبُوه**[3] (الوافر)

ويقف أبو العلاء من الموضوعات الغيبية موقفاً طبيعياً يؤكد فيه على عجز العقل عن التصدي لمثل تلك الموضوعات, لأن العقل يقف فيها مكتوفاً غير قادر على تحقيق مراده, على نحو ما نرى في قوله:

**نفارقُ العيشَ, لم نظفرْ بمعرفةٍ,    أيُّ المعاني, بأهلِ الأرضِ مقصودُ**[4] (البسيط)

وقد ربط أبو العلاء الفساد في المجتمع بعدم الإصغاء لصوت العقل, واتباع الهوى والغرض, فالمنجمون والسحرة الذين يرجمون بالغيب, يسيئون إلى العقل كثيراً, لأنهم يبطلون دوره الأوحد في فهم حقائق الأمور[5], حيث يقول :

**سألتْ مُنَجّمَها عن الطّفلِ الذي    في المهدِ: كم هو عائِشٌ من دَهْرِهِ؟**

---

(1) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 540/2 , طلقة: محللة , الثقل: ج الثقيل ضد الخفيف .
(2) نفسه, 609/2 .
(3) نفسه, 601/2 .
(4) نفسه, 327/1 .
(5) شرف الدين, خليل: أبو العلاء المعري (مبصر بين عميان), القاهرة, دار مكتبة الهلال, 1983م, ص140 .

**فأجابَها: مائةٌ, ليأخــذَ دِرْهَمَاً,  وأتَــى الحِمامُ وليدَها في شهــرِهِ**[1] **(الكامل)**

وخلص أبو العلاء إلى نتيجة مفادها: أن العودة إلى العقل ومشاورته والعمل بنصيحته تمكننا من إصلاح حال الإنسان, وتقويم اعوجاجه وانحرافه.

وبناء على ما ذكر, فلسنا نؤمن بأن العمى آفة عظيمة التأثير على سلوك المعري نفسه فحسب, وإنما نؤمن أيضاً, أنها طالت وامتد أثرها على أدبه, "وخاصة موصوفاته , فهو غالباً ما يذكر بعض الألوان دون أن يقصدها بصفاتها اللونية, وإنما يذكرها أسماء؛ فهي صفات غلبت على موصوفها حتى صارت اسما له"[2],من مثل قوله :

**ولا تُدْنِ للصّهْباءِ بنتاً لأبيضٍ  ولا تَقْرَبِ الحَمْراءَ, من ولد الزّنجِ**[3](الطويل)

وهذا البيت إن دلّ على شيء؛ فإنما يدل على أن أبا العلاء يوصينا بالابتعاد عن الخمرة المعتصرة من العنب الأبيض, وكذلك عن الخمرة المعتصرة من العنب الأسود, فالحمراء وإن كانت صفة لونية, إلا أنه جاء بها هنا ويريد بها الخمر, كما أراد بكلمة الصهباء,حيث يقول:

**فَأبْعِدْ من الصّفراءِ واليومُ واقِدٌ,  وادْنُ من الشّقْراءِ واللّيلُ قارسُ**[4] (الطويل)

فأبو العلاء كما علمنا لا يعرف من الألوان إلا الأحمر, ويستخدم اللون بوصفه بعد أن كان وصفاً للموصوف لكثرة استخدامه لا لأنه يميزه ويعرفه, على نحو ما نرى في قوله:

**وأطلسَ مُخلِّق السّربالِ يَبْغي  نَوافِلَنا صَلاحاً أو فسادا,**[5] (الوافر)

وقوله أيضاً:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 570/1 .

([2]) السقطي, رسمية: أثر كف البصر على الصورة عند المعري, بغداد, مط أسعد, 1968م, ص130 .

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 266/1 , الصهباء: الخمر, بنت الأبيض: المعتصرة من العنب الأبيض, الحمراء: المعتصرة من الأسود.

([4]) نفسه, 13/2 , الصفراء : الخمرة , الشقراء : النار

([5]) المعري, أبو العلاء: شرح سقط الزند , ص 64 .

**يرى وقوعَ الزُّرق في درعِهِ,    مثلَ وقوعِ الزُّرق في جِلْدِهِ**[1](السريع)

ويريد "بالأطلس" في البيت الأول الذئب, أما في البيت الثاني فإن "الزرق" تعني الأسنة الصقيلة الصافية, وقد غلبت عليها هذه الصفة حتى صارت اسماً لها, لما تحويه الزرقة من معنى الصفاء.

ومما لا شك فيه, ومن خلال قراءتنا بعض الصور الوصفية عند أبي العلاء, فإننا نستنتج أن الصورة الوصفية عند المعري تفتقد روح الحركة والظلال, لأنها لا تشعرنا بالحياة والحيوية.

ويؤكد على هذه النتيجة قول د.رسمية السقطي: " وإن طربنا لشعر المعري, فطربنا يأتي تجاوباً مع روعة المعاني وآفاق الفكر, لكنها غير واقعية تشعرنا بالتكلف والتصنع لأنها مستوحاة من غيره من الشعراء"[2], وخير دليل على ذلك قول المعري نفسه حين قال: " لا أعقل غير ذلك, وكل ما أذكره من الألوان في شعري ونثري, إنما هو تقليد الغير, واستعارة منه"[3].

وبهذا يكون أبو العلاء قد فشل في تحقيق العزلة التامة, لأنه و إن زهد في كل لذات الحياة وأطاييبها, فإنه لم يستطع الزهد في تقديم العلم وتأليفه, فتلك السنون الطويلة من العزلة أتاحت له الفرصة الكبرى في التفكير والعكوف على الذات, لتنتج أثراً عظيم الشأن من آثاره الأدبية العظيمة, ألا وهو ديوانه اللزوميات موضوع هذه الدراسة, ديوان الفكر والفلسفة, ديوان العمل والموعظة, الذي يعدّ من أقوى ما أنتجه المعري في مرحلة عزلته واغترابه.

---

(1)المعري , أبو العلاء : شرح سقط الزند , ص118.

(2) السقطي, رسمية: أثر كف البصر على الصورة عند المعري, ص130 .

(3) القفطي, أبو الحسن: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص30 .

# الفصل الثالث

## فلسفة أبي العلاء المعري, ويشتمل على:

المبحـــــث الأول: أبــــو العــــلاء المعــــري ... فيلســـــوفاً.

المبحـــث الثـــاني: مصـــادر فلســـفة أبـــي العـــلاء المعـــري.

المبحـــث الثالـــث: موضـــوعات فلســـفة أبـــي العـــلاء المعـــري.

## المبحث الأول: أبو العلاء المعري...فيلسوفاً.

لعل العربية لم تعرف في تاريخها الأدبي رجلاً اختلف فيه الناس كما اختلفوا في فلسفة المعري, فمكانه بين الفلاسفة غير واضح, اطمأن الناس حيناً من الدهر إلى أنه كذلك, ثم ما لبث أن ظهر رأي آخر يرفض التسليم بهذا الرأي الذي اطمأن إليه الناس .

ولهذا رأينا أن جلاء هذا الموقف المبهم الغامض أمر لا بد منه, قبل استجلاء تأملاته وآرائه في لزومياته؛ إذ نحتاج في مثل هذا الفصل إلى فضل روية, وإنعام نظر, وتمهل بصير, وأول ما نبدأ به فصلنا هذا السؤال التالي: هل كان أبو العلاء فيلسوفاً حقاً؟

لقد تباينت آراء الدارسين والنقاد, وأهل العلم في فلسفة أبي العلاء بين فريق مثبت لفلسفته, وبين آخر منكر لها, وبين ثالث جامع بين الوصفين واقع في حيرة وتردد حول إثبات فلسفته أو نفيها عنه, ولعل سبب ذلك يكمن في " أن كلّ دارس من الدارسين نظر إليه بمنظار خصوصي, ومن زاوية معينة, وأن اتساع أدب المعري, وما فيه من غموض وحيرة و تناقض , أوقعهم في مشكلة جعلتهم حذرين للغاية من تسميته فيلسوفاً, أو نفي الفلسفة عنه "[1].

ولكننا نرى أن الخلاف الواقع بين الدارسين, ربما يكون ليس في فهم أبي العلاء, بل قد يكون سببه في فهم فلسفته وتحديدها, لأن اختلاف المفاهيم يؤدي إلى تباين الآراء واختلافها.

وبناءً على ذلك؛ يتوجب علينا التوصل إلى ماهية الفلسفة والفيلسوف قبل الإجابة عن السؤال المطروح سابقاً.

" لقد أطلق بعضهم لفظ فيلسوف على منْ درس العلوم الطبيعية والرياضية والإلهية, والخلقية, وأحسن دراستها, ومن جعل حياته النظرية مطابقة لحياته العملية"[2].

وإذا كان الفيلسوف كذلك, فأبو العلاء أحق بهذه التسمية, "فهو الوحيد بين أقرانه الذي درس العلوم الإلهية والعلوم الطبيعية والعلوم الخلقية درساً طويلاً عميقاً متقنّاً, إذ عايش النتائج والأهداف بالممارسة اليومية الفعلية, فكان صادقاً مع نفسه[3].ولأنه نظر في الحياة والبشر,

---

([1]) مسعود, ميخائيل: أدباء فلاسفة, ط1, بيروت, دار العلم للملايين, 1993م, ص312.

([2]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره, 1244/3 .

([3]) مسعود, ميخائيل: أدباء فلاسفة, ص 313 .

واستنتج من نظرته تلك سيرة, وأخضع لهذه السيرة نفسه فعاش آراءه, ولاءم بين فكره وفعله"[1].

"وإذ كانت الفلسفة تعني البحث عن الحقيقة النظرية غير الخاضعة للهوى, فإن أبا العلاء جدير أيضاً بلقب الفيلسوف. لأنه كان يسعى جاهداً في سبيل تكوين رأي معقول عن الحياة والكون مبتعداً عن أهوائه الشخصية, ناصباً لنفسه ميزاناً جعله إماماً له في الحياة, وقد سماه العقل "[2], حيث يقول:

**كَذَبَ الظَّنُ, لا إمامَ سوى الـــ عقلِ, مشيراً في صُبْحِهِ والمساءِ**[3] (الخفيف)

وهذا ما أكده د.اليازجي قائلاً: " إن أبا العلاء فيلسوف علماً و عملاً؛ لأنه بحث عن حقائق هذا العالم, فكانت حياته موافقة لنتاج بحثه, فهو يقدم العمل الفاضل على القول الحسن, ولا يرى معنى للصلاة مع النفاق, ولا للصوم مع الكذب, ولا للحج مع العدوان "[4].

وإذا كان الفريق السابق يرى أن أبا العلاء قد طابق بين قوله وفعله, فإن فريقاً آخر يرى عكس ذلك, إذ عدّه متناقضاً, فأكثر من الشواهد والبراهين والأدلة التي تؤكد على عدم التلاؤم والتطابق بين قوله وفعله, ومنهم الأستاذ الخولي الذي رأى "أن المعري لم يسر في حياته وفق تفكيره, فلا تعرف له نتيجة ثابتة لم يخالفها ولم يقرر غيرها, إذ بقي فعله لا يستند إلى شيء من قوله"[5].

وأما إذا كانت الفلسفة تجبر صاحبها أن يكون صاحب مذهب منظم, "فإننا لا نستطيع أن نعدّ آراء أبي العلاء فلسفة بالمعنى الحصري, ولا أن نَعُدَّ صاحبها فيلسوفاً بالمعنى الدقيق لأنه لم يكن صاحب مذهب منظم كأرسطو وابن سينا"[6].

---

([1]) قمير, يوحنا: فلاسفة العرب: ط3, بيروت, دار المشرق, 1995م, ص5.

([2]) عبيد العلي, عدنان: المعري في فكره وسخريته, ص125.

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 66/1 .

([4]) اليازجي, كمال وصاحبه: أعلام الفلسفة العربية, ط3, بيروت, دار المكشوف, 1968م, ص171.

([5]) الخولي, أمين: رأي في أبي العلاء, جماعة الكتاب, 1945م, ص 101 و ما بعدها .

([6]) الفاخوري, حنا: الموجز في الأدب العربي وتاريخه (الأدب المولد),ط1, بيروت, دار الجليل, 1985م, 493/2.

وهذا ما أكده العديد من الدارسين والباحثين, فقد رأى أدونيس " أن أبا العلاء شاعر ميتافيزيقي بحجة أن البحث الميتافيزيقي تأمّل في العالم, أما الفلسفة فتتضمن أكثر من ذلك؛ فهي تتضمن طريقة ومنهجاً في تأمل العالم"[1] .

وقد أيّد الخولي فكرة أدونيس قائلاً: " إن أبا العلاء لا يظهر فيلسوفاً بالمعنى المعروف لهذه الكلمة, وليس له فلسفة خاصة تقوم على منهج تفكير, وأسلوب بحث, ومذهب في المعرفة, منتهياً إلى أن أبا العلاء كان قد أخلّ بمنهج الفلسفة "[2].

وقد رأى الخولي أن خير دليل على فكرته السابقة " تلك الصيحة التي أطلقها المعري عالياً والتي تنادي وتقول: إن الظنَّ والتجربة كافيان لمعرفة الغيوب, كقوله:

**إذا قُرِنَ الظَنُّ المصيبُ, من الفتى, بتجربةٍ, جاءا بعلمِ غيوبِ**[3] (الطويل)

وقد علق الخولي على ذلك البيت قائلاً: "إن قدرة العقل بالتجربة على علم الغيوب لا تنفي أن في الغيوب مناطق, وقد طوى الله علمها فلا ترام, وورومها جنون أو شبيه بالجنون"[4].

وبناء على ما سبق؛ فإننا نرى أن حجة الخولي في نفي الفلسفة عن أبي العلاء كانت ــ في تصوره ــ أنه لم يخضع في فهمه للحياة لأصل ثابت من أصول المعرفة, فهو يقف متردداً حائراً لا يستطيع أن يضم أبا العلاء إلى أي فريق من المفكرين, لأن أبا العلاء ــ في تصوره ــ لا يثبت على إيمانه بالعقل, ولا يطمئن إلى عجز العقل و قصوره.

وفي ذلك يؤكد الأستاذ ميخائيل مسعود الذي يقول: "ليس لفلسفة أبي العلاء طرق ولا مناهج محددة؛ فالذي يقول بهذه الفلسفة يحتاج إلى الأدلة والبراهين لإثباتها, والذي ينفي هذه الفلسفة ويرفضها يحتاج إلى الأدلة والبراهين لنفيها, فنحن لا نملك الكتاب الفلسفي الذي ألفه أبو العلاء, ولا نملك حتى ملخصاً لفلسفته على نحو ما صنع الفارابي وغيره من جماعة

---

([1]) أدونيس, علي أحمد سعيد: ديوان الشعر العربي, بيروت, نشر المكتبة العصرية, 1964م, 28/2 .

([2]) الخولي, أمين: رأي في أبي العلاء, ص103 وما بعدها .

([3]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 152/1 .

([4]) الخولي, أمين: رأي في أبي العلاء , ص105 .

الفلاسفة"[1].

ولعلنا نأخذ على الأستاذ ميخائيل مأخذاً, لأنه سرعان ما يناقض نفسه حين رأى أن من الضروري تسمية المعري بالفيلسوف وخاصة بعد أن انكب على لزومياته متعمقاً ومتفحصاً كل شاردة وواردة فيها, فوجدها وقد أحاطت بالقضايا الفلسفية الإلهية منها والطبيعية والرياضية وحتى العملية, ورأى ما فيها من شمول واتساع وآراء ومواقف فلسفية عميقة الجذور[2].

وقد رأى الدكتور شوقي ضيف رأي الدكتور ميخائيل في أن أبا العلاء لم ينمِّ مذهباً من مذاهب الفلسفة اليونانية, ولذا كان من الخطأ أن يجعل بعض النقاد أبا العلاء فيلسوفاً بالمعنى اليوناني لهذه الكلمة, فهو لم يلخص الفلسفة اليونانية فضلاً عن أن يكون من المنمين لها, ولا كان من المتعلقين بمذهب من مذاهبها, فمن العجب إذاً أن يسموه فيلسوفاً أو أن يحشر في زمرة الفلاسفة[3].

والأنكى من ذلك كله أن الأستاذ مارون عبّود عدّه "لمام فلسفة لا فيلسوف, وقد أبعدته فلسفته عن الشعر أيضاً"[4]. ولم يقف الأمر عند فريقين فحسب, بل ظهر فريق ثالث متردد حائر لا يدري بماذا يحكم على أبي العلاء أهو فيلسوف؟ أم ماذا ؟[5]. وظهر فريق رابع كان قد أجاز نفي الفلسفة والشعر عنه أيضاً, لقلة روائعه الشعرية من جهة, ولتردده وعدم ابتداعه من جهة أخرى[6].

ومهما يكن من اختلاف وتباين في الآراء حول فلسفة أبي العلاء, إلا أن أمراً عظيماً بدا جلياً فيما بينهم, وهو اتفاق أكثرهم على أن المعري مفكر عظيم, وباحث فذّ عن الحقيقة النظرية والمجردة عن الأهواء والنوازع؛ فهو "إن لم يكن فيلسوفاً, فهو شاعر الفلاسفة وفيلسوف

---

([1]) مسعود, ميخائيل: أدباء فلاسفة, ص221 -222 .

([2]) نفسه, ص 222 .

([3]) ضيف, شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي, ط6, القاهرة, دار المعارف, د.ت, ص388.

([4]) عبود, مارون: أبو العلاء زوبعة الدهور , ط3, بيروت , دار مارون عبود , 1970م , ص 21-24.

([5]) الصارم, سمير: أبو العلاء المعري (حياته ــ شعره) , ص16.

([6]) الشايب, أحمد: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء , دمشق, مطبعة الترقي, 1945م, ص45.

الشعراء"[1]. وذلك لأمرين اثنين؛ أولهما: أنه ليس للفلسفة تعريف محدد جامع مانع, فهي علم نظري اُختلف في تعريفه بين عصر وآخر[2], وثانيهما: أن المعري من المفكرين الكبار الذين ذهبوا في قضايا الإنسان والمصير والماورائيات متعمقين ومتوسعين فيها, كما أنه عاد بحصيلة من الآراء خليقة لأن تحتل مكانتها العالية في مضمار الفلسفة الكونية[3], ولأنه يمثل نضج القوة الشعرية في الشاعر وعمق النظرة الفلسفية في الفيلسوف[4], كما أنه بنضج بصيرته امتلك الشعر كأداة للتعبير وللانعتاق من سجن الظلمة العميقة مبرزاً قدرته على التفاعل, وعلى حيويته, ويقظته في مواجهة المشكلة, فأبدع فيها شاعراً ومفكراً وفيلسوفاً[5]. إذ كثيراً ما كان يجنح في شعره إلى استحداث النظريات التي تضمنها ديوانه "اللزوميات"[6].

فأبو العلاء من الجهة العملية كان قد فلسف آراءه وقضاياه التي طالما بحث فيها وتعمق في سبر أغوارها حتى خلصت على هيئة عبارات فيها روح الشعر والفلسفة, "فالشعر والفلسفة لما بينهما من صلة وثيقة, فكلاهما يعتمد على الحقيقة, ويحاول إدراك الأشياء إدراكاً حراً صحيحاً عميقاً, ثم يعرضه بأسلوبه؛ فإذا كان الفيلسوف يجعل همه درس الأشياء ليعرف ماهيتها وما بينها من صلات بحيث يؤثر هذا الدرس في سلوكه ويكسبه براعة في فهم الأمور ومعالجتها, فإن همّ الشاعر أيضاً أن يظفر بهذا الدرس نفسه, ثم يؤدي ثمرته فكراً صائباً وشعوراً صادقاً[7].

وفيما تم ذكره سابقاً؛ فإننا نرى أنه مهما حاول بعض الباحثين إقصاء أبي العلاء عن الفلسفة, أو إقصاء الفلسفة عنه, فإن المسائل التي ألّم بها في لزومياته, من الفلسفة الطبيعية والإلهية والعملية والرياضية جديرة لإدحاض حجتهم, علماً أننا لا ننكر بعض المآخذ على المعري "من مثل الحيرة والتردد, وعدم اتباعه الأسلوب العلمي الذي يشمل إحكام البناء, واتساق

(1) الفاخوري, حنا: الموجز في الأدب العربي وتاريخه (الأدب المولد), 482/2.
(2) عبيد العلي, عدنان: المعري في فكره وسخريته, ص 123 .
(3) غريب, جورج: العصر العباسي , ط3 , بيروت, دار الثقافة, 1978م, ص257 .
(4) كرو, أبو القاسم محمد: شخصيات أدبية من الشرق و الغرب , بيروت , دار مكتبة الحياة, 1966م, ص272.
(5) شكور, خليل وديع: معاقون لكن عظماء, ط1, بيروت, الدار العربية للعلوم, 1995م, ص94.
(6) الصارم, سمير: أبو العلاء المعري (حياته ــ شعره), ص 15.
(7) الشايب, أحمد: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص30.

الترتيب"[1], آخذين بعين الاعتبار أن لزومياته كتاب أدب وشعر فيه فلسفة, لا كتاب فلسفة محض، وأن بإمكاننا أن نلقب المعري "بالشاعر الفيلسوف" لأنه استطاع حقاً أن ينظم شعراً فلسفياً ضخماً, أو على الأقل استطاع أن يزاوج بين الشعر والفلسفة مزاوجة نادرة؛ ومثل تلك المزاوجة النادرة ــ على حد علمنا ــ لا تأتي من فراغ ولابد لها من مصادر وأصول استطاعت أن ترسم له الطريق إلى عالم الفلسفة, التي سنكشف ــ إن شاء الله تعالى ــ عن بعض مصادرها في المبحث الثاني.

---

([1]) ضيف, شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي, ص394.

## المبحث الثاني: مصادر فلسفة أبي العلاء المعري.

إذا تتبعنا حياة أبي العلاء في أطوارها كلها, يتبين لنا أنه سلك طريقاً خاصاً في حياته ودراسته, خالف بها طريقة أهل عصره وبيئتهم.

كانت الحياة العامة في عصره على غاية من القلق والاضطراب والسوء, وكانت حياة المعري مسرحاً للكوارث المزعجة والأمراض المؤلمة, ومن تأمل أقواله ونظمه, وجدها مفعمة بالتبرم والتوجّع من الحياة والناس وكفّ البصر أيضاً, مما دفعه إلى الزهد في الحياة, والابتعاد عن الملذات, إضافة إلى اعتزاله عن الناس, وهذا ما ساعده على التعمق في التفكير والدرس, والبحث عن حقائق الأشياء وعللها ونتائجها, وقد كان لذلك أثر بعيد لكثير من آرائه الفلسفية التي استقاها من مصادر متعددة, إذ لا يمكن ردّ فلسفته إلى أصل واحد أو إلى مصدر معروف[1].

فلشخصية المعري وبيئته, والتاريخ العربي والأدب العربي اللذين استمد منهما مادته وأسلوبه, وكذلك المذاهب الكلامية الشائعة في عصره من معتزلة وأشعرية وجبرية وفقهية والديانات المختلفة كالنصرانية واليهودية والمجوسية, إضافة إلى المذاهب الفلسفية اليونانية, ومذاهب التفكير الشرقية التي هي مزيج من الفلسفة والدين كالبوذية والتناسخية والصيامية والكينونية والمزدكية, كل ذلك كان له التأثير البالغ في فلسفة أبي العلاء[2].

أما فيما يتعلق بشخصية المعري؛ فقد ذكرنا آنفاً أنه فقد أعزّ ما لديه في دنياه, نور عينيه ووالديه, مما أثر على مزاجه الفلسفي, فكان أبو العلاء مختلفاً متبايناً في نفسيته تارة, وفي آرائه تارة أخرى, تفوح في كل منهما أحياناً رائحة التشاؤم والسوداوية, وأما بيئته وعصره؛ فقد تأثر من سوء أحوال عصره على مختلف الأصعدة, إذ تضاربت الآراء الدينية والمذاهب السياسية آنذاك, فولّدت لديه فكراً ميّالاً إلى درس الأشياء وإلى تحليلها وتعليلها, وأما المذاهب بأنواعها الشرقية والغربية والديانات على اختلاف أنواعها, وتلك الفرق المتعددة, فستكون لنا معها وقفة مطولة للبحث فيها والتعمق في تحليلها لما لها من علاقة بفكر أبي العلاء.

إن أبا العلاء كان قد اطّلع على كثير من ثقافات عصره؛ حيث أمضى جلَّ وقته في

---

(1) مسعود, ميخائيل: أدباء فلاسفة, ص214.

(2) فروخ, عمر: حكيم المعرة, ص40.

الدرس ومجالسة العلماء, والاختلاف إلى دور الكتب والعلم, وهكذا أُتيح له أن يتعرف على المذاهب الفلسفية والتيارات الفكرية بمختلف اتجاهاتها, ولذلك يجزم الباحثون الذين درسوا أبا العلاء أنه استقى آراءه المختلفة, إما من المذاهب الفلسفية الصوفية[1]أو الفاطمية[2] وغيرها, أو من مذاهب الفلسفة الهندية كالبرهمية[3], أو من الفرس وخاصة فرقة الديصانية من المجوس[4], أو من الفارسية المزدكية[5], أو متمثلاً لفلسفة "إخوان الصّفا"[6], أو من مذاهب الفلسفة اليونانية.

وقد كان الدكتور طه حسين أكثر المتحمسين لفكرة تأثر أبي العلاء بالفلسفة اليونانية, وخاصة بالفيلسوف اليوناني "أبيقور" فأبو العلاء ـــ من وجهة نظره ـــ يرى رأي أبيقور الذي انتهى إلى رفض اللذة عملاً, لأنه لم يستطع أن يحصلها خالية من الآلام, وهذا واضح في لزومياته, وفي مواضيع كثيرة منها[7], ومن ذلك قوله:

**ولم أُعْرِضْ عن اللّذاتِ, إلاّ لأنَّ خِيارَها عَنّي خَنَسْنَهْ** [8] (الوافر)

إن تعدد مصادر ثقافة أبي العلاء كان قد ترك بصماته على مزاجه الفلسفي؛ فكان مختلفاً متبايناً, بمقدار ما في مصادره من اختلاف وتباين؛ حيث تعرَّفَ على أفكار سابقيه ومعاصريه, واستقى منها كثيراً من الآراء ـــ وإن لم يقبل رأي جماعة منها دون غيرها ـــ إلا أنها شكلت مصدراً ثقافياً ثرياً[9].

ولعل حجة الدارسين المحدثين في ذلك اعتقادهم بأن أبا العلاء شارك بعض أصحاب تلك المذاهب في بعض مظاهر الحياة, حيث تبنّى الفلسفة الهندية (البرهمية) التي تنصُّ على ترك

---

([1]) سلامة, يسري: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء , الإسكندرية, دار المعرفة, د.ت, ص238.
([2]) عبود, مارون: أبو العلاء زوبعة الدهور , ص 120 .
([3]) ابن الأنباري, أبو البركات: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص17.
([4]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, بيروت, دار المعارف, 1963م, ص19.
([5]) فروخ , عمر: حكيم المعرة , ص42.
([6]) سلامة, يسري: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء, ص240.
([7]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص283.
([8]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 527/2 .
([9]) خناري, علي كنجيان: مصادر ثقافة أبي العلاء, ط1, القاهرة, دار الثقافة للنشر, 2001م, ص240.

لحوم الحيوان وتحريم إيلامه, وربما كان أكثرهم يوافق الدارسين القدامى الذين اتفقت كلمة جماعة منهم على تأثره بمذهب الهنود لتركه أكل اللحوم نحو خمسٍ وأربعين سنةً, وكذلك البيض واللبن, ولعّل أول من ربط بين تلك التهمة وأبي العلاء, كان ابن الأنباري صاحب "نزهة الألباء في طبقات الأدباء", حيث قال: "يحكى عنه أنه كان برهمياً, وأنه وصف لمريض فروج , فقال: استضعفوك فوصفوك!"[1], ثم تابع ابن الجوزي صاحب "المنتظم في أخبار الأمم" مكملاً مسيرة ابن الأنباري بقوله: "وكان ظاهر أمره يدل على أنه يميل إلى مذهب البراهمة؛ فإنهم لا يرون ذبح الحيوان, ويجحدون الرسل, وقد رماه جماعة من العلماء بالزندقة والإلحاد, وذلك أمره ظاهر في كلامه وأشعاره, وأنه يرد على الرسل, ويعيب الشرائع, ويجحد البعث"[2], ثم حمل عليه حملة حملة شعواء, واتهمه بالكفر, وأكد أنَّ لأبي العلاء كتاباً سماه "الفصول والغايات" يعارض فيه القرآن.., إلى أن انتهى بخلاصة يقول فيها: "فسبحان من أعمى بصره وبصيرته"[3], ومن ثم تلا تلا عهد ابن الجوزي جيل من الدارسين والمترجمين, راحوا يتناقلون هذه التهم وتسجيلها على أبي العلاء دون التحقق من صحتها, ولعل مَنْ يتأمل أبحاث القدامى فيما يتعلق بعقيدة المعري يرى أنهم تعمدوا الطعن في عقيدته أو التشكيك بها.

إن الباحث المدقق يستطيع أن يُسّجل أن بعض الدارسين المحدثين قد أخذ برأي القدامى تقليداً لهم, وسرعان ما عَدَل عنه إلى غيره؛ فالأستاذ الخطيب مثلاً يرى أن أبا العلاء حرم على نفسه أكل لحم الحيوان, "منتهجاً في تحريمه هذا مذهب البراهمة, وليس شفقة عليه كما كان يقول, وإلا فلمَ لم يحرم ركوبه, وحمله الأثقال والأوزان؟"[4].

ولكنه سرعان ما يعدل عن رأيه, منكراً تأثر أبي العلاء بالفلسفة الهندية "وليس ذلك نتيجة لتأثير من الفلسفة الهندية القائمة على حرمان الجسد, ولكن فلسفته تلك نابعة من تلقاء

---

([1]) ابن الأنباري, أبو البركات: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص17 .

([2]) ابن الجوزي, أبو الفرج: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص19.

([3]) نفسه, ص19-21 .

([4]) الخطيب, عبد الكريم : أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد , ط1, الرياض, دار اللواء, 1980م, ص90 .

نفسه, متولدة عن هذا الصراع بين همته وعجزه الذي كان من أقوى أسبابه فقد بصره" [1].

وإذا كان الخطيب قد ذهب إلى هذا المذهب في فلسفة المعري, فإن الدكتور عمر فروخ يرى أنه كان ينتقي منه ما يناسبه ويترك ما لا يناسبه, مع أنه وافق أهل مذهب الجاينا والبراهمة في بعض آرائهم, كترك إيلام الحيوان, وإنكار البعث, ورفض التسليم بأن الرسل أتوا من عند الله[2].

وأما فيما يتعلق برفض أبي العلاء الزواج, فقد فسَّره الدكتور يسري سلامة بأن أبا العلاء تأثر بالفلسفة الصوفية في القرن الرابع الهجري التي تدعو إلى التجرد[3], ولكنه سرعان ما بَدّل رأيه قائلاً: "إن نظرة أبي العلاء للمرأة وموقفه منها لم يكن نتاج فلسفة خارجية, وإنما كان جرياً على فساد الرأي العام للعصر بالنسبة للمرأة, كما كان ناتجاً عن موقفه النفسي الخاص إزاء عجزه عن ممارسة الحياة الطبيعية من حبّ ومطارحة غرام أو زواج"[4].

ولعلنا نعزو سبب عدول بعضهم عن آرائه أنهم ما استطاعوا فهم أبي العلاء المعري جيداً, أو لما لاحظوه من عدم تلاؤم بين قوله وفعله, على نحو ما رأوا, ولكن البعض الآخر راح يعلل ويثبت رأيه دون العدول عنه, على نحو ما علل الأستاذ مارون عبود سبب ترك المعري الزواج أنه كان بسبب تأثره بالفلاسفة اليونان, وخصوصاً "أبيقور" الذي يرى أن الصداقة نافعة لذيذة, والحكيم يتعهدها كوسيلة للسعادة, ولكنه يتجنب الحب لأنه اضطراب نفسي, كذلك لا يتزوج الحكيم في الأكثر لما يجره الزواج من شواغل متعددة[5] وهذا يعني ــ من وجهة نظره ــ أن أبا العلاء كأبيقور يرفض الزواج لأنه يرى في الزواج ما يشغله عن أموره.

وأما قضية النسل؛ فقد عدَّ الدكتور عمر فروخ النسل من وجهة نظر أبي العلاء جناية

---

([1]) الخطيب,عبد الكريم : أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد , ص43 .

([2]) فروخ, عمر: حكيم المعرة, ص42 .

([3]) سلامة, يسري: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء, ص238 .

([4]) نفسه , ص237 .

([5]) عبّود, مارون: أبو العلاء المعري زوبعة الدهور, ص114 .

يرجع أصلها إلى مذهب مزدك الفارسي أو غيره من مذهب الزهاد الهنود[1].

ولعلنا نخالف معظم ما جاء سابقاً, لأن من ظنّ أن أبا العلاء زهد في النسل لتأثره بمذهب مزدك قد جهل أن مزدك نفسه أحل النساء, وأباح الأموال, ولم يعد النسل جناية[2],وهذا ما سنوضحه جيداً فيما بعد.

ولنسمع صوت أبي العلاء, فهو أصدق الناس فيما يخبر به عن نفسه, فهو يذكر المزدكية, مشيراً إلى إنكار أتباعها للنبوات, وإباحتهم زواج الوالد من ابنته, وخير دليل على ذلك قوله:

**أَقَــرُّوا بــالإلــهِ وأثــبتــوهُ, وقــالوا: لا نَبِــيٌّ ولا كتـــابُ**
**ووَطءُ بــناتــنا حِــلٌّ مُبــاحٌ؛ رُويدَكُــمُ فقــد بَطَــلَ العتــابُ**
**تمادَوا في العتاب, ولم يتوبوا؛ ولو سمعوا صليلَ السيف تابوا**[3] (الوافر)

أما الدكتور طه حسين فينكر ارتباط أبي العلاء بمذهب مزدك, معلّلاً ذلك بقوله: "إن أبا العلاء لم يذهب في بغض النسل مذهب الهنود الزهاد الذين إنما كرهوا النسل اجتناباً للذات الحياة, وإنما ذهب أبو العلاء مذهب من يحب لنفسه, فيؤثرها بالخير ما استطاع, فقد رأى في النسل مصدر ألم وشقاء للوالد و الولد, فذمه وزهد فيه"[4].

ومن الجدير بالذكر أن بعض الدارسين مضوا إلى أبعد من ذلك في ولعهم بالمقارنة بين آراء أبي العلاء والمذاهب والاتجاهات القديمة والحديثة, فقد ذهب د.زكي المحاسني إلى عقد مقارنة بين آراء أبي العلاء في النسل ونظرية مالتوس في تحديد النسل[5], وكان الشاهد على ذلك قول المعري:

---

([1]) فروخ, عمر: حكيم المعرة, ص47 .
([2]) الجندي, محمد سليم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, 285/1.
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 99/1 .
([4]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء ,ص281 .
([5]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص41 .

**إذا كَثُرَ النّاسُ شَاعَ الفَسا  دُ كما فَسَدَ القولُ لمّا كَثُرْ**[1]  (المتقارب)

فكانت حجته على ذلك بأن المعري كان قد طابق مالتوس في نظريته الشهيرة التي ترى أن كثرة الناس تؤدي إلى شيوع الفساد وانتشاره, وهذا ما جعل أبا العلاء ـ على حد ظنه ـ منادياً بضرورة قطع النسل, استئصالاً لفساد العالم.

وأما فيما يتعلق بمذهب الباطنية وهو ما تفرع عن مذهب القرامطة, ومدى ارتباط المعري بذلك المذهب, فإننا نقول إن هذا المذهب كان قد انتشر وتوطد في مختلف أقطار العالم الإسلامي, "مما اضطر أبا العلاء إلى الاحتكاك مع كثير من دعاتهم, والاطلاع على بعض كبتهم, وإن لم يعتنق مذهب فرقة من فرقهم, إلا أنه خصص أبياتاً كثيرة من "اللزوميات" تدل على أنه تبرأ منهم؛ فعاب على فرقة النصيرية قولهم بالتناسخ, وعلى الحاكمية عبادتهم للحاكم بأمر الله, وعلى القرامطة إباحتهم للمنكرات وطمعهم في المُلكْ[2], وخير دليل على ذلك قوله:

**إنمــا هــذه المــذاهبُ أســـبا  بٌ لجـذبِ الدنيــا إلــى الرُّؤساءِ**

**غَرَضُ القــوم مُتْعَـــةٌ, لا يرقِو  نَ لدمــــع الشّمّـــاء والخنســاءِ**

**كالذي قامَ يجمـــعُ الزَّنْجَ بالبصـ  رة, والقَرْمَـــطيَّ بالأحســـــاءِ**

**فانفردْ ما استطعتَ,فالقائــلُ الصّا  دقُ يُضحي ثِقْــلاً على الجُلساءِ**[3]  (الخفيف)

**الجُلساءِ**[3]

فأبو العلاء ينبذ أصحاب تلك المذاهب لأنهم مولعون بأمور الدنيا ومتعها, غير مكترثين بأمور الدين التي جاءوا من أجلها.

ويؤكد ذلك الرأي الدكتور طه حسين نافياً عن أبي العلاء اسماعيليته أو قرمطيته أو تشيّعه, خلافاً لما ذهب إليه غيره من الدارسين الذين أثبتوا تبعيته لتلك الفرق, وفي ذلك يقول:

---

([1]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,618/1 .

([2]) لاوست, هنري: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص299 – 300 .

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 66/1, الشمّاء: المرتفعة قصبة أنفها, الخنساء: المتأخر أنفها عن وجهها مع ارتفاع في الأرنبة وأراد بها العزيزة والذليلة, الزنج: جيل من السودان, والذي جمعهم بالبصرة للخروج بهم على المسلمين: محمد بن أحمد أحد حفدة علي بن أبي طالب, القرمطي: أبو القاسم بن زكرويه, خرج في أيام المكتفي العباسي .

"لقد عرف أبو العلاء ثورة الزنج وعرف ثورة القرامطة وهي من فرق الشيعة, ولام صاحب الزنج كما لامَ زعماء القرامطة, ونعى عليهم آمالهم, وتستطيع أن تنظر إلى الأبيات الآنفة الذكر, والتي يرد فيها أبو العلاء على الشيعة, وعلى صاحب الزنج وعلى القرامطة, فسترى أنه أنكر عليهم جميعاً ما كانوا يطلبون أو يحاولون أو ينتظرون من تحقيق العدل في الأرض, كما أنكر عليهم قولهم في الإمام المنتظر, ولكنه اعترف بأن الجور شيء واقع ولا سبيل إلى الإفلات منه, وصرح بأنه ليس للناس إمام يستطيعون أن يثقوا به ويطمئنوا إليه إلا العقل, ولكن العقل يستطيع أن يكشف الظلمة وأن يجلب الرحمة بشرط أن يُطاع, وليس إلى طاعته سبيل لأن في طبيعة الناس, وفي طبيعة الحياة ما يجعل طاعة العقل عسيرة إلا على أمثال أبي العلاء"[1].

وكما كان أبو العلاء سيء الظن بالقرامطة والشيعة, كان سيء الظن بالصوفية أيضاً, إذ يراهم قد انحرفوا عن الدين, ولم يلتزموا أوامر الشرع ونواهيه, فهم في رأيه أحّبوا الدنيا, وجعلوا سبيلهم للوصول إليها لبس الصوف, فها هو يخاطبهم بلهجة قاسية, ويرى أنهم يجوبون البلاد ويلتمسون سد شهوة أو ملء بطن بقوله:

**نحنُ قطنيّةٌ,و صـــــوفيّةٌ أنْ تُمْ,فَقَطْنِي من التَّجَمُّلِ,قطني**
**تقطَعونَ البلادَ بَطناً وظَهْــراً؛ إنما سعُيكُمْ لفرجٍ و بَطنِ**[2] (الخفيف)

ومردّ ذلك كله إلى عصر المعري الذي شهد جدالاً عنيفاً بين الفرق والمذاهب الفكرية الإسلامية المختلفة, حيث سمع المعري آراءهم جميعاً, لكنه لم يقبل بها, بل سفّهها, ورأى أن الهدف من وراء ذلك كله هو تحقيق المكاسب المادية, ونيل حطام الدنيا, من مثل قوله:

**تَلاوَمَ النّاسُ,وافتَنَــتْ ظنونُهُــمُ, وأَرْجَأ النّاشئُ الباغي أو اعتزلا**[3] (الخفيف)

كما أنه يعجب من الذين لزموا الغلو, وصاروا يؤلهون علياً, وكذلك الذين كفروه من غلاة الخوارج والناصبي, حيث يقول:

---

([1]) حسين, طه: مع أبي العلاء في سجنه, ص184-185 .
([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 575/2 .
([3]) نفسه, 292/2 .

**والنّاسُ في ضدِّ الهُدى, متشيّعٌ لَزِمَ الغُلُوّ و ناصبيٌّ شاري[1]** (الكامل)

ويقول في موضع آخر ساخراً مستهزئاً من معتقدات المرجئة والمعتزلة:

**أرْجــوا, أو اعتزلــوا, فــإنـ ـــي عــن مَقَامِــكُمْ بــمَعْزِلْ**
**قد طالَ سَــيري فـــي الحَيا ةِ ولي ببطنِ الأرضِ مـــنزِلْ[2]** (مجزوء الكامل)

فأبو العلاء غير مكترث بهذه المعتقدات, كما لا يهمه كون الناس على مذهب المرجئة أو المعتزلة, لأن مصيرهم جميعاً سيكون الموت, والدفن في بطن الأرض (القبر).

غير أن الأستاذ مارون عبود, أكد تبعية المعري للمذهب الفاطمي, حيث قال: "إذا أردت أن أطابق بين أقوال الشيخ والمذهب الفاطمي, فالأدلة صارمة"[3], والباحثة لا ترى أي دليل ملموس على أن المعري كان قد استجاب للدعوة الدرزية (الفاطمية), بل إنها لتجد في لزومياته أدلة قاطعة على أنه كان يهاجم المذهب الدرزي, ويرفض قولهم بالتناسخ والتقمص, على نحو ما نرى في قوله:

**ما عاشَ جِسمانِ في الدّنيا, بواحدةٍ من النّفوسِ, ولا النّفْسَانِ بالجسدِ[4]** (البسيط)

وقوله :

**يَقولــونَ: إنّ الجسمَ,يَنقُل ُروحَه إلـــى غَيْرِهِ حتّى يُهذّبَها النّقــلُ**
**فلا تَقْبَلَــنْ مـــا يُخبرونَــكَ ضِلّةً إذا لم يُؤيّدْ ,ما أتوكَ به العقلُ[5]** (الطويل)
**العقلُ[5]**

وكما هاجم أبو العلاء في لزومياته الفرق والنحل, راح يهاجم رؤساءهم وكتبهم أيضاً على نحو ما فعل بكتابي "المغني" للأشعري في الجدل, و"العُمَد" للقاضي عبد الجبار المعتزلي في

(1)المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 583/1 ,ناصبي شار: واحد النواصب الشراة: خوارج زعموا أنهم شروا أنفسهم من الله أي باعوها, والنواصب غلاتهم.
(2) نفسه , 370/2 , أرجوا, من الإرجاء: مذهب القائلين بتأخير الأعمال, اعتزلوا من الاعتزال .
(3) عبود, مارون: أبو العلاء (زوبعة الدهور) ,ص120.
(4) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 375/1.
(5) نفسه, 259/2 .

الاعتـــزال, إذ يرى أن هذه الكتـــب وضعت من أجل المنافسة على حطام الدنيا لا أكثر, وفي ذلك قال:

**لولا التنافسُ في الدنيا لما وُضِعَتْ كُتْبُ القَنَاطرِ لا المُغني ولا العُمَدُ**[1] (البسيط)

ومن الجدير بالذكر أن أبا العلاء لم يطلع على تلك المذاهب والفرق الإسلامية فحسب, بل اطلع على الأديان والمذاهب الأخرى التي سمع بها, ومن هذه الأديان؛ النصرانية حيث ذكر كثيراً من معتقداتها, وأخضعها لمحك النقد والعقل, فأنكر بعضها, حيث كان قد عرفها في أنطاكية, ثم اطلع على بعض مبادئها بصورة أدق في اللاذقية, فكان يحمل عليها حملات عنيفة تتناول عقيدة التثليث, وما تضمنته الأناجيل من صلب المسيح, وتعظيم الصليب, ويحمل على الرهبان والقسس حملاته على الوعاظ والفقهاء المزيفين أيضاً, فراح يحكم على بعض آراء النصرانية بالضلال[2],على نحو ما يفهم من قوله:

**وما أرى كلَّ قوم ضَلَّ رُشْدُهُمُ, إلا نظيرَ النّصارى أعظموا الصُّلُبا**
**يا آلَ إسرالَ هل يُرجَى مسيحُكُمُ؛ هيهاتَ قد ميَّزَ الأشيـــاءَ من خَلِبا**
**قلنا: أتانا,و لم يُصلب,و قولُكُمُ, ما جاءَ بعدُ, و قالت أُمّةٌ: صُلبا**[3] (البسيط)

فالمعري يأخذ على النصارى تعظيم الصليب والقول بصلب المسيح عليه السلام وعلى اليهود (آل إسرال) إنكار نبوة المسيح, لأنه مؤمن بنبوته ومنكر لصلبه, كما أنه كان يرى أن النصرانية واليهودية والمجوسية كلها في ضلال مبين, على نحو ما نرى في قوله:

**مسيحيةٌ مـــن قبلـــها موسويّةٌ, حكَـــت لك أخباراً, بعيداً ثُبوتها**
**وفارسُ قد شبَّتْ لها النارُ وادّعتْ لنيرانها أنْ لا يجوز خُبوتُـــها**
**فمـــا هـــذِهِ الأيّـــامُ إلا نظائـــرٌ, تَساوتْ بها آحادُها و سُبوتها**[4] (الطويل)

إلى أن يخلص إلى نتيجة مفادها: أن الدين الحقيقي هو تقوى الله, وليس فيما يقوم به

---

(1) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 321/1, القناطر: لعلّه أراد بها الأمصار من قولهم قنطر الرجل: أقام بالأمصار والقرى, المغني والعمد: كتابان.

(2) خناري, علي كنجيان: مصادر ثقافة أبي العلاء , ص 241

(3) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 120/1 .

(4)نفسه, 196/1

النصارى أو اليهود من صوم وقدسية أيام السبت و الأحد؛ لأن معيار الدين عنده هو تقوى الله وليس لزوم الشعائر فحسب, يقول:

**فيــا للنّصـــارى, إذا أمسكوا, ويا لليهود, إذا أسبتُوا**
**وقد سُئلوا عن عباداتهم, فما أيَّدُوهــا, ولا ثَبَّتُــــوا**
**ومِنْ خير ما فَعَلَ الفاعلونَ, أنّهُمُ بتُقـــىً أخــبتُوا[1]** (المتقارب)

تلك كانت صورة بعض النصارى واليهود في لزومياته, فالمعري لا يؤمن بشيء من معتقداتهم, ويرى أنهم ضالون, مضللون, كما يرى أن بعض رجال الدين المسيحي واليهودي حرفوا الدين عن جوهره الأصلي, ولفقوا أموراً تتناسب ومصالحهم المادية, وسعوا من وراء التظاهر بالديانة إلى ملذات الدنيا وتقريبها إلى أنفسهم ونيل حطامها[2].

وأما المجوسية, فقد جاء ذكرها في لزومياته, وجعلها من جملة الأديان الوثنية, لأنها تدعو إلى عبادة الشمس وتعظيم الكواكب, ويرمي أتباعها بالضلال, وشر ما يسّفههم به نكاح الأخوات, كقوله:

**سألنا مَجُوساً عن حقيقةِ دينها, فقـــالت: نَعمْ لا نُنْكِحُ الأخــــوات**
**وذلك في أصل التّمَجسِ جائــزٌ, ولكـــن عدَدْنــــاهُ مـــن الهفــوات**
**ونأبى فظيعاتِ الأُمـــورِ, ونبتغي سُجوداً لنُور الشّمس في الغَدوات[3]** (الطويل)

وقوله أيضاً:

**أيوجَدُ في الورى,نفرٌ طَهارى أم الأقـــوامُ كلُّهُـــمْ رُجُـــوْسُ ؟**
**بنــــاتُ العمّ تأباها النّـــصارى, وبالأخوات أعْرَسَتْ المَجُوْسُ[4]** (الوافر)

كما ذكر أبو العلاء دين فارس القديم, وأشار فيه إلى عبادة النار وإلى الوثنية الفارسية وذكر "يزدان" إله الخير و"أهرمن" إله الشر, كقوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 213/1 .

([2]) خناري, علي كنجيان: مصادر ثقافة أبي العلاء, ص246 .

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,224/1, المجوس:عباد النار.

([4]) نفسه , 29/2 .

**قــال أناسٌ: باطلٌ زَعْمُهُمْ؛ فراقِبُوا اللـــهَ ولا تَزْعَمُــنْ**
**فَكَّرَ يَزْدَانُ, علــــى غِرّةٍ, فصِيغَ من تفكيرِهِ أَهْرُمُنْ**[1] (السريع)

وبناء على ما ذكر, فإن أبا العلاء كان قد اطلع على مذاهب النصارى واليهود والمجوس كما اطلع على كتب الشريعة الإسلامية, لاسيما كتب الكلام والفرق كالشيعة, والمعتزلة, والحلولية, ومنها ما وقع إليه على ألسنة الناس, ونستدل على ذلك مما أورده في "رسالة الغفران", حين تعرض لذكر الحلاّج, ومذهب الحلولية, وفيها ينشد على لسان فتى كان في زمن الحلاّج:

**إن يكُنْ مذهبُ الحلولِ صحيحاً فإلهِي في حُرْمَــةِ الزَّجَّاجِ**
**عَرَضَــتْ فــي غِلالَــةٍ بطرازٍ بَيْــنَ دارِ العَطّارِ والثـّـلاّجِ**
**زَعموا لي أمراً ومــا صَحَّ لكنْ هُوَ مِنْ إفكِ شَيْخِنَا الحلاّجِ** (الخفيف)

ويتابع قوله:..." وهذه المذاهبُ قديمةٌ, تنتقل في عصرٍ بعد عصر, ويقالُ: إن "فرعونَ" كان على مذهب الحُلوليّةِ, فلذلك ادّعى أنّه ربُّ العِزة, وحُكي عن رجلٍ منهم أنه كان يقولُ في تسبيحهِ:

**سُبحانَكَ سُبْحَاني غُفْرانَك غُفْراني** (مجزوء المتدارك)

وهذا هو الجنون الغالب, إنَّ مَنْ يقولُ هذا القولَ معدودٌ في الأنعام ما عَرف كُنْهَ الإنعام... إلى أن يقول: ... وأدلُّ رُتَبِ "الحلاّجِ" أن يكون شعوذياً لا ثاقب الفَهْمِ ولا أحوذيّاً, على أنَّ الصُّوفية تعظّمه منهم طائفةٌ, ما هي لأمره شائفة ... ثم قال: وتؤدي هذه النحلة إلى التناسخية, وهو مذهبٌ عتيقٌ يقولُ به أهلُ الهندِ, وقد كثر في جماعة من الشيعةِ, فيقول: حدثت عن رجل من رؤساء المنجمين من أهل حرّان أقام في بلدنا زمناً, فخرج مرة مع قوم يتنزهون, فمروا بثور يَكْرُب, فقال لأصحابه: لا أشكُ في أن هذا الثور كان يُعْرَفُ "بخلفٍ" بحرّان, وجعل يصيح به: "يا خلفُ", فيتفق أن يخورَ ذلك الثورُ, فيقولُ لأصحابه: ألا ترونَ إلى صحّةِ ما

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 589/2, أهرمن: إله الظلام والشر عند المزدكية .

خبرتُكُمْ به؟"[1].

وبعد هذا كله؛ فلا سبيل إلى الشك في أن أبا العلاء كان واسع الاطلاع على الأديان المختلفة, ملماً بثقافات الشعوب التي اكتسبها عن طريق مطالعاته, وتتبعه الكتب التي كانت تُقرأ عليه في أخبار الأمم, وما يتعلق بعقائدها ونحلها, وعن طريق جولاته التي قام بها أيام شبابه, واجتماعاته بأناس يُروى عنهم طرف من أخبار الهند والصائبة وغيرهما, إضافة إلى ظروف حياته وما كان يكتنفها من أحواله وأحوال بيئته وعصره, وبهذا درس أحوال البشر وعقائدهم ونحلهم في عصره وغيره درساً دقيقاً وافياً, فكوّن ذلك فيه ملكة النقد, وفيها سفه أكثر المعتقدات, معلناً بصراحة مطلقه أنها أنباء ملفقة, وأخبار كاذبة يرويها بعض رجال الدين لكسب أحوال الدنيا وملذاتها, كما تحدث عن الفرق الإسلامية المتعددة في عصره, ورأى أن معظمهم كان يجري وراء مصالحه وأهوائه.

---

([1]) المعري, أبو العلاء: رسالة الغفران, ص 457 _ 469, حرمة: حرمه أهله, الأحوذي الحاذق, السريع في كل ما أخذ فيه, شائفة: الاعتبار والشهرة, يكرب: يعطس, حران: كورة من كور ديار مضر بالجزيرة .

## المبحث الثالث: موضوعات فلسفة أبي العلاء المعري, ويشتمل على:

أ_ الفلسفة العملية.

ب_ الفلسفة الرياضية.

جـ_ الفلسفة الطبيعية.

د_ الفلسفة الإلهية.

تناول أبو العلاء بفلسفته ما تناوله غيره من الفلاسفة, فبحث فيها عن العالم وما فيه, وعن الأخلاق وأطوار الاجتماع, وعن المادة وما وراءها, ولهذا رأينا أنه لابد من تقسيم فلسفته تقسيماً يسهل علينا دراستها, بعيداً عن الغموض والضبابية, علماً بأن العلماء القدامى كانوا قد قسموا موضوع الفلسفة أربعة أقسام؛ القسم الأول: أسموه الفلسفة العملية, والقسم الثاني: أسموه الفلسفة الطبيعية أو ما يسمى بالعلم الأدنى, والقسم الثالث: وأسموه الفلسفة الرياضية أو ما يسمى بالعلم الأوسط, وأما القسم الرابع والأخير؛ فالفلسفة الإلهية أو ما يسمى بالعلم الأعلى, ولقد رأينا أنه لا بأس من اعتماد هذا التقسيم في درس فلسفة أبي العلاء للتعمق في فكره الفلسفي واستجلاء آرائه في لزومياته.

## أ_ الفلسفة العملية:

تناول أبو العلاء من الفلسفة العملية في لزومياته موضوعات كثيرة ومهمة, ولا بأس من الوقوف عند بعضها, لما لها من دلالات وآثار في فلسفته, وأول ما نبدأ به:

### 1_ الموت والحياة:

شغلت قضية الموت الفكر الإنساني قديماً وحديثاً, لأنها كانت تشكل النهاية لهذا المخلوق على وجه هذه الأرض, ثم لأن الأسباب والموجبات والحالات المؤدية لهذه النهاية تبدو متباينة ولا تجري على نسق واحد, ثم إن الفكر الإنساني لم يقدم يقينات حول الموت, والقضايا المتعلقة به؛ فهناك آراء اعتقدت بالحياة بعد الموت, وآراء أخرى اعتقدت بالعدم المحض, والفناء المطلق الذي لا رجعة من بعده.

فبقي الإنسان في تردد وحيرة إزاء مصيره ونهايته مما أَثرّ على معايير آماله وطموحاته, وجاءت شرائع الله تعالى, فأعطت حقائق عامة وكلية عن هذه القضية, ثم جاء الإسلام خاتم هذه الشرائع ليقدم تفصيلاً دقيقاً وكاملاً عن الموت وما يتعلق به, فبين مصدره, والإرادة المتحكمة فيه, ثم بين حتميته وكليته المطلقة, وأوضح السبب فيه, وهو مجيء الأجل, ثم فصل في أبعاده ومراميه, فذكر أنه ينسجم مع الفطرة الإنسانية وكمالها, ويلتئم مع الحركة

الإيجابية, وقانون الحياة الذي هو جزء لا يتجزأ من نظام الكون المتكامل, لتنتظم دورة الحياة وفق تدبير العليم الخبير.

وأخيرا أوضح العلاقة بين ما قبل الموت, وما بعده كنتيجة حتمية إيجاباً أو سلباُ, سعادة أو شقاء من غير ظلم, ولا حيف, ليبعث في النفس الإنسانية الرضا والطمأنينة لتلك النهاية المحققة, "وبهذا فقد أراح الفكر الإسلامي العقل الإنساني من عناء البحث فيما لا طائل تحته, وصرف ذهنه إلى ما يعود عليه من الإيجابية التي تقتضيها وظيفته باعتباره سيداً للكون مستخلفاً فيه, لتتحقق بالتالي سعادته في مبدئه ومعاده"[1].

ومن الحقائق الثابتة أن الفكر الإسلامي قد أراح العقل الإنساني فعلاً, ولكننا مازلنا نشك في تأثير هذا الفكر على عقل أبي العلاء؛ لأن أبا العلاء كان يخاف الموت كثيراً, حتى أصبح شغله الشاغل في حياته؛ ولكنه سرعان ما ركن إلى حقيقة مفادها أن الموت هو الطريق المخلص للآلام والمعاناة من قسوة الحياة ومرارة العيش, على نحو ما نرى في قوله:

**فما لي أَخَافُ طريقَ الرّدى, وذلكَ خَيْرُ طريقٍ سُلِــكْ**
**يُريحُــكَ من عيشَةٍ مُــرّةٍ, ومالٍ أُضيعَ, ومالٍ مُلِكْ**[2] (المتقارب)
**مُلِكْ**[2]

علماً أن هذا الخوف كان قد عزاه بعضهم إلى "كثرة حبه العميق لدنياه, وتعلقه بها وحرصه عليها, وأسفه على ما فاته فيها وحرمانه من ملذاتها"[3].

وتؤكد الدكتورة عائشة بنت الشاطئ ذلك بقولها: "إن السبب الأول لفزع أبي العلاء من الموت وتشبثه بالحياة, أنه لم يبرأ قط من حب الدنيا"[4], ولكننا قد نختلف مع الباحثين السابقين, لأننا نلمس ذلك واضحاً وجلياً في لزومياته المفعمة بكراهية الدنيا والحياة, وكراهية كل ما يؤدي إلى استمراريتها من زواج ونسل وغير ذلك, فالموت ــ من وجهة نظره ــ وسيلة للخلاص أو التحرر من ربقة الحياة, وعن طريقه يستطيع المرء أن يحصل على الأمان المفقود في دنيا

---

([1]) المشني, مصطفى إبراهيم: مجلة أبحاث اليرموك مجلد(4), عدد (2), عمان, 1988م, ص7 وما بعدها.
([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 255/2 .
([3]) المازني, إبراهيم عبد القادر: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص 152 .
([4]) عبد الرحمن, عائشة: الحياة الإنسانية عند أبي العلاء المعري, القاهرة, مطبعة المعارف, 1941م, ص 167 .

البشر, لأن الموت يقف حائلاً بينه وبين ما يريد تحقيقه[1], أو كما يقال بلغة الفلاسفة عن الموت, الموت, "الموت موقف حاجز, أو حد حاسم من شأنه أن يهددنا دائماً بتلك اللحظة الأليمة التي لن نستطيع بعدها أن نحقق أية إمكانية"[2]وفي ذلك يقول المعري:

**وكيف أُقضّي ساعةً بمسرّة, وأعلمُ أنَّ الموت من غُرَمائي؟**[3] (الطويل)

خبر أبو العلاء الحياة, ورأى أنها تعب وعناء, وأن الدنيا غرورة مغرية بمتعها ونعيمها, و أن المرء لا يستطيع كبح جماح نفسه, لأن النفس أمّارة بالسوء, والناجون فيها قليلون جداً[4] على نحو ما نرى في قوله:

**وهي الحياةُ, فَعِفَةٌ,أو فتنَةٌ ثمّ المَماتُ, فجَنّةٌ أو نارُ**[5] (الكامل)

**نارُ**[5]

وقوله:

**العيشُ أدّى إلى ضُــرٍّ ومَهْلكــةٍ؛ لولا الحَياةُ لكانَ الجسمُ كالصَّنَم**[6] (البسيط)

فالدنيا ــ من وجهة نظره ــ دار زائلة, وعلى العقلاء فيها ألا يبكوا على الذين يغيبون عنها, لأن مصائبها كثيرة لا تحصى, إذ تنال من أبنائها بالسيوف والرماح والسهام الصائبة, كقوله:

**دُنيـــاكَ دَارٌ, إنْ يكــنْ شُهّادُهــا عُقَلاءَ, لا يبكوا على غُيّابــها**
**قد أظهرتْ نُوَباً تزيدُ على الحصى عدداً, وكَم في ضَبْنِها وعِيابها**
**تفــرِيهمُ بسيُوفــها, وتــكُبُّهُـــمْ برماحِــها, وتنالَهُمْ بِصيابِــها**

---

([1]) زيدان, عبد القادر: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري, القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1986م, ص ص 349 وما بعدها .

([2]) إبراهيم, زكريا: مشكلة الإنسان, ص 124 .

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 65/1 .

([4]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره, 1198/3 وما بعدها .

([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,468/1 .

([6]) نفسه , 452/2 .

**ما الظّافــرونَ بِعــزّها ويَســارِها,     إلا قريبو الحالِ مِنْ خُيّابــها**[1] (الكامل)

لأن الموت هو السيف الباتر الذي لا صليل له, كقوله:

**وسَيْفُ المنيّةِ أمضى السّيوفِ,     وما سَمِعَتْ مِنْهُ أُذْنٌ صليلا**[2] (المتقارب)

فالحياة ــ في نظر المعري ــ غير جديرة بأن يحياها الإنسان, أو أن يوجد فيها, مادامت تحوي الشرور والعذاب, فهي في صميمها كتلة متراصة من الشرور والإثم والألم, فأحزانها وأفراحها سواء, كقوله:

**وشبيّهٌ صوتُ النّعي إذا     قيسَ بصوتِ البشيرِ في كلِّ نادِ**[3] (الخفيف)

وهكذا كان أبو العلاء مستخفاً بالحياة, ساخراً مما يبذله أبناؤها من ماء الوجه, ودم القلب من أجل أباطيلها, وهو يؤثر عليها الموت والعدم؛ فالحياة عناء موصول بعذاب, وولادة يتلوها موت, هي سفرة شاقة تبدأ بالولادة, وتنتهي بالاحتضار وفي ذلك يقول:

**أَرْسَــلْتَ غَرْبَكَ تَبغي الماءَ, مُجْتَهِداً     وما على الغربِ لمّــا خانَــك المَــرَسُ**
**وبئسَ ما يأمــلُ الجانــونَ من ثَمَرٍ,     إنْ قَالَ عارِفُ غَرْسٍ: بئسَ ما غرسوا**[4] (البسيط)

ويقول أيضاً:

**أَيعَلَمُ اللّيثُ, لمَّــا راحَ مُفْتَرِســـاً     بأنّهُ, عن قَريبٍ, سوف يُفتَرسُ؟**[5] (البسيط)

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 172/1, الضبن: ما بين الكشح والإبط, العياب: كنّى بها عن الصدور والقلوب, والقلوب, تكبّهم: تقلبهم على رؤوسهم, الصياب: الخالص والصميم والأصل والخيار من كل شيء, ولعله أراد بالصياب السهام الصائبة.

([2]) نفسه, 312/2.

([3]) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص111, النعي: المخبر بالموت.

([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 20/2.

([5]) نفسه, 19/2.

إنه يعايش تلك الحقيقة معايشة آنية لا تنفك عنه, فلا مرسى لسفينة الحياة إلا على ساحل الموت[1] كقوله:

**وكَيْفَ أَرُوْمُ في أدبٍ وفَهْــمٍ,      دِراساً, والمآلُ هُوَانْدراســي!**
**كأَنا, في السَّفائنِ, عائمــاتٍ,      وعِنْدَ الموْتِ أُلْقِيَتِ المَرَاسي[2]** (الوافر)

لأن الحياة ــ كما رآها ــ علة الشقاء, وسر الهلاك, فإذا رغب المرء في تفادي الشقاء والهلاك, فعليه أن يرفض الحياة رفضاً مطلقاً, على نحو ما يفهم من قوله:

**إنْ شِئْتَ أنْ تُكْفى الحِمامَ فلا تَعِشْ,      هذي الحياةُ إلى المنيّةِ سُــلّمُ[3]** (الكامل)

ومما يزيد من شقاء الحياة ــ من وجهة نظره ــ كثرة المصائب التي تعتور الإنسان فهو لا يكاد يحتال على مصيبة مداهمة, أو يتناسى نائبة ماضية, حتى يفاجئه الدهر بخطب جديد؛ فالحياة ما هي إلا سلسلة متصلة من الآلام, فلهذا كرهها و نفر منها, ووجد الراحة في الموت, على نحو ما نرى في قوله:

**جَيْبُ الزمانِ على الآفاتِ مزرورُ,      ما فيــه إلاّ شقيُّ الجَدّ مضــرورُ**
**هوّنْ عليكَ, فمــا الدنيا بدائمــةٍ,      وإنّما أَنتَ مثلُ النّاسِ مغرورُ[4]** (البسيط)

ومع ذلك؛ فالناس لا يعتبرون, ولا يتعظون أبداً, فالعاقل ــ في رأيه ــ يجب ألا يأسف على الحياة, بل يتمناها توصلاً إلى راحة حقيقية وأبدية, حيث يقول:

**نُقَضّــي وقْتَــنا بغنــىً وعُــدْمٍ,      ونُنْــفِقُ لفظَــنا هَمْــساً ونَبــرا**
**كــأنا فــي بحــارٍ من خُطــوبٍ,      وليسَ يرى لها الرّاؤونَ عِبرا[5]** (الوافر)

لأن الدنيا دار حافلة بالنحوس والهموم, ملأى بالأكدار والأمراض, مكتظة بالرزايا والمصائب, من مثل قوله:

---

(1) اليظي, صالح: الفكر والفن في شعر أبي العلاء, ص208.
(2) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 57/2.
(3) نفسه، 405/2.
(4) نفسه، 437/1.
(5) نفسه ، 507/1, العِبر : الشاطئ , الناحية .

وردْتُ إلى دارِ المَصَائبِ, مُجبَراُ, وأصبحتُ فيها لَيْسَ يُعجبني النّقلُ
أُعاني شــروراً لا قِوامَ بمثلــها, وأدناسَ طبعٍ لا يُهذّبُهُ الصَّــقلُ(1) (الطويل)

لذلك نراه مؤثراً الموت على الحياة, عادّاً إياه المخلصّ والمحرر للآلام والمصائب حتى إنه يوصينا بالترحيب بالموت والتسهيل به, حيث يقول:

أهــلاً بغائلةِ الرَّدَى وإيابها, كيما تُستّرُني بفضلِ ثيــابها(2) (الكامل)

ويقول:

ولــم يحبُنــي أحَــدٌ نعمــةً؛ ولكــن مَوْلى المَوَالي حــبا
نَصَحْتــُكَ, فاعمــل له دائمــاً؛ وإنْ جاءَ مَوْتٌ, فقلْ: مرحبا(3) مرحبا(3) (المتقارب)

لأن الموت عادل لا يفرق بين الناس؛ فالجميع عنده سواء, على نحو ما نرى في قوله:

والنـــاسُ بين إقامـــةٍ وتحمّلٍ, وكأنّــما أيّــامُهُمْ أسفـــارُ
والحتفُ أنصَفَ بينهم, لم تمتنعْ منه الرّئالُ ولا نجا الأغفارُ(4) (الكامل)

فالملك والحطاب عنده سيان, وكذلك الخطير والحقير, والعزيز والذليل, على نحو ما نرى في قوله:

هوَ المــوتُ, مُثْرٍ عندَهُ مثلُ مقترٍ, وقاصــدُ نَهْــجٍ مثلُ آخرَ ناكبِ
ودِرعُ الفتى, في حكمه,دِرْعُ غادةٍ, وأبياتُ كِسرَى من بيوتِ العناكبِ(5) (الطويل)

وقوله:

---

(1)المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 258/2 .
(2) نفسه, 172/1, الغائلة: من غاله: إذا أخذه من حيث لا يدري .
(3) نفسه, 139/1, يحبوني: يعطيني, مولى الموالي: الله تعالى, حبَا: أعطى
(4) نفسه , 464/1, الرئال: أولاد النعام, واحدها رأل, الأغفار: أولاد الأراوي واحدها غفر.
(5) نفسه, 144/1, الناكب: العادل عن الطريق, و هو مقابل قوله :قاصد نهج, الدرع الأولى: ما يلبسه الرجل من الزرد, الزرد, والثانية: ثوب المرأة.

ما عاقدُ الحبْلِ يَبْغي بالضُّحى عَضَداً  إلاّ كصاحبِ مُلْكٍ عاقِدِ التّاجِ

وما رأينا صُروفَ الدّهرِ تاركَةً  ليثاً, بتْرجٍ, ولا ظبياً بفرتاجِ[1] (البسيط)

ولما كان المرء شديد التمسك بالحياة وملذاتها؛ فقد لجأ إلى وسائل كثيرة تمد في حياته وعمره, علماً أن أبا العلاء كان يرى في ذلك الحمق بعينه؛ لأن الموت آت لا محال, كقوله:

هــذي القضايا, فَمَنْ يُطاولُــها,  وهيَ المَنَايا, فَمنْ يُخاشِنُــها؟
لــم يَثْنِ, عــن فارسٍ وحِمْيَرِها,  دُروعُها المَوْتَ, أو جَواشنُها
ولا قصــورٌ لهــا مُشَــيَّـــدَةٌ,  قَدْ مُوّهَتْ عَسْجَداً رَواشِنُها[2] (المنسرح)

وقوله أيضاً:

كُنْ حيثُ شِئتَ, بلُجّةٍ,أو ربوةٍ,  أو وَهْدةٍ, سينالُكَ التّيّارُ[3] (الكامل)

فلا مهرب إذن, ولا حماية من الموت, فمهما اتخذ المرء من وسائل الوقاية والحماية, فلن يجديه ذلك نفعاً, فلا السلاح يجدي, ولا الدرع والترس يصدّ, حيث يقول:

أما الحُسامُ, فما أدناكَ من أجَلٍ,  ولا يَرُدُّ الحِمامَ الدّرعُ والتُّرُسُ[4] (البسيط)

ولا الرقية تجدي, ولا الطب يسعف, كقوله على لسان طفل:

رَقتني الرّاقِياتُ, وحُمَّ يومي,  فغادرَني, كأني ما رُقيتُ[5] (الوافر)

وقوله:

ولم يدفَعْ, رَدى سُقْراطَ, لَفْظٌ,  ولا بُقْراطُ حامي عنهُ طِبٌّ[6] (من الوافر)

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 270/1, عضدا: من عضد الشجرة: قطعها بالمعضد وهو حديدة كالمنجل لقطع لقطع الشجر وأراد بالعضد لاحتطاب مطلقاً, ترج: مأسدة, فرتاج: سمة للإبل وهي هنا اسم موضع تكثر فيه الظباء.
([2]) نفسه, 07/2 , الجواشن: جمع جوشن وهو زرد يلبس على الصدر, الرواشن: جمع روشن وهو الكوة من البيت.
([3]) نفسه, 466/1 .
([4]) نفسه , 19/2 .
([5]) نفسه, 206/1, رقتني , من الرقية : العوذة ,حمّ : قرب .
([6]) نفسه, 98/1 , سقراط : فيلسوف يوناني , بقراط: أحد أطباء اليونان المشهورين .

وقوله:

**والموتُ طِبٌّ, لَيْسَ يُبْـ ـرئهُ الحكيمُ, وإن تطبّبْ**[1] (مجزوء الكامل)

نعم, إن أبا العلاء عرف تلك الحقيقة القاسية والمؤلمة, ولكنه لم يفقد توازنه, بل على العكس تماماً جعل من ألمه أداة لتعميق نظرته في حقائق الحياة, فخلص إلى حقيقة أكثر أملاً وتفاؤلاً, وهي أن الموت نهاية سعيدة, وخلاص أبدي من متاعب الحياة وشرورها[2].

ومن الملفت للانتباه حقاً أن في لزومياته كثيراً ما يقرن حديثه عن الحياة بذكر الموت, مظهراً القياس والتباين بينهما, معلناً بذلك عن بلاغته, مُطلقاً خياله, فإذا هما داء ودواء, كقوله:

**وما العَيْشُ إلا علّةٌ بُرؤها الرّدَى, فخلِّي سبيلي أنصرفْ لِطِياتي**[3] (الطويل)

وهما سهاد ونوم, كقوله:

**وموتُ المَرْءِ نومٌ طالَ جدّاً عليه, وكلُّ عيشتهِ سُهادُ**[4] (الوافر)

وهما حرب وسلم, من مثل ما نرى في قوله:

**والعيشُ حَرْبٌ لم يَضَعْ أوزارَها إلا الحِمامُ, وكلُّنا أوزارُ**[5] (الكامل)

وهما شجر وثمر, من مثل قوله:

**لا عِـلْمَ لي بمَ يُخْتَمُ العُمْـرُ؟ شجرُ الحياةِ, لَهُ الرَّدى ثُمْرُ**[6] (الكامل)

وهما صوم وفطر, كقوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 184/1, الطِّب: الداء .

([2]) غريب, جورج: العصر العباسي , ص 253 .

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,223/1 , طياتي: واحدتها طية بتخفيف الياء وتشديدها, : الوطر والحاجة .

([4]) نفسه , 336/1 .

([5]) نفسه, 463/1 .

([6]) نفسه, 471/1, الثُمْر: (بتسكين الميم), المال المثمر, وقد يكون أراد الثُمُر (ميم مضمومة), وهو جمع للثمرة, فسكن فسكن لضرورة الشعر.

**طالَ صَوْمي، ولستُ أَرْفَعُ سَوْمي،      ووُفودي، على المنيّةِ فِطْرُ**[1]    (الخفيف)

وهما فقر وغنى، على نحو ما نرى في قوله:

**أمّــا الحياةُ، فَفَقْرٌ لا غِنـــى معَهُ،      والموتُ يُغْنِي؛ فسُبْحَانَ الذي قَدَرا**[2]    (البسيط)

وهما إقلاع وإرساء، حيث يقول:

**كأنّا في السَّفائنِ عائماتٍ      وعندَ الموتِ أُلْقِيَتِ المَراسي**[3]    (الوافر)

وهما موت وبعث، على نحو ما نرى في قوله:

**ثِيابيَ أكفانـــي، ورَمْسِـــيَ منزِلي،      وعيْشي حِمامي، والمنيةُ لي بَعْثُ**[4]    (الطويل)

ولما كان أبو العلاء لا يرى في الوجود إلا الشر والهم، وأن الحياة شقاء، وأن الإنسان مفطور على الفساد، كان من الضروري أن يرى الخلاص من كل هذه المتاعب براحة الموت، حتى إنه كان ينزعج ممن يدعو له بطول العمر[5]،حيث يقول:

**دَعَا لي بالحياةِ أخــو ودادٍ      رُويدَكَ، إنما تدعو عليّا**
**وما كانَ البقاءُ ليَ اختياراً،      لوَانَّ الأمرَ مَرْدودٌ إليّا**[6]    (الوافر)

كره أبو العلاء الوجود، وآثر العدم، وتمنى للوليد ألا يولد، وللحي أن يفنى، على نحو ما نرى في قوله:

**وليتَ وليداً ماتَ ساعةَ وَضعِهِ،      ولَمْ يَرتَضِعْ من أُمّهِ النَّفْساءِ**[7]    (الطويل)

كما تمنى لنفسه الموت والفناء، لأن عمره في هذه الدنيا الذميمة قد طال، كقوله:

---

([1])المعري، أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ، 476/1 ، السوم: أراد به ما كلف من العذاب .
([2]) نفسه، 501/1 .
([3]) نفسه، 57/2 .
([4]) نفسه، 245/1 .
([5]) محمود، كامل: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية ،بيروت ، دار الفكر اللبناني د.ت ، ص 151 .
([6]) المعري ، أبو العلاء ، لزوم ما لا يلزم ، 646/2 .
([7]) نفسه، 63/1 .

قَدْ طالَ عُمريَ طولَ الظُّفر, فاتصَلَتْ     به الأذاةُ, وكان الحظُّ لو قُلِما[1]     (البسيط)

وتمنّى لو أن أحداً ما لم يبعه ميتة سهلة، ولعن النادم فقال:

مَنْ باعَني بحَياتي ميتةً سُرُحاً,     بايَعْتُهُ, وأَهانَ اللهُ من نَدِما[2]     (البسيط)

ولعلنا نرى خلاف ما رآه المعري؛ فالحياة وجدت ليجد الإنسان فيها ذاته, ويدرك حقيقة وجوده, آخذاً دوره بكل إيجابية وفاعلية باعتباره أرقى المخلوقات, سيداً للكون؛ فالتفاؤل بالحياة يفتح آفاقنا لتحقيق آمالنا وطموحاتنا, ولا غنى عن الإرادة القوية والعزيمة الثابتة, وإنْ داهمتنا المصائب وغشيتنا الملمات.

**2 ــ تعطيل الزواج والتناسل:**

يقول أبو العلاء المعري:

هذا جناهُ أبــي عليَّ     وما جنيتُ على أَحَدْ  (مجزوء الكامل)

لما كانت الدنيا في رأي أبي العلاء ــ كما ذكرنا آنفاً ــ دار شقاء وعناء لكثرة شرورها ومصائبها؛ فكان التناسل ــ من وجهة نظره ــ جناية وشراً, لأنه يزجّ في تلك الدار بأحياء جديدة كانت في نعمة العدم؛ لذلك فقد كره الزواج, لأن الأهل ــ عنده ــ جناة والأولاد ضحية.

فإذا كان بعض الدارسين يرى أن الزواج رابطة تقوم على الاستقرار والثبات[3], فإن أبا العلاء كان يرى فيه تغذية مستمرة لعملية الموت, وعلى المرء أن يتوقف عن إمداده بهذه المائدة البشرية طواعية ومحبة[4], كقوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 428/2 .

([2]) نفسه, 429/2 , سُرُحاً : سهلة أو سريعة .

([3]) إبراهيم, زكريا: مشكلة الإنسان, ص 22 .

([4]) زيدان, عبد القادر: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري , ص 274-276 .

**دَعِ النّسلَ! إنَّ النسلَ عُقباهُ مِيتةٌ؛ ويُهجَرُ طيبُ الرّاحِ خوفاً من السُّكرِ**[1] (الطويل)

أو كما يقال بلغة الفلاسفة "إن الإنسان يشرع في الموت بمجرد ما يولد, وهذه الفترة المحدودة التي يحياها إنما هي المدة التي تستغرقها عملية وفاته"[2].

ويبدو أن فكر المعري كان ميداناً يصطرع فيه تياران اثنان, الإنجاب وعدمه؛ فالإنجاب يعني في صورة من صوره حب الدنيا, والإقبال عليها والرضا عنها, فضلاً عن المشاركة في نموها واستمراريتها؛ وأما العدم فيعني خنق هذا التقدم المستمر إلى الأمام ليحيله إلى لا شيء, وكان على أبي العلاء أن يختار, فاختار العدم منذ بدء حياته[3], فامتنع عن الزواج, لأن الحياة من ــ وجهة نظره ــ كلها شقاء وتعب؛ فإذا تزوج المرء وأنجب أولاداً أشقاهم, وأشقى نفسه بهم, وفي ذلك يقول:

**والنسلُ فَرْشٌ لهمومِ الفَتى والعَقْلُ مَسلوبٌ من الفارشِ**[4] (السريع)

ويقول:

**وإذا أرَدْتُم للبنـــينَ كَـــرامَـــةً, فالحَزمُ أجمَعُ, تركُهُمْ في الأظهُرِ**[5] (الكامل)

فالبشرية ــ فيما خبر ــ أساس الشقاء, ولا يمكن إزالة هذا الشقاء بالإصلاح, وإنما بتعطيل النسل البشري, حيث يقول:

**هَلْ يَغسِلُ الناسَ عن وجه الثَّرى مطرٌ, فما بَقُوا لم يبارحْ, وجهَهُ, دَنَسُ**
**والأرضُ لَيْسَ بمَرْجُوٍّ طَــهارَتُـــــها, إلا إذا زالَ عن آفاقِــها الأنَسُ**[6] (البسيط)

فالعالم شر خالص ــ من وجهة نظر المعري ــ وليس لهذا الشر من دواء إلا أن

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 520/1 .
([2]) إبراهيم, زكريا: مشكلة الإنسان , ص 118 .
([3]) زيدان, عبد القادر: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري , ص 128 .
([4])المعري, أبو العلاء , لزوم ما لا يلزم , 78/2 , الفرش : الزرع .
([5]) نفسه, 566/1 .
([6]) نفسه , 21/2 .

يتحطم, للوصول إلى الراحة الكبرى, فإن لم يتحطم هذا العالم من نفسه, فلنحطمه نحن بأيدينا, فنعطل بذلك عملية التزاوج والتناسل؛ ولعله من أجل ذلك كان يهاجم المرأة, على أنها النبع الذي يمدّ البشرية بالاستمرارية والتدفق, على نحو ما يفهم من قوله:

**فَلَيْتَ حوّاءَ عَقيمٌ غَدَتْ,     لا تَلِدُ النّاسَ ولا تَحْبَلُ**[1]     (السريع)

يرى الدكتور زكي المحاسني أن أبا العلاء يرمي من إبطال الزواج إلى نفي الصلة بالمرأة أصلاً, فصمم نقده في قلب الزواج درءاً للأولاد؛ لأن الزواج وسيلة لإيجادهم في الدنيا, فهو ينفي السبب (أي الزواج) من أجل المسبب (أي الأولاد) الأبرياء[2], غير أن بعضهم الآخر الآخر يرى أنه من الخطأ المبالغ فيه أن يفصل المرء موقف أبي العلاء من المرأة عن موقفه من الحياة ذاتها, إذ كان يراها شقاء, وكان يرى أنّ المرأة مصدر من مصادر هذا الشقاء, لأنها تلهي الرجال عن جلائل الأعمال, وتصرفهم عن التقى والدين والنضال, ثم تلهيهم بالزواج, وتنجب للبشرية المزيد من التعساء الذين يخرجون إلى الحياة, وياليتهم ما خرجوا[3], كقوله:

**نادى حَشَا الأُمّ بالطفل الذي اشتملت     عليه: ويحكَ لا تظهرْ ومُتْ كَمَدا!**
**فإنْ خرجـــتَ إلى الــدّنيا لقيتَ أذىً     من الحوادث, بَلْهَ القيظَ والجَمَدا**
**ومـــا تَخلَصُ يومـــاً من مكـــارِهِها     وأنـــتَ لابدَّ فيـــها بالـــغٌ أمَدا**[4]     (البسيط)

لذلك نرى أبا العلاء مصمماً العزوف عن المرأة, حتى لا يكون اللقاء سبيلاً لإنجاب المزيد من المعذبين في الأرض، وفي لزومياته دعوة ملحة بضرورة تجنب النساء وعدم مخالطتهن, والمرأة ــ من وجهة نظره ــ عديمة الثقة, حيث يقول:

**فمـــا أَمِنَتْ نســـــوانُ قومٍ أعزّةٍ,     على عِزّها أنْ تُستَباحَ فُروجُها**
**وما تمنع الخَودَ الحصانَ حُصونُها     ولو أنَّ أبراجَ السّماءِ برُوْجُها**[5]     (الطويل)

وهو بذلك لا يطمئن إلى المرأة حتى وإن أبدت المودة والرضا؛ فما هي إلا حقودة

---

(1) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 280/2 .
(2) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص 41 وما بعدها .
(3) سلامة, يسري : النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء , ص 246-247 .
(4) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,354/1 , بله : اسم فعل بمعنى دَعْ , الجمد : الثلج .
(5) نفسه, 256/1 .

شريرة, حيث يقول:

**وإنْ هُنَّ أَبدَيْنَ المــودّةَ والرِّضا فَكَمْ مِنْ حُقُودٍ غُيِّبَتْ في السَّرائِر!**[1] (الطويل)

لهذا يرى أن سعادة آدم تحققت قبل خلق حواء, لأنها ــ من وجهة نظره ــ جاءت ومعها الشر والظلم, على نحو ما جاء في قوله:

**أُلاتُ الظَّلْمِ جِئنَ بشــرّ ظُلــمٍ, وقــدْ واجَهْــنَا متظلــّماتِ**
**فوارسُ فتنةٍ, أعـــلامُ غَيٍّ لقينَــكَ بالأســاورِ مــعلمِاتِ**
**وِسامٌ ما اقْتَنَعْنَ بحسنِ أصْلٍ فجِئْنَكَ بالخِضَاب مُوسَّماتِ**[2] (الوافر)

وما دام النساء ــ من وجهة نظره ــ مضيعات للشرف, فأولى أن لا ينجبن, لئلا يضيعن الشرف المجيد, حيث يقول:

**ألا إن النّساءَ حِبَالُ غَيٍّ بهنّ يُضَيَّعُ الشَّرَفُ التَّليدُ**[3] (الوافر)

وللسبب ذاته استوى عنده كل من نسل إبليس, ونسل حواء؛ فكلاهما لا يُثق فيه, على نحو ما قال:

**وما الغواني الغوادي في ملاعِبِها, إلا خيالاتُ وقتٍ, أَشْبَهَتْ لُعَبا**[4] (البسيط)

وقال:

**أنسلُ إبليسَ أم حوّاءَ, وَيْحَكُمُ, هذا الأنامُ ففي أفعالهِمْ دَلَسُ**[5] (البسيط)

لا "لأنه يؤيد الاشتراكية في النساء", كما يقول الدكتور طه حسين[6], بل لأنه لا يطمئن

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 526/1 .

([2]) نفسه , 231/1 وما بعدها, أُلات الظَّلم: صاحبات الأسنان التي فيها ظلم, وهو ماء الأسنان وبريقها, معلمات : موسومات بعلامات,أو مزينات, وسام : حسان الوجوه, موسمات : متسمات .

([3]) نفسه, 337/1 .

([4]) نفسه, 119/1 .

([5]) نفسه, 18/2 , الدلس : الخداع .

([6]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء , ص 301 .

إلى شرعية الحمل, وبهذا فليس من المستبعد إذن أن نراه وقد حمل عليها حملة شعواء, حيث يقول:

**وَلَدَتْهُمُ, في غيرِ طُهْرٍ, عَاركاً, فلذاكَ تُفقَدُ فيهم الأطْهَارُ**[1] (الكامل)

حتى إنه يرى أن الشمس أو حضار أو الجوزاء, أفضل منها, حيث يقول:

**كُوني الثريّا, أو حَضارِ, أو الـــ جوزاءَ, أو كالشّمسِ لا تَلِدُ**
**فتلـــكَ أشــرَفُ مـــنْ مُـــؤنّثةٍ, نَجلَتْ, فضاقَ بنَسلِها البَلَدُ**[2] (الكامل)

لذلك نراه مادحاً الأوائل الذين أمسكوا بزمام نسائهم, ولم يتركوا لهن باباً إلى مجالس النساء, يجتمعن إلى غناء, أو إلى غيره, فما أخطر المرأة على المرأة ــ من وجهة نظره ــ وما أيسر أن تلهب المغنيات والقاصات مشاعر المرأة, فتختلط عليها المشاعر, وتتنابها الأوهام, فترق وتلين, وتضطرب حواسها, فتتعثر في ذيلها, أو في ذيول سواها[3], يقول:

**تَهتِكُ السِتْرَ بالجُلوسِ, أمامَ الســِّ ترِ إن غَنّتِ القَيانُ وراءه**[4] (الخفيف)

ولهذا كان يثني على اللواتي قعدن في بيوتهن للغزل, وشغل البيت, حيث يقول:

**تُضَاهي العَنَاكِبَ نِسوانُهــمْ, فَتَنسجُ للنَفْـــعِ أو تــَغْزِلُ**
**وما عَزَفَتْ مِزهِراً في الحيا ةِ, ولا الدّنُّ يُفْتَحُ, أو يُبزَلُ**
**جهِلْنَ الغِناءَ, وصـــوتاً يقا لَ: غَنّاهُ دَحمانُ أو زُلزُلُ**[5] (المتقارب)

أسرف أبو العلاء في سوء الظن بها إلى أبعد غاية لما كان يسمعه ويعلمه من حالها وحال الرجل في عصره, وحمله ذلك على الاعتقاد بأن بعض الفروض الدينية لا تجب عليها, وأن بعض السنن غير مطلوبة منها, لما يترتب على ذلك من إثارة الفتن والفجور[6], لذلك فهو لا

---

(1) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,465/1 , العارك : الحائض .
(2) نفسه ,343/1 , حضار: اسم نجم .
(3) سعفان, كامل: في صحبة أبي العلاء بين التمرد والانتماء , ص163 .
(4) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 63/1 .
(5) نفسه, 287/2, دحمان : مغنٍ مشهور .
(6) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء , 1545/3 –1546 .

لا يرى الحج فرضاً عليها, خوفاً عليها من أشرار مكة, على نحو ما نرى في قوله:

**أقيمـــي, لا أعُدُّ الحــجَّ فرضاً,       على عُجُزِ النساءِ ولا العَذَارَى**
**ففي بطــحاءِ مكّةَ سِــرُّ قــوم       وليسوا بالحُماةِ ولا الغَيَــارَى**[1] (الوافر)

ومن الجدير بالذكر, أن أبا العلاء كان يرى أن الخمرة والمرأة هما منشأ الفساد في المجتمع؛ أما الخمرة؛ فلأنها تقود إلى سائر الرذائل, وأما المرأة؛ فلأنها موضع الفسق والفجور, ولا يرى المعري أن الرجل بريء الساحة من الجرم الاجتماعي, فلئن كانت الخمرة والمرأة من المواد الأولية لصناعة الفسق والفجور, فإن الرجل هو العامل الذي يتفنن في بضاعة اللهو, وسلع الفساد[2].

ومهما يكن رأي أبي العلاء في الزواج, فإنه يرى أن من أحزم الأمور عدم النسل, متمنياً بذلك موت الوليد قبل مجيئه إلى الحياة, حيث يقول:

**وليتَ وليداً ماتَ ساعةَ وَضعِهِ,       ولَمْ يَرتَضِعْ من أُمّهِ النُّفَساءِ**[3] (الطويل)

والأمر الأحزم عند أبي العلاء هو عدم الزواج, أما من خاف الوقوع في الإثم فيمكنه الزواج شريطة ألا ينسل, يقول:

**نَصَحتُكَ لا تَنْكِحْ, فإنْ خِفتَ مأثماً,       فأعرِسْ ولا تُنسِل, فذلك أحزَمُ**[4] (الطويل)

إنه يخاف النسل ويخاف الآلام المستمرة نتيجة فساد الحياة والمجتمع[5], وليس من المستبعد أن تتغشاه الدهشة من بني جنسه الذين فقدوا الحزم, واتسموا بالتلاشي واللامبالاة, لذلك فإنه يعجب من مواصلة هذا الألم المستمر, قائلاً:

**كلٌّ, على مكروهِهِ مُبسَلُ       وحَازِمُ الأقوامِ لا يُنسِلُ**

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,73/1, بطحاء مكة: مسيل واديها, الغيارى: من الغيرة, واحدها غيران.
([2]) اليازجي, كمال: أبو العلاء ولزومياته ,ط2, بيروت, دار الجيل, 1997م, ص347 .
([3]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 63/1 .
([4]) نفسه, 381/2 .
([5]) خريباني, جعفر: أبو العلاء المعري رهين المحبسين , ط1 , بيروت , دار الكتب العلمية , 1990م , ص 91 .

**فَسْلٌ أبو عالَمِــــنَا آدَمٌ,       ونحنُ من والِدِنا أفسَلُ**[1]    (السريع)

تلك صيحات نادى بها أبو العلاء أبناء عصره, لكنها لم تلق آذاناً صاغية, فوجد من خلالها أنه لا بد من الزواج, إشباعا للغريزة, وصيانة للمرأة وحياتها, ولكن بشرط ألا يتناسلوا الأولاد, حيث يقول:

**تَنَاسَلوا, فَنَمَى شَرٌّ بنَسْلِهِمُ,       وكَمْ فُجُورٍ إذا شبّانُهم عَنَسُوا**[2]    (البسيط)

وقوله:

**إنَّ الأوانسَ أن تزورَ قبورَها,       خيرٌ لها من أن يُقالَ عرائِسُ**[3]    (البسيط)

فخير نساء العالمين عقيمها التي لا تنجب أبداً, على نحو ما جاء في قوله:

**خَيرُ النساءِ اللّواتي لا يلِدْنَ لكم,       فإنْ وَلَدْنَ, فَخيرُ النّسلِ ما نَفَعا**
**وأكثرُ النسلِ يَشْقَى الوالدانِ بهِ,       فــليتَهُ كــانَ عن آبائِهِ دُفِــعا**[4]    (البسيط)

وقوله:

**إذا شِئْتَ يوماً وصلةً بقرينةٍ,       فخيرُ نِسَاءِ العالمينَ عَقيمُها**[5]    (الطويل)

لأن العقم ــ من وجهة نظره ــ خير للمرأة نفسها لو رشدت, حيث يقول:

**قد ساءها العُقْمُ, لا ضَمتْ ولا ولدتْ!       وذاكَ خيــرٌ لها لــو أُعطِيَتْ رَشَدا**
**ما يأخُذُ المــوتُ, من نفسٍ لَمُنْفَرِدٍ,       شيئاً سِواها, إذا ما اغتالَ واحتَشَدا**[6]    (البسيط)

فهو يرى بالزواج بأساً, إذا كان المرء يحرص على أن يخلد ذكراً من بعده, أو يريد أن يستعين بأحدهم على قضاء حاجاته عند كبره, فيرى النسل أولى بذلك من غيره, على أن يسلك في تحصيله طريق العقل والوعي, يقول:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,281/2 . فسل : الضعيف الحقير .
([2]) نفسه , 21/2 .
([3]) نفسه, 31/2 .
([4]) نفسه,133/2 .
([5]) نفسه, 391/2 , العقيم : التي لا تحمل .
([6]) نفسه, 352/1 .

**دنياكَ دارٌ, كلُّ ساكِنِها        مُتَوقِّعٌ سَبَباً من النّقلِ**
**والنّسلُ أفضلُ ما فعلتَ بها,        وإذا سَعَيْتَ له فَعَنْ عَقْلِ**[1]        (الكامل)

ولعل البعض يعد تلك الأبيات تناقضاً لما جاء به المعري, فهو تارة يحارب النسل ويعده جناية, وتارة أخرى يوصي به ويراه ضرورة لصون حياة كل من الرجل والمرأة, وربما لا نرى في ذلك أي تناقض, لأن أقواله وآراءه تندرج من باب "الضرورات تبيح المحظورات" أو من باب "تداوى شارب السمّ بالسمّ".

وعلى الرغم من تساهله أحياناً قليلة في تلك القضية, إلا أنه يظل في معظم الأحيان معرضاً عن النسل حرصاً على راحة الأبناء من العناء والأذى, لأن النسل ــ كما رآه ــ جناية على الولد وشقاء على الوالدين, من مثل قوله:

**لو اَنَّ بنيَّ أفضلُ أهلِ عَصري        لما آثَرْتُ أن أحظى بنَسْــلِ**
**فكَيْفَ وقد علمتُ بأنَّ مثلــي,        خَسيسٌ لا يجيءُ بغيرِ فَسْلِ!**[2]        (الوافر)

وقوله:

**وأَرَحتُ أولادي, فَهُمْ في نعمةِ الــ        ــعدمِ, التي فضَلَتْ نعيمَ العاجلِ**
**ولو أنّهم ظَــهَروا لعــانوا شِــدّةً,        تــرميهِمُ في مُتْلِفاتِ هَواجِــلِ**[3]        (الكامل)

لأن الخطأ الوحيد الذي ارتكبه والداه أنهما ألقيا به في دار ملؤها الشقاء والعذاب الذي لا ينتهي عند حدّ, وفي ذلك كان يقول: "أورَدَنِي أبي مَورِداً لابُدَّ أن أَرِدَهُ, والله لا أُوردتُهُ أحداً بعدي"[4], ولم يقف أبو العلاء عند هذا القول فحسب, بل راح أيضاً يوصي من بعده أن يكتب على قبره حين وفاته البيت الآتي:

**هذا جناهُ أبي عليّ        وما جنيتُ على أَحَدِ**  (مجزوء الكامل)

وقد رأى ابن كثير في هذه الوصية كفراً وإلحاداً[5], إلا أن الدكتور يسري سلامة اعتبر

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 358/2 .
([2]) نفسه, 345/2, الفسل: الرذل الذي لا مروءة له.
([3]) نفسه, 354/2, الهواجل: الفلاة القفر التي لا أعلام فيها .
([4]) نقلاً عن ابن الجوزي, سبط: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص156.
([5]) ابن كثير, الحافظ: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص306.

اعتبر ابن كثير مغالياً حين رمى أبا العلاء بسوء الاعتقاد, معلقاً بقوله: "وهو الذي ينظر إلى الحياة نظرة الزهد والتقشف, ويرى فيها عرضاً زائلاً وزيفاً خادعاً, وأن الإنسان لا يفيد منها إلا العذاب, ولذلك فإن مجيئه إلى هذا العذاب مسؤولية أبيه الذي أقدم على الزواج من أمه"[1].

وإلى ذلك الرأي, ذهب الدكتور زهدي الخواجا, حيث قال: "رفض أبو العلاء الزواج حتى لا ينجب أطفالاً يتعرضون لمثل ما تعرض له من ألم وحرمان"[2].

ونحن بدورنا نذهب إلى ما ذهب إليه الأستاذان السابقان, حيث نقول: إن تهمة الإلحاد والكفر تهمة خطيرة, ولا يجوز لنا أن نكفّر مسلماً بمجرد الشك في بعض آرائه, ولعلنا نجد عذراً لأبي العلاء في تلك القضية, وهو أن أبا العلاء ــ لما عُرف عنه ــ أنه رحيم ومرهف الإحساس, وبالتالي فقد أبى النسل تعاطفاً مع الآباء الذين ابتلوا ــ من وجهة نظره ــ بعبء الأولاد الذين قد يكون منهم العدو, أو العاق, ومن ثم تعاطفاً مع الذين قد ينشأون في اليتم والحرمان, حيث يقول:

**أرى ولَــدَ الفتـــى عِبئاً عليهِ,      لقد سَعِدَ الذي أمسى عقيماً**
**فإمّــا أنْ يُرَبيِّـــهُ عَــدُوّاً؛      وإمّــا أنْ يُخَلِّفَــهُ يتيــماً**[3] (الوافر)

وكما أشفق أبو العلاء على الولد من جناية والديه, فإننا نجده أيضاً يشفق على الوالدين من عقوق أبنائهما؛ وعقوق الأولاد ليس غريباً في عصر, مثل ذلك العصر الذي عاش فيه أبو العلاء, لما عرفناه من فساد في الحالة الاجتماعية والخلقية والدينية, لأنه يرى أن الأهل يربون الأولاد ويشقون بهم ليلاقوا الضغن والحقد, مقابل تعبهم وعنائهم, على نحو ما نرى في قوله:

**ربّيْــتَ شبــلاً, فلمّــا غَــدَا أسَداً      عــدا عــليك, فلــولا ربُّــهُ أكَلَكْ**

**جَنْيتَ أمراً فودَّ الشّيخُ من أســفٍ,      لمّا جَنَيتَ على ذي السّنّ لو ثَكَلَكْ**[4] (البسيط)

---

([1]) سلامة, يسري: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء, ص250 .
([2]) الخواجا, زهدي صبري: موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي (الحكمة في شعر أبي العلاء المعري), ط2, الرياض, الرياض, دار صبري, 1994م, ص301 .
([3]) المعري, أبو العلاء, لزوم ما لا يلزم, 431/2 .
([4]) نفسه , 246/2 .

وقوله :

أَعْدى عدوٍّ لابن آدمَ, خِلتُهُ  وَلَدٌ يكونُ خُرُوجُهُ من ظَهْرِهِ[1]  (الكامل)

وقوله:

إذا ما أَســنَّ الشّيخُ أقصــاهُ أهلُــهُ,  وجَارَ عليهِ النَّجلُ والعَبْدُ والعِرسُ
وصارَ كبنتِ الُموم, تَسْهَرُ في الدّجى,  بُكــاهُ لــه طَبــعٌ, ولِمَّتُهُ بِرْسُ[2]  (الطويل)

ولشدة خوف أبي العلاء على الابن والوالدين معاً دون تمييز أحدهما على الآخر؛ فإنه تمنى لو أن آدم "أبو العالمين" كان قد طلق حواء "أم العالمين", لكانت انقطعت سلسلة النسل المتواصل التي أدت إلى كل هذه الشرور التي لا نهاية لنموها واستمراريتها في ذلك العالم المثقل بالشرور والآهات, حيث يقول:

يا ليتَ آدمَ كانَ طَلّــقَ أُمَّهُمْ,  أو كانَ حرّمَها عليه ظِهارُ[3]  (الكامل)

لذلك "ابتعد المعري عن الزواج والنسل, وقد مات, وكل اعتقاده أن عدم إنجابه من أعظم حسناته على الإطلاق" [4].

وكان قد أعلن عن تلك الخطوة الجريئة في أدبه شعره ونثره منبهاً العالم بأسره إليها, محبباً إليهم حياة الوحدة والانفراد, والزهد في متاع الدنيا من مال وبنين ونساء, مثيراً بذلك كله اهتمام بعض الدارسين لتتبع سيرة أبي العلاء والبحث فيها عن سبب عزوفه اللاطبيعي عن الزواج والتناسل؛ فرأى الأستاذ محمد سليم الجندي أن للفقر أثره العظيم في عزوف المعري عن الزواج والتناسل؛ "لأنه خاف أن ينفق أكثر مما كان يطيقه, فيضطر إلى أن يقبل شيئاً من إخوته أو بني عمه, أو أخواله أو غيرهم, فآثر العدم على الحاجة والسؤال طوال مدة حياته" [5].

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 570/1 .
([2]) نفسه, 7/2 , المُوم: الشمعة , البِرس: القطن.
([3]) نفسه, 465/1
([4]) حمادي, محمد الحبيب: المعري وجوانب من لزوم ما لا يلزم , ط2 , الدار التونسية للنشر , 1979م , ص 103 .
([5]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء , 361/1 .

إلا أن البعض الآخر لم يسترح لمثل ذلك التعليل؛ فرأى أن موقف أبي العلاء لا يفسر على أساس الفقر أو قلة المورد, لأن هذا الرزق الثابت كان يكفيه ويكفي خادمه, ولو أنه استعاض عن الخادم بزوجة صالحة تعتني به, لكان الأمر أكثر تعادلية وتوسطية[1], فأخذ يبحث يبحث عن سبب أكثر إقناعاً, ليصل في نهاية بحثه وتعمقه في تلك القضية إلى أن السبب الرئيسي لامتناع أبي العلاء عن الزواج هو العجز الجنسي[2], على نحو ما يفهم من قوله:

**ولم يَلْقَ فـــي دَهْرِهِ, أجرَبيٌّ هَوانـــيَ, فليَنْأ عَنّي هَـــوَاني**
**وعنديَ سِـــرٌّ بَذِيٌّ الحديثِ, كَتَمْتُ عَنْهُ في العالمينَ الغواني[3]** (المتقارب)

إلا أن بعض الدارسين نحى منحىً آخر؛ فمنهم من عد إقلاع أبي العلاء عن الزواج مظهراً من مظاهر غلوه بالزهد والنسك[4], ومنهم من جعل سبب الإقلاع هذا درءاً للأولاد, لأن لأن الزواج وسيلة لإيجادهم في الدنيا الملأى بالشرور[5], ومنهم من جعل أبا العلاء متعلقاً باعتقاد الحكماء الذين يرون إيجاد الولد وإخراجه إلى هذا العالم جناية عليه لأنه يتعرض للحوادث والآفات[6], ومنهم من أرجع سبب ترك أبي العلاء للنسل والزواج إلى تعلق المعري بمذهب مزدك الفارسي[7].

وبناء على ما تقدم؛ فنحن لا نستطيع أن ننكر على الدارسين ما توصلوا إليه من أسباب تكاد تكون مقنعة أشد الإقناع لكلّ منهم؛ ولكننا بالتالي قد نتفق مع بعضهم, ونختلف مع بعضهم الآخر؛ فسوء حالة المعري الصحية والمادية والنفسية, وغلوه في الزهد والنسك, وإسرافه في رحمته ورهافة حسه على الأبناء من الحوادث والآفات, قد تكون جميعاً أسباباً مقنعة إلى حد ما, ولكن ما لا نستطيع أن نعده سببا مقنعاً هو تعلق المعري بمذهب مزدك الفارسي؛ لأننا ــ كما

---

([1]) الخولي, أمين: رأي في أبي العلاء, ص166 وما بعدها .
([2]) نفسه, ص166 – 175 .
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 580/2, هواني الأولى, الواحدة هانئة: التي تهنأ البعير الأجرب بالهناء وهو القطران, وخفف الهمزة للجناس, الثانية من الهوان .
([4]) عبد القادر, حامد: فلسفة أبي العلاء مستقاه من شعره, مطبعة لجنة البيان العربي, ص87 .
([5]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص42.
([6]) ابن خلكان, أبو العباس: ضمن تعريف القدماء بابي العلاء, ص 185 .
([7]) فروخ, عمر: حكيم المعرة , ص47 .

فصلنا سابقاً ــ أن مزدك نفسه أباح النساء والأموال, وهذا سبب كافٍ لرفض فكرة الربط بين تعلق المعري بآراء مزدك, ولاسيما رأيه في رفض فكرة الزواج.

وهكذا مضى أبو العلاء مقطوع النسل مجتث الفرع ــ كما كان يقول دائما عن نفسه ــ معلناً عن نزعته الفكرية الثائرة, منتقداً كثيراً من الأفكار التقليدية السائدة, والمظاهر السلبية الغالبة على طبيعة العلاقات الإنسانية القائمة في المجتمع بالآثام والأخطاء والذنوب.

**3 ــ نباتية أبي العلاء المعري:**

رأى بعض الدارسين أن النباتية فلسفة مقتصرة على أبي العلاء, وأنها منهج تقشفي تزهدي اتبعه أبو العلاء خمساً وأربعين عاماً, إلا أنهم غفلوا عن حقيقة عظيمة الشأن, وهي أن تلك الفلسفة لم تكن خاصة بالمعري فحسب, بل كانت قديمة قدم الإنسان الذي بدأ طعامه بالنبات," فجميع الآثار التي تركها الإنسان منذ وجد على الأرض إلى اليوم, ليس فيها ما يدل على أنه آكِلُ لحوم, بل العكس هو الصحيح, إذ كانت النباتات هي الغذاء الوحيد له في كل مراحل تطوره وحياته[1], كما أنها لم تكن فلسفة جديدة في عصره؛ لأنها كانت تقوم على أسس نظرية عرفها حكماء الهند وآمنوا بها, براهمة وجاينائية[2], كانوا يرون ترك أكل لحم الحيوان, وتحريم إيلامه[3]؛ كما كانوا يؤمنون بأن ما يأكله الإنسان يجعله مثلاً له[4], وهذا يعني أن الشعوب تكتسب بعض صفات ما تأكل, فإذا كانت آكلة لحوم الحيوان؛ فإنها تكتسب صفات ذلك الحيوان المأكول.

ولعل هذا التطابق العفوي بين المعري والهنود في ترك لحوم الحيوان, وعدم إيلامه؛ سبّب لأبي العلاء مضايقات كثيرة من أبناء زمانه, فكان بعضهم يرميه بالإلحاد والزندقة والكفر, والبعض الآخر يطعن ببشريته وطبعه الإنساني, إذ سُئل ذات يوم عن سبب امتناعه عن تناول

---

([1]) القباني, صبري : الغذاء لا الدواء ,ط5, بيروت, دار العلم للملايين, 1982م, ص20 .

([2]) أبو الفداء, إسماعيل: ضمن تعريف القدماء بابي العلاء , ص 186 .

([3]) الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بابي العلاء, ص77 .

([4]) القباني, صبري: الغذاء لا الدواء , ص18 .

لحم الحيوان؛ فكان رده: بأنه بذلك "يرحم الحيوان ويرأف به"[1], كما أن الذي حثه على ترك أكل لحم الحيوان, "أن الذي له في السنة نيف وعشرون ديناراً, فإذا أخذ خادمه بعض ما يجب, بقي له ما لا يُعجب؛ فاقتصر على فول وبُلسْن, وما لا يعذب على الألسن, وليس يريد في رزقه زيادة, ولا يؤثر لسقمه عيادة"[2].

ولعل أبا العلاء بقوله ذلك, كان يدرك حقيقة علمية تنص على "أن معظم النباتات تحتوي على مواد غذائية كاملة, وكافية لتغذية الإنسان, يُضاف إلى ذلك أن هضم النباتات أسهل كثيراً من هضم اللحوم, وبفضل هذه السهولة والسرعة يتخلص الإنسان من جهود ومتاعب كثيرة؛ فلا يفقد جانباً من قواه, كما لاحظ أن التئام الجروح أسرع عند النباتيين منه عند آكلي اللحوم, لأن أجسام الأخيرين تكون غنية بالسموم والنفايات الحيوانية التي لا يمكن طرحها كاملة, وهم يتعرضون لأمراض كثيرة كالروماتزم, والآفات الكبدية, وتصلب الشرايين, ومن المعروف أن الأطباء يوصون كثيراً من المرضى باتباع نظام خاص يعتمد, على النباتات عند الإصابة ببعض الأمراض[3], وهناك مثل هندي يرى "أن الإنسان لو اتبع غرائزه الطبيعية لامتنع عن أكل اللحوم"[4].

ولم يكتف أبو العلاء بتلك الآراء, بل صمم على هجر اللحوم, لأن الوصول إليها يسبب ألماً للحيوان, وأن "الضائنة تكون في محل القوم, وهي حامل؛ فإذا وضعت وبلغ ولدها شهراً أو نحوه, اعتبطوه, فأكلوه, ورغبوا في اللبن, وباتت أمه ثاغية لو تقدر سعت باغية"[5].

فليس من المستبعد أن نراه, وقد طلب من الإنسان أن يرحم الحيوان ويرأف به, كقوله:

**لا أُشرِكُ الجَدْيَ في دَرٍّ يَعيشُ به؛ ولا أروعُ بناتِ الوحشِ والضّان**[6] (البسيط)

---

([1]) الحموي, ياقوت : ضمن تعريف القدماء بابي العلاء , ص 77 .

([2]) نفسه, ص125 .

([3]) القباني, صبري: الغذاء لا الدواء , ص19 – 24 .

([4]) نفسه, ص18 .

([5]) نقلاً عن الحموي ,ياقوت : ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري , ص 122 .

([6]) المعري , أبو العلاء , لزوم ما لا يلزم , 558/2 .

وقوله:

**ولا تُرْهِفْ مُدَىً لعبيطِ نَحضٍ؛ ولا تَشْهَرْ على قِرْنٍ صقيلا[1]** (الوافر)

وقوله:

**روّحْ ذبيحَكَ, لا تُعجلْهُ ميتَتَهُ فتأخذَ النّحضَ منه وهو يختلجُ[2]** (البسيط)

إن الأبيات السابقة وغيرها من أشعار أبي العلاء, إنما تحمل عاطفة جياشة ملؤها الرحمة والرأفة لذلك الحيوان.

وبهذا فإن أبا العلاء يريد من الإنسان أن يكف أذاه عنه ويصرف شره عما عداه, وعمن عداه, ويطلب منه أيضاً أن يذهب مذهبه ويسير سيرته في ذلك, حيث يقول:

**غدوتَ مريضَ العقلِ والدّينِ فالقَني لتسمعَ أنبــاءَ الأمــورِ الصّحائــحِ**
**فلا تأكُلنْ ما أخــرجَ المــاءُ ظالماً, ولا تبـــغِ قوتاً من غريضِ الذّبائحِ**
**ولا تفجَعَنّ الطّيرَ وهــيَ غوافــلٌ, بمــا وضعتْ, فالظّــلمُ شرُّ القبائحِ**
**ودَعْ ضَرْبَ النّحل الذي بكَرَتْ لــه, كواسِــبَ من أَزهــارِ نبتٍ فوائــحِ**
**فما أحــرزَته كــي يكــونَ لغيرِها؛ ولا جــمَعْتَهُ للــنّدى والمنــائــحِ**
**مسحتُ يدي من كــلّ هــذا فليتني أبَهتُ لشأني, قبل شيبِ المسائحِ[3]** (الطويل)

فأبو العلاء في تلك الأبيات؛ يرى أن كل من يرفض أن يسلك مسلكه هو مريض عقل ودين, "وإلا فيجب عليه ألا يفجع الطير في بيضها لأنه لها ولا ينبغي أن يتعدى عليه ما دام يكره أن يُعتدى عليه, وأن ينهى عن أخذ العسل الذي أعدته تلك النحلة لتغذية يرقاتها," ويطلب منه أن يروع نفسه بحرمانها طائفة من اللذات لتجنبها طائفة من الآلام, فيجب أن تترك اللذة حين ينتهي إلى ألم"[4], وفي نهاية الأبيات نراه نادماً لأنه لم يقلع عن هذه الأشياء يانعاً, أملاً بغفران الله وثوابه, لكن الأستاذ الخطيب يرى أن ما فعله المعري ليس اجتهاداً في التعبد, أو رحمة للمذبوح,

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 299/2 .

([2]) نفسه,256/1 , روح: أرح, أنعش, الذبيح: هنا المعد للذبح, النحض: اللحم .

([3]) نفسه , 295/1 وما بعدها, الغريض: الطري من اللحم, الضرب: العسل, المسائح: الذوائب.

([4]) حسين, طه: مع أبي العلاء في سجنه, ص165 وما بعدها.

أو رغبة بأن يجازى بغفران الله, وإنما اعتقاداً بمذهب كان يؤمن به, وفي ذلك يقول الخطيب: "لو أن أبا العلاء فعل ذلك اجتهاداً في التعبد, ورحمة للمذبوح, ورغبة بأن يجازى بغفران الله, وقف به عند نفسه, ولم يجعله دعوة يدعو الناس إليها, لما رجع إليه أحد بلائمة, ولكنه جعل ذلك مذهباً يقوم هو على رأس داعية له"(1), وهذا يعني أن الخطيب يلوم أبا العلاء ملامة عظيمة, لأنه لأنه عمم تحريم أكل اللحم على جميع الناس, ولم يكتف بتحريمه على نفسه.

ويُعتقد أن أبا العلاء المعري كان قد حرم ضرب الحيوان, لأن الضرب ــ من وجهة نظره ــ من أكبر الآثام, كقوله:

**يا ضاربَ العَوْدِ البطيءِ, وظهْرُهُ لا وِزْرَ يحملُهُ كوِزْرِ الضّاربِ**
**أُرْفُــقْ به فشهِــدتُ أنّكَ ظَــالمٌ في ظــالمينَ أباعــدٍ وأقاربِ(2)** (الكامل)

كما يستنكر تعذيب الطير أيضاً, حيث يقول:

**وكم طَيْرٍ قُصِصْنَ لغَيْرِ ذَنْــبٍ, وأُلزِمْنَ السّجونَ فما نَهضْنَه(3)** (الوافر)

إنه يرغب في حماية الحيوان ما أمكن من الأذى الذي يصيبه من الإنسان بدافع الفكرة المسيطرة على نفسه في صدد الرفق به, لما به من شعور وإحساس(4), فالطير ــ من وجهة نظره ــ أحق بالماء من الإنسان لضعفه, ولعدم قدرته على إيذاء الإنسان, كقوله:

**تصدّقْ على الطّيرِ الغَوادي بشُربةٍ من الماءِ واعْدُدْها أحقّ من الإنسِ**
**فمــا جِنْسُها جــانٍ عليــكَ أذيّةً, بحالٍ إذا ما خِفْتَ من ذلك الجنسِ(5)** (الطويل)

وقد رابه ضرب العير بغير ذنب, وعده جهلاً, وفي ذلك يقول واصفاً عناء هذا العير, وما يلقاه من أذى وشرور:

**لقد رابني مغدى الفقيرِ بجَهْــلِهِ علــى العَيْرِ ضرباً ساءَ ما يتَقَلَّدُ**

---

(1) الخطيب, عبد الكريم: أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد, ص 97 وما بعدها .
(2) المعري, أبو العلاء:لزوم ما لا يلزم, 173/1 , العود : المسن من الإبل .
(3) نفسه , 523/2 .
(4) عبد القادر, حامد: فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره , ص 176 .
(5) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 40/2 .

يحمّله ما لا يطيقُ, فإنْ ونَى  أحــالَ علـى ذي فَتْرةٍ يتجَـلّدُ
يظلّ كزانٍ مُفْترٍ غيرِ مُحْصَنٍ,  يُقامُ عليه الحَـدُّ, شَفْعاً, فيُجْلَدُ
تُظاهَرُ أبــلادُ الرّزايا بظهــرِهِ  وكشْحَيْهِ, فأعذِرْ عاجزاً يتبلّدُ[1]  (الطويل)

ولشدة عطف المعري على الحيوان والطير أنشأ في لزومياته ثلاث قصائد طوال خاطب في إحداها الحمامة, ومطلعها:

لكِ النّصحُ منّي لا أُغاديكِ خاتلاً  بمكرٍ ولكنّي أُغاديــكِ مُكرِمَا[2]  (الطويل)

وخاطب في الثانية الديك, بقوله:

فإنْ كتَبَ اللهُ الجرائمَ ساخِـطاً  على الخَلْقِ لم تُكْتَبْ عليك الجرائمُ
فهلْ تَرِدَنْ حوضَ الحَيَاةِ مبادراً  إذ حُـلّئَتْ عَنْهُ النّفــوسُ الحوائمُ
وتَرْتَعُ ما بينَ النّبيئَينَ, ناعِـمَاً  بعيشَـةِ خُلْدٍ لـم تَنَلْـهَا السّمائمُ[3]  (الطويل)

وخاطب في الثالثة الذئب, ومطلعها:

لو كانَ يدري أُويَسُ ما جَنَتْ يدهُ  لاختارَ دونَ مُغارِ الثَّلّةِ العَدَمَا[4]  (البسيط)

نوافق أبا العلاء على وجوب الرفق بالحيوان الوادع, والعطف على الطيور الآمنة في أوكارها, إلا أننا لا نوافقه بعدم استغلالها للتناول البشري, لأنها خلقت لخليفة الأرض, وفي ذلك يتحقق التوازن البيئي, ولكن المعري لم يكتف بذلك, بل راح يطلب من الناس إطلاق سراح البرغوث, حيث يقول:

تسريحُ كفّيَ بُرْغوثاً, ظَفِرتُ به,  أبرُّ من درهمٍ تعطيهِ مُحتاجا[5]  (من البسيط)

إنه يرى بضرورة إطلاق سراح البرغوث, ويعده أبر من صدقة قد تعطيها لإنسان فقير, خلافاً لما رآه الدكتور حامد عبد القادر حيث يقول: "لو طبقنا مبدأ الرأفة إلى الحد الذي يذهب

---

([1]) المعري, أبو العلاء:لزوم ما لا يلزم, 309/1 , ابلاد : آثار , يتبلد : يتكلف البلادة , ضد الذكاء .
([2]) نفسه,423/2 .
([3]) نفسه, 387/2 وما بعدها, حلئت: طردت ومنعت, السمائم: ضرب من الطير كالخطاف.
([4]) نفسه, 425/2, أويس: الذئب, المغار: الإغارة, الثلة: جماعة الغنم .
([5]) نفسه , 264/1 .

إليه المعري لعرضنا أنفسنا وأموالنا لأخطار جسيمة, ولجُعلنا لقمة سائغة للوحوش الضارية المهلكة, ولجراثيم الأمراض الفتاكة, ولكانت النتيجة الحتمية لهذا كله ألا يبقى على ظهر البسيطة إنسان, بل تبقى الهوام والحشرات والطيور والسباع, وكافة أنواع الحيوانات يستمتعون بالحياة, ويعمرون الأرض, ويملؤنها بنسلهم, وينعمون وحدهم بما فيها من خيرات وملذات, ولعمري أن ذلك ليس بمبدأ مستساغ"[1].

وعودة إلى سبب تركه لحم الحيوان؛ فإننا قد نعلله من خلال بيته الآتي الذي يبين فيه رغبة في الشفاء من الأمراض والأوبئة التي تسببها تلك اللحوم, حيث يقول:

**أفَدْتُ بهجرانِ المَطَاعمِ صِحّةً, فما بيَ من داءٍ يُخَافُ ولا حِبنِ**[2] (الطويل)

أو لعله انقطع عن تناولها تقرباً إلى الله تعالى, وكما أن الله حرم صيد الحرم, فالمعري حرم على نفسه صيد الحرم وغير الحرم زيادة في التطوع ورغبة في الأجر والإحسان[3].

ويستشهد ابن الوردي بقول المكي تأكيداً على تقوى أبي العلاء وزهديته: "إباحة حلال الدنيا حسن, والزهد فيه أحسن"[4], مضيفاً على ذلك بقوله بأنه لما "أتى رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أهلُ قباء بشربة من لبن مشوبة بعسل وضع القدح من يده, وقال: أما لأني لست أحرمه, ولكني أتركه تواضعاً لله تعالى"[5].

علماً أن الدكتور طه حسين لم يسترح لذلك التعليل, قائلاً: "إنّ المعري أخذ برأي الأبيقوريين الذين رأوا بأن العالم ليس مسخراً من أجل الإنسان؛ فليس من حق الإنسان أن يأكل الشاة لأنها لم تخلق ليأكلها"[6].

---

([1]) عبد القادر, حامد: فلسفة أبي العلاء مستقاه من شعره , ص 178 .

([2]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 537/2 . الحبن : الدمل

([3]) القفطي, أبو الحسن : ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء , ص30 .

([4]) ابن الوردي, عمر بن المظفر: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص209, نقلاً عن المكي في كتابه "قوت "قوت القلوب".

([5]) نفسه, نفس الصفحة.

([6]) حسين, طه: مع أبي العلاء في سجنه , ص 27 .

وبالرغم من كل التعليلات السابقة, فإن الباحثة تذهب إلى القول: إننا ندرك تماماً بأن أكل الحيوان ومنتجاته غدت جريمة بحق هذه الكائنات, ترفضها نواميس أبي العلاء, ويأباها عطفه الشديد المتطرف, وحسه المرهف, وعاطفته الجياشة الحزينة التي تتألم كثيراً لأي مخلوق ضعيف عاجز؛ كما أنه رفض أن يتراجع عن إصراره وتحديه, ثباتاً وتمسكاً بمنهج كان قد اتخذه على نفسه, فألفت نفسه ذلك المنهج, فأصبحت سجية تميزه عن غيره من الناس.

وأما فيما يتعلق ببرهمية المعري, فإننا نرى أن أبا العلاء كان بعيداً عن تلك التهمة الخطيرة؛ لأنه لا يخفى على أَحد وجود خلاف كبير بين نظرة أبي العلاء, ونظرة البراهمة الذين عرفوا بإجماعهم على إبطال النبوات.

لكن بعضهم يرى أن المعري حتى في تلك القضية "كان قد ناقض نفسه بين قوله وفعله, فهو تارة يرفض شرب لبن الحيوان, وتارة أخرى يفضله على الخمر[1], مستشهداً بقول المعري:

المعري:

**أفضَلُ من أحمرِ السُّلافِ ومن كُمَيْتِهَا, ناصِعٌ من اللّبَنِ**[2] (السريع)

ويطلعنا الدكتور الخولي على بعض تناقضات أبي العلاء بقوله: "وقد بلغت به الرقة أن طلب اتخاذ حذائه من الخشب, لا من الجلد, حتى لا يذبح الحيوان, ناسياً أمره, فهو حين يشرب, لا يشرب الماء إلا في الجلد"[3], مستشهداً على ذلك بقول المعري:

**شربْتُ بالعَسْجَدِ عــن عزّةٍ, ومَشْرَبي من خَزَفٍ أو أَدَمْ**[4] (السريع)

ولعلنا في نهاية دراستنا لتلك القضية أن لا نعدّ شعر أبي العلاء بتناقضاته مخالفاً لما هو مألوف في الدراسات الأدبية, لأن الشعر إنما هو في أرقى سماته شعور نابع, وحس مرهف,

---

([1]) الخولي , أمين : رأي في أبي العلاء , ص 66 .
([2]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 574/2 .
([3]) الخولي, أمين: رأي في أبي العلاء , ص 66 .
([4]) المعري , أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 485/2 .

وفكرة قائمة, وخيال واسع, وتعبير فني راقٍ.

### 4 ــ زهد أبي العلاء واعتزاله الحياة:

**أ ــ زهده:** عمر المعري طويلاً في الحياة؛ فخبرها وخبر أهلها, خارجاً منها بنتيجة مفادها أن البشر في ضلال مبين, وأن الشر متأصل في نفوسهم, كما أن الدنيا دار زوال, وبهرجة خادعة ومزيفة؛ فرأى أن خير طريق يبعده عن طريقهما هو التزهد والعزلة, لعلهما يحققان له ما لم تحققه دنياه وبنو عصره من راحة وهناء, حيث يقول: "ولما فاتني المُقَام بحيثُ اخترتُ, أجمعتُ على انفرادٍ يجعلني كالظَّبي في الكِنَاس, ويقطعُ ما بيني وبينَ النّاسِ, إلاّ من وصلني اللهُ به وَصْلَ الذِّراع باليدِ, والليلةِ بالغد"[1].

ولعل الأستاذ الجندي يوافق أبا العلاء في تلك الخطوة الجريئة معللاً ذلك بقوله: "إن من عاش عيشة أبي علاء, وقضى عمره في مثل ما قضاه من الفاقة والعسر والعمى والضرّ وتتابع الكوارث, وقلة المساعد, من حقه أن يضجر ويتبرم, ويملأ الدنيا شكوى وسخطاً[2].

وبهذا ترك المعري جميع الملذات الدنيوية؛ فكانت أول خطوة عملية قام بها أبو العلاء في سبيل ذلك أنه حبس نفسه منذ عام(400هـ)في بيته بالمعرة, لا يغادره؛ فلم يتكسب بشعره قطّ, ولم يطلب مالاً, أو يسأل عطاء, على نحو ما نراه في قوله:

**إذا مَـدَحــوا آدمــيّاً مَــدَحْــ ــتُ مولى الموالي وربَّ الأُمَمْ**[3] (المتقارب)

فقد كان المعري عفيفاً قنوعاً, حتى حسبه الناس غنياً, وقد ظنه الرحالة الفارسي "ناصر خسرو" ثرياً, فكان يقول عنه "كان أبو العلاء واسع الثراء وعنده كثير من العبيد والخدم, وكان أهل البلد كله خدم له "[4], وفي لزومياته إشارات تؤكد على جهل الناس فقر حاله, حيث يقول:

**مــن لــيَ أن أُقــيمَ في بلــدٍ, أُذكَرُ فيــه بغيــرِ ما يجبُ**

---

([1]) نقلاً عن الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري , ص 91 .

([2]) الجندي , محمد سليم , الجامع في أخبار أبي العلاء, 1200/2 .

([3]) المعري، أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 491/2 .

([4]) خسرو, ناصر: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري , ص462 .

**يُظَنُّ بيَ اليُسْرُ والديانةُ والعلـــ ـــمُ, وبيني وبينها حُجُبُ**[1] (الكامل)

وقوله:

**إنـــي أُواري خَلّتي, فأريهمُ رِيّاً, وفي سرّ الفؤادِ أُوارِ**[2] (الكامل)

وهكذا تزهد المعري, تاركاً الدنيا وملذاتها وراء ظهره, لكن الناس لم يتركوه وشأنه؛ إذ ظهر فريقان يتتبعان أمر زهده, أحدهما؛ ينفي الزهدية عنه ومنهم الدكتور طه حسين و الدكتور الخطيب اللذيْن وجدا "أن المعري ليس زاهداً, ولكنه رجل عاجز عن تحقيق آماله بمعنى أنه أعرض عن لذاته لا رغبة منه, بل قصوراً وعجزاً"[3], والأستاذ المازني الذي رأى "أنه ليس زاهداً, ولكنه يتزهد ويروض نفسه على الحرمان, لأنه لم يعرض عن اللذات إلا لأن خيارها يفوته"[4].

وأما الفريق الثاني؛ فيعترف بزهديته, شريطة وجود أسباب ودوافع جعلته يسلك هذا المسلك, وقد رأى الدكتور زكي المحاسني أن الكبت الجنسي الذي عاشه أبو العلاء أثر كثيراً على نفسيته, فتزهد[5], بينما البعض الآخر يعزو زهديته إلى فقدان نعمة البصر وتمتعه بحس مرهف, ناهيك عن المجتمع الذي مازال يشعره أنه مكفوف, "إضافة إلى عوامل أخرى, مثل نشأته في بيت علم وفضل وتقوى"[6], يضاف إلى ذلك كله ما نُسب إليه من "الأخذ بمذهب البراهمة والزهاد الهنود في ترك اللذائذ"[7].

وقد رأينا أن بعض الدراسات التي ساقها السابقون؛ منها ما يدعو إلى نفي الزهد عن أبي العلاء من جهة, وبعضها الآخر يدعو إلى إثبات زهده من جهة ثانية معللاً كلٌّ منهما وجهة

---

(1) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 110/1 .

(2) نفسه , 461/1 , أواري خلتي: أستر فقري, الريّ : الارتواء ,الأوار: العطش.

(3) الخطيب, عبد الكريم : أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد , ص43, وكذلك حسين , طه : مع أبي العلاء في سجنه , ص190 .

(4) المازني, إبراهيم عبد القادر , ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري , ص 148 .

(5) المحاسني , زكي : أبو العلاء ناقد المجتمع , ص51 .

(6) المازني , إبراهيم عبد القادر , ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري , ص 155- 157 .

(7) ابن الجوزي, أبو الفرج : ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري , ص 19.

نظره, إلا أن الباحثة ترى أن زهده نابع من شخصيته ونفسيته, لأنه يمتلك شخصية أبية تريد أن تعلو على ذاتها, وعلى الصغائر التي من حولها, فحققت ذلك العلو, كما أنه يمتلك نفسية دقيقة شاعرية وعطوفة, إضافة إلى حسه الديني العميق الذي يرى أن كل شيء إلى زوال, وأن الطمع رذيلة, والعفة فضيلة.

وبهذا نرى أن زهد المعري ما هو إلا تطبيق وتعبير عملي صادق يعكس شخصيته, ومعتقده الديني, وأما فيما يتعلق بتحريمه الحيوان على نفسه؛ ففي تقديرنا أنه لا يُعد مجرماً ولا كافراً؛ حين حرم نفسه شيئاً يبغضه, لأنه إنسان حر, لا مرغم كما زعم بعضهم, كما أنه لم يفرض سلوكه ورؤيته على الناس لتكون كتاباً مقدساً, فمن حقه أن يأكل اللحم أو لا يأكل, ومن حقه أيضاً أن يعيش حياة راغدة أو أن يتقشف.

وإن الرأي الذي تذهب إليه الباحثة, إنما تستوحيه من أقوال المعري نفسه, على نحو ما يفهم من قوله:

**لو أنّ كــلَّ نُفُــوسِ النّاسِ رائيَةٌ كرأي نفســي تَنَاءَتْ عــن خَزَايَاها**

**وعَطّلــوا هذه الــدُّنيا, فما وَلَدوا ولا اقْتَنَوْا, واستراحوا من رزايَاها**[1] (البسيط)

وقوله:

**وزهّدني في الخلق معرفتي بهم, وعلمي بأنّ العالمينَ هَبَاءُ**[2] (الطويل)

وقوله:

**حورفتُ في كلّ مطلوبٍ هممتُ به, حتى زَهِدتُ, فما خُلّيتُ والزّهُدا**[3] (البسيط)

**ب ــ اعتزاله الحياة:** جسد المعري عزلته في قوله المشهور:

---

([1]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 619/2 .

([2]) نفسه, 42/1 .

([3]) نفسه, 353/1, حورفت: حرمت, من الحرفة وهي الحرمان .

**أراني في الثّلاثةِ مـــن سجـــوني فـــلا تســـأل عن الخـــبرِ النبيثِ**
**لفقـــدي ناظـــري ولـــزومِ بيتـــي وكونِ النّفسِ في الجسدِ الخبيثِ**[1] (الوافر)

تلك هي العزلة التي اختارها أبو العلاء؛ على أن عزلته تلك جاءت بعد استخارته الله, على نحو ما نرى في قوله: " بعد أنْ قضيتُ الحداثةَ فانفضّتْ, ودّعتُ الشبيبةَ, فمضت, وحلبتُ الدهرَ أَشْطُرَه, وجرّبتُ خيرَهُ وشرَّه,ُ فوجدتُ أوفق ما أصنَعه في أيامِ الحياةِ عزلةٌ؛ تجعلني مِنَ النّاسِ ... وما ألوتُ نصيحةً لنفسي ولا قصّرتُ في اجتذابِ المنفعةِ إلى حيزّي فأجمعتُ على ذلك, واستخرتُ اللهَ فيه"[2], وذلك إن دل على شيء؛ فإنما يدل على شدة الإيمان وقوة الإرادة العازمة على تحقيق تلك العزلة.

وكما تعددت أسباب ودوافع تزهد المعري من وجهة نظر الباحثين والدارسين, فقد تعددت أيضا أسباب عزلته, وقد رأى الدكتور محمد سليم الجندي "أن المعري كان رقيق الحس, شديد الفطنة, كثير الشك, وكان كما قال عن نفسه "وحشي الغريزة إنسي الولادة " مما أدى به إلى الابتعاد عن الناس, محبباً لنفسه العزلة, إضافة إلى ما رآه من أخلاق بني عصره التي لا تتفق مع شيمه وأخلاقه, فآثر العزلة والقعود في منزله, بعيداً عن الناس وشرورهم"[3].

في حين يرى الدكتور حامد عبد القادر أن تجاربه وإخفاقه في تحقيق مساعيه قد حمله على العزلة, تلك العزلة التي وفرت لديه الوقت الكافي للتفكير فيما تضمه الدنيا من شرور وآثام, وفيما يحويه بنوها من فساد وتناقض[4].

أما الدكتور طه حسين فإنه يرى أن مزاج أبي العلاء هو الذي حمله على الوحدة ولزوم البيت, لأن مالقيه من أذى الدهر, ولؤم الناس, بغّض إليه الاجتماع وحبب إليه الانفراد, إضافة إلى طبيعته الوحشية,[5], في حين يرى بعضهم أن المعري عاشق التفرد والوحدة, لأنه يعيش

---

([1]) المعري، ابوالعلاء:لزوم ما لا يلزم, 249/1 .
([2]) نقلاً عن الحموي, ياقوت : ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري , ص 91 و ما بعدها .
([3]) الجندي, محمد سليم , الجامع في أخبار أبي العلاء , 280/1 وما بعدها.
([4]) عبد القادر, حامد: فلسفة أبي العلاء مستقاه من شعره , ص 73 .
([5]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص 152 – 153 .

صراعاً مع بيئته الاجتماعية الفاسدة[1].

وأما الدكتور زكي المحاسني فقد رأى أن المعري كان مريضاً نفسياً, فغريزته الجنسية ظلت أسيرة في جسمه الأسير في منزله, فهو بذلك يخالف القياس الاجتماعي[2].

ولكن بعض العلماء النفسانيين يرى ارتباطاً وثيقاً بين إحساس اللذة والألم, وإحساس اللذة والتفرد, فالذات عندما تستشعر اللذة, فإنها تستسلم لهذا الشعور, بحيث أنها تكاد تنسى نفسها وتتخلى عن ذاتها, في حين أنها ما تكاد تستشعر الألم حتى تقبع في ذاتها وتنطوي على نفسها.

ومن هنا كان الألم وحده هو الذي يتيح لنا الفرصة لأن نعاني تجربة الوحدة على حقيقتها؛ فالإنسان الذي يتألم يميل دائماً إلى الانعزال عن الناس, لأن من شان الألم أن يشعره بحدوده ويحبسه داخل تلك الحدود[3], و لعل هذه النظرة تنطبق ـ إلى حد كبير ـ على المعري المعري إذا ما قسناها بمقياس شخصي.

وأما العقاد فيعلل سبب عزلة أبي العلاء بعدة أمور؛ هي: شرف نسبه ومسكنه, وعماه وسوء خلقته ومنظره, ثم إلى كبريائه وعزة نفسه, إضافة إلى ضعف بنيته[4], ومن الجدير بالذكر بالذكر أن تلك العُزلة كانت محببة لأبي العلاء لأنها تعزله عن النفاق والدنايا، على نحو ما نرى في قوله:

**تخيّر فإمّـــا وَحْدَةٌ مثلُ مَيتَةٍ وإمّا جليسٌ في الحَياةِ مُنافقُ**[5] (الطويل)

وقوله:

**إذا انَفرَدَ الفَتى أُمِنَتْ عليه دَنَايا, لَيْسَ يُؤمِنُها الخِلاطُ**

---

([1]) زيدان, عبد القادر: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري, ص 268 .

([2]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص 51 وما بعدها .

([3]) إبراهيم, زكريا: مشكلة الإنسان, ص 35 ومابعدها.

([4]) العقاد, عباس محمود : رجعة أبي العلاء , ط3 , بيروت , دار الكتاب العربي , 1967م , ص 31 .

([5]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 178/2 .

**فلا كَذِبٌ يُقالُ,و لا نَميمٌ,          ولا غَلَطٌ يُخافُ ولا غِلاطُ[1]     (الوافر)**

## ب ــ الفلسفة الرياضية:

لم يبحث أبو العلاء في الأعداد والمقادير بحثاً مستفيضاً؛ نظراً لفقده بصره الذي حال بينه وبين الرصد؛ فحياته لم تؤهله لأن يكون مهندساً, أو حاسباً[2]. وإنما تصدى إلى بعض المسائل من علم الهندسة والحساب, ومرّ عليهما مرور الكرام؛ فعماه لم يؤهله للأعمال التي يتطلبها هذان العلمان, وربما يكون قد أقل من ذكرهما في كلامه لعدم الحاجة إليهما[3],وقد ورد في لزومياته بعض الأبيات التي تتعلق بالحساب, كقوله:

**خَمْسَةٌ في نظيرِها خمسُ خمساتٍ     تنّمتْ, والنّصفُ في النّصفِ رُبعُ[4]     (الخفيف)**

وقوله:

**طُرُقُ العَلا مَجهــولَةٌ, فكأنها     صُمُّ العَدائِدِ, ما لها أَجْذَارُ[5]     (الكامل)**

ومن أقواله التي تتعلق بعلم الهندسة قوله:

**ظَلّوا كدائـــرةٍ تَحوّلَ بَعْضُها     من بَعْضِها, فجميعُها معكوسُ[6]     (الكامل)**

وتتضمن أشعار المعري إشارات في علم الفلك والكون, لكنه رغم بحثه العميق والمعقد فإنه لم يستقر على حال؛ فأحياناً نراه يقف وقفة الواثق؛ فيثبت أو ينفي بوضوح وصراحة, وأحياناً أخرى نراه يقف وقفة المتشكك الحائر, لا يطمئن الى إثبات ولا يرتاح الى إنكار, ويمتنع أحياناً أخرى عن إبداء الرأي, مقراً بجهله و تقصيره في تلك القضية, معبراً بذلك كله في أشعاره التي تبدو متناقضة فيما بينها؛ فبينما يجزم بحدوث الكون وزواله, وبفناء النجوم وزوالها, حيث

---

(1)المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 100/2 .

(2) حسين , طه : تجديد ذكرى أبي العلاء المعري , ص 250 .

(3) الجندي , محمد سليم : الجامع في أخبار أبي العلاء و آثاره , 1291/3 .

(4) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 130/2 , لم ندرك ماذا عنى بهذا العمل الحسابي .

(5) نفسه , 455/1 , صمّ العدائد: أراد بها الأعداد الصم , و العدد الأصم عند المحاسبين و المهندسين هو مقدار لا يعبر عنه إلا باسم الجزء كجزء من أحد عشر , أو باسم الجذر كجذر خمسة , و يقابله المنطَق (بفتح الطاء) .

(6) نفسه, 32/2 .

يقول:

**وعـــالَمٌ ظلَّ فيه القولُ مختَــلِفاً,      ومُحَدثٌ هُوَ مِنْ ربٍّ لَهُ القِدَمُ**
**فاذْخَرْ لِنَفْسِكَ خَيْرَاً كي تُسَرَّ بهِ,      فإنْ فعلتَ, وإلاّ عادَكَ النَّدَمُ[1]**      (البسيط)

قال:

**بلى قد أتانا أنّ ما كانَ زائلٌ,      ولكِنّنا في عالَمٍ ليسَ يَعْلَمُ[2]**      (الطويل)

قال:

**ولَيْسِ اعتقادي خُلودَ النّجومِ,      ولا مَذْهَبي قِدَمُ العَــالَمِ[3]**      (المتقارب)

قال أيضاً في فناء النجوم:

**ونَيّرُ الليلِ و شَمْسُ الضُّحَى      دامَا, ولكِنَّهُــما, يَهْلَكَــانْ**
**سُبحانَ مَنْ سَخَّرَ نجمَ الدّجى      والبَدرَ, في قُدرَتِهِ يَسْلُكانْ[4]**      (السريع)

وأن هذه النجوم مهما طال بقاؤها, فمآلها إلى الفناء والزوال, على نحو ما يُفهم من قوله:

**هَــذي نجــومٌ شاهــدتْ تُبّــعَاً      ومَنْ مضى من حِمْيرٍ أو قُدُمْ**
**بُروجُها كالبرجِ في الأرضِ, إنْ      طَالَ مَداهُ في العُصورِ انهدَمْ[5]**      (السريع)

فإننا نراه في موضع آخر يعدل عن رؤيته معلناً أزليتهما وقدمهما, حيث يقول:

**تغيّرَتِ الأشياءُ, والمُلْكُ ثابتٌ؛      مغاربُــهُ موفُــورَةٌ ومَشَــارِقُهْ**

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 398/2 .
([2]) نفسه, 382/2 .
([3]) نفسه, 478/2 .
([4]) نفسه , 589/2 .
([5]) نفسه, 485/2 .

**مُرادٌ جرَتْ أقلامُهُ, فتَبــادرتْ,        بأمْرٍ, وجَفّتْ بالقَضَاءِ, مَهَارِقُهْ**[1]   (الطويل)

ويقول:

**يا شُهْبُ, إنّكِ في السّماءِ قديمةٌ,        وأشَرْتِ للحكماءِ كلَّ مُشارِ**[2]   (الكامل)

ولعل من يمعن النظر في تلك الأبيات يرى أن أبا العلاء قد وقع في تناقض واضح؛ لأنه رأى زوال الكون والفلك حيناً؛ ورأى أبديتهما حيناً آخر, ولعل هذا التناقض هو الذي دعا الدكتور طه حسين للتحقق والبحث عن السبب في ذلك, فرأى "أن أمر تلك الأبيات لا يخلو من إحدى اثنتين, فإما أن يكون المعري قد انتحلهما انتحالاً ليخفي بها أمره على الناس, وإما أن يكون قد ذهب بالقدم الذي نفاه مذهب القدم الذاتي, أي أنها ليست قديمة خالدة بذاتها, وإن كانت قديمةً بالزمان"[3].

أما نحن فلا نستطيع أن نعطي حكماً نهائياً وقطعياً بالاضطراب الفكري عند المعري, وذلك لسبب وحيد ألا وهو أن أقواله وآراءه المجموعة في لزومياته جمعت طوال الخمسين عاماً من عزلته, وقد جمعت على فترات متباعدة فيما بينها, وربما كانت آراؤه عرضة للتطور والتحول؛ فالذي كان قد رآه موثوقاً به قي فترة ما, آل به إلى التردد والحيرة نتيجة ظرف ما في فترة لاحقة, معلناً فيما بعد جهله وتقصيره, مرجعاً أمرها إلى إرادة الله المتحكمة في مصيرها, على نحو ما يُفهم من قوله:

**سُبحــانَ مَنْ بَرأَ النّــجومَ, كأنها        دُرٌّ, طَفَا من فوقِ بــحرٍ مائجِ**

**لو شاءَ ربُّك صيّر الشرطَيْنِ, مِنْ        هذي الكواكبِ, عَنْدَ أَدْنَى ثائجِ**[4]   (الكامل)

وقوله:

**بإذْنِ اللهِ ينفــذُ كــلُّ أمرٍ,        فنَهْنِهْ فَيْضَ أدمعِكَ السُّجومِ**

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 180/2.

([2]) نفسه, 583/1 .

([3]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء المعري , ص 251 .

([4]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 276/1 , الشرطان : نجمان , الثائج: الصّائح .

**يجوز بحُكمِهِ موتُ الثُّريّا, وأنْ تَبْقَى السَّماءُ بلا نُجُومِ**[1] (الوافر)

وقوله متسائلاً عن حقيقة ذلك الأمر, والسؤال دليل آخر على حيرته وتردده اتجاه تلك القضية:

**سُبحانَ ربِّكَ! هل يزولُ, كغيرهِ, شَرَفُ النُجومِ وسؤدَدُ الأقمارِ؟**[2] (الكامل)

وأما فيما يتعلق بعظمة الكواكب, "فقد عظّم أبو العلاء الكواكب, وحضَّ على التفكير في خلقها, لأن الله تعالى عظمها, وقد نبه القرآن إلى عظمة أمرها, وجعلها آية لأولي الألباب؛ دالة على قدرة خالقها وحكمته"[3], كقوله:

**الشُّهبُ عَظّمَها المليكُ ونَصّها للعالمينَ,فَواجبٌ إعْظَامُها**[4] (الكامل)

وكان أبو العلاء قد عظّمها, لأنها أحق بالتعظيم من أشرف بني آدم, حيث يقول:

**ولـهُنَّ بالتّعظيمِ, في خَلَدي, أولى وأجْدَرُ من بني فِهْرِ**[5] (الكامل)

يعلق الدكتور طه حسين على البيت السابق, قائلاً: "وكان أبو العلاء يرى تعظيمَ الكواكب, وإجلالَها في غير فتنةٍ ولا صبوة, فليس بينه وبين الصّابئة في هذا الرأي شبَه, وإنما يحبها كأنها آياتٌ ينبغي أن يَعتبرَ بها الحكيمُ, على أنه لم يتركْ أن يتخذها طريقاً إلى السُّخرية بالخلفاء والملوك من قريش"[6].

ومن الجدير بالذكر, أن أبا العلاء أبطل مزاعم الفلاسفة التي كانت ترى أن للكواكب عقولاً وأحاسيس, وأنها تتصاهر وتتزاوج فيما بينها؛ فتارة نجده يسخر من تلك المزاعم, كقوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 466/2 .

([2]) نفسه, 578/1 .

([3]) الجندي, محمد سليم: أخبار أبي العلاء المعري وآثاره, 1302/3 .

([4]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 411/2 .

([5]) نفسه, 596/1, بنو فهر: بنو قريش.

([6]) حسين , طه, تجديد ذكرى أبي العلاء المعري , ص 252 .

قالتْ رجالٌ: عقولُ الشُّهبِ وافرةٌ, لو صحَّ ذلك قُلْنَا: مَسَّها خَرَفُ[1] (البسيط)

وقوله:

وقد زعَمُوا الأفلاكَ يُدركها البِلى, فإنْ كانَ حقّاً, فالنّجــاسةُ كالطّهرِ
وأمّـا الذي لا ريْبَ فيه لعـاقلٍ, فَغَـدْرُ الليـالي بالظّـلاميّةِ الزُّهرِ
وإنْ صَـحَّ أنَّ النّيّراتِ مُـحِسّةٌ, فمـاذا نكِرتُمْ من ودادٍ ومن صِهْرِ؟
لَعَلَّ سُهيْلاً, وهو فحـلُ كواكـبٍ, تزوّجَ بنتاً للسَّـماكِ على مَهْرِ[2] (الطويل)

وأما قوله في الأبيات الآتية:

العـالمُ العـالي برأيِ مَعاشِرٍ, كالعالَمِ الهاوي, يُحِـسُّ ويَعلَمُ
زَعَمَتْ رجـالٌ: أنَّ سيّاراتِهِ, تَسِقُ العقولَ, وأنّها تتكـلّمُ
فهل الكـواكبُ مثلُنا في دينِهَا, لا يتّفِقْنَ, فهـائدٌ أو مُسْـلِمُ؟
ولَعَلَّ مـكّةَ فـي السّمـاء كمكّةٍ, وبها نضـادِ ويذبُلٌ ويلَمـلمُ[3] (الكامل)

فإنه تصريح واضح من أبي العلاء على وجود اختلاف كبير بين العالمَيْن السفلي والعلوي؛ خلافاً لما أوحى به القدامى الذين زعموا بأن للكواكب عقولاً وأحاسيس, لأنه يرى أنه لو شابه العالم العلوي العالم السفلي لوجب عندها أن يكون في السماء مدينة تسمى مكة, كما كان ذلك في الأرض, وأن يكون فيها جبالاً تسمى نضاد ويذبل ويلملم, وتارةً أخرى نجده منتقداً, ومستفهماً عن أنباء تلك المزاعم, فيقول:

فَهَلْ عَلِمَتْ بغيبٍ, من أمورٍ, نجومٌ للمـغيبِ مُعَرِّدات؟
وقد زعمـوا بأنَّ لها عقولاً, وأَقْضِـيةُ المليكِ مُؤكَّداتُ
وأنَّ لبعضِها لفـظاً, وفيها, حواسِدُ مثلَنا ومُحسَّداتُ[4] (الوافر)

مما سبق ذكره, فإننا نجد أن المعري خلص إلى نتيجة مفادها أن النجوم مجردة من الحس والعقل, وأنها لا تتزاوج ولا تتصاهر كما زعم بعض الفلاسفة القدامى, ورأى أيضاً أنه

---

([1]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 148/2 .
([2]) نفسه , 519/1, يريد أن الأفلاك طاهرة, وليست كالأرض نجسة ليدركها البلى, الظلامية الزهر: نجوم الليل, محسة: محسة: أي لها الإدراك الحسي, وكان الفلاسفة يزعمون أن الكواكب لها عقول ونفوس وأجسام فلكية.
([3]) نفسه, 405/2, نضاد ويذبل ويلملم: أسماء جبال في بلاد العرب.
([4]) نفسه, 203/1 و ما بعدها , معردات : مائلات للغروب .

من الواجب تعظيمها, لأن الله خالقها قد عظمها, فمن الجدير بالمخلوق أن يعظمها إذن, لأنها آية وعبرة للناس من جهة, ولأن الإيمان بها سبيل هدايتهم إلى طريق الخير والنور من جهة أخرى.

**جـ ـ الفلسفة الطبيعية:**

درس أبو العلاء الفلسفة الطبيعية دراسة متأنية, متفحصة؛ باحثاً في موضوعاتها الأربعة ( المادة, الزمان, المكان, تناهي الأبعاد)؛ فكان لا بد لنا من وقفة مع تلك الموضوعات, نستجلي من خلالها رأي أبي العلاء ونظرته الفلسفية من جهة, وتردده وحيرته إزاء تلك الموضوعات من جهة أخرى.

**1 ـ الزمان:**

اختلفت كلمة العلماء والفلاسفة في تعريف الزمان[1], ولكن أبا العلاء "قام بتعريفه تعريفاً تعريفاً جامعاً فيه بين الظَّرف والصّحة, فيقول: إنه كونٌ يشتمل أقل جزء منهُ على عامةِ الموجودات"[2], وقد عرفه في لزومياته بأبيات متعددة, كقوله:

**إذا قيــلَ غالَ الدهرُ شيئاً, فإنّما ... يُرادُ إلَهُ الدّهــر, والدهرُ خادمُ**
**ومَولِدُ هذي الشّمسِ أَعْياكَ حَدُّهُ, ... وخَــبَّــرَ لـــبٌّ أَنّـــهُ مُــتَقَادِمُ**
**وأيْسَرُ كــونٍ تــحتَهُ كــلُّ عَالمٍ, ... ولا تُدرِكُ الأكوانَ جُرْدٌ صَلادمُ**
**إذا هيَ مَــرَّتْ لم تَعُدْ, ووراءَها, ... نظائرُ, والأوقــاتُ ماضٍ وقادِمُ**
**فما آبَ منها, بعدَما غابَ غائِبٌ, ... ولا يَعْدَمُ الحينَ المــجدَّدَ عادِمُ**[3] (الطويل)

وبهذا التعريف نرى "أن الزمان ليس حركة الفلك, بل هو أعم منها, لأن الزمان من الأمور المعنوية التي لا يمكن إدراكها بالحس؛ إذ أنها كون محض, أو وجود مطلق, وليس

---

([1]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري , ص1277/3 .
([2]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء المعري , ص 248 .
([3]) المعري, ابو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 390/2, الجرد من الخيل: القصيرة الشعر, واحدها أجرد, الصلادم : ج صلدم: صلدم: الشديد الحافر.

الزمان حركة الأفلاك إلا تقسيماً للزمان"[1], والى هذا المعنى الذي عناه الأستاذ حامد يشير المعري بقوله:

**ولَـيْسَ لَـنا عِلْـمٌ بسـرِّ إلهنا,     فَهَلْ عَلِمَتْهُ الشّمسُ أو شَعَر النّجم؟**[2]     (الطويل)

وقوله:

**لهفي على لَيْلَةٍ ويومٍ,     تألّفَـتْ منها الشّهـورُ**
**وأُلفِيا عُنْصرَيْ زمانٍ,     ليسَ,لأسراره, ظُهورُ**[3]     (مجزوء البسيط)

وقد رأى المعري رأياً مفاده أنه ليس للزمان والمكان وصف يعرف بهما, إذ لا لون لهما ولا حجم, حيث يقول:

**إن اللّطيفينِ: من دَهرٍ وأمكِنةٍ,     لا يَفْتَآنِ بلا حِسٍّ ولا زَجَل**[4]     (البسيط)

ويقول:

**مكانٌ ودهرٌ أحرزا كـلَّ مُدْرِكٍ,     وما لهما لَوْنٌ يُحَسُّ, ولا حَجْمُ**[5]     (الطويل)

علماً أن الدهر والزمان واحد.

كانت تلك آراء المعري في مجال تعريف الزمان وماهيته؛ وأما عن آرائه فيما يتعلق بأزلية الزمان أو فنائه؛ فقد وقف من تلك القضية وقفة الحائر المتردد؛ فتارة يصرح بزوال الزمان ومحدوديته, من مثل قوله:

**يفنى الزّمانُ, وأنفاسُ الأنامِ لَهُ     خُطىً,بِهنّ إلى الآجالِ, يَزْدَلِفُ**[6]     (البسيط)

---

([1])عبد القادر, حامد: فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره, ص 104 .
([2]) المعري, ابو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 378/2 .
([3]) نفسه, 440/1 .
([4]) نفسه, 331/2 .
([5]) نفسه, 378/2 .
([6]) نفسه , 150/2 .

وقوله:

**وأشهَدُ أنَّ الدهرَ كالحُلْمِ زائلٌ؛ وأنَّ أديمَ البَدرِ يَبْلى ويَحْلَمُ**[1] (الطويل)

وتارة أخرى يقرّ بحدوث الزمان والعالم, من مثل قوله:

**ولَيْسَ اعتقادي خُلودَ النّجومِ, ولا مَذْهَبـــي قِدَمُ العَالَمِ**[2] (المتقارب)

إذ كان يرى أن الزمان والمكان مخلوقان كسائر المخلوقات, كقوله:

**واللـــهُ صَيّـــرَ للبـــلادِ وأهلِها ظَرْفَينِ: وَقتاً ذاهِباً, ومكانا**
**والدهرُ لا يَدري بمنْ هو كائنٌ فيهِ, فكَيفَ يلامُ فيما كانا؟**[3] (الكامل)

وقوله:

**أرى الوقتَ يُفنـــي أنفُساً بفَنَائه, ويَمحو, فما يَبْقَى الحديثُ ولا الرّسمُ**[4] (الطويل)

وقوله:

**الدّهْرُ كالرَّبْعِ, لم يَعلـمْ بحالتهِ, هل عند ذي الدّارِ,من سكانها خبرُ؟**
**وسوفَ يقدُمُ, حتى يَسْـتَسِرّ به سَنَا النّهارِ, ويُفني, شَرْخَه الكبرُ**[5] (البسيط)

وتارة أخرى يعلن قدم الزمان, كما يرى قدم المادة, حيث يقول:

**نَزُولُ كمـــا زالَ أجـــدادُنا؛ ويبقى الزمانُ على ما نرى**
**نـهارٌ يُضِيءُ وليلٌ يَجيءُ ونجمٌ يغورُ, ونجـــمٌ يُرى**[6] (المتقارب)

ويقول:

---

(1)المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 384/2 .
(2) نفسه, 478/2 .
(3) نفسه, 530/2 .
(4) نفسه, 377/2 .
(5) نفسه, 430/1 , يستسر : يستتر , يختفي .
(6) نفسه , 80/1 .

أرَى زمـــناً تقادمَ غَير فانٍ,  فسبحانَ المُهَيْمِنِ ذي الكمالِ[1]  (الوافر)

ويقول:

السّاعُ آنيةُ الحوادثِ ما حَوَتْ,  لم يَبْدُ إلاّ بَعْدَ كشفِ غطائِها[2]  (الكامل)

ولكن الدكتور محمد سليم الجندي لا يرى أي تناقض في ذلك, على نحو ما نرى في قوله: "ولأبي العلاء كثير من مثل هذه الأبيات, ولكن يظهر عند التدبر والإمعان, أنه لا يريد بها ما يدل عليه ظاهر لفظه من القدم, لأن الأبيات الآتية:

إذ هي مَرَّتْ لم تَعُــدْ, ووراءَها,  نَظائرُ, والأوقاتُ ماضٍ وقادِمُ

فما آبَ منها, بعدَما غابَ, غائِبٌ,  ولا يَعْدَمُ الحِينَ المجدَّدَ عادِمُ[3]  (الطويل)

دليل صريح من أبي العلاء على فناء ماغاب من الشمس وما سيغيب, وقوله يضيء ويجيء, دليل على الحدوث لا على القدم, لأن انقسام الزمان إلى نهار يضيء وليل يجيء دليل على حدوثه, ويتابع الجندي تفصيل تلك القضية ليصل في النهاية إلى أن قصد المعري بلفظه القدم كانت القدم الإضافي"[4], مدللاً على وجهة نظره بأقوال المعري, من مثل قوله:

أتُضْمِرُ التوبَ من ضأنٍ تُرَوّعُها,  أم كانَ ذلكَ داءً فيكم قُدُمَا؟[5]  (البسيط)

وقوله:

وجَدْتُ المَوتَ للحَيوانِ داءً,  وكيفَ أُعالِجٌ الدّاءَ القَديما![6]  (الوافر)

وقوله:

قدُمَ الزّمانُ, وعُمرُهُ,إن قِسْتَهُ,  فلَدَيْهِ أعمارُ النّسورِ قِصارُ[7]  (الكامل)

---

([1]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 341/2 .

([2]) نفسه, 68/1 .

([3]) نفسه, 390/2 .

([4]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء و آثاره , 1280/3 – 1283, القدم الإضافي: المراد به القدم بالنسبة إليه وإلى ما في عصره, أي طول المدة بالنسبة إليه وإلى أجداده, لا البقاء بمعنى الخلود وعدم الفناء.

([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم 425/2 , التوب : التوبة .

([6]) نفسه, 431/2 .

([7]) نفسه , 452/1 .

أما الأستاذ حامد عبد القادر فيعلق على ذلك, بقوله: "إن قدم الزمان منسوب إلى الأنام أو الناس, ولعله قال ذلك ليدفع عنه تهمة من يتهمه بأنه يجعل قدم الزمان كقدم الباري"(1).

إن الزمن ــ في رأي أبي العلاء ــ ليس حركة الفلك, بل هو أعم وأشمل منها, وقد فهم المعري ذلك جيداً, كقوله:

**قُلتمْ: لنا خالقٌ حكيمٌ, قلنا: صَدَقْتُمْ كذا نقــولُ**
**زَعَمْتَمُــوهُ بِــلا مَكانٍ ولا زَمانٍ, ألا فَقولــوا**
**هــذا كــلامٌ له خَبيءٌ, مَعناهُ لَيستْ لنا عُقُولُ**(2) (مجزوء البسيط)

ومن الجدير ذكره في هذا الموضع أن الأبيات السابقة سببت للمعري مشاكل كثيرة, ومنها أن نفراً من الناس قاموا بتكفيره؛ إلا أن الدكتور محمد سليم الجندي يرى الوسطية في تلك القضايا, فهو يقول: "إنه إذا أراد بالاشتمال المقارنة في الوجود, فذلك صحيح بالنسبة للإله, وإنْ أراد الإحاطة فباطل"(3),وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على أن أبا العلاء كان أقرب إلى الغموض في تلك القضية.

**2 ــ المكان:**

اختلف العلماء في لفظ المكان ومعناه؛ أما لفظه: فقيل: إنه "مَفْعَل" من الكون, أي هو موضع كون الشيء, أي حصوله, والميم زائدة, ولكثرته في الكلام أجري مجرى "فَعال"؛ فقيل "تمكّن" أي توهموا الميم أصلاً, فقالوا :"تمكن" في المكان, وقيل :إن الميم أصلية فهو "فَعال" من التمكن, لا "مَفْعل" من الكون, لأنهم قالوا: في جمعه "أمكنة وأماكن وأمْكُن", وقالوا: "تمكن" ولو كان من الكون لقالوا: "تكوّن"(4)

---

(1) عبد القادر, حامد : فلسفة أبي العلاء مستقاه من شعره , ص 105 .
(2) المعري، أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم، 270/2.
(3) الجندي، محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء و آثاره، 1279/3.
(4) نفسه , 1284/3 وما بعدها .

وأما معناه؛ فقد اختلف فيه أهل اللغة كثيراً, إلا أن المعري عرفه: بأنه ضد الزمان, أي بأنه شيء أقل جزء منه لا يمكن أن يشتمل على جميع المدركات كما تقدم, ولم يذكر له حداً مانعاً, وإنما عرفه ببعض أعراضه الخاصة والعامة[1], كقوله:

**أمّا المكانُ, فثابتٌ لا ينطوي, لكنْ زمانُكَ ذَاهِبٌ لا يَثْبُتُ**[2] (الكامل)

ومن خواص المكان أنه (من دون لون أو حجم), كقوله:

**مكانٌ ودهرٌ أحرزا كلَّ مُدْرِكٍ, وما لهما لَوْنٌ يُحَسُّ, ولا حَجْمُ**[3] (الطويل)

كما وصفها بالإحاطة بكل ما تدركه العقول, كقوله:

**حَوَانا مَكانٌ, لا يجوزُ انتقالُهُ, ودهرٌ لَهُ بالساكنيهِ مُرورُ**[4] (الطويل)

وأما فيما يتعلق بنظرة أبي العلاء في قدم المكان أو زواله, فإنه يعود من جديد ليقف وقفة المتردد الحائر, فتارة يرى انقضاء المكان وزواله, كقوله:

**أَرْكَانُ دُنيـــانا غَرائزُ أربَـــعٌ, جُعِلتْ لمنْ هُوَ فَوْقَنا أَرْكَـــانَا**
**واللهُ صـــيَّرَ للبِـــلادِ وأهْلِها ظَرْفَيْنِ: وَقْتَاً ذاهِباً ومكـــانا**[5] (الكامل)

وتارة أخرى يرى أزليته بقاء, كقوله:

**قَضى اللهُ فينا بالـــذي هُوَ كـــائنٌ, فَتَمَّ وضَاعَتْ حِكمـــةُ الحكماءِ**
**وهَـــلْ يأبِقُ الإنسانُ من مُلكِ ربّه, فيخرُجَ من أَرضٍ لهُ وسماءِ؟**[6] (الطويل)

ويرى أن الإنسان لا يملك أن يتواجد خارجه, لأن المكان ــ من وجهة نظره ــ غير متناهٍ كقوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 1285/3 .

([2]) نفسه , 207/1 .

([3]) نفسه, 378/2 .

([4]) نفسه, 427/1 .

([5]) نفسه , 530/2, الغرائز الأربع: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة , من فوقنا: أي الفلك .

([6]) نفسه, 64/1 .يأبق العبد : يهرب العبد من سيده .

لَعَمْري! لقد طَالَ هــذا السَّــفَرْ        عليَّ, وأَصبَحْتُ أحْدُو النّفَرْ

أأخْرُجُ مِنْ تحتِ هذي السّماءِ؟        فكيفَ الإباقُ, وأيْنَ المَفَرْ؟[1]        (المتقارب)

وقوله:

ولَــوْ طَارَ جبريلٌ, بقيّةَ عُمرهِ,        عَنْ الدّهْرِ, ما اسطَاعَ الخروجَ من الدّهرِ[2]        (الطويل)

الدّهرِ[2]

إنّ من يتأمل تلك الأبيات, يجد أن أبا العلاء كان في حالة تناقض فكري؛ فتارة يجزم بقدم المكان, وتارة أخرى يرى بزواله, ولعلنا لا نجد تفسيراً قطعياً لذلك التناقض الفكري.

ويذهب الدكتور جميل صليبا في تفسير هذا التردد والتناقض إلى القول بأن المعري استلهم آراءه في قدم العالم أو حدوثه من منبعين؛ أحدهما العقل وثانيهما النقل؛ فكان إذا اتبع أحكام العقل يصرح بالقدم, وإذا اتبع أحكام النقل يصرح بالحدوث, وإذا شعر بما في هذين القولين من تناقض عاد إلى عقله, واتهمه بالعجز عن إدراك هذه الحقائق التي تجاوز طوره[3].

ولكن البعض الآخر يرى أن كلام المعري كله جارٍ على نمط واحد, خالٍ من التناقض المتكلف, ولم يرَ في كلامه ما يدل على قدم المكان[4]خلافاً لما ذهب إليه الدكتور طه حسين حيث رأى بأن المعري يجزم بقدم المكان وأزليته[5].

ولكننا قد نتفق والفريق الأول الذي يرى تناقض أبي العلاء, لأننا نرى أن أبا العلاء, ظل محتاراً أمام تلك القضايا الغيبية حتى آخر سني عمره, فقد ظل يتساءل ويتناقض؛ فلا يرى اليقين ولا يهتدي إلى الصراط المستقيم, فالأدلة تتقابل وتتكافأ تارة, وتتناقض وتتعارض تارة أخرى.

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 615/1 .

([2]) نفسه, 519/1 .

([3]) صليبا, جميل: تاريخ الفلسفة العربية, 311/1 وما بعدها .

([4]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء, 1286/3 .

([5]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء , ص 248 .

**3 ـ المادة:**

درس أبو العلاء المادة؛ وبحث في أسرارها, "فرأى كما رأى الفلاسفة بأن الأجسام تتكون من مادة قديمة خالدة, وصور تختلف عليها "[1], وفي ذلك يقول:

**نُرَدَّ إلى الأصولِ, وكلُّ حــيٍّ    له في الأربع القُدُمِ انتسابُ**[2] (الوافر)

قاصداً بالأربع القدم العناصر الأربعة.

ويقول أيضاً:

**تَيَممّــوا بتــرابي, عَلَّ فِعْــلَكُمُ,    بَعْدَ الهُمودِ, يُوافينــي بأغراضي**
**وإنْ جُعِلْتُ بحُكْــمِ اللهِ في خَزَفٍ    يَقْضي الطّهورَ, فإنّيَ شاكرٌ راضِ**
**جَوَاهــرٌ أَلَّفَتْها قُــدْرَةٌ عَجَــبٌ,    وزايلَتهْا, فَصَارتْ مثلَ أعراضِ**[3] (البسيط)

وهكذا أثبتَ المعري بقاء المادة وخلودها مع اختلاف صورها من حين لآخر, وهو بالتالي "لا يرى رأي المتكلمين المسلمين في حدوثها وتركيب الأجسام والأجزاء التي لا تتجزأ"[4].

ولكن المعري لم يقف عند هذا الحدّ فحسب, بل عاد من جديد ليقف وقفة الحائر المتردد في تلك القضية؛ على نحو ما سنرى في عدد من أقواله التي تقف دليلاً على أنه يرى عكس مـا رآه في أبياته السابقة, وبقي يرى بحدوثها وفنائها, كقوله:

**ولَيْسَ اعتقادي خُلودَ النّجومِ,    ولا مَذْهَبــي قِدَمُ العالَمِ**[5] (المتقارب)

وقوله:

---

([1]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء المعري, ص246 .
([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 101/1 , الأصول : و هي الماء و الهواء و التراب و النار .
([3]) نفسه , 92/2 , تيمموا: من التيمم, مَسْحُ الوجه واليدين بالتراب الطاهر للصلاة, الجواهر: الحقائق التي يتألف منها جسم الإنسان, قدرة عجب: النفس الإنسانية, زايلتها: فارقتها (فتكون قدرة عجب: القدرة الإلهية).
([4]) حسين , طه : تجديد ذكرى أبي العلاء المعري , ص 247 .
([5]) المعري , أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 478/2 .

**فَسَادٌ وكَوْنٌ حَادِثانِ كلاهما شَهيدٌ بأنَّ الخَلْقَ صُنْعُ حكيمْ[1]** (الطويل)

وقوله:

**ضَمَـــاني أن سَيَنْفَدُ كلُّ شيءٍ, سِوَى مَنْ لَيْسَ يَدْخُلُ في الضّمانِ[2]** (الوافر)

وقوله:

**لو صَحَّ ما قالَ رَسطاليسُ, من قِدَمٍ وهبَّ مَنْ مَاتَ لم يجمعهُمُ الفَلَكُ[3]** (البسيط)

ولعلنا لا نرى ذلك غريباً على المعري الذي عُرف بحيرته وتردده إزاء تلك المواضيع الغيبية, هذا خلافاً لما ذهب إليه محمد سليم الجندي حين رأى أنّ التناقض في أبيات المعري ما هو إلا ظاهري, وأن منشأ التناقض أصله (لفظ القدم) في قوله:

**نُرَدُّ إلى الأصولِ, وكلُّ حيٍّ له في الأربع القُدُمِ انتسابُ[4]** (الوافر)

و(لفظ قديم) في قوله:

**آليتُ لا يَنْفَكُّ جسْمِيَ في أذىً, حتى يعودَ إلى قَديمِ العُنْصُرِ[5]** (الكامل)

وإن هذا التناقض ــ من وجهة نظر الأستاذ محمد سليم الجندي ــ "يتوقف على مقدمتين؛ الأولى أنَّ لفظ "القديم" يطلق على الموجود الذي لا يكون وجوده من غيره؛ وهو القديم بالذات, ويطلق على الموجود الذي لا يكون وجوده مسبقاً بالعدم, وهو القديم بالزمان, والقديم بالذات يقابله المحدث بالذات, وهو الذي يكون وجوده من غيره, والقديم الزمان يقابله المحدث بالزمان, وهو الذي سبق عدمُه وجودَه سبقاً زمانياً, وكل قديم بالذات قديم بالزمان, وليس كل قديم بالزمان قديماً بالذات، ومنهم من جعل القدم ثلاثة أقسام: القدم الذاتي, والقدم الزماني, وقد

---

(1)المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 445/2 .

(2) نفسه, 568/2, لا يدخل الضمان: أي الباري تعالى .

(3) نفسه, 219/2 , يشير الى قول أرسطو بحشر الأجساد , و عدم قوله بفناء الأفلاك و انحلالها .

(4) نفسه , 101/1 .

(5) نفسه, 567/1 .

تقدم معناهما, والقدم الإضافي وهو أن يكون ما مضى من وجوده أكثر مما مضى من وجود غيره, كما في وجود الأب بالقياس إلى وجود الابن, وجعل الحدوث ثلاثة أقسام يقابل كل قسمٍ منها قسماً من القدم, وأهل اللغة يطلقون القديم على خلاف الحادث, وعلى ما سبق زمانه, وتقدم وقوعه"[1], على نحو ما يفهم من قوله:

**ولَمْ يَأتِ, في الدنيا القديمةِ, مُنْصِفٌ, ولا هُوَ آتٍ, بل تَظالُمُــنا جَزْمُ**[2] (الطويل)

كما استعمل القديم بمعنى القديم بالذات, في مثل قوله:

**نَصَحْتُكَ لا تُقْدِمْ على فِعْلِ سَوْءَةٍ, وخَفْ من إلهٍ للزّمانِ, قديمِ**[3] (الطويل)

وقوله:

**يَغْنى الذي مالَهُ فَنَاءٌ, وذلكَ الواحدُ القديمُ**[4] (مجزوء البسيط)

وأما المقدمة الثانية, فيرى الأستاذ محمد سليم الجندي, "أن أبا العلاء يريد بأبياته التي تُوهم أنها تدل على بقاء المادة وخلودها, أن يحذّر الناس من الاغترار بحالته الحاضرة؛ وينبهه إلى ما يصير إليه أمره بعد الموت من الصورة المستقذرة, وما ينتهي إليه من الإهانة والذل, فمثله في أقواله هذه مثل قول سيدنا عليّ ــ كرم الله وجهه ــ: "ما لابن آدم والفخر, أوله نطفة, وآخره جيفة ", فعليّ لم يعرّف أول ابن آدم وآخره تعريفاً حقيقياً, ولم يحده حداً منطقياً, وإنما أراد توجيه الإنسان إلى التفكّر فيما نشأ منه, وفيما يؤول إليه أمره بعد موته, وكذلك أبو العلاء لا يريد بيان عقيدته في المادة, ولا تعريفها تعريفاً علمياً, وإنما يريد تنبيه الإنسان إلى عاقبة أمره, وتصويرها له بصورة تستفز شعوره وتوقظه, ومثال هذا ينطبق على قوله:

**أعْلَمُ أني, إذا حَــييتُ, قَذَىً وأنّني, بعــدَ مِيتَتي, مَدَرُ**

---

([1]) الجندي , محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره, 2/1272-1275.
([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 2/380 .
([3]) نفسه , 2/444 .
([4]) نفسه, 2/400 .

**كَمْ من رجالٍ جُسومُهُمْ عَفَرٌ,      تُبْنَى بهمْ, أو عليهمُ الجُدُرُ**[1]      (المنسرح)

وكذلك لا يريد بالقديم في كل موضع من كلامه ما ذهب إليه الحكماء في معنى القديم الذاتي والزماني, بل ظاهر كلامه في هذه الأبيات يومئ إلى أنه يريد القدم الإضافي, ويدل على ذلك أنه لما أراد أن يبين اعتقاده في العالم نفى عنه القدم والخلود"[2], في مثل قوله:

**ولَيْسَ اعتِقَادِي خُلودَ النّجومِ,      ولا مَذْهَبي قِدَمُ العالَمِ**[3]      (المتقارب)

ومن الجدير ذكره أن بعض الباحثين يرى أن تناقض المعري يرجع إلى أنه لا يقدم لقارئه أبحاثاً مفصلة في الطبيعة, أو حتى تأملاً عميقاً في أسرارها, على طريقة الفلاسفة الذين يخوضون فيها لتحليل الظواهر, ورَدِّ التفاصيل إلى مبادئها بالتقصي والبحث والتعليل, فأبو العلاء ــ من وجهة نظرهم ــ "لا يفعل شيئاً في لزومياته, ولكنه يحمل قارئه على جناحين من الشعر, ويطوف به على جوانب الطبيعة متوقفاً به حيث يشاء, ويحمله على التأمل حينما يريد, ويضحك ويسخر, ويلهو به, ثم يدفعه حثيثاً نحو الاستنتاج السريع الذي يراه, ولو تناقض كلامه أو تنافى استنتاجه في أوله و آخره"[4].

ومهما يكن رأي أبي العلاء في المادة؛ أقديمة كانت أم حديثة, ومهما كان عدد المنكرين لآرائه كبيراً, لما تحويه من تناقض وتردد وحيرة؛ إلا أنها تعد لوحة فريدة في الشعر العربي, لأن أبا العلاء أتحف ذلك الشعر بأبيات شعرية مليئة بمثل تلك المواضيع, فيكفيك أنه كان ومازال محط أنظار الباحثين والدارسين لآرائه ونظرياته التي أشغلت عقولهم وفكرهم.

**4 ــ تناهي الأبعاد:**

اختلف الباحثون حول رأي أبي العلاء في تلك القضية, فمنهم من يرى "أن أبا العلاء سلك مسلك الفلاسفة, وقال بقدم المادة والزمان والمكان, فلم يلزمه القول بتناهي الأبعاد"[5], كقوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 479/1 وما بعدها, المدر: الطين الذي لا يخالطه الرمل, العفر: ظاهر التراب.

([2]) الجندي, محمد سليم : الجامع في أخبار أبي العلاء , 1275/3–1276 .

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 478/2 .

([4]) البستاني, إدوار أمين: أبو العلاء متأمل في الظلمات , ص 114 .

([5]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء , ص 249 .

**وَلَوْ طَــارَ جبريــلٌ, بقيّةَ عُمــرِهِ,        عَنْ الدّهْرِ,ما اسطَاعَ الخروجَ من الدّهرِ**[1] (الطويل)

وقوله:

**وأيسَرُ كَــوْنٍ تَحْتَهُ كــلُّ عــالَمٍ,        ولا تُدْرِكُ الأكوانَ جُرْدٌ صَلادِمُ**
**إذا هي مَرَّتْ لــم تَعُدْ, ووراءَها,        نَظائرُ, والأوقاتُ ماضٍ وقادِمُ**
**فما آبَ منها, بعدَما غابَ, غائِبٌ,        ولا يَعْدَمُ الحِينَ المجدَّدَ عادِمُ**[2] (الطويل)

وقوله:

**وهَلْ يأبقُ الإنسانُ من مُلْكِ ربِّهِ,        فيخْرُجَ مــن أَرضٍ له وسماءِ؟**[3] (الطويل)

إلا أن الأستاذ الجندي يرى عكس ذلك تماماً مبرهناً على ذلك بقوله: "إن أبا العلاء في هذه الأبيات لا يريد أن يقرر مسألة فلسفية, ولا حقيقة علمية, ولا أن يبين رأيه في تناهي الأبعاد وعدمه, وإنما أراد أن يبين تذمره من الحياة, وما انتابه من الكوارث"[4].

ولم يكتف الأستاذ الجندي بذلك, بل راح يدعم آراءه قائلاً: "إذا فرضنا أن أبا العلاء يريد بيان رأيه في الأبعاد وعدم تناهيها, فإن لفظ (بقية), يفهم منه أمران؛ الأول: أن عمر جبريل منتهٍ, لأنه ذهب منه قسم, وبقيت منه بقية, وهذا من صفة الحادث المنتهي, وأما الثاني: فيفهم منه أنه لو طار جبريل جميع عمره لاستطاع الخروج؛ وإذا لم يحمل على هذا الوجه, فإن لفظ (بقية) زائد لا فائدة من ذكره"[5].

أما فيما يتعلق بالبيت القائل (وهل يأبق ...), فالجندي يرى أنه من الضروري إيراد الأبيات الآتية التي يقول فيها المعري:

**قَضى اللهُ فينا بالذي هُوَ كائنٌ,        فتَمَّ وضَاعَتْ حِكمةُ الحكماءِ**

---

([1]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 519/1 .

([2])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 390/2. الجرد من الخيل: القصيرة الشع , واحدها أجر , الصلادم: ج الصلدم شديد الحافر.

([3]) نفسه, 64/1 .يأبق العبد: يهرب العبد .

([4]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء, 1288/3 .

([5]) نفسه, 1289/3.

سَنَتْبَعُ آثــارَ الــذينَ تَحَمّلُوا,          علـــى ساقَةٍ من أَعْبُدٍ وإماءِ[1]     (الطويل)

حيث يتم فيها توضيح مقصد المعري من تلك القضية, ثم يعقب الدكتور الجندي على ذلك بقوله: "إن تلك الأبيات مسوقة لأمرين؛ أحدهما: بيان أن الإنسان ضعيف, وثانيهما: أن ربه قوي واسع السلطان, وقد مضى عليه ما مضى؛ فلا يستطيع الخروج عن ملكه الذي هو أرض و سماء, وذلك كناية عن سعة قدرته وسلطانه وضعف الإنسان, هذا إضافة إلى أن تلك الأبيات لا تدل على عدم تناهي الأبعاد, بل نجد فيها ما يدل على تناهيها؛ لأن أبعاد الأرض متناهية وكذلك السماء"[2].

وختاماً لما ذكر؛ فإننا نرى أن أبا العلاء درس الفلسفة الطبيعية دراسة جدية, على الرغم مما جاء فيها من تناقض وتردد, ولعلنا نعزو ذلك في نهاية دراستنا إلى تأرجح حياته ما بين راحة وقلق, وانفتاح وعزلة, وزهد وشك, وحياة وموت, مما أثر على أفكاره وآرائه لتخرج بتلك الصورة.

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 64/1, تحملوا: ترحلوا, أي ماتوا. الساقة: مؤخرة الجيش .

([2]) الجندي, محمد سليم : الجامع في أخبار أبي العلاء , 1290/3 .

# الفصل الرابع

# معتقد أبي العلاء المعري الديني

كان دين أبي العلاء وعقيدته, موضع اهتمام وبحث, منذ كان وحتى يومنا هذا, وقد تحدث فيه معاصروه, وما يزال أهل عصرنا فيه يتحدثون, بحيث يندر رؤية كتابٍ عن أبي العلاء لم يتعرض لدينه وعقيدته ولم تتفق كلمتهم قط حول معتقده الديني إلى يومنا هذا. وقد تأملت المختلفين فيه؛ فوجدتهم على ثلاثة فرقاء:

فريق اتهمه بالإلحاد والزندقة, وفريق وجده تقياً صالحاً, وفريق " بين بين " إذ كان يرى فيه ذلك الإنسان المتأرجح وسط عواصف مزمجرة راعدة؛ فتارة تلوحه يميناً, وتارة أخرى ترميه شمالاً, فلا يملك معها أن يقوم صامداً ثابتاً على حاله.

وكان ممن اتهمه في دينه ورماه بالإلحاد والزندقة عدد من العلماء القدامى, ومنهم ياقوت الحموي الذي قال عنه: "وكان متهماً في دينه, يرى رأي البراهمة, ولا يرى إفساد الصورة, ولا يأكل لحماً ولا يؤمن بالرسل والبعث والنشور"[(1)],وابن الجوزي الذي قال: "وكان ظاهر أمره يميل إلى مذهب البراهمة, لأنهم لا يرون ذبح الحيوان ويجحدون الرسل, وقد رماه جماعة بالزندقة والإلحاد, وذلك أمر ظاهر في كلامه وأشعاره, وأنه كان يرد على الرسل.ويعيب الشرائع, ويجحد البعث, وأقواله تدل على اختلال عقيدته"[(2)].

وكذلك ابن الوردي الذي قال: "كنت أتعصب له, لكونه من المعرة. ثم وقفت له على كتاب "استغفر واستغفري", فأبغضته, وازددت عنه نفرة, ونظرت له في كتاب "لزوم ما لا يلزم" فرأيت التبري منه أحزم, فإن هذين الكتابين يدلان على أنه كان لما نظمهما هائماً حائراً,

ومذبذباً نافراً, يقر فيهما أن الحق قد خفي عليه, ويود لو ظفر باليقين"[(3)].

وأما ابن حجر فقد قال: "وقال غرس النعمة بن الصابي: حدثني الوزير أبو نصر بن جهير, حدثنا أبو نصر المنازي الشاعر, قال: اجتمعت بأبي العلاء المعري, فقلت له: ما هذا الذي يُروى عنك ويُحكى؟قال: حسدوني وكذبوا علي! فقلت: على ماذا حسدوك وقد تركت لهم

---

([1]) الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء , ص 76 و ما بعدها .

([2]) ابن الجوزي, سبط: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص 144 .

([3]) ابن الوردي, عمر: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص210 وما بعدها.

الدنيا والآخرة! فقال: والآخرة أيضاً ؟!"[1], حتى أنه قيل بأن غلاماً كان يُعرف بأبي غالب بن نبهان, من أهل الخير والسّلامة, والفقه والديانة, كان يقول: "أُريت البارحة في منامي رجلاً شيخاً ضريراً, وعلى عاتقه أفعيان متدليان إلى فخذيه, وكلّ منهما يرفع فمه إلى وجهه, فيقطع منه لحماً يزدرده وهو يصيح ويغيث, فقلت: من هذا؟ وقد أفزعني ما رأيت منه, وروعني ما شاهدته عليه, فقيل لي: هذا المعري الملحد"[2],بينما اكتفى القاضي أبو جعفر بالهجوم عليه قائلاً:

**كلبٌ عَوّى بمعرّةِ النعــمان　　　لمّا خـــلا عن ربقةِ الإيمانِ**

**أَمَعرَّةَ النُّعــمانِ ما أنجبتِ إذْ　　　أخرجتِ منكِ مَعرّةَ العُميانِ[3]** (الكامل)

**العُميانِ[3]**

وأما الفريق الثاني؛ فقد ذهب إلى أن أبا العلاء كان صحيح العقيدة مؤمناً بها, ويقف على رأس هذا الفريق ابن العديم صاحب كتاب "الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري" حيث يقول: "قصده جماعةٌ لم يَعُوا وعيَه, وحسدوه إذْ لم ينالوا سعيَه, فتتبَّعُوا كتبه على وجه الانتقاد, ووجدوها خالية من الزيغ والفساد؛ فحين علِموا سلامتَها من العيب والشَّين, سلكوا فيها معه مسلك الكذب والمَيْن, ورموه بالإلحاد والتعطيل, والعدول عن سواء السبيل, فمنهم من وضع على لسانه أقوالَ المُلحِدة, ومنهم من حمل كلامَه على غير المعنى الذي قَصَدَه؛ فجعلوا مَحاسِنَه عيوباً, وحسناته ذنوباً, وعَقله حُمقاً, وزُهده فسقاً, ورشقوه بأليم السهام, وأخرجوه عن الدِّين والإسلام, وحرَّفوا كَلِمَه عن مواضعِه, وأوقعوه في غير مواقعه"[4],وقد نقل الصفدي عن رسالة ابن العديم أنه قال: "وقرأت بخطِّ أبي اليسر المعرّيّ في ذكره, وكان ــ رضي الله عنه ــ يُرْمَى من أهل الحسدِ له بالتعطيل, ويعمل تلامِذتُه وغيرهم على لسانه الأشعار يضمّنونها أقاويل المُلْحدة قصداً لهلاكه, وإيثاراً لإتلاف نفسه, فقال رضي الله عنه:[5]

---

([1]) نقلاً عن ابن الوردي, عمر: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري: ص213 .

([2]) نقلاً عن القفطي, أبو الحسن: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص64.

([3]) نقلاً عن الصفدي, صلاح الدين: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص55 .

([4]) ابن العديم, ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص 484 .

([5]) نقلاً عن الصفدي, صلاح الدين: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص270, ولم ترو تلك الأبيات في ديوانيه.

حَـــــاوِلَ إِهْــوَانِي قَوْمٌ فــما     واجَــهْتُهُمْ إلا بإهــوانِ

يحــرِّشُونـــي بسـعــاياتــهِم     فَــغيَّــروا نِيّةَ إخْــوانِي

لو استطاعوا لوشَوْا بي إلى الــ     مرِّيخ في الشُّهبِ و كِيوانِ (السريع)

ومن الجدير بالذكر أن لأبي العلاء "كتاباً موسوماً بـــ "زجر النابح", أبطل فيه طعنَ المزْري عليه والقادح, وبَيَّن فيه عذره الصحيح, وإيمانه الصَّريح, ووجّهَ كلامه الفصيح, ثمُّ أتبع ذلك بكتابٍ وسمه بـــ "نجر الزجر" بَيّنَ فيه مواضعَ طعنوا بها عليه بيان الفجر, فلم يمنعهم زجرُه, ولا اتّضح لهم عذرُه, بل تحقق عندهم كفره, واجترءوا على ذلك وداموا, وعنّفوا من انتصر له ولاموا, وقعدوا في أمره وقاموا؛ فلم يرعَوا له حرمة ولا أكرموا علمه, ولا راقبوا إلاً ولا ذِمّة, حتى حكوا كفره بالأسانيد, وشدّدوا في ذلك غاية التشديد, وكفّره من جاء بعدهم بالتقليد"[1].

وأما السّلفي فيرى أن المعري مؤمن تقي, نظراً لما سمعه من القاضي أبي المهذب عن القاضي أبي الفتح الذي قال: "دخلت على أبي العلاء المعري ذات يومٍ بالمعرّة في وقت خَلْوة بغير علمٍ منه, وكنت أتردد إليه وأقرأ عليه, فسمعته يُنْشد من قوله:

كــم بُودرت غَادةٌ كَعابٌ     وعُمِّرَتْ أُمُّــهَا العــجوزُ

أحرزَها الوالــدانِ خَوْفَاً     والقَبْرُ حِــرْزٌ لـــها حَريزُ

يَجُــوْزُ أنْ تُبْطِئَ المنايا     والخُلْدُ في الدَّهرِ لا يَجُوزُ (مخلّع البسيط)

ثم تأوّه مرات, وتلا: ("إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذلكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذلكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. وما نُؤخِّرُه إلاّ لأجَلٍ مَعْدُودٍ. يأتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بإذنِهِ, فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وسَعِيْدٌ"). ثم صاح وبكى بكاءً شديداً وطرح وجهه على الأرض زماناً, ثم رفع رأسه ومسح وجهه, وقال: سبحانَ من تكلَّم بهذا في القدم! فقلت له: يا سيِّدي, مالِي أرى في وجهك أثرَ غيظ؟ فقال: لا يا أبا الفتح, ولكن أنشدت شيئاً من كلام المخلوق, وقرأت شيئاً من كلام الخالق, فلحقني ما رأيتَ, فتحقَّقت صحّة دينه وقوّة يقينه"[2].

---

([1]) ابن العديم, ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص485.

([2]) نقلاً عن المكي, العباس: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص355 وما بعدها, والأبيات السابقة لم ترد في في ديوانيه.

وفي صحة عقيدته, يقول أحمد تيمور معلقاً على بيتين كانا قد نسبا إلى أبي العلاء:

**إذا مـــا ذكــرنا آدمـــاً وفِعَالَهُ وتزويـــجه لابْنَـــيْهِ بِنْتَيْهِ في الخَنَا**

**عَلِمْنا بأنَّ الخلقَ من نَسْلِ فاجرٍ وأنَّ جميعَ الخَلْق من عُنْصرِ الزِّنا**[1] (الطويل)

"وهذا كلام لا يصدر إلا من معتوه فَقَدَ رُشْدَه, وحاشا لأبي العلاء أن يكوّنه, فضلاً عما في البيتين من بذاءة, وقلة أدب تنبو عنهما نفس أبي العلاء, وقد أتى الرجل من جهة حسدته وشانئيه, وولوع جماعة منهم بتقويله ما لم يقل, وإشهاره بما كانوا ينظمونه على لسانه من أقوال المعطلة والزنادقة؛ حتى صارت الأذهان لكثرة ما وقر فيها من ذلك, إذا ألقى إليها شيئاً من شعره فيه إيهام, انصرفت إلى إساءة الظن به, وغالبه كان سخافات يتنزه شعــر أبي العلاء عنها, ولا يخفى وضعها على ذي لب"[2].

وأما الفريق الثالث وهو ما أسميناه فريق (بينَ بينَ) الذي يرى أن أبا العلاء في حيرة وتردد من أمره إزاء معتقده الديني؛ فمرةً يكون مؤمناً بالله أشدّ الإيمان وأوثقه, وداعية إلى الله كأحسن وأخلص ما يكون الدعاة, ومرةً أخرى يكون وقد ندّت منه الكلمات التي تكاد تُخرج المؤمن من إيمانه, وتلقي به في مجتمع الملحدين أو المتشككين, ويقف على رأس هذا الفريق الصفدي, الذي كان حائراً متردداً إزاء معتقد أبي العلاء الديني, مما جعله يقول: "سألت ذات يومٍ الشيخ فتح الدين بن سيّد الناس فقلت له: ما كان رأي الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد في أبي العلاء؟ فقال: كان يقول: هو في حيرة! قلت: وهذا أحسنُ ما يقال في أمره؛ لأنه قال في لزومياته"[3]:

**ضَحِكْنا وكان الضّحكُ منّا سفاهةً, وحُقّ لسُكّانِ البسيطةِ أنْ يَبْكُوا**

**يُحَطِّمُــنَا رَيْــبُ الزّمـــانِ,كـــأنّنا زُجـــاجٌ, ولكن لا يُعادُ له سَبْكُ**[4] (الطويل)

---

([1]) نقلاً عن الصفدي, صلاح الدين: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص282,وقد رواها الحموي في (الدنا) من الدناءة بدلاً من (الخنا), ص113,ولم ترد في ديوانيه.

([2]) تيمور, أحمد: أبو العلاء المعري, ص160 وما بعدها.

([3]) الصفدي, صلاح الدين: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص271.

([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 216/2, وقد روى الصفدي الشطر الأول من البيت الثاني من لزوم ما لا يلزم (تحطِّمنا الأيامُ حتى كأننا).

وأما الدكتور الخطيب فإنه رأى المعري، وكأنه "إنسان يقف في مهب عواصف مزمجرة راعدة تضطرب منها سفينته ذات اليمين وذات الشمال، فلا يملك معها بأن يقيمها على أي مرفأ يرسو بها[1].

وفيما سبق ذكره, كان عرضاً شاملاً لأهم ما جاءت به الفرق الثلاثة حول معتقد أبي العلاء الديني, مصاحبة معها الحجج والأدلة. وترى الباحثة أنه لا يصح الحكم على الإنسان بالكفر والإلحاد إلا إذا أنكر أمراً واضحاً من الأمور الدينية, على أن يكون هذا الإنكار ثابتاً بدليل سالم من الاحتمال, لأن الدليل إذا طرقه الاحتمال سقط به الاستدلال, لأن القاعدة تقول: "إن الأدلة تسقط إذا تعارضت", فإذا سلمنا أن الأدلة التي تثبت إيمانه متكافئة مع الأدلة التي تنفيه في القوة والصراحة والسلامة من الاحتمال, حكمنا بسقوطها ووجب علينا عندها التماس سبيل آخر لإيضاح هذه الناحية, وليس لدينا إلا حياة المعري العملية, "والتاريخ يحدثنا أنه كان قواماً, صالحاً, تقياً, زاهداً, طاهر اللسان واليد والذيل, وشهد له كل من عرفه عن قرب بصحة العقيدة ما جعله يشهد له بصحة الدين وقوة اليقين"[2].

"ولم يحدثنا التاريخ أنه ترك صلاة في سفر ولا حضر, ولا في صحة ولا في مرض, و أنه لما عجز عن القيام كان يصلي قاعداً, وكان يصوم الدهر عدا أيام الأعياد, ومن تتبع أعماله لم يجد فيها ما يخالف التقيّ, إذ كان يرى أن ذكر الله هو خير ما يتكلم به المرء[3],على نحو ما ما نرى في قوله:

**فعَليكَ بالتّقوى, ذخيرةَ ظاعنٍ؛ إنَّ التّقيّةَ أَفْضَلُ الأذخارِ**[4] (الكامل)

وهذا لا يعني أننا نتعصب لأبي العلاء مدافعين عن عقيدته, لأننا حقاً وقفنا على الكثير من أقواله الدالة على اعتقاد صحيح, وإيمان قوي لا يخالطه ريب, وعند قراءة لزومياته نلحظ

---

(1) الخطيب، عبدالكريم: أبو العلاء المعري بين الإيمان، ص28.

(2) الجندي, محمد سليم: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء , ص 290 .

(3) ذياب, عبد المجيد: أبو العلاء المعري (الزاهد المُفْتَرى عليه), القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1986م, ص239.

(4) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 592/1.

أمراً في غاية الأهمية, وهو أن الأبيات الشعرية في لزومياته تقسم إلى قسمين؛ القسم الأول: فيشتمل على الأبيات الظاهرة الصريحة في معانيها وأغراضها, والقسم الثاني؛ يتضمن الأبيات الموهمة الغامضة التي قد تدعو إلى التساؤلات والحيرة, ولكننا إذا قسنا عدد الأبيات الظاهرة الصريحة, وعدد الأبيات الموهمة في الكم, تبيّن لنا أن الأبيات الظاهرة الغالبة ــ التي تشمل أكثر الديوان ــ تعد بالمئات والألوف, على عكس الأبيات الموهمة, التي هي معدودة جداً لا تتجاوز العشرات, والعجيب أن مئات الأبيات الصريحة كان يُضرب بها عرض الحائط, في حين يتم التمسك ببيت أو عشرات الأبيات التي قد توهم الحكم عليه بسوء العقيدة.

وأغلب الظن أن الكثير من أشعار أبي العلاء التي كانت تتخذ ضده ذريعة لاتهامه بالكفر والإلحاد كانت موضوعة عليه, إذ لا يُعقل أن يعطي الإنسان بنفسه وثيقة اتهامه لأعدائه, ومهما كان الإنسان غبياً فإنه لا يفعل مثل ذلك, ومن هنا؛ فالأمر أخطر من أن يغامر فيه الإنسان, فيحكم على إنسان ولد في الإسلام, ونطق بالشهادتين بأنه كافر أو ملحد, لأن ذلك من أكبر الكبائر, فالحكم في ذلك لله وحده, لأنه يعلم المفسد من المصلح, ونظراً لأهمية إخراجه من سجن الإلحاد والزندقة كان لابدَّ من الرجوع إلى أمرين مهمين؛ أولهما: مقدمة لزومياته التي قال فيها: " كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنيةَ أوراقٍ, توخّيتُ فيها صدقَ الكلمةِ, ونزّهتُها عن الكذبِ, والمَيْطِ, ولا أزعمها كالسِّمطِ المتخذ, وأرجو أن لا تُحسَب من السُّميط, فمنها ما هو تمجيد لله الذي شَرُفَ عن التمجيد, ووضَعَ المنَن في كلّ جيد, وبعضُها تذكيرٌ للناسين, وتنبيهٌ للرقدة الغافلين, وتحذيرٌ من الدنيا الكبرى"[(1)].

وهذا يدل على صدق معتقد أبي العلاء الديني؛ وأنّ هدفه من نظم لزومياته كان هو تمجيد لله تعالى, وتذكير للإنسان وتحذيره من الدنيا الغرور.

وبهذا "فالمعري أسمى نفساً من أن يكذب, وهو صريح لا يعرف الكذب والمداجاة, وهو من الجرأة بحيث أنه كتب ونظم ونشر ما كتب ونظم وهو يعرف نتائج ما يفعل, وهو صادق

---

([1]) المعري, أبو العلاء: مقدمة لزوم ما لا يلزم,5/1, الميط: المغالاة, السِّمط: الخيط أو السلك, السُّميط: الآجر المرصوص.

نحو الله ونحو نفسه ونحو المجتمع, ولم يقل إلا ما عنى"[1].

وأما الأمر الثاني؛ فكتابه الموسوم بــ "زجر النابح" الذي رد فيه على من رماه بالإلحاد والزنــدقة, وفي ذلك اخترنا بعض ما جاء في زجره النابحين الذين كفروه في البيت الآتي:

**أفِيقوا أفِيقوا يا غُواةُ! فإنما ... دِياناتُكُمْ مَكْرٌ منَ القُدَماءِ**[2] (الطويل)

يقول أبو العلاء: "إن أهل الكتاب كانوا يمكرون بأتباعهم, وفي الكتاب العزيز" ومكَرُوا ومكَرَ الله". وفيه "فَوَيْلٌ للذينَ يكتُبونَ الكِتابَ بأيديهِمْ ثُمَّ يَقولونَ هذا مِنْ عندِ اللهِ ليشتروا بهِ ثمناً قليلاً " وهذا من المكر. وكثيراً ما يقول اليهودُ في ألفاظهم وحديثهم: ذكر قدماؤنا كذا, وخبَّر قدماؤنا ذلك. فبني الأمر على هذا النحو"[3], كما قال رادّاً على من كفّره في البيتين الآتيين:

**أقيمــــي,لا أَعُــدُّ الحجَّ فرضاً, ... على عُجُزِ النساءِ, ولا العَذارَى**
**ففــــي بطحـــاءِ مكّةَ سِرُّ قومٍ, ... ولَيْسُوا بالحُمـــاةِ ولا الغَيارَى**[4] **(الوافر)**

"هذا مذهب قد قيل به في صدر الإسلام, وقد رُوي أن بعض الصالحين أراد النهوض إلى الحج, فجاءت امرأته تسأله أن يرحل بها معه, فدفعها دفعة عنيفة, وقال: الزمي بيتك, فلا حجَّ على مثلك لأنه شاق منصب, فأما في هذا العصر (عصر المعري) فقد أفتى الجِلّةُ من الفقهاء بأن الحج ساقط عن الرجال المستطيعين للرواحل والزاد؛ إذْ كان السالكُ في الطريق يلقى من الظمأ واعتراض البادية والسُّرّاقِ الذين طالما سفكوا الدم, ولم يقنعوا بأخذ الجِهَاز والسَّلَب, ما يجعل الحجَّ داخلاً في قوله تعالى: " ولا تُلْقُوا بِأيديكُم إلى التّهْلُكَةِ " وإنَّ كثيراً من الناس لَيُقْتَل بالحَرَم إذا ظُنَّ أنَّ معه شيئاً يُغتنم. وقد أخبر الصادق أنه كان في الطواف فوجد رجلاً قد قُتل بالحجر. وقوله تعالى: " وَأَذِّنْ في النّاسِ بالحجّ يأتوكَ رِجالاً وعلى كُلِّ ضامرٍ يأتينَ ومن كل فجّ

---

(1) بكري, عطا: الفكر الديني عند أبي العلاء المعري, بيروت, منشورات دار مكتبة الحياة, 1980م, ص80.

(2) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 65/1, لعله أراد بذلك ما دخل على العقائد الدينية من أوهام وخرافات لَيْسَتْ من أصل الدين .

(3) المعري, أبو العلاء: زجر النابح, تحقيق د. أمجد الطرابلسي, دمشق, مط مجمع اللغة العربية, ص12 وما بعدها .

(4) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,73/1 , بطحاء مكة: مسيل واديها, الغيارى: واحدها غيران, من الغيرة .

عميقٍ " لا يعني به النساء وإنما يعني [.....])[1], وقال على من اعترض عليه في قوله:

**والموتُ نومٌ طويلٌ ما لَهُ أمَدٌ          والنومُ موتٌ قصيرٌ, فهو مُنجابُ**[2]          (البسيط)

"هذا لا يَعترضُ فيه إلا رجلٌ جاهل, لأنّ كلَّ جيلٍ والمنتسبين إلى كُلّ نحلةٍ لا يدّعونَ أنهم يعرفون وقت النشورِ ما هو؟ والمعنى: مالَهُ أمَدٌ معروف. ومثل هذا في الكتاب العزيز من كتمان الساعة ومنع بني آدم من علم أوانها, وفي أي جيل يكون قيامها. والآيات مشهورة في الحذف, وقد ذُكر بعضها فيما تقدم"[3].

وهذا غيض من فيض مما جاء في كتابه "زجر النابح" الذي يردّ فيه على متهميه بالإلحاد والكفر, وأما الذين اتبعوا موقف (بين بين) فقد وقفوا حائرين مترددين في معتقد أبي العلاء, مفوضين أمره إلى الله تعالى وحده الذي يعلم ما في مستكنات الضمائر, ومستودعات القلوب من إيمان أو إلحاد, ومن هوى أو زيغ, فهم رأوا أن الكثير مما أتى من أشعار الشك والحيرة والقلق في لزومياته, إنما كان نتاجاً لنفس حائرة ضاقت بما أصابها من شرور وأذى في بدء حياتها؛ فلم تستطع تفسير ما رأته, فرجعت تشك في بعض الحقائق.

ولعلنا قد نجد عذراً لأبي العلاء في حيرته وتردده وتأرجحه, على نحو ما يفهم من فكرة الأستاذ المقدسي الذي راح يمعن النظر في حياة أبي العلاء الخاصة, والحافلة بالأذى والشرور والمصائب, وفي عصره الذي اشتدت فيه المشاحنات الكلامية, وتعددت المنازع الفكرية, واشتد فيها النزاع الفكري بين النقل والعقل, إذ وجد أن هذا النزاع قد أحدث في عقله ميلاً إلى النظر النقدي في الكون والحياة والدين والمعاد, فتسرب الشك إلى عقله واستولى عليه روح الإنكار, فرفض ما لم يقبله عقله من تعاليم وسنن, ونادى بالرجوع إلى المبادئ الأولية في الحياة الروحية والاجتماعية, فاصطدمت تقاليد الدين بأحكام عقله, فاضطرب وصار يتلمس طريقاً توصله إلى ما يشفي غليله؛ فلم يوفق تمام التوفيق, فكان الإيمان أساس حياته, ولكنه قضى

---

(1) المعري, أبو العلاء: زجر النابح, ما بقي من النص مطموس ويقدر بسطرين , ص16 وما بعدها.

(2) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 95/1, أمد: نهاية, منجاب: منكشف.

(3) المعري, أبو العلاء: زجر النابح, ص22.

الحياة حائراً تتقاذفه لجج الشك والحيرة[1].

وأما الدكتور شوقي ضيف فإنه يسمي تلك الأبيات الموهمة "بخطرات شاعر حائر جاءت على لسانه في أوقات قليلة جداً في لزومياته إذ كثرتها تحميد وتقديس وتمجيد في الله"[2].

وإذا كانت الباحثة تحترم كل ما أورده القدماء والمحدثون في معتقد أبي العلاء, فإنها تجد نفسها منسجمة مع ما ذهب إليه الدكتور عدنان عبيد العلي الذي رأى في أبي العلاء المعري بأنه " رجل يعتقد بالتوحيد اعتقادَ يقينٍ لا يخالطه شك, ولا يساوره ظن, وليس في أدب أبي العلاء بيت واحد من الشعر أو عبارة توحي أو تشير إلى إنكار الخالق, أو الشك في وجوده"[3].

وإذ كانت تهمة الإلحاد التي ألصقت به تعني عدم الإيمان بالله, فإنها تهمة في غاية الخطورة لأنها لا تقوم على أي دليل قاطع ثابت, ولذلك فإن الباحثة ترى أنه لابد من وجود أسباب ودوافع لتلك التهمة؛ وفي هذا المجال؛ فإنني أرى ما رآه الدكتور محمد سليم الجندي الذي رأى أن " من أشدها الحسد من قبل أعدائه, والتنطّع, والتشدد في الديـــن من خصومه, والطموح في الظهور على أكتافه, والولوع بالإغراب على حسابه"[4], وبهذا فقد اتفقت كلمة حسّاد أبي العلاء وأعدائه على تكفيره, ولكنهم اختلفوا في الطرق الموصلة إلى ذلك؛ فمنهم من كفره بما لا يوجب التكفير,ومنهم من نسب إليه أبياتاً هو بريء منها, ومنهم من حَرّف أقواله عما يوجب الإيمان, ومنهم من جرّه إلى الكفر بغير سبب ولا مناسبة, ومن هؤلاء القفطي الذي جعله ملحداً, مستنداً في ذلك إلى الأبيات التي لم تروَ في ديوانيه: والتي منها قوله:

---

([1]) المقدسي, أنيس: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي, ص399 وما بعدها.

([2]) ضيف, شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي, ص393.

([3]) عبيد العلي, عدنان: المعري في فكره وسخريته, ص130.

([4]) الجندي, محمد سليم: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص280.

ما بالُ ذا الحيوانِ يؤكلُ لحمُهْ ويُقَدُّ جِلـــدته ويُهْشَمُ عَظْمُهُ
إنْ كـــان ذا أكلٍ فأكـــلُك أكلُهْ أو كانَ ذا شربٍ فشربُك شُرْبُهُ
قُلْ للمُـــرِيق نجيعَه من نحرِهِ ما شـــأنُهُ مـــا ذنبُهُ ما جُرْمُهُ؟

اللهُ يقتـــصُّ الجـــرائمَ كُـــلَّهَا ويُعيدُها في نحـــرِ من ذا دأبُهُ[1] (الكامل)

وقد رأى القفطي فيها أن أبا العلاء يضع الحيوان في كفة متساوية مع الإنسان, عادّاً ذبحه جريمة تستحق العقاب, وأن الله هو الذي سيعاقب الإنسان لفعلته الدنيئة.

وكان الدكتور شوقي ضيف قد علق على تلك الأبيات مثبتاً فيها عدم نسبها إلى أبي العلاء حيث قال: " والغريب أن تأتي هذه الأبيات على لسان أبي العلاء, وفيها خطأ في الروي, وهو أستاذ التصنع الذي كان يلهو بهذه البضاعة في "لزوم ما لا يلزم"! وهذا مما يرجح أن قائلها شويعر صغير أراد الطعن في دين المعري"[2].

والأنكى من ذلك كله أن الحاقدين على المعري كانوا قد انتهزوا فقر المعري, فوضعوا على لسانه حديثاً شاكياً من زنديق إلى الله تعالى, يرى فيه ذلك الكافر الأحمق أن الله يرزق المجنون والأحمق ولا يعطي مثله للعاقل الرزين, متخذاً من ذلك حجة لزندقته لأنه لم يلقَ من ربه ما اشتهى وطلب, فقال:

إذا كـــانَ لا يَحْظَى برزقِكَ عـــاقلٌ وتَرْزُقُ مجنوناً وترزُقُ أحمقَا
فلا ذنبَ يا ربَّ السّماءِ على امرئٍ يَرَى مِنْكَ مالا يُشْتَهى فَتَزَنْدَقَا[3] (الطويل)

وخلاصة القول؛ فإن الباحثة لم تجد في عقيدة أبي العلاء ما يستدعي الحكم عليه بالكفر والإلحاد, لعلمنا أن أبا العلاء إنسان اُفتري عليه وطُعن بعقيدته أشد طعن, ولعل خير دليل على ذلك ما جاء في ديوانه "اللزوميات" المليء بآلاف الأبيات التي تؤكد على تمجيد الله, ووصفه بما ينبغي أن يوصف به من صفات العزة والكمال, وعشرات الأبيات المثبتة لشرعية النبوات والملائكة والكتب والبعث, وقد وجدت الباحثة لأهمية إثبات إيمان المعري بالله وملائكته وكتبه ورسله ويوم البعث أن تقوم بتفصيل كل واحد منها على حدة:

---

([1]) نقلاً عن القفطي, أبو الحسن: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص60, وتلك الأبيات لم ترد في ديوانيه.
([2]) ضيف, شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي, ص283.
([3]) نقلاً عن القفطي, أبو الحسن: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص58.

**1_ الإيمان بالله:**

كان المعري شديد الإيمان بالله, وأهم دليل كان يستند إليه في إثبات وجود الله هو دليل الحكمة والعناية, وخلاصته أن في هذا العالم نظاماً وترتيباً يدلان على وجود خالق حكيم متصف بصفات العزة والكمال, كقوله:

**حِكَمٌ تَدُلُّ على حكيمٍ قادرٍ,       مُتَفَرِدٍ,في عزّه,بكمالِ**[1]   (الكامل)

وقوله:

**فَسادٌ وكونٌ حـــادِثانِ كِلاهُمَا       شَهيدٌ بأنّ الخَلْقَ صُنْعُ حكَيمِ**[2]   **(الطويل)**

كان المعري يستنكر الكفر والإلحاد, ويقرّ بأن الله حق لا ينبغي أن يشك في وجوده أحد, على نحو ما نرى قي قوله:

**الناسُ مُختَلِفونَ, قيلَ: المرءُ لا       يُجزى على عَمَلٍ, و قيلَ: يُجازَى**
**واللهُ حَـــقٌّ, مَـــنْ تَدَبّرَ أمـــرَهُ       عَرَفَ اليقينَ, وآنَسَ الإعــجازا**[3]   (الكامل)

وقوله:

**واللهُ حَقٌّ, وإنْ مَاجَتْ ظنـــونُكُمُ,       وإنَّ أوجبَ شـــيءٍ أن تُراعُـــوه**[4]  (البسيط)

وهو سبحانه قديم باقٍ حكيم, يُستدلّ على حكمته في إتقان صنعته وعجائب مخلوقاته, ومع أن الضرورة تقتضي بأن نؤمن إيماناً قائماً على أساس من التفكير السّديد بوجود كائن أعلى يسيطر على الكائنات جميعها؛ فمن العبث التفكير في كنه ذاته, وكنه صفاته لأن العقل البشري غير قادر على إدراك حقيقة ذاته, ولا كنه صفاته, كقوله:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 357/2.

([2]) نفسه, 445/2.

([3]) نفسه , 626/1, آنس: أبصر الإعجاز: تأدية المعنى بأبلغ الأساليب.

([4]) نفسه, 596/2.

**إذا آمَـــنَ الإنسانُ باللهِ, فليكنْ لبيباً, ولا يَخلِطْ بإيمانِهِ كُفرا[1]** (الطويل)

وقوله:

**ضَلّوا عن الرّشد ومنهم جاحدٌ جحِدٌ, أو من يَحُدُّ, وهَلْ للهِ تحديدُ؟[2]** (البسيط)

وقوله:

**أمّا الإلَهُ,فأمرٌ لستُ مدرِكَهُ, فاحْذر لجيلِكِ,فوقَ الأرضِ إسخاطا[3]** (البسيط)

ولعل من المفيد هنا أن نورد تعليق الدكتور طه حسين القائل: "فليس ينبغي أن يُفهم من ظاهر البيت (أما الإله...) إلى أن أبا العلاء يجهل كنه الإله وحقيقته, ولا يستطيع أن يحدده تحديداً منطقياً, لأن الحقيقة المنطقية لله عزّ وجل لا يمكن أن تفهم ولا أن يعرفها العقل معرفة مفصلة, على ذلك لا بأس عليه أن يعلن جهله حقيقة الله ما دام يعلن علمه بوجوده"[4], وقد أوردنا أوردنا هذا التعليق على أن لا يُفهم من إيراده بأن الدكتور طه حسين يشك في عقيدة أبي العلاء, بل على العكس تماماً, إنه يطلعنا على أن الإنسان مهما وصل من العلم إلا أنه ما زال يجهل كنه الله وحقيقته, وهذا إن دلّ على شيء؛ فإنما يدل على أن العلم بصفات الله وكنهه أعلى من أن تحيط به عقولنا, وفي ذلك يقول أبو العلاء:

**رأيْتُ جماعاتٍ من الناس أُولعتْ بإثباتِ أشياءَ استحالَ ثبوتُها[5]** (الطويل)

وقوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 485/1 .

([2]) نفسه, 330/1, جحد: قليل الخير.

([3]) نفسه, 105/2.

([4]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص255.

([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 195/1.

سألتموني,فأعيتْنِي إجابتُكُمْ؛ مَنْ ادّعى أنّه دارٍ,فَقَدْ كذبا[1] (البسيط)

كذبا[1]

وقوله:

وبَصيرُ الأقوامِ مثليَ,أعْمَى, فَهلُمّوا في حِنْدِسٍ نتَصادمْ[2] (الخفيف)

لذلك نراه و قد دعا الإنسان إلى التفكير في بديع آثار الله و جميل صفاته, وليس في ذاته وكنهه, لأنه يرى أن التفكير في ذات الله وحقيقته يوتر الفكر, ويقلقه, ولا يجني أحد منه شيئاً, فيقول:

ولَيْسَ لنا عِلْــمٌ بســرّ إلهنـــا, فَهَلْ علمتْهُ الشمسُ, أو شَعَرَ الـــنّجم؟[3] (الطويل)

يقول:

و إنَّ إلهــي, إلـــهَ السّما ءِ,ربُّ الوُهودِ, وربُّ النبك
سألتُ المحدِّثَ عن شأنِهِ, فما زالَ يَضْعُفُ حتى ارتَبَك[4] (المتقارب)

وليس من المستبعد إذن أن نجده متعجباً من الأطباء الذين ينكرون وجود الله بعد دراستهم علم التشريح الذي يوضح لهم سرّ صناعة الله وإبداعه, وفي ذلك يقول:

عَجَبي للطّبيب يُلحِدُ في الخا لق, من بعد درْسِهِ التّشريحا[5] (الخفيف)

ففي هذا العالم بدائع عظيمة تَحارُ فيها عقولنا, وكلها دالة على وجود قادر حكيم, فكيف لا يَقر أبو العلاء بتلك الحقيقة الجلية؟ وهو المقرّ بوجود رب قدير:

أُقِرُّ بأنَّ لي ربّاً قديراً, ولا أُلْقَى بدائِعَهُ بِجَحْدِ[1] (الوافر)

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 118/1.

([2]) نفسه, 488/2.

([3]) نفسه, 378/2.

([4]) نفسه , 253/2 , النبك: الأكم ضد الوهود, الواحدة نبكة.

([5]) نفسه, 294/1 , يلحد: يكفر.

وقوله:

**أُثبتُ لي خالقاً حكيماً,        ولستُ من معشرٍ نُفاةِ**[2]    (مخلّع البسيط)

كما أنه حريص على تنزيه الخالق واتصافه بصفات الكمال, وأنه منكر على الملحد إنكار وجود الله العظيم, على نحو ما نرى في قوله:

**إذا كُنْتَ من فرطِ السّفاهِ مُعطِّلاً,        فيا جاحدُ اشهَدْ أنّني غيرُ جاحِدِ**
**أخافُ, من اللهِ, العقوبةَ آجلاً,        و أزعُمُ أنَّ الأمرَ في يدِ واحدِ**[3]    (الطويل)

وقوله:

**مولاكَ مولاكَ ,الذي ما لَهُ        نِدٌّ وخابَ الكافرُ الجاحدُ**[4]    (السريع)

فأبو العلاء ينبئنا بأن قدرة الله الشاملة تسعُ كل شيء في نظر العقل, وأن هذا العالم ليس إلا صورة ممكنة من صور أخرى ممكنة أيضاً, وأن الذي أوجد هذه الصورة الممكنة قادر على أن يوجد غيرها من الصور, كما أنه عليم لا يجري في العالم شيء إلا بأمره, فهو الذي يحرك الأفلاك ويدبرها بحكمته, وفي ذلك يقول:

**للمـــليكِ المذّكّــراتُ عــبيـــدٌ,        وكـــذاكَ المـــؤنثّاتُ إمــــاءُ**
**فالهلالُ المنيفُ, والبدرُ, والفر        قدُ, والصّبحُ والثّرى, والماءُ**
**هـــــذه كلُّــها لــــــربّك, ماعا        بكَ, في قــولِ ذلك الحُــكماءُ**
**خلّـــني, يا أُخيَّ أسْتغفر اللــ        ــهَ, فلَمْ يَبْقَ فيَّ إلا الذَّماءُ**[5]    (الخفيف)

وكما أن الله تعالى قادر على خلق الأجساد البشرية, فإنه قادر على خلق الأرواح النورانية والنارية أيضاً, حيث يقول:

---

([1]) نفسه, 383/1.
([2])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 229/1.
([3]) نفسه, 366/1 ,السفاه: الجهل, المعطّل: المنكر صفات الباري تعالى.
([4]) نفسه,346/1 .
([5]) نفسه , 57/1, الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي, الذماء: بقية النفس.

لَسْتُ أنفي عن قُدرَةِ اللهِ أشبا    حَ ضِياءٍ, بغَيرِ لحمٍ ولا دَمْ[1]    (الخفيف)

وإذا كان الله قادراً على خلق كل شيء وإحيائه, فهو كذلك قادر على إماتة كل شيء, وإفنائه, وفي ذلك يقول:

واللهُ يَقْدِرُ أنْ يُفني بريّتَهُ,    من غَيْرِ سُقْمٍ, ولكن جُندُهُ العِلَلُ[2]    (البسيط)

لأن الله تعالى موجود, ودلائل وجوده عظيمة, ومن العبث محاولة إنكاره, على نحو ما نرى في قوله:

اللهُ لا ريبَ فيه, وهو مُحتَجِبُ,    بادٍ, وكلٌّ إلى طَبعٍ له جذبا
أهلُ الحياةِ,كإخوان المماتِ فأهـ    ـونْ بالكُماةِ أَطالوا السُّمرَ والعَذَبْا
سألتُموني,فأعْيَتْنِي إجابتُكُمْ؛    مَنْ ادعّى أنه دارٍ,فَقَدْ كذبا[3]    (البسيط)

وها هو يوبخ من أنكر وجود الله ويجحد آلاءه, على نحو ما نرى في قوله:

واللهُ حقٌّ, وابنُ آدمَ جاهلٌ,    من شأنِهِ التفريطُ والتكذيبُ
واللبُّ حاولَ أنْ يُهذّبَ أهلَه,    فإذا البَريّةُ مالها تهذيبُ[4]    (الكامل)

ويستهزئُ بالمنجمين الذين يدّعون معرفة الغيوب, مثبتاً قوة الله وقدرته, حيث يقول:

مَتَى يَنْزِلِ الأمرُ السّماويُّ لايُفِدْ,    سِوى شَبَحٍ, رمحُ الكميّ المناجدِ
وإنْ لحقَ , الإسلامَ,خَطْبٌ يُغضُّه,    فما وَجَدَتْ,مثلاً لَهُ,نفسُ واجدِ
إذا عظّموا كَيوانَ عَظّمتُ واحداً,    يكونُ له كَيوانُ أوّلَ سَاجدِ[5]    (الطويل)

ولعل من أقوى الأدلة على ما للخالق تعالى من إجلال وتعظيم في فؤاد المعري, ذكره دائماً بالإجلال والتعظيم, وحث الآخرين على تسبيحه وتمجيده, لاسيما عند حديثه عن أسرار الحياة, وخفايا الكون, على نحو ما جاء في قوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 488/2.

([2]) نفسه,265/2.

([3]) نفسه, 118/1 , العذب: واحدتها عذبة : خرقة اللواء .

([4]) نفسه ,106/1 .

([5]) نفسه, 364/1 ,المناجد : البارز للقتال , يغضه : ينقصه .

سُبْحَـانَ خالِقِكَ,الـذي قَرَّتْ بهِ    غَبراءُ, تُوقَدُ,فوقَها خَضْراؤها
هَلْ تَعرفُ الحسدَ الجيادُ كغيرِها,    فالبُهْمُ تُحسَـدُ بينها غرّاؤها[1]    (الكامل)

فالصفات التي أسبغها على الله تعالى مازال يراها تقصر عنه, ولا تفيه حقه من الإلوهية, من مثل قوله:

فتبارَكَ اللهُ,الـذي هو قادرٌ,    تعيا وتَقْصُرُ دونَهُ الأوصافُ[2]    (الكامل)

ويضيق بنا المقام إن نحن أحببنا أن نستنفد كل الشواهد الدالة على ذلك,خائفين من ضياع الهيبة والعظمة التي يكنها المعري لله تعالى.

ومن الجدير بالذكر حقاً أن أبا العلاء كان يرى الدين سلوكاً محموداً, وأخلاقاً طيبة, ولا يراه صوراً أو رسوماً, كقوله لمن يصلي, ولا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر:

يا ظالـماً! عَقَدَ اليدينِ, مصلّياً,    مـن دون ظُلمِكَ يُعْقَدُ الزُنّارُ
أتظنُّ أنـكَ للمَحـاسنِ كاسبٌ,    و خبيُّ أمـرِكَ شِرّةٌ وشَنار؟[3]    (الكامل)

وقد حمله هذا على أن يصارح الناس بأمور عادت عليه بكثير من الأذية, حتى رمي بالزندقة والكفر أحياناً, فالدين عنده ليس بكثرة القراءة, فإن أقصر السور مع جميل الفعل خير من ترتيل القرآن كله وعدم العمل به, على نحو ما يفهم من قوله:

أُمُّ الكتابِ , إذا قَوَّمتَ مُحكمَهَا؛    وجَدتَها لأداءِ الفَرْضِ تكفيكَا
لم يَشفِ قَلبَكَ فُرقانٌ و لا عِظةٌ,    وآيَةٌ لو أَطَعتَ اللهَ,تَشفيكَا[4]    (البسيط)

وهو على الرغم من احترامه الفروض وتقديره إياها؛ فإنه لا يرى لها أي قيمة إن لم تبعد الإنسان عن الشر والأذى, ولم تقترن بالعمل الصالح, حيث يقول:

سَبِّحْ وصَلِّ و طُفْ بمكّةَ زائراً,    سبعينَ,لا سَبْعاً,فلسْتَ بناسكٍ

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,55/1 ,خضراؤها: سماؤها, الغبراء: الأرض,البهم: ج البهيم:الفرس الأدهم, الغراء: ذات الغرة, ما كان في جبهتها غرة وهي بياض .

([2]) نفسه, 158/2.

([3]) نفسه , 468/1 , الشنار: العيب والعار .

([4]) نفسه, 231/2, أم الكتاب: الفاتحة: قومت:عرفت قيمة الشيء وحددته, الفرقان:القرآن لأنه يفرق بين الحق والباطل. والباطل.

جَهِلَ الديانةَ مَنْ إذا عَرَضتْ لهُ أطماعُهُ,لم يُلْفَ بالمُتَماسك[1] (الكامل)

فليس من الغريب إذن أن نراه و قد قَدّمَ عمل الخير على الفرض, كقوله:

**ما الخيرُ صَوْمٌ يَذوبُ الصّائمونَ لهُ, ولا صلاةٌ, ولا صوفٌ على الجسدِ**
**وإنما هــوَ تَــرْكُ الشــرّ مُطّــرَحَاً, ونفضُكَ الصَّدْرَ من غِلٍّ ومن حسَدِ**[2] (البسيط)

ومما لا شك فيه أن المعري كان يعتقد أن العمل محك الدين, فمن لا تظهر ثمار تدينه في أعماله لا يعد تقياً, ولو لزم جميع الفروض[3],كقوله:

**أخو الدين مَنْ عادى القبيحَ, وأصْبَحَتْ له حُجرةٌ من عِفَّةٍ وإزارُ**[4] (الطويل)

إنه يرى أن الإفطار خير من صوم يرافقه ارتكاب المعاصي, فيقول:

**أَصُمْتَ الشّهورَ, فَهلاّ صَمَتَّ, ولا صومَ حتى تُطيلَ الصُّموتا**
**يُلاقي الفتى عَيْشَه بالضّلالِ, ويَبْقــى عليه إلــى أنْ يموتا**[5] (المتقارب)

لذلك نراه محذراً الصائم من ارتكاب المعاصي, لأنه إذا فعلها لم يُجْدِهِ صومه نفعاً أو جدوى, فيقول:

**إنْ صُمْتَ عن مأكلِ العادي ومَشْرَبِهِ, فلا تُحاوِلْ,على الأعراضِ,إفطارا**[6] (البسيط)

وكذلك حذر الحُجاج الذين لم يمنعهم حجّهم عن النفاق والكذب والأذى؛ فحجُهم ــ من وجهة نظره ــ غير مبرور, ولا فائدة من القيام به, حيث يقول:

**تَوَهمْتَ يا مَغْرورُ,أنــكَ دَيِّنٌ, عليَّ يمينُ اللهِ,مــــا لَكَ دينُ**
**تسيرُ إلى البيتِ الحرامِ تَنَسُّكاً, و يَشْكوكَ جارٌ بائسٌ وخَدينُ**[7] (الطويل)

فأبو العلاء في الأمثلة السابقة يرى أن تأدية تلك الفرائض لابد وأن تقترن بالعمل

---

(1)المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 242/2 .
(2) نفسه, 375/1, الغل: الحقد والضغن .
(3) اليازجي , كمال : أبو العلاء و لزومياته, ص536 .
(4) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 427/1, حجرة: ما يحجر الإنسان, يحفظه ويمنعه.
(5) نفسه, 218/1 .
(6) نفسه, 503/1 .
(7) نفسه, 498/2 , خدين: صديق .

الفاضل حتى تعود على صاحبها بالنفع والخير, لذلك نراه يحثّ على تتميم الفرائض, فيقول:

**فــيا غَضّاً مــن الفتــيانِ,خيرٌ    من اللّحَظاتِ أبصارٌ غُضِضْنَه**
**فَفُــضّ زكاةَ مالِكَ غَــيْرَ آبٍ,    فكلُّ جُمُــوعِ مالِكَ يَنفَضِضْنَه**
**وأعجَزُ أهلِ هذي الأرضِ غاوٍ,    أبانَ العَجزَ عن خمسٍ فُرِضْنَه**
**وصُمْ رَمَضَانَ مختــاراً مُطيعاً,    إذِ الأقــدامُ من قَيْظٍ رَمِضْنَه**[1] (الوافر)

ولعلنا نكتفي بهذا القدر القليل الدال على صحة إيمانه بالله تعالى, ولا يسعنا إلا أن نسأل سؤالاً أخيراً وهو ــ هل بعد تلك الأقوال الصريحة في التوحيد والتمجيد, والحث على إقامة الفرائض ــ هل ما يزال أبو العلاء مقبوعاً في سجن الإلحاد والكفر؟!

**2 ــ الإيمان بالملائكة و الجن:**

أُنتقد المعري في موقفه من الملائكة والجن عندما قال في لزومياته:

**قد عِشتُ عُمراً طَويلاً,ما علِمْتُ به    حِسّاً يُحَسُّ لِجِــنِّيٍّ ولا مَلَكِ**[2] (البسيط)

وقوله:

**فاخشَ المَليكَ و لا توجَدْ على رَهَبٍ,    إن أنتَ بالجنّ في الظّلماءِ خُشّيتَا**
**فإنّــما تلــــكَ أخبــــارٌ مــلفَّقةٌ,    لِخِدعَةِ الغافِلِ الحَشْويِّ, حوشيتا!**[3] (البسيط)

وقد عَدَّه البعض منكراً إياهما, ومنهم الدكتور طه حسين الذي كان يرى أن أبا العلاء كان قد أنكرهما في "لزومياته", وفي "رسالة الغفران" أيضاً, إذ رأى أن رسالته مليئة بالسخرية المؤلمة من الجن والملائكة[4].

ولا يختلف رأي الدكتور عمر فروخ عما رآه الدكتور طه حسين, لأنه رأى أن أبا العلاء كان يرفضهم ولا يقبل الأخبار الواردة في شأنهم, ولا يعتقد بوجودهم, ثم هو يلوم من

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 523/2.
([2]) نفسه, 240/2.
([3]) نفسه, 215/1, الحشوي: ما كان من حشو العامة كالسوقي, حوشيت: أي حاشاك أن تكون منهم.
([4]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص269 .

يعتقد بهم[1], ويقصد بالضمير (هم) الملائكة والشياطين والجن وغيرهم من المخلوقات النورانية النورانية والنارية, ويشاركه ذلك الرأي كل من الأساتذة عطا بكري[2], وحامد عبد القادر[3], وكمال اليازجي[4], ومن الغريب حقاً أنهم كانوا يحتجون بأبياته السابقة الذكر ليثبتوا إنكاره وإجحاده فيهما, في الوقت الذي لا نرى فيها ما يدعو الإنكار أو الإجحاد.

وهناك من رأى أنه لا يجوز تكفير مسلم بأحد أركان الإيمان, إلا أنهم في الوقت نفسه لم يروا أن لأبي العلاء رأياً صريحاً في وجود الجن والملائكة, مثله في ذلك مثله في كل المعتقدات الدينية, "إذ إنه لا يجزم بشيء, فقد لا يقبل عقله شيئاً, ولكنه يقنع نفسه بأن الله قادر على كل شيء؛ فعقله لم يكن يسعفه كثيراً في البت في المشاكل الدينية والفلسفية, بل يتركه حائراً متذبذباً بين هذا وذاك, لا يدري أي الطرق يسلك؛ فتارة ينكر, وأخرى يوافق, حتى يعيبه هذا و ذاك, فيحاول الأخذ بالأمر الوسط"[5], لهذا وقف المعري عند حدود الاعتراف بقدرة الله تعالى على خلق هذه الكائنات النورانية أو النارية, فيقول:

**لَسْتُ أنفي عن قُدرةِ اللهِ أشبا    حَ ضياءٍ, بغيرِ لحمٍ ولا دَمْ**
**وبصيرُ الأقــوامِ مثليَ,أعْمَى,    فَهَلُمّوا في حِنْدِسٍ نتصادمْ[6]**    (الخفيف)

ويعلق الأستاذ صالح اليظي قائلاً: "فقبول وجودها (الملائكة والجن) كما هو ظاهر مشوب بغير قليل من الإحجام والتردد, لأنه يقبل وجودها بالقوة لا بالفعل, فكل شيء ممكن بالضرورة في قدرة الله تعالى, ولكنه قد لا يكون محققاً بالفعل في الواقع, وواضح أن أبا العلاء يقف عند الإقرار بقدرة الله تعالى, على خلق الجن والملائكة ولا يتجاوز ذلك إلى التسليم بالوجود الفعلي لها, فتلك حدود معرفته و مبلغ يقينه[7].

وهذا يعني أن اليظي مؤمن بقوة إيمان المعري بقدرة الله تعالى, غير أنه ما زال يشك

---

([1]) فروخ, عمر: حكيم المعرة, ص64.
([2]) بكري, عطا: الفكر الديني عند أبي العلاء المعري, ص153.
([3]) عبد القادر, حامد: فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره, ص123.
([4]) اليازجي, كمال: أبو العلاء و لزومياته, ص561 .
([5]) الصارم, سمير: أبو العلاء المعري (حياته ــ شعره), ص37.
([6]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 488/2 .
([7]) اليظي, صالح: الفكر والفن في شعر أبي العلاء, ص145.

بفكره المتأرجح بين القبول و الرفض في وجود تلك المخلوقات.

أما الباحثة فهي لا ترى في كلام المعري ما يستدعي الشك في وجود تلك المخلوقات أو يفيد إنكارها لا تصريحا ولا تلميحاً, لأن أدلة إيمانه بها كثيرة, كقوله :

**ملائكٌ تَحتَـــها إنْسٌ وسَائمَةٌ,      فالأغبياءُ سوامٌ والتّقيُ مَلَكْ**[1]   (البسيط)

وقوله:

**إنْ لم يكنْ, في سماءٍ فوقَنا,بشرٌ,      فليسَ في الأرضِ,أو ما تحتَها, مَلَكُ**[2]   (البسيط)

وقوله:

**ومن يُطَهِّرْ بخوفِ اللهِ مُهجَتَهُ,      فَذَاكَ إنسانُ قومٍ يُشبهُ المَلَكا**[3]   (البسيط)

وقوله:

**ولستُ كموسى أهابُ الحِمامَ,      ولكنْ أوَدُّ لِقاءَ المَلَك**[4]   (المتقارب)

وقوله:

**ثـــلاثُ مراتِبٍ,مَلَكٌ رفيعٌ,      وإنسانٌ, وجيلٌ غَيْرُ إنسِ**[5]   (الوافر)

وأما الأبيات التي احتج بها على إنكار المعري وإجحاده لتلك المخلوقات من قبل الأساتذة السابق ذكرهم؛ فإنها بمثابة دليل يؤكد إيمانه بها, لأننا لو تأملنا تلك الأبيات تأملاً فاحصاً وعميقاً, لتأكدنا أن ما جاء به الأساتذة السابقون كان أقرب إلى الجور والظلم بحق المعري, فهو "في البيت الأول يؤمن بأنه لا علم له بحس لجني ولا ملك, وهذا لا يوجب الإنكار, بل على العكس

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 246/2.

([2]) نفسه,219/2 .

([3]) نفسه, 230/2 .

([4]) نفسه, 254/2, الملك: ملك الموت.

([5]) نفسه, 55/2, الجيل: البهائم.

تماماً فهو يدل على الإقرار بأنه يدرك أن لتلك المخلوقات حس ولكن لم يكن يعلم به, ونفي العلم عن الشيء لا يعني إنكاره ولا ينفيه, وهذا قريب من قول أحدهم: ما علمت حساً لوعل ولا عقاب ولا سمكة, ولا يوجب قوله هذا نفي شيء من هذه الأشياء ولا إنكاره, بل يوجب أنه موجود ولكن لم يعلمه"[1].

وأما البيت الثاني فهو ينهى عن الخوف من الجن في الظلماء, وهذا يقتضي أن يكونوا موجودين حتى يخاف منهم, ولا يوجب إنكارهم, وما في رسالة الغفران, ولو اُفترض أنها مملوءة بالسخرية على نحو ما قال الدكتور طه حسين[2], والأستاذ عدنان عبيد العلي[3],فذلك إن إن دل على شيء؛ فإنما يدل على إثبات لا إنكار.

**3 ــ الشرائع والكتب السماوية:**

زعم البعض أن أبا العلاء هاجم الأديان والشرائع هجوماً عنيفاً, ومنهم الدكتور كمال اليازجي الذي احتج في أن أبا العلاء كان يرى أن توالي الشرائع قد زعزع الإيمان عند الناس, وأن كل ما في الكتب الدينية حديث خرافة, وكذلك توالي الرسل, [4]مستشهداً بقول المعري:

**وكم شاهدتُ من عَجَبٍ و خطبٍ؛ ومَرُّ الدهرِ بالإنسانِ يُسلي**
**تغيُّرُ دَوْلَةٍ, وظهــورُ اُخــرى, ونَسْخُ شرائعٍ, وقيامُ رُسْلِ**[5] (الوافر)

وذهب الأستاذ محمد الحبيب حمادي إلى أن هذه الأديان ــ من وجهة نظر أبي العلاء ــ "ما هي إلا نكبات الإنسانية , لتفرقتها بين بني الإنسان"[6], مستشهداً بقول المعري:

**إنَّ الشرائعَ ألقتْ بيننا إحنَاً, وأودعتَنا أفانينَ العداوات**[7] (البسيط)

---

([1]) الجندي, محمد سليم : الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره, 1348/3.
([2]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص269.
([3]) عبيد العلي, عدنان: المعري في فكره وسخريته, ص229 وما بعدها.
([4]) اليازجي , كمال : أبو العلاء و لزومياته , ص606 .
([5]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 345/2 .
([6]) حمادي, محمد الحبيب: المعري وجوانب من لزوم ما لا يلزم , ص 82 وما بعدها .
([7]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 228/1 , إحن: شرور وأذى.

كما ذهب إلى أن الكتب المقدسة التي جاءت بها تلك الأديان أباطيل يروجها أنصار تلك الشرائع[1], مستشهداً بقول المعري:

**دينٌ وكُفرٌ؛ وأنباءٌ تُقَصُّ, وفُرْ قانٌ يَنُصُّ, وتَوْراةٌ, وإنجيلُ**
**في كلّ جيلٍ أباطيلٌ يُدانُ بها, فهلْ تَفَرَّدَ يَوْماً بالهدى جيلُ؟**[2] (البسيط)

وأما الأستاذ كامل حمود فقد رأى أن أبا العلاء "تصدى للرسل مهاجماً, معتبراً أن أقوالهم لا تمت إلى الحقيقة بشيء, وإنما هي أقوال محرفة مزورة"[3], وقد استشهد الأستاذ حمود حمود بأبياتٍ نظنُّ فيها التحريف والتزوير:

**ولا تحسبْ مقالَ الرُّسْلِ حَقّاً ولكنْ قولُ زُورٍ سَطَّرُوهُ**
**وكَانَ الناسُ في عَيْشٍ رَغيدٍ فجاءوا بالمُحالِ فكدّروهُ**[4] (الوافر)

وأما الأستاذ ميخائيل مسعود فإنه رأى أن أبا العلاء كان مؤمناً بوجود الله فقط, وكانت حجته في ذلك هو "أن أبا العلاء كان يهاجم الأديان كلها, لأنه فلسف الأمر وأخذه على محمل العقل, متسائلاً عن معنى تعدد الطوائف والمذاهب ما دام الله واحداً"[5].

وقد رأى الأستاذ جميل صليبا "أن أبا العلاء كان يمر بحالتين؛ إحداهما عقلية مثالية, والأخرى عاطفية وجودية, حتى إذا تجاذبته الحالتان في وقت واحد, وتساوتا في القوة, وقع في الحيرة والتردد, وأعلن حيرته"[6], كقوله:

---

([1]) حمادي, محمد الحبيب: المعري وجوانب من لزوم ما لا يلزم, ص83.
([2]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,268/2.
([3]) حمود, كامل: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية , ص156 .
([4]) نقلاً عن الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص117, وأظن تلك الأبيات حرفت عن أبيات في لزوم لزوم ما لا يلزم في 482/1 والتي جاء فيها:

**لعَمْـري لقـد فضَـحَ الأوّلينَ ما كتبـوه ومـا سَطّـرُوا**
**وقـد عَـلِمَ اللّـهُ أنّ العِبـادَ إن يُرزَقـوا نعمَـةً يَبطَـروا**
**إذا القومُ صاموا فعافُوا الطّعامَ وقالوا المُحـالَ فقـد أفطَـرُوا**

([5]) مسعود, ميخائيل: أدباء فلاسفة, ص 225 .
([6]) صليبا, جميل: تاريخ الفلسفة العربية, ص 316 .

اثنانِ أهلُ الأرضِ:ذو عَقْلٍ بلا دِينٍ, وآخرُ دَيِّنٌ لا عَقْلَ لَهْ[1] (الرجز)

ولعلنا لا نتفق مع تلك الآراء التي رأت أنّ أبا العلاء تهجّم على الأديان والشرائع, بل إننا نرى عكس ذلك تماماً؛ فأبو العلاء آمن بالشرائع والكتب السماوية إيماناً صريحاً, ولعلّ خير دليل على ذلك أقواله في هذا المجال, التي يوبخ فيها الناس على اتهامهم الرسل بالباطل, وترددهم في قبول رسالاتهم , كقوله:

**والأرضُ للطّوفانِ مُشْتاقَةٌ, لَعَلّـــها مـــن دَرَنٍ تُغْسَلُ**
**قد كَثُرَ الشرُّ على ظَهْرِها, واتُّهِمَ المُرْسِلُ والمُرْسَلُ[2]** (السريع)

والأعنف من ذلك أنه حمل على هؤلاء الناس حملة عنيفة بحجة إساءتهم فهم الرسالة, وإعراضهم عن قبولها وتشويه حقائقها, على نحو ما يفهم من قوله:

**ومَوَّهَ الناسُ,حتى ظنَّ جاهلُهُمْ, أنَّ النّبوّةَ تَمويهٌ وتَدليسُ[3]** (البسيط)

وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على إيمانه بسائر الكتب السماوية ورسلها, وأنه يتمنى لو أنه يستطيع معاقبة المنكرين لتلك الحقيقة, كقوله:

**قالـــتْ مَعَاشرُ: لم يَبْعَثْ إلـهُكُمُ, إلى البريّةِ عيساها ولا موسى**
**وإنمـــا جَعَلــوا,للقـــومِ,مأكلةً, وصيّروا,لجميعِ الناسِ,ناموسا**
**ولو قَدَرْتُ لعاقبتُ الذين طَغَوْا, حَتّى يَعودَ حَليفُ الغيِّ مَرموسا[4]** (البسيط)

وإن صحّ القول؛ فإن أبا العلاء في حقيقة أمره لم يهاجم الديانات, وإنما هاجم بعض أتباعها, " لأنَّ هناك ثمة فرق بين أن يهاجم الإسلام والمسيحية واليهودية, وأن يهاجم المسلمين والنصارى واليهود "[5], فهو حين قال:

**ولا تطيعنَّ قـــوماً, مـــا ديانتـــهُمْ إلا احتيالٌ على أخـــذ الإتاوات**

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 301/2 .
([2]) نفسه, 281/2 وما بعدها .
([3]) نفسه, 25/2 .
([4]) نفسه , 34/2 .
([5]) خضر, سناء: النظرية الخلقية عند أبي العلاء بين الفلسفة والدين, د.م, دار الوفاء, 1990م, ص213.

وإنــما حمّــلَ التــوراةَ قارئِـــهَا      كسبُ الفوائد, لا حبُّ التّلاوات[1]      (البسيط)

إنما أراد مهاجمة ما تصير إليه تلك الأديان على أيدي بعض المنتسبين إليها؛ فتصبح نوعاً من التسلط والجباية باسم الدين[2].

ولقد وجدنا في تفسير الجندي لتلك الأبيات ما يثلج الصدر, لإخراج بريء من تهمة الكفر والإلحاد, وإخراج مسلم من دائرة الكفر ــ مهما كان من أمره ــ خير من إدخاله فيها, وفي هذا ما يخدم ما ذهبنا إليه سابقاً من أن اتهام أي شخص بالكفر يعدّ أمراً في غاية الخطورة والخطيئة, ولقد وجدنا في ذلك التفسير خير ابتعاد عن حيز الخطيئة وآثامها, وفي ذلك يقول الجندي مفسراً: " ويمكن تأويل (ما ديانتهم إلا احتيال) بأن يقال إنهم يتظاهرون بالديانة, ويأخذون الإتاوات باسمها؛ وهم في الحقيقة غير مخلصين في ديانتهم, وإنما جعلوها واسطة لأخذ الأموال"[3].

وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على أن أبا العلاء لم ينكر الدين, وإنما أنكر على بعض رجال الدين الذين يكذبون ويراؤون ويصطنعون القراءة والوعظ احتيالاً وكسباً للرزق, ومن هنا كانت دعوته لعدم الركون إليهم أو الثقة بهم, فالدين الحقيقي ــ من وجهة نظره ــ هو الدين الذي يقوم على هجر الملذات والتخلي عنها عن طريق تطهير الذات من نوازع الشر والبغضاء والحقد, ويكون أيضاً بحسن التعامل مع الناس وإنصافهم لا ظلمهم, كقوله:

ظلَمتُمْ غَيْرَكُمْ فأُديلَ منكُمْ,      وأخيارُ الأنامِ مُظَلَّمُوه[4]      (الوافر)

وقوله:

إذا رامَ كيداً بالصلاةِ, مُقيمُها,      فتاركُها, عمداً, إلى الله أقْرَبُ[5]      (الطويل)

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,228/1,الإتاوات:واحدتها إتاوة وهي خراج الأرض,عُروض: أي عن غير مبالاة.

([2]) سلامة, يسري: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري, ص 292 .

([3]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره, ص 1359/3 .

([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 606/2 .

([5]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 87/1, الكيد : الخداع .

ومن هنا رأى الأستاذ كامل سعفان أن أبا العلاء كان يرى أن الشرائع بريئة مما اقترفته أيدي القائمين عليها والذين يلوون عباراتها, ويتأولون أهدافهم, لتصبح سيوفاً تقتل, ومناجل تَحصد لحسابهم[1]لأنه حين قال:

**إنَّ الشرائعَ ألقَتْ بيننا إحنَاً          وأودعتْنَا أفانينَ العدواتِ[2]**          (البسيط)

لا يقصد الشريعة بقوله, بل قصد في ذلك أتباعها ورجالها مستنكراً تكالبهم على الدنيا للحصول على ملذاتها وأرزاقها, فأضاعوا العامة قديماً وحديثاً.

كما استنكر أمر الخلاف القائم بين تلك الأديان؛ فهو لا يفرق بينها فحسب, بل يراها عقائد متوارثة, وشرائع شُرّعت, كقوله:

**والعَقْلُ يَعْجَبُ للشّروعِ: تمجّسٍ          وتحنّفٍ و تَهَــوّدٍ وتَنَصّرِ**
**فاحْذَرْ ولا تَدَعِ الأمورَ مُضاعَةً,          وانظُر بقلبِ مُفَكّرٍ متبَصّرِ[3]**          (الكامل)

علماً بأن هذين البيتين كانا قد تسبّبا في الطعن في عقيدة أبي العلاء من قبل بعض نقاده, إلا أن أبا العلاء لم يقف مكتوف الأيدي, بل ردّ على من قام بطعنه في عقيدته قائلاً: " ما أجهل هذا الملحد, وأقل معرفته بالكلام, أيجعل التعجب من الشيء إنكاراً له, أي نفياً ؟ فأبعده الله! أَمَا سمع قوله تعالى في الحكاية عن الجنِّ: (إنا سمعنا قرآناً عَجَباً)؟ وإنما عجبوا من عظم شأنه وإعجازه, ولم يزل العَجَبُ والتعجب يقعان في أصناف الأقوال على معنى استحسان الشيء والمدح له, والتعجب الذي وضعه النحويون إنما هو من عظم الشيء, لا من إنكاره والتهاون به, فالعقل يعجب من حسن التحنف وعظمه وعاجل منفعته, وإن من يجعل مثل هذا نكيراً لغير مأمون أن يدعي على القائلين: "لا إله إلا الله" أنهم ملحدون لأنهم ابتدءوا في أول كلامهم بالنفي, والإصغاء إلى مثل هذا المتكلم تقوية للحديث "لا تقوم الساعة حتى...]"[4].

وأما الجندي فلا يرى فيهما ما يدل دلالة صريحة على إلحاد أو كفر, "وإنما هما إخبار

---

([1]) سعفان, كامل: في صحبة أبي العلاء بين التمرد و الانتماء , ص 108 .
([2]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 228/1, الإحن: الشرور والأذى.
([3]) نفسه , 567/1 .
([4]) المعري, أبو العلاء : زجر النابح , ص 111 و ما بعدها, تتمة الحديث: مطموسة في الأصل.

بحقيقة الواقع, وحضّ على التفكير والتبصّر, فإن العقل يعجب من اختلاف هذه الفرق, وعدم اتفاقها على الحق, بعد أن وضح لها الطريق, وأسفر الصبح لذي عينين, ولذلك يجب على المرء أن ينظر بقلب مفكر, متبصر فيها"[1], وأما قوله:

**والعقلُ يَعْجَبُ,والشّرائعُ كلُّـــها,　　خَبَرٌ يُقَــلَّدُ لـــم يَقِـــسهُ قـــائسُ**
**مُتَمَجِّسون, ومسلمونَ, ومَعْشَرٌ　　مُتنصّرونَ, وهائـــدونَ رسائسُ**
**والصَّابئونَ يُعظّمونَ كـــواكباً,　　وطباعُ كلٍّ,في الشرور, حبائسُ**
**أنّـى ينالُ أخو الديانةِ ســؤدَدَاً　　ومآربُ الرجلِ الشريفِ خَسَائسُ[2]** (الكامل)

فالجندي يفسر تلك الأبيات بقوله: "إن كثيراً من أمور الشرائع لا تتفق مع القياس والرأي؛ إما لخفاء الحكمة فيها, وإما لقصور الناس عن إدراكها على حقيقتها, وقد نُقِل عن بعض الأئمة أنه قال: لو كان الدين بالرأي, لكان باطن الخفّ أولى بالمسح من ظاهره, وإن المسلمين كانوا يجهلون الحكمة الحقيقية في كثير من الأحكام كتحريم الخمرة ولحم الخنزير والزنا, ويذكرون لذلك أسباباً وعللاً, منها ما هو مقبول, ومنها ما هو أدنى منه, ومنها ما لا يصلح وحده لأن يكون علة للحكم وما يترتب عليه من حدّ, فلما ارتقى العلم وكشف عن كثير من الحقائق الغامضة, أدرك الناس من مسلمين وغيرهـــم حكمة الشـــارع في التحريم والحدود؛ ورأوها ضرورية لحفظ الصحة والنسل وسلامة المجتمع"[3].

وأبو العلاء لا يرى مبرراً للخلاف بين مذاهب الدين الواحد التي بلغ العداء بين أتباعها مبلغاً يثير التساؤل والاستنكار, على نحو ما نرى في قوله:

**أَجَازَ الشّافعيُّ فَعالَ شـــيءٍ؛　　وقَـــالَ أبـــو حَنيفَـــةَ: لا يَجـــوزُ**
**فَضَلَّ الشّيبُ و الشّبانُ منّـــا,　　وما اهْتَدَتِ الفتـــاةُ ولا العَجـــوزُ[4]** (الوافر)

ولعل أبا العلاء يعيد هذا الفارق في الأصل إلى النشأة و التربية, حين قال:

---

([1]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره , 1360/3 .
([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,32/2, رسائس : الواحد رسيس : خبر لم يصح .
([3]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره ,1361/3.
([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 624/1.

وينشأُ ناشـــئُ الفتـــيانِ, منّا على ما كانَ عوّدَهُ أَبُوهُ
وما دانَ الفَتَى بحِجىً, ولكنْ يُعَلِّـمُهُ التّـديّنَ أَقْرَبُوهُ
وطِفـلُ الفـارسيّ لَه وُلاةٌ, بأَفْعَالِ التَّمَـجُّس درَّبُوهُ[1] (الوافر)

وبناء على ما سبق: فقد رأت الباحثة أن أبا العلاء لم يكن ملحداً كما يزعمون, بل كان معترفاً بالشرائع والكتب السّماوية, ولعل خير دليل على ذلك, قوله:

دَعاكُمْ, إلـى خَيْرِ الأمـورِ مُحَمّدٌ, ولَيْسَ العَوالي في القَنَا كالسّوافلِ
حَداكُمْ على تَعظيمِ مَنْ خَلَقَ الضُّحى وشُهْبَ الدُّجى من طالعاتٍ و آفِلِ
وألزمَـكُمْ مـا ليسَ يُعـجزُ حَمْلُهُ أخا الضَّعْفِ من فَرْضٍ له و نَوَافلِ[2] (الطويل)

وقوله:

قالتْ مَعَاشرُ:لم يَبْعَثْ إلهُـكُمُ, إلى البريةِ, عيساها ولا مـوسى
وإنما جَعَـلوا,للقـومِ, مأكلةً, وصيّروا,لجميعِ الناس,ناموسا
ولو قَدَرْتُ لعاقبتُ الذين طَغَوْا, حتّى يَعودَ حَليفُ الغيِّ مَرموسا[3] (البسيط)

وأما من زعم بأن أبا العلاء عارض السّور والآيات الكريمة بكتابه "الفصول والغايات"[4], فإنا نرى أن زعمهم هذا مردود عليهم, لأننا لم نرَ فيه ما يستدعي الكفر أو الإلحاد, الإلحاد, وقد رأى الأستاذ عبد المجيد ذياب أن الناظر في "الفصول والغايات" يجد أن المعري "تكلم فيه على تمجيد الله واتخاذ العظات, وتصدى فيه إلى القول في الموسيقا والعروض والنحو, وما شابه ذلك مما ليس له أثر في القرآن الكريم, واستشهد بأقوال الشعراء والحكماء والأمثال ونحوها, والقرآن الكريم خالٍ من ذلك كله"[5].

وأما الأستاذ الخطيب فقد رأى "أن الذي ينظر في هذا الكتاب, دون أن يقرأ عنوانه, أو يتعرف على مؤلفه, يراه كتاب أدب أولاً, ثم يراه جامعاً بين النثر والشعر ثانياً, ثم لا يرى بينه وبين القرآن نسباً من جهة ثالثة, إذ هو مجرد حكم ومواعظ, والعجب أن نرى أولئك الذين رموا

---

([1])نفسه , 601/2.
([2]) نفسه ,322/2 .
([3]) نفسه, 34/2 .
([4]) البغدادي, الحافظ أبو بكر: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص7.
([5]) ذياب, عبد المجيد: أبو العلاء المعري (الزاهد المُفترى عليه), ص134.

أبا العلاء بهذه التهمة, قد أخذ بعضهم عن بعض, منهم عن السابق دون الرجوع إلى الكتاب, وهكذا دون أن يكون لأحد منهم رأي خاص أو اجتهاد شخصي!"[1].

وبناء على ما سبق؛ فإن الباحثة ترى أن أبا العلاء مؤمن, تقي, يؤمن بالشرائع والأديان حق الإيمان, وأن ما نراه من نقد وهجوم, ما هو إلا نقد وهجوم على بعضٍ من أتباع تلك الشرائع والأديان الذين قاموا بتحريف الحقيقة وتزويرها, جاعلين منها ستراً لتحقيق أطماعهم ونزواتهم.

**4ـ الإيمان بالرُّسل والنبوّات:**

"يقول ياقوت الحموي: قال القاضي أبو يوسف عبد السلام القزويني: قال لي المعري: لم أهجُ أحداً قطّ ! فقلت له: صدقت,إلا الأنبياء عليهم السلام! فتغير وجهه"[2].

لا شك في أن البحث في هذه الأمور يحتاج إلى دقة وإمعان نظر, وقد يعود السبب في ذلك أن البعض بينما كان يراه يقر بالله معتصماً بالإسلام, آخذاً نفسه بالشدة في إقامة فرائضه, وعدم مجاوزة حدود طاعته, إذ يجده في موطن آخر يستخفُّ بشيء مما يقدسه الدين, ويتعدى حدود الأدب والقدسية مع الرسل وينسب إلى الشرائع مالا يتفق مع حكمة وضعها, ومنهم الدكتور طه حسين الذي رأى أن سبب هذا التناقض والاضطراب في فكره وعقيدته عائد إلى اضطراب الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في عصره آنذاك, وإلى حياته الخاصة, المليئة بالهموم والأحزان, إضافة إلى قراءته فلسفة اليونان والهنود, وكثرة الاختلاف بين أهل الأديان[3].

وقد رأت الباحثة أنه لا يمكن أن يكون ما جاء به الدكتور طه حسين سبباً رئيساً, إلا أنه قد يكون من جملة الأسباب والعوامل, وقد وجدت الباحثة أن الحسد قد يكون سبباً أكثر إقناعاً للعقل البشري, وخاصة أن المعري كان محسوداً, وأن حسّاده في حياته وحتى بعد مماته كانوا يكيدون له, ويضعون على لسانه ما ليس له به علم أو خبر, ويحرّفون كلامه عن مواضعه عمداً

---

([1]) الخطيب, عبد الكريم: أبو العلاء بين الإلحاد والإيمان, ص115.
([2]) الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري , ص 77 .
([3]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء المعري , ص 271 و ما بعدها .

ليوقعوا به أمام الحكام والرؤساء, وقد يكون فيهم من كان يحرف كلامه على غير عمد إما لسهو منه أو جهل, وخاصة أن أبا العلاء كان واسع الاطلاع على أقوال العلماء, واختلاف آرائهم, وأنه كان يعول على العقل كثيراً في كل حكم؛ فلعل بعض كلامه الذي أخذ به في هذا الباب كان من صنع أعدائه, أو تحريف حُسّاده, و خير دليل على ما ذكرناه آنفاً, قوله الآتي في حساده الذين ظلموه:

**أرواحُنَا ظُلمتْ, فتلك بيوتُها دُرُسٌ,خَوَينَ من الضّغائنِ والحَسَدْ**[1] (الكامل)

فأبو العلاء محسود على ما أتاه الله تعالى من فضل وعلم, إذ لقي الأمرين من حساده, فها هو يقول متصدياً للحسد وذمه:

**فلا تحسُدَنْ يوماً على فضلِ نعمةٍ, فحسبُكَ عاراً أَنْ يُقالَ حسودُ**[2] (الطويل)

وهذا لا يعني أنا نحكم على أبي العلاء بالإيمان و التقوى زوراً أو جهلاً, لسبب واحد وهو أن أقواله الدالة على صحة إيمانه بالرسل والنبوات خير دليل على إيمانه وتصديقه بها, على نحو ما نرى في قوله في تهذيب الرسول (محمد صلى الله عليه و سلم) للأمة:

**الحمدُ للهِ! ما في الأرضِ وادعةٌ, كلُّ البريّة في هــمٍّ وتعذيب**
**جـــاء النبيُّ بحـــقٍّ, كي يُهذِّبَكُمْ؛ فَهَلْ أحسّ لكم طبعٌ بتهذيب؟**[3] (البسيط)

كما قال في تعظيم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ والإسلام, ودَحض ما جاءت به اليهود:

**ومتى ذكرتُ محمداً وكتابَهُ, جاءت يهودُ بجحــدِها وكِتابِها**
**أفمِلّةُ الإســـلامِ يُنكِرُ مُنْكِرٌ, وقضاءُ ربّكَ صاغَها وأتى بها؟!**[4] (الكامل)

وقال فيما يتعلق بشريعتي عيسى وموسى بروح, ملؤها الإيمان والإثبات:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,399/1 .

([2]) نفسه,313/1 .

([3]) نفسه ,160/1, وادعة: أي نفس وادعة .

([4])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,170/1 .

قالتْ مَعَاشرُ:لم يَبْعَثْ إلهُكُمُ, إلى البريةِ, عيساها ولا موسى
وإنّما جَعَلوا,للقومِ,مأكلةً, وصيّروا,لجميعِ الناسِ,ناموسا
ولو قَدَرْتُ لعاقبتُ الذين طَغَوْا حتّى يَعودَ حَليفُ الغَيِّ مَرموسا[1] (البسيط)

في الأبيات السابقة يندد أبو العلاء بمنكري نبوة كل من سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام, ويقول: إنه لو استطاع لعاقب هؤلاء الطاغين المنكرين حتى يميتهم ويدفنهم لفعلتهم الدنيئة.

كما قال في تعظيم النبوات والشرائع أيضاً:

دَعــاكُمْ إلــى خَيْرِ الأمــورِ مُحَمّدٌ, ولَيْسَ العَوالي في القَنَا كالسّوافِلِ
حَداكُمْ على تَعظيمِ مَنْ خَلَقَ الضُّحى وشُهْبَ الدُّجى من طالعاتٍ و آفِلِ
وألزمكُــمْ مــا ليسَ يُعــجِزُ حَمْلُهُ أخا الضَّعْفِ من فَرْضٍ له و نَوَافلِ
وحثَّ على تطــهيرِ جسمٍ ومَلْبَسٍ, وعاقَبَ في قَذفِ النساءِ الفواضلِ
وحَرّمَ خمراً, خِلْــتُ ألبابَ شَرْبِها, من الطّيْشِ ألبابَ النّعامِ الجــوافلِ
فصلّى عــليه اللهُ, مــاذرّ شارِقٌ, وما فَتَّ,مِسكاً,ذكْرُهُ في المَحافلِ[2] (الطويل)

وقال منكراً أن تكون النبوة تمويهاً وتدليساً:

ومَوّهَ الناسُ, حتى ظنَّ جاهلُهُمْ أنَّ النــّبوّةَ تَمــويهٌ وتَــدليسُ
جَاءتْ,من الفَلَكِ العُلويّ,حَادثةٌ, فيها استوى جُبَنَاءُ القومِ واللِّيسُ[3] (البسيط)

إن أبا العلاء مؤمن بأن النبوة من عند الله سبحانه وتعالى , لا يستطيع ردها الضعفاء ولا الأقوياء, وما تلك الأبيات إلا غيض من فيض مما نظمه المعري في تمجيد رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وتمجيد النبوات كافة, وقد وجدت الباحثة في تلك الأبيات وغيرها من الأبيات المدونة في لزومياته وثيقة تدل على صدق مشاعر أبي العلاء, وإيمانه بهؤلاء الرسل أجمعين, لذا توجب علينا بأن لا ننساق مع العلماء القدامى الذين أقروا الاتهام القائل بأن (أبا العلاء لم يهج أحداً إلا الأنبياء), وكان ينبغي عليهم ألا يتخذوا أداة الحصر (إلا), على أساس أن أبا العلاء كان قد هجا الناس جميعاً, ومنهم الأنبياء, حتى أنه هجا نفسه بأبشع هجاء, على نحو ما نرى في قوله:

---

(1) نفسه , 34/2 .

(2)نفسه , 322/2 .

(3) نفسه, 25/2, جبناء : ضعفاء, الليس: الواحد أليس: الشجاع .

وقَدْ غَلَبَ الأحياءَ, في كلّ وجهةٍ, هواهُمْ, و إنْ كانوا غطارفةً غُلْبا
كِــلابٌ تَغَاوَتْ, أو تَعَاوَتْ,لجيفةٍ, وأحْسَبُني أصبــحتُ ألأمَها كَلْبا[1] (الطويل)

ولعل هذا التعبير اللفظي عن الضيق والتبرم بالحياة, لا يدخل في إطار هجاء هذا أو ذاك, فليس من المعقول أن يصف نفسه بأنه (ألأمها كلبا), وهذا لا يعني أننا قبلنا منه هجاء الأنبياء ــ إن صحّ قول القدامى ــ ولا يسعنا إلا أن نطلب له الرحمة والمغفرة من ربّ العالمين, علماً بأن الأستاذ أحمد تيمور كان يرى أن قول القدامى عن أبي العلاء في هجائه للأنبياء "لا يثبت شيئاً ولا ينفيه"[2].

وأما الأستاذ عبد القادر زيدان فيرى أن أبا العلاء لم يكن منكراً, "لأنه حتى وهو في قمة شطحاته الفكرية, كان يرنو إلى دين جديد؛ فالقاعدة الدينية كانت قائمة في نفسه, وأغلب الظن أن أبا العلاء كان حائراً كأي مفكر تتوشه الأفكار وتتصارع في داخله, وقد صور هذا التمزق الداخلي في قوله الذي يتضاءل معه أي قول":[3], يقول المعري:

يَموجُ بحرُكِ, والأهواءُ غَالبةٌ لراكبيهِ,فَهَلْ للسُّفْنِ إرساءُ؟[4] (البسيط)

في حين ترى الأستاذة سناء خضر أن المعري رجل عقل ومنطق, لم ينكر النبوات لأنها من عند الله, فلا يمكن أن يؤمن بالكل و ينكر جزءاً من أجزائه, ولكنه يبغي الكمال والمثال في كل شيء, فعندما يرى ما هو غير كامل في كل مناحي الحياة والفكر, يحاول أن يظهر ما فيه من نقائض حتى تكتمل صورته المثالية في ذهنه, والدليل على ذلك أنه مدين للدين الإسلامي ورسوله الكريم في أكثر من موضع[5].

أما بالنسبة لبعض أشعاره التي قد تدل على حيرته وتردده, فقد رأى الدكتور يسري سلامة أنها "كانت نتاجاً لنفس حائرة لا لنفس ملحدة, والفرق واضح بين الحيرة والإلحاد, لأن

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 114/1, الغطارفة: ج غطريف: السيد الشريف, تغاوت : تجمعت .
([2]) تيمور, أحمد: أبو العلاء المعري, ص186 .
([3]) زيدان, عبد القادر: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري , ص174 .
([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,47/1 .
([5]) خضر, سناء: النظرية الخلقية عند أبي العلاء بين الفلسفة والدين ,ص225 .

الحائر إنما يبحث, ويفكر ويوازن؛ أما الملحد فقد بنى نتيجته على أساس من الاستقرار العقلي"[1].

ولا يختلف رأي الأستاذ سلامة عن الأستاذ أحمد تيمور الذي رأى "أن تردد أبي العلاء وقلقه, إنما كان نتيجة وقوع أحوال يضيق بها صدره في بعض الأحيان, فينفث نفثات يوهم ظاهرها بالإلحاد, وكان الأولى تركها, وهي مهما بلغت من الشناعة والبشاعة لا تصل إلى الكفر والإلحاد"[2].

وبناء على ما سبق؛ فإن الباحثة تقف مع رؤية الأستاذ الجندي, وهي أن تبرئة ساحة أبي العلاء من تهمة الإلحاد خير من الحكم عليه بتلك التهمة الخطيرة وفقاً للقاعدة التي تقول: (أن نحكم بإيمان ألف كافر خطأ, خير من أن نكفر مؤمناً واحداً), لأن الحكم بالتكفير حكم شرعي, وللأحكام الشرعية طرق معروفة وشروط واضحة, وهي أنه لا يجوز أن نحكم على إنسان بالكفر إلا إذا أنكر أمراً معلوماً عن الدين, وأن الحكم على إنسان بالكفر بسبب قوله لا يكون صحيحاً إلا إذا أُثبت بدليل صحيح أنه تكلم في ذلك القول وعلى هذا الوجه, كما أن الدليل لا يكون موجباً إلا إذا كان صريحاً في دلالته على التكفير, سالماً من الاحتمال, لأن الاحتمال يسقط صحة الدليل[3].

والآن نسوق بعضاً من تلك الأبيات الموهمة, محاولين توضيح غايتها وهدفها, بناء على توضيحات أبي العلاء نفسه من خلال كتابه "زجر النابح", وبناء على بعض ما جاء به المفسرون لتلك الأبيات, يقول أبو العلاء:

**ولستُ أقولُ:إنَّ الشُّهْبَ يوماً,     لبَعثِ مُحمّدٍ جُعِلَتْ رُجوماً**[4]     (الوافر)

رأى بعض القدامى في ذلك البيت دليلاً على إنكاره وإجحاده للنبي ــ صلى الله عليه

---

([1]) سلامة, يسري: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء, ص281 .

([2]) تيمور, أحمد: أبو العلاء المعري , ص 160 .

([3]) الجندي, محمد سليم : ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري , ص 290 .

([4]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 431/2 .

وسلم ــ في حين رأى الدكتور كامل سعفان أن البيت السابق ليس فيه أي تعريض بالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأنه نقد صحيح لما جاء في تفاسير القرآن الكريم, فالنص القرآني يقول: " ولقد زَيّنَا السّمَاءَ الدنيا بمصابيحَ وجَعَلْنَاهَا رُجُوْمَاً للشّياطين ", وقد تم هذا منذ بدء الخليقة, لا منذ بعثة الرسول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقال تعالى: " وَزَيّنَا السّمَاءَ الدنيا بمصابيحَ وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ", فمنذ بداية الخلق والتكوين, كانت الزينة والحفظ هدفين لمخلوق واحد في وقت واحد[1].

وأما البيتان الآتيان؛ فقد كانا من جملة الأسباب لتكفير المعري وإلحاده:

**وقد فتّشتُ عن أصحابِ دِيْنٍ,　　لهم نُسُكٌ وليس لهم رِياءُ**
**فألفَــيْتُ البــهائمَ لا عقــولٌ,　　تُقيمُ لها الدَّليلَ, ولا ضِياءُ[2]**　　(الوافر)

وقد فسرهما المعري في كتابه "زجر النابح" قائلاً: " والكلام في هذين البيتين أنهما خرجا على الخصوص, لا على العموم وإن الكلام طالما دل على انتظام الجنس, وهو مقصور على بعض دون كل "[3].

وأما البيت القائل:

**كَذَبَ الظَّــنُ, لا إمامَ سوى الــ　　ــعَقْلِ مشيراً في صُبْحِهِ والمساءِ[4]**　　(الخفيف)

فإنه يفسره بقوله: " المعنى أن الإنسان إذا سمع ما يخالف الشرع دلّه عقله على فضله؛ فكأنه إمام له, وليس هذا انتقاصاً بإمام المسلمين, ولكن هو مثل قولهم: " لا فتى إلاّ عليّ " أي شأنه عظيم و إن كان الفتيان كثيراً, ولا ريب أن الإمام يأتم بالعقل ويتدبّر به, وحدّث بعضُ من سافر إلى اليمن أن في جبالهم والمواضع القاصية من بلادهم نحواً من ثلاثين رجلاً كلّهم يدّعي أنه إمام مُنْتَظَرْ, فَيُجْبَى إليهم مالٌ كثير, وكلُّ رجل منهم يكفّر الباقين, ويزعم أنّ سفكَ دمائهم

---

([1]) سعفان , كامل : في صحبة أبي العلاء بين التمرد والانتماء , ص 109 و ما بعدها .
([2]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 51/1 .
([3]) المعري , أبو العلاء : زجر النابح ,ص10 .
([4]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 66/1 .

حلال, فهذا الغرض في قول القائل: " كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة"[1].

وخلاصة القول, إن الباحثة ترى أن المعري لم يكن ملحداً, ولا منكراً للنبوات والرسل, ولكنها مع هذا كله لا تبرؤه من بعض زلات كان قد زل بها لسانه, (بالرغم من أنه ليس فيها جحد للنبوات أو إنكار), ولكن ذكرها لا يخلو من شناعة, وكان الأولى به الابتعاد عن نظمها بهذا الشكل, ولا مشاحة في عذر من أنكر عليه فيها, وإنما كلامنا فيمن يرميه بالإلحاد, وهو براء منه بدليل ما ذكرناه سابقاً من كلامه, وهذا يؤكد ظننا بحقيقة واضحة, ألا وهي أن أكثر الذين حكموا على أبي العلاء بهذا الحكم القاسي لم يقرأوا الديوان كله, وإنما قرأوا أبياتاً متفرقة منه.

**5 ـــ الإيمان بالبعث:**

وهو ركن من أركان الإيمان في الإسلام, وركن من أركان عقيدة المؤمن, قال الله تعالى: " وَقَالوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامَاً ورُفَاتَاً أءِنّا لمبعُوثُونَ خَلْقاً جديداً"[2]وفي القرآن الكريم أدلة كثيرة على البعث أو المعاد, يقول الله تعالى: " يأَيُّها النّاسُ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ, فإنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَاب"[3], ويقول تعالى: " فَهَذَا يومُ البَعْثِ ولكنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون"[4].

وأما عند الهنود؛ فنجد أن المذهب الرئيسي في المصير الإنساني هو التناسخ[5], ومذهب تناسخ الأرواح مذهب قديم وشائع عند مفكري الهند منذ القدم[6], ولم يلبث هذا المذهب وأن نُقِلَ إلى العرب فأصبح معروفاً عندهم[7].

ولقد كان لأبي العلاء حول تلك المسألة آراء اختلف الباحثون في نظرتهم

---

([1]) المعري , أبو العلاء : زجر النابح ,ص 15 وما بعدها .

([2]) سورة الإسراء آية 98 .

([3]) سورة الحج آية 5 .

([4]) سورة الروم آية 56 .

([5]) زيدان, عبد القادر: قضايا العصر في أدب أبي العلاء , ص 178 .

([6]) عبد القادر, حامد : فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره , ص 121 .

([7]) حسين, طه : تجديد ذكرى أبي العلاء المعري , ص 268 .

إليها, فانقسموا إلى ثلاثة فرقاء؛ فريق ذهب إلى أن أبا العلاء أنكر البعث إنكاراً شديداً, وممن كان يقول بهذا الرأي الباحثون القدامى وعدد من المحدثين.

أما الباحثون القدامى, وعلى رأسهم ياقوت الحموي؛ فقد ذهب إلى "أن أبا العلاء كان متهماً في دينه, يرى رأي البراهمة, فلا يرى إفساد الصورة (الذبح) ولا يأكل لحماً, ولا يؤمن بالرسل, والبعث, والنشور"[1].

ومنهم ابن الجوزي الذي جاء مؤيداً لما قاله ياقوت الحموي, حيث قال: " وكان ظاهر أمره ...ويجحد البعث"[2].

وقد رأت الباحثة أنه من العجيب جعل أبي العلاء برهمياً, لأن الهنود البراهمة كانوا يؤمنون بالتناسخ, والمعري لم يكن مؤمناً به, وخير دليل على ذلك قوله:

**يَقولونَ: إنَّ الجِسْمَ يَنْقُلُ رُوْحَه    إلى غَيْرِهِ, حتى يُهَذّبَها النّقْلُ**
**فلا تَقْبَلَنْ ما يُخْبِــرونَك ضِلّةً,    إذا لم يُؤيّدْ, ما أتَوكَ به,العَقْلُ**[3]    (الطويل)

وأما الأبيات التي يقول فيها:

**ضَحِكْنا, وكانَ الضَّحْكُ مِنّا سَفَاهَةً,    وحُقَّ لسُكانِ البَسيطةِ أنْ يَبْكوا**
**يُحَطّمــنُا رَيْبُ الزّمَــانِ, كَــأنّــنا    زُجَاجٌ ,و لكن لا يُعادُ له سَبْكُ**[4]    (الطويل)

فقد اعتمد القدامى ومن جاء بعدهم عليها كدليل على إنكار المعري للبعث, على الرغم من أننا لا نجد فيها أي حديث عن قضية البعث لا من قريب ولا من بعيد, وقد رأى الدكتور محمد سليم الجندي "أن المنصف لو تأمل البيت (يحطمنا ريب الزمان) لا يرى له علاقة بالحشر والنشر, ولا يرى فيه دلالة على إثباتهما أو إنكارهما, وإنما جرت عادة البلغاء من العرب أن يجعلوا الزجاج مثلاً أعلى في الضعف وفي سرعة التكسر وعدم الجبر, ... ثم ذكر أن بيننا وبين الزجاج فرقاً وهو أن الزجاج يمكن أن يسبك في هذه الدنيا فيعود إلى حالته الأولى, والإنسان لا

---

([1]) الحموي , ياقوت : ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري , ص 76 .
([2]) ابن الجوزي, سبط : ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري , ص 144 .
([3]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 259/2 .
([4]) نفسه, 216/2 .

يمكن أن يجبر فيها إذا حطمه الموت, ومراده في ذلك أنه ليس لنا سبك إلى حالتنا الأولى, وهذا حق لا ريب فيه "[1].

ولم يكتف القدامى بإيراد مثل تلك الأبيات فحسب, بل عثروا على أبيات شعرية, نظن أنها كانت قد نسبت إليه زوراً وبهتاناً, على نحو ما نرى:

**صَرْفُ الزمانِ مُفَرِّقُ الإلْفَينِ      فاحكُمْ إلهي بينَ ذاكَ و بَيْنْي**
**أنهيتَ عن قَتْلِ النُّفوسِ تعمُّداً      وبعثّتَ أنــت لَقْتلها مَلَــكَيْنِ**
**و زعمتَ أنَّ لها معاداً ثانياً      ما كان أغناها عن الحالينِ[2]** (الكامل)

ومثل تلك الأبيات, الأبيات الآتية:

**زعــموا بأني سَأُبْــعَثُ حــيّاً      بعد طولِ المُقامِ في الأَرماسِ**
**وأجُــوزُ الجِــنانَ أرْتَــعُ فيها      بين حُــورٍ وولِـــدةٍ أكــياسِ**
**أيُّ شيءٍ أصابَ عقلك يا مِسْــ      ــكينُ حتى رُمِيْتَ بالوسواسِ[3]** (الخفيف)

ومن العجيب حقاً أن بعض المحدثين تناقلوا تلك الأبيات دون العــودة إلى ديوانه للتأكد

من صحتها, ومنهم الأستاذ كامل سعفان[4], والأستاذ عطا بكري[5], غير أنَّ الأستاذ الجندي رأى

رأى

أن الأبيات النونية السابق ذكرها "كانت أبياتا موضوعة, لأنها تدل على سخافة صانعها, لأنه من البعيد عن أدب المعري أن يقول لربه: " فاحكم" ثم يقول له : "أنهيت" و"بعثت" و" زعمت" وإذا قيست بأبياته في هذا الغرض, تبين أنها ليست من سنح شعره, وإذا سلمنا أنها منه؛ فإنها تدل على إثبات الحشر لا على نفيه, لأن قوله: "ما كان أغناها عن الحالين " صريح أنه يثبت لها الحالين, أحدهما المعاد والثاني هو الحشر"[6], وأما البيت الذي يقول فيه أبو العلاء:

---

([1]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء و آثاره , 1454/3 وما بعدها .
([2]) نقلاً عن الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بابي العلاء المعري , ص 116, لم تروَ تلك الأبيات في ديوانيه.
([3]) نقلاً عن إسماعيل, أبو الفدا: ضمن تعريف القدماء بابي العلاء المعري , ص187 .
([4]) سعفان, كامل: في صحبة أبي العلاء بين التمرد والانتماء , ص129 .
([5]) بكري, عطا: الفكر الديني عند أبي العلاء , ص 151 .
([6]) الجندي, محمد سليم : الجامع في أخبار أبي العلاء و آثاره , 1456/3 .

والشّخصُ مثلُ اليوم يَمْــ ــضي في الزمانِ, فلا يَعودُ[1] (مجزوء الكامل)

فإنه يوضح فيه قصده؛ فيقول: " وهذا كلام محمول على إرادة مستثنى, كأنه لا يعود إلا إذا شاء الله, أو لا يعود إلى الدنيا, وذلك كما قال قس بن ساعدة (مالي أرى الناس يمضون فلا يرجعون, أرضوا بالإقامة؛ فأقاموا أم تركوا؛ فناموا؟) ولم يكن قس, ومن يأخذ بقوله من العرب غير مصدقين بالبعث, وإنما أراد قس أنهم لا يرجعون رجوعاً قريباً أو لا يرجعون إلا يوم القيامة.., وقد صدق بالبعث بعض الشعراء في الجاهلية فكيف بقس الذي تشهد بحكمته أفناء (أخلاط) القبائل من قحطان ومعد؟"[2], وأما الأبيات التي قال فيها المعري:

أمّا القيامةُ,فالتّنَــازعُ شائعٌ فيها,ومـــا لخَبيئِها إصْحَارُ
قَالَتْ مَعَاشرُ:ما للؤلؤِ عائمٍ, يوماً,إلى ظُلَمِ المَحارِ,مَحارُ
وبدائعُ اللهِ القَــديرِ كثيرةٌ, فيَحورُ,فيــها لبُنا, ويَحارُ[3] (الكامل)

فإنَّ الأستاذ خناري يرى أن المعري يتحدث فيها عن اختلاف الناس في البعث, ويراه أمراً شديد الغموض, وهو يضرب مثلاً في نفي البعث والنشور كاللؤلؤة التي يستحيل رجوعها إلى الصدف, كذلك البعث[4], ولكن المعري يرد على من اعترض عليه في البيت الأول, فيقول: فيقول: " المعنى أن الأمم تختلف في القيامة في مقدار عمر الدنيا .... فهذا كله يوجب التنازع والجهل بالأمر, وقد جاء في الكتاب العزيز (يَسْأَلُ أَيَّانَ يومُ القيامةِ) وذلك إنكار على من سأل, وكذلك قوله: (يَسْأَلُونَكَ عن السَّاعةِ أيّانَ مُرْسَاها) فلم يخبر النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا غيره بوقت الساعة و لا في أي زمان تكون"[5].

أما الفريق الثاني؛ فقد وقف حائراً متردداً إزاء حيرة وتردد أبي العلاء في تلك القضية, إذ رأى الدكتور طه حسين " أن الروح الفلسفي لأبي العلاء في الطبيعيات والرياضيات يوناني خالص, وأنه في الإلهيات يوناني كثيراً, وإسلامي قليلاً, فهذا الروح الفلسفي يثبت لنا أن أبا

(1) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,343/1 .
(2) المعري, أبو العلاء : زجر النابح ,ص44 .
(3) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,462/1 وإصحار :إظهار , المحار: العودة و المرجع .
(4) خناري, علي كنجيان : مصادر ثقافة أبي العلاء المعري , ص 220 .
(5) المعري, أبو العلاء : زجر النابح ,ص 72 و ما بعدها .

العلاء, إن لم يكن قد أنكر البعث إنكاراً تاماً, فقد شك فيه شكاً تاماً[1], مستشهداً بقول المعري:

**وإنْ صَدِئَتْ أرواحُنا,في جسومِنا, فيُوشِكُ يَوْمَاً أن يُعاوِدَها الصَّقْلُ**[2] (الطويل)

وقوله:

**دَفَنّاهُمُ,في الأرضِ,دَفْنَ تيقّنٍ, ولا عِلمَ بالأرواحِ غَيْرَ ظُنونُ**[3] (الطويل)

وقوله:

**أما الجسومُ فللتّرابِ مآلُها, وعَيِيتُ بالأرواحِ أنّى تُسْلَكُ**[4] (الكامل)

وقد رأت الدكتورة بنت الشاطئ أن أبا العلاء لا يفكر في البعث, ولا يلجأ إلى ذلك إلا حين يغلبه الشك ويعوزه اليقين, كقوله:

**قَــالَ المُنَجِّمُ والطّبيبُ كِلاهــما: لا تُحْشَرُ الأجسادُ, قُلْتُ:إليكما**
**إنْ صَحَّ قولكُما , فَلَسْتُ بخاسرٍ, أو صَحَّ قولي,فالخسَارُ عليكما**[5] (الكامل)

حيث تقول الدكتورة بنت الشاطئ: " إن المعري يسمي قوله بالحشر " زعماً", وهذا دليل على شكه وحيرته[6], ومن الغريب في هذا الشأن أن يساق البيتان السابقان دليلاً على شك أبي العلاء في البعث, وأن يساقا في الوقت نفسه دليلاً على إثبات البعث, حيث وجد كل من الدكتور طه حسين[7]وصالح اليظي[8]وحامد عبد القادر[9]فيهما دليلاً على إيمان المعري بالبعث.

وأما الأبيات الآتية التي يقول فيها المعري:

---

([1]) حسين, طه : تجديد ذكرى أبي العلاء , ص 276 .
([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,259/2 .
([3]) نفسه, 547/2 .
([4]) نفسه, 225/2 .
([5]) نفسه, 433/2 .
([6]) عبد الرحمن, عائشة بنت الشاطئ : الحياة الإنسانية عند أبي العلاء , ص197 وما بعدها .
([7]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء , ص274 .
([8]) اليظي, صالح: الفكر والفن في شعر أبي العلاء ,ص147 .
([9]) عبد القادر, حامد: فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره , ص151 .

**يا مَرْحَبَاً بالموت من مُنتظِّرٍ,  إنْ كانَ ثَـمَّ تعـارفٌ وتَلاقِ**
**أما الحقيقةُ, فهي أنيّ ذاهبٌ,  واللهُ يَعْـلَمُ بالـذي أنـا لاقِ**
**سَيَموْتُ محمودٌ ويَهْلِكُ آلكٌ,  ويَدومُ وجـهُ الواحدِ الخَلّاقِ**[1] (الكامل)

فإن الدكتور محمد سليم الجندي "لا يرى فيها تصريحاً بإنكار الحشر أو الشك فيه, وإنما الشك في التعارف والتلاقي وهما غير الحشر, بل هما مترتبان عليه, ولا يلزم فيهما الشك فيه"[2], وأما البيت الثاني (أما الحقيقة فهي أني ذاهب) فيتبين للجندي من هذا البيت "أنه سيلقى شيئاً بعد ذهـابه أي موته, وهذا الشيء لا يعلمـه إلا الله, ولا يكون لقاؤه إلا بعـد البعث, لأن المعدوم لا يلقى شيئاً"[3].

ويرى الأستاذ حامد عبد القادر أن أبا العلاء يسلك مسلك الرمز والتعمية في قوله عن عقيدة البعث[4]:

**وقِيلَ لا بَعْثَ يُرْجَى للثواب, وَمَا  سَمِعْتَ,في ذاكَ,دَعْوَى مبطلٍ هَزِلا**
**وكَيْفَ للجسمِ أن يُدْعى إلى رَغدٍ,  منْ بَعْدِ مارمَّ, في الغَبْراءِ,أو أزِلا؟**[5] (البسيط)

في حين يرى الأستاذ صالح اليظي "أن المعري يسبح في بحار الشك والقلق, بل يدرك أحياناً سواحل النكران المعطل للبعث والثواب والعقاب"[6], حين يقول:

**والبختُ في الأولى أنالَ العُـلى,  وليْسَ فـي آخِـرةٍ بَخْتُ**
**كَـذَاكَ قَـالوا, وأَحـاديثُـهم  يَبينُ فيها الجَـزْلُ والشَّخْتُ**
**لو جَاءَ من أهْلِ البِلى مُخبرٌ,  سألتُ عن قَـوْمٍ وأرّخْتُ:**
**هَلْ فـازَ بالجنّـةِ عُمـالُها,  وهَلْ ثَوَى في النار نُوبَخْتُ؟**
**والظّلْمُ أنْ تلزمَ مـا قـد جنى  عليـكَ,بَهْـرامُ وبَيْـدَخْتُ**[7] (السريع)

---

([1]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,211/2 ,وما بعدها.
([2]) الجندي, محمد سليم : الجامع في أخبار أبي العلاء و آثاره ,1456/3 .
([3]) نفسه, 1457/3 .
([4]) عبد القادر, حامد: فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره, ص152 .
([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,292/2 .
([6]) اليظي, صالح : الفكر والفن في شعر أبي العلاء ,ص 152 .
([7]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,211/1-212 , الجزل والشخت: القوي والضعيف ونوبخت: أبو أسرة فارسية فارسية كان يعبد النار, بهرام:المريخ, ويعرف بالحري والحدة, بيدخت: اسم لكوكب الزهرة و توصف بالحب

يعلق الأستاذ اليظي قائلاً: "إن أبا العلاء لم يصل في تلك الأبيات إلى رفض القيامة والحساب, وإنما أبان فيها عن قدر هائل من التوجس في الأمر كله, واستخدم في ذلك أدوات عدة تؤدي في محصلتها النهائية إلى موقف متشكك غاية التشكك, وهو إن لم يقل الرجل صراحة بأنه ينكر الآخرة؛ فإنه قد وضع نفسه والقضية كلها في القلب من متاهات الغموض وانعدام اليقين"[1].

لكن المعري لم يقف مكتوف اليدين تجاه تلك الأبيات, وخاصة البيتين الأخيرين, فقد رد على من اعترض عليه فيهما قائلاً: "المعنى أن ابن آدم لا يدري ما يقضى عليه, فيجوز أن تتغير نيته في الإيمان فيدخل النار, ويمكن أن يؤمن الكافر قبل الموت بلحظة فيستوجب بذلك العفو, وقد ورد مثل هذه الأشياء في الحديث المأثور: " أن ابن آدم يعمل أعمال أهل الجنة حتى لا يبقى بينه و بينها إلا قيد الظفر, ثم يرجع عن ذلك فيدخل النار, وإنه ليعمل أعمال أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها إلا قيد الظفر, ثم يرزق التوبة ويدخل الجنة." وقد كان في زمان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من كان كافراً به, ثم بدا له أن يؤمن فيجاهد, فقتل, فدخل الجنة ولم يصل لله قط, وقد جاء ذلك في الكتاب العزيز في قوله: (وما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بي ولا بِكُمْ)[2].

ولا يختلف رأي الأستاذ خناري عن الآراء السابقة إذ رأى أن المعري يتحدث بشك كبير في أمر البعث, مقارب لإنكاره[3], مستشهداً بقول المعري:

**لَعَلَّ قوماً يُجازيـــهم مليكُهُمُ,        إذا لقوه؛بما صاموا وما قنتوا**[4]        (البسيط)

وكانت حجة الأساتذة السابقين, أن أبا العلاء ما زال غير مطمئن بعد من حياة الآخرة إذ لم يأته خبر منها, حيث يقول:

**يَدْرِي الفتى كَمْ عاشَ من أيامِهِ        يَوماً,وما هو,كم يعيشُ بداري**

---

والشهرة والدعارة.

([1]) اليظي, صالح: الفكر والفن في شعر أبي العلاء ,ص 152 .

([2]) المعري, أبو العلاء: زجر النابح , ص33 .

([3]) خناري, علي كنجيان: مصادر ثقافة أبي العلاء المعري , ص 218 .

([4]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم ,197/1 , قنتوا : أي قاموا بما عليهم لله من الطاعة و الصلاة.

**داران,أمّــا هــذِهِ فَمُـــسيئَةٌ          جــداً, ولا خَبَــرٌ لتــلك الدّارِ**[1]     (الكامل)

وحيث يقول:

**وظاهر أمرنا عَيْشٌ ومَوْتٌ,          ويدأبُ ناسِكٌ لرجاءِ بَعْثِ**[2]     (الوافر)

ومما لا شك فيه, أن الآراء السابقة اجتمعت و أقرت على شك أبي العلاء وحيرته إزاء تلك القضية, أما الفريق الثالث[3] فإنه ذهب إلى أن أبا العلاء إنسان مؤمن بالبعث حق الإيمان وقد دللوا على إيمانه بإيراد أبيات شعرية كثيرة تؤكد أن أبا العلاء لم ينكر البعث أو يشك فيه, وإنما كان يصرح فقط بقصور عقله عن كشف حقيقة ما وراء الموت من الاعتراف والإيمان بوعد الله وبقدرته على إحداثه متى أراد, وأن تصريحه بقصور العقل لا يدل على الشك, وهذا ما قرره الإسلام وسائر الأديان من عجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية, على نحو ما نرى في قوله:

**إذا انْتَقَلَتْ عن الأوصالِ نفسي,          فَما للجِسْمِ عِلْــمٌ بانتــقالِ**
**أسيرُ, فلا أعودُ,وما رُجوعي!          وَقَدْ كَانَ الرحيلُ رحيلَ قالِ**
**أُمورٌ يَلْتَبِســْنَ علــى البــرايا,          كأنَّ العَقْلَ فيها في عِقــالِ**[4]     (الوافر)

ويؤكد على قدرة الله على البعث, حيث يقول:

**وقدرةُ الله حقٌّ, لَيْسَ يُعجزُها          حَشْرٌ لخلقٍ, ولابَعْثٌ لأمواتِ**[5]     (البسيط)

ثم إنه كان قد تعجب ممن ينكر أو يشك في حقيقة البعث وحشر الأجساد, على نحو ما نرى في قوله:

**ومَتَى شــاءَ الذي صَوّرَنا,          أَشْعَرَ المَيْتَ نُشوراً,فَنَشَر**
**فَافْعَلِ الخَــيْرَ وأمّــلْ غِبّهُ,          فهوَ الذُّخْــرُ إذا اللهُ حَشَر**[6]     (الرمل)

---

([1]) نفسه , 581/1 .

([2]) نفسه, 249/1 .

([3]) من ضمن الفريق الثالث كان الدكتور محمد سليم الجندي وآخرون .

([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,338/2, القالي : المبغض .

([5])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 228/1 .

([6]) نفسه, 607/1 ,نشر: انبعث حياً , حشر: جمع الخلق للحساب .

لأنه يؤكد حقيقة الحشر قائلاً:

**أَمَا يَرَى الإنسانُ,في نفْسِهِ, آيــاتِ ربٍّ,كلُّــها غُرّ؟**
**في فمِهِ عَذْبٌ, وفي عينيهِ, مِلْحٌ,وفي مِسْمَــعهِ مُرّ**
**يَكُرُّ موتانا إلى الحَشْرِ, إنْ قالَ لَهُمْ بارِئــهمْ:كُروا[1]** (السريع)

إذ نراه في تلك الأبيات يعرض لبعضٍ من صور عظمة الخالق عزّ وجلّ, في التكوين العضوي للإنسان, ثم يخلص من ذلك كله إلى أن القادر على الخلق والقبض, قادر على حشر الخلق يوم القيامة, حيث يقول:

**يا نحلُ,إنْ شارَ شُهْداً منك مكتسِبٌ, فَحَسْبُهُ أنَّ بَعْدَ الموتِ إنشارا[2]** (البسيط)

ويقول في إثبات البعث:

**خُلِــقَ النــاس للبقــاءِ فضــلَّت أُمّــةٌ يحَسـبونهــم للنــــفادِ**
**إنمـــا يُنْقَــلون مــن دار أعــما لٍ إلى دار شقــــوة أو رشــاد**
**ضَجْــعَةُ الموتِ, رقــدةٌ يستريحُ الجسم فيها, والعيشُ مثلُ السُّهاد[3]** (الخفيف)

ويقول أيضاً:

**إذا ما أعْظُمي كانتْ هَباءً, فإنَّ اللهَ لا يُعييهِ جَمعي[4]** (الوافر)

ولم يكتف أبو العلاء بذكر البعث والحشر فحسب, بل قام بوصف ذلك اليوم وحساباته أيضاً, كقوله:

**نَفَضْتُ عني تُراباً , وهُوَ لي نسبٌ, وذاك يُحْسَبُ من قطعِ الفتى الرّحِما**
**يا هُــونَ ما أوعَــدَ اللهُ العبادَ بهِ, إنْ صــارَ جسمي في تحريقِهِ فَحما**
**و إنــما هُــوَ تخــليدٌ بــلا أمَــدٍ تَمضي الدهورُ وَصالي النّارِ ما رُحِما[5]** (البسيط)

---

([1]) نفسه , 478/1 وما بعدها .
([2]) نفسه, 504/1 .
([3]) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص112, دار أعمال: الدنيا, دارة شقوة: جهنم, دار رشاد: الجنة.
([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 141/2 .
([5]) نفسه, 428/2 .

تلك الأبيات إن دلت على شيء؛ فإنما تدل على أن الخلود والبقاء في النار نوع من عقوبات يوم القيامة, ولهذا فهو ينصح الناس بتقوى الله, على نحو ما نرى في قوله:

**تقواكَ زادٌ, فاعتقدْ أنَّه — أفْضَلُ ما أودعتَه في السّقاءْ**
**آهٍ غداً من عَرَقٍ نازلٍ, — ومُهْجَةٍ مولعةٍ بارتقاء**
**ما أطيبَ الموتَ لشُرّابه, — إنْ صَحَّ للأمواتِ وشكُ التقاء[1]** (السريع)

ويرى أن من رحل عن الدنيا, ولم يعمل الصالحات فهو خائب لأن الدنيا وما فيها لن تجدي المرء في الآخرة وإنما الذي يفيده زاد الآخرة, كقوله:

**خَابَ الذي سارَ عن دُنياهُ مُرتحلاً, — ولَيْسَ في كفّهِ من دينِهِ طَرَفُ**
**لا خَيْرَ للمرءِ إلاّ خَيْرُ آخِرَةٍ — يُبْقي عليهِ, فذاكَ العِزُّ والشَرَف**
**نرجو السَّلامةَ في العُقْبى وما حَسُنَتْ — أعمالُنا, فيُرَجّى الفَوزُ والغُرَفُ[2]** (البسيط)

لذلك نراه يتحدث عن ثواب الله الذي أُعدّه للصاحين في الدار الآخرة, فيقول:

**لا يَيْأسَنَّ من الثّوابِ مُراقبٌ — للهِ في الإيرادِ والإصدار**
**فترى بدائعَ, أنبأتْ مُتَحسِّساً — أنَّ الجزاءَ بغيرِ هذي الدّارِ[3]** (الكامل)

ونراه خائفاً أيضاً من ذلك اليوم الذي ينهض فيه من قبره, ويحمل سجل أعماله بيده, ويتقدم إلى الحساب, وكله رجاء وأمل لأن ينعم الله عليه يوم القيامة, وإن كان قد أخطأ في الدنيا, فإنه يستحق العقاب في ذلك اليوم العظيم , حيث يقول:

**لكَ المُلكُ,إنْ تُنْعِمْ,فذاكَ تفضّلٌ — عليَّ, وإن عاقبتَني, فبواجبِ**

**يقومُ الفتى من قبرهِ,إنْ دعوتَهُ — ومَا جرَّ مخطوطٌ له في الرّواجب[4]** (الطويل)

لكنه مازال طامعاً في مغفرة الله له, وتجاوزه عن سيئاته في موقف الحساب والجزاء,

---

([1]) نفسه , 70/1, (غداً من عرق نازل) أي يوم الحساب يعرق الإنسان من شدة الهول, ومهجة مولعة بارتقاء: أي أنّ النفس تحب أن ترقى إلى السماء , الوشك : السرعة .

([2]) نفسه , 152/2, الغُرف: غرف الجنان في السماء السابعة .

([3])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 593/1 .

([4]) نفسه, 142/1 ,جرّ: جنى جناية, المخطوط: الرمح, الرواجب: العظائم.

على نحو ما نرى في قوله:

**إلهَنا الحقَّ!خفّفْ واشفِ من وَصبٍ, فإنـــــها دارُ أثقـــالٍ وآلامِ**
**يَسّـــرْ علـــينا رحيـــلاً, لا يُلَبِّثُــنَا, إلى الحَفائرِ من أهلٍ وأخلام**
**وجَازِنا عن خَطـــايـــانا بمغـــفِرةٍ؛ فكم حلُمْتُ,ولَسْنَا أهلَ أحلام[1]** (البسيط)

وقوله:

**أؤمّلُ عَفْوَ الله والصّدرُ جائشٌ, إذا خلَجَتْنِي,للمنونِ,الخوالجُ**
**هناك تَوَدُّ النّفسُ أنّ ذنـــوبها قليلٌ, وأنَّ القِدْحَ,بالخير فالجُ[2]** (الطويل)

وقوله:

**ومغفـــــرةُ الله مَرجُـــوّةٌ إذا حُبِسَتْ أعظُمي في الرِّمَمْ**
**مُجـــاورَ قـــومٍ تمشّى الفَنَا ءُ ما بَيْنَ أقدامـــهِمْ, والقِمَمْ**
**فيا لَيْتَـــني هامــدٌ, لا أقومُ, إذا نَهَضُوا يَنْفُــضَونَ اللِّمَمْ[3]** (المتقارب)

طالباً من الله تعالى أن يبعثه مسلماً مع المسلمين, كقوله:

**بعلمِ إلهي يوجدُ الضّعفُ شيمتي, فلستُ مُطيقاً للغـــدوِّ ولا المَسْرى**
**غبرتُ أسيراً في يديهِ,ومَنْ يكنْ لهُ كـــرمٌ تُكْرَمْ بســـاحتِهِ الأسرى**
**أأصُبحُ في الدنـــيا كما هو عالمٌ, وأدخلُ ناراً مثل قَيْصَرَ أو كِسْرى**
**وإني لأرجـــو منه يـــوم تجاوزٍ, فيأمر بي ذاتَ اليمين إلى اليسرى[4]** (الطويل)

ومما سبق ذكره؛ يبدو لنا أن أبا العلاء لم ينكر البعث والحشر, على الرغم مما ورد في بعض أبياته التي قد يوحي ظاهرها إلى شكه وحيرته إلا أن تصريحه بقصور العقل عن تفهم تلك الحقيقة بكل ما فيها من معنى, أسعفه وأخرجه من نطاق الشك والقلق, لأن الإسلام وسائر الأديان أقر عجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية.

---

(1) نفسه , 457/2 .

(2) نفسه , 255/1 ,خلجتني: جذبتني, القدح: سهم الميسر, الفالح: الفائز .

(3) نفسه, 491/2 .

(4)المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 83/1, غبرت: بقيت ,كل ملك للروم يسمى قيصر, وكل ملك للفرس يسمى كسرى .

## الباب الثاني: النقد الاجتماعي في لزوميات أبـــي العـــلاء المعـــري, ويشـــتمل على:

الفصـــل الأول: مفهـــوم النقـــد الاجتمـــاعي عنـــد أبـــي العـــلاء المعـــري.

الفصل الثاني: بواعث النقد الاجتماعي فـــي لزوميـــات أبـــي العـــلاء المعـــري.

الفصل الثالث: ضروب النقد الاجتماعي فـــي لزوميـــات أبـــي العـــلاء المعـــري.

الفصل الرابـــع: الخصـــائص الفنيـــة فـــي لزوميـــات أبـــي العـــلاء المعـــري.

## الفصل الأول: مفهوم النقد الاجتماعي عند أبي العلاء المعري.

قبل البدء في الكشف عن بواعث النقد الاجتماعي عند أبي العلاء المعري؛ لابد لنا من تحديد واضح وشامل لمفهوم النقد الاجتماعي, إذ رأينا في ذلك التحديد أمراً في غاية الأهمية, وخاصة بعد اطّلاعنا على كتابين مهمين كانا قد درسا النقد الاجتماعي عند المعري, وكان أولهما الكتاب الموسوم بـ "أبو العلاء ناقد المجتمع" للدكتور زكي المحاسني[1]ذلك الكتاب الذي وجدنا مقدمته بعيدة كل البعد عن مفهوم النقد الاجتماعي؛ ولعل قارئ تلك المقدمة يجد نفسه بين يدي مقدمة بلاغية بيانية يتم فيها الحديث عن فن النقد البلاغي وأعلام ذلك النقد كأبي هلال العسكري والجاحظ, وقدامة بن جعفر, كما يجد فيها حديثاً عن مهمة الناقد الحاذق في المسائل الشعرية أو النثرية, ليخلص في نهاية الأمر إلى تمهيد, ربما يكون بعيداً عن مفهوم النقد الاجتماعي الذي نقصده.

وأما الكتاب الثاني الموسوم بـ "النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء" للدكتور يُسري سلامة[2]فهو كتاب خالٍ من أي تمهيد أو توطئة ,لتحديد هذا المفهوم, ناهيك عن سرعة تنقلهما في اعتماد الشواهد من مختلف آثاره الشعرية والنثرية دون تركيز على لزومياته التي هي موضوع دراستي.

وبناء على ما سبق؛ فقد رأت الباحثة ضرورة الخوض في مفهوم النقد الاجتماعي, وعندما نتتبع دلالة لفظة النقد عند العرب نجد أنها كانت تعني نقد الدرهم والدينار, أي بيان رديئه من جيده, وسليمه من زائفه, وشبهوا كذلك الناقد بالصيرفي الذي كان يقوم بفرز الدنانير والدراهم[3]؛ وقد جاء في "لسان العرب" شرحاً لمادة نَقَدَ, حيث يقول فيه ابن منظور صاحب اللسان: "النقد: خلاف النسيئة, والنَّقْدُ والتَّنْقَادُ: تمييزُ الدراهمِ و إخراجُ الزَّيفِ منها, أنشد سيبويه:

**تَنْفِي يَداها الحَصَى, في كلِّ هاجرةٍ,     نَفْيَ الدَّنانير تَنْقادُ الصّياريفِ** (البسيط)

ورواية سيبويه نَفْيَ الدراهيم, وهو جمع دِرْهم على غير قياس أو دِرْهام على القياس فيمن قاله...في حديث أبي الدرداء, أنّه قال: إنْ نَقَدْتَ الناسَ نقدوك وإنْ تَرَكتَهُمْ تركوك؛ معنى نقدتهم

---

([1]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع , ص 7-11 .

([2]) سلامة, يسري محمد: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء , ص 153 .

([3]) سلام, محمد زغلول: تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري, القاهرة, دار المعارف, 1964, 9/1.

أي عِبْتَهم واغتَبْتَهم قابلوك بمثله"[1].

وهكذا, فإن النقد يعني الكشف عن عيب أو نقصٍ خفيّ, وقد يكون هذا العيب اجتماعياً, أو دينياً, أو أدبياً, ومن هنا تأصّل مفهوم النقد الاجتماعي الذي يُعنى بالكشف عن عيوب المجتمع ونقدها من أجل الوصول إلى مجتمع كاملٍ ومثالي.

وأبو العلاء واحد من النقاد الاجتماعيين الذين وظفوا كلمتهم لنقد عيوب مجتمعاتهم نقداً لاذعاً , فلم يكن أول من أحدث هذا الفن الساخر الناقد ,لأن "السخرية" أو "النقد الساخر" من الفنون التي أنضجتها عوامل التطور والتجديد في العصر العباسي.

شاعت كلمة السخرية وشابهها الفن الساخر في أحضان فن الهجاء في العصر العباسي, وعاشت في كنفه حقباً طويلة قبل أن تنمو وتتطور لتصبح غرضاً مستقلاً في القرن الثالث الهجري[2], ويرقى مثل هذا الهجاء المهذب السامي إلى صعيد النقد الاجتماعي والذاتي والسياسي, الملبي لحاجةٍ نفسية كان المجتمع العباسي بأمسّ الحاجة إليها للتنفيس عما كان يعانيه من ضغوط الأوضاع الحياتية المعقدة[3], وربما كان أبو دلامة الأسدي أول الشعراء العباسيين الذين استخدموا هذا اللون من السخرية[4].

وعلى هذا الأساس كان النقد الساخر عندهم أداة دفاعية لمواجهة ما في حياتهم من قسوة وحرمان وشقاء, وأداة تطهيرية, تبدد ما ترسب في أعماق نفوسهم من الهواجس الكئيبة, وتعتقها من قيود الفقر والفشل[5].

ومن الجدير بالذكر أن للنقد الاجتماعي مرادفات عديدة منها:

---

([1]) ابن منظور, أبو الفضل: لسان العرب, بيروت, دار صادر, 1990م, مادة(نَقَدَ), 425/3 وما بعدها.

([2]) العلاق, حسين صبيح: الشعراء الكتاب في العراق في القرن الثالث الهجري , بيروت , منشورات مؤسسة الأعلمي, بغداد, مكتبة التربية , 1975م , ص 135 .

([3]) نفسه, ص141 .

([4]) الخواجة, إبراهيم شحادة: اللوحات الهزلية في حياة وشعر أبي الدلامة الأسدي, مجلة الثقافة العربية,عدد114, ص86.

([5]) إبراهيم, زكريا: أبو حيان التوحيدي (أديب وفيلسوف الأدباء ), القاهرة , المؤسسة المصرية العامة, ص247-250.

**أ_ السخرية الانتقادية:** وهي تهدف إلى السّخرية من الظواهر المدانة في الحياة, ونقدها من خلال أفراد بعينهم, أو جماعة بعينها, أو تقليد بعينه, سواء أكانت هذه الظواهر المنقودة المسخور منها اجتماعية أم سياسية أم أدبية ,أم سلوكية شخصانية, ومهما بدت السخرية الانتقادية هادئة في بعض نماذجها, فإنها تبقى عملية تأديب مؤلمة؛ لأنها ما وجدت واتّسمت بسمة النقد إلا لتخزي وتؤلم في آن واحد[1].

**ب ــ الهجاء الكاريكاتيري السّاخر:** وهو الهجاء الذي يعتمد على التصوير لا على اللفظ وعلى التجسيم, والمقارنة لا على السّب والشتم والمهاترة, وهو يبتعد كثيراً عن أنواع الهجاء التي تتضمن أنواعاً فاحشة من الاتهامات والقذف, وهذا النوع من الهجاء يدل على طاقة فنية مبدعة, وذهنية ساخرة, تعتمد على فن أصيل وروح ضاحكة, تترفع عن السبب الرخيص والاتهامات الدنيئة[2].

**جـ ــ الضحك الساخر:** وهو فن ابتدعته النفس البشرية لمواجهة ما في حياتها من شدة وقسوة وحرمان من جهة[3], وتصحيح بعض الأوضاع الخاطئة في المجتمع من جهة ثانية [4].

وقد أصبح النقد الاجتماعي أكثر انتشاراً عند بعض الطبقات التي كانت تعاني ألماً وقسوة في حياة ملؤها الفساد والضلال, وكان هدفها تقويم ذلك الفساد وإصلاحه؛ يقول "بومارشيه": إني أُسارع إلى الضحك من كل شيء خوفاً من اضطراري إلى البكاء من كل شيء, ويقول " هنري فيلدنغ": إنني, بحملي الناس على الضحك, إنما أردت أن أشفيهم من عيوبهم وانحرافاتهم المفضلة لديهم"[5].

**د ــ الفكاهة العقلية أو الإدراكية:** وهي فكاهة تنطوي على قدر غير قليل من القدرة العقلية

---

(1) العلاق, حسين صبيح : الشعراء الكتّاب في العراق في القرن الثالث الهجري ,ص 146 .

(2) هدارة, محمد مصطفى: اتجاهات الشعر في القرن الثالث الهجري, ط1,بيروت, دار العلوم العربية, 1988م, ص241-243.

(3) إبراهيم, زكريا: أبو حيان التوحيدي, ص251.

(4) عبد الحميد, شاكر: الفكاهة والضحك (رؤية جديدة), الكويت, مطابع السياسة, ,2003م, ص39.

(5) شيخاني , سمير :موسوعة الضحك العالمية , بيروت , مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر, 1983م, ص6.

والبراعة الحدسية, وسرعة البديهة[1],وهدفها الكشف عن عيوب الناس ومخازيهم, ففي مثل تلك الفكاهة تتضح حالات التنفيس عن الحرج أو حالات التمرد والاحتجاج على البدع الشائعة؛ ولاسيما البدع التي حان لها أن تزول أو تبدلت دواعيها بتبدل الأحوال[2].

ولعل المتأمل في تلك المرادفات يجدها جميعاً تصب في هدفين اثنين؛ أولهما: التنفيس عن حالات المرارة والضيق, وثانيهما: الكشف عن عيوب مخزية, على أن هذا الكشف قد يتم بنقد تلك العيوب بهدوء مرة, وبلا طيبة وعدالة مرات, لا لغرض شخصي, "ولا نتيجة لأحقاد شخصية, أو ضغائن ذاتية, على نحو ما كان الأمر في ظاهرة الهجاء في الأدب العربي"[3], وإنما هو نتيجة" دعوة إلى الخلاص, وتطهير المجتمع من كل ما من شأنه طعن نضارته, وتشويه انسجامه, وبلبلة طمأنينته, وخلخلة تماسكه"[4].

وقد لاحظ الباحثون في هذا المجال أن المستضعفين هم الذين يلجأون إلى النقد الاجتماعي, ويعتصمون به, لأنه ــ من وجهة نظرهم ــ يعني لهم الثأر السلمي العادل الذي لا يمتلكون أمضى وأقوى منه[5].

كما أن العاهات وبعض العلل الخلقية تثير في نفوس أصحابها شعوراً بالنقص, يدفعهم إلى الثورة على المجتمع والتمرد عليه بصورة هجاء وسخرية ونقد, فيسيئون الظن, وفي نهاية المطاف ينتهون إلى التشاؤم, لأن الناس بالقياس إليهم, مجهولون أو كالمجهولين[6].

ومهما بدا الأديب ذو العاهة انعزالياً فهو في برج عاجي, وفي هذا البرج يلتصق بأمته أراد ذلك أم لم يرد, لأنه نشأ على مهاد ظروفها السياسية والاجتماعية؛ واختلجت في قلبه أحاسيسها وأمانيها, فهو نتيجة الوراثة (التي تعني روح الأمة وتاريخها الماضي جميعه),

---

([1]) إبراهيم, زكريا: أبو حيان التوحيدي, ص97 .

([2]) العقاد, عباس محمود: جحا الضاحك المضحك, بيروت, دار الكتاب العربي, 1969م, ص107 وما بعدها.

([3]) العلاق, حسين صبيح : الشعراء الكتّاب في العراق في القرن الثالث الهجري ,ص170 .

([4]) نفسه, ص174 .

([5]) إبراهيم, زكريا: سيكولوجية الفكاهة والضحك, القاهرة , دار مصر للطباعة ,ص74.

([6]) حسين , طه :مع أبي العلاء في سجنه , ص 61 .

والوسط (الوسط العام من الواقع الحاضر, و كل ما يجري فيه من مواقف وقضايا وموارد روحية واجتماعية) (1).

لأن فكرة الاعتزال الفردي عن المجتمع أسطورة خيالية, "إذ لا يستطيع أديب ما, أن يعيش يوماً منعزلاً عن مجتمعه, أو يدير نظره عنه, وعما يعانيه من أحداث أفراده الذين يخالطهم, مستمداً من الواقع ومن غير الواقع, من الماضي والمستقبل وحياً لعواطفه ومشاعره"(2).

وهذا ينطبق على أبي العلاء الذي وهبه الله قلباً بصيراً نفّاداً, وروحاً نقدية جبارة, فطن بها عيوب الناس الخفية, وأدرك حقيقة بواعثهم, على الرغم مما أبدا في نقده هذا من قسوة وجور في بعض أحكامه على المجتمع, ولكن قد يعود سرّ هذه القسوة إلى رفضه المجاملة الدنيئة والنفاق الكاذب, والمؤاخاة الزائفة, فهو صاحب فلسفة " قوامها العطف على الناس وتوجيههم إلى عيوبهم حتى يصلحوها "(3).

---

(1) ضيف, شوقي: في النقد الأدبي, القاهرة , دار المعارف , 1962م , ص 192 .

(2) نفسه , ص 193 .

(3) العلاق, حسين صبيح : الشعراء الكتّاب في العراق في القرن الثالث الهجري, ص70 .

## الفصل الثّاني

## بواعث النقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري, ويشتمل على:

المبحث الأول: البواعث الذاتية:

أ_ إبـــاؤه وعـــزة نفســه.

ب_ نشـــأته الدينيـــة.

جـ_ عدم تكيفــه مــع البيئــة المحيطــة بــه.

المبحث الثاني: البواعث الخارجية:

أ_ اضطراب الحيــاة السياســية فــي عصــره.

ب_ تدهور الحيــاة الاقتصــادية فــي عصــره.

جـ_ سوء الحيــاة الاجتماعيــة فــي عصــره.

د_ ضـــعف الـــوازع الـــديني فـــي عصـــره.

## المبحـــث الأول: البـــــواعث الذاتــــــــــية.

أ ــ إبـــــــاؤه وعـــــــــزة نفـــسه.

ب ــ نشـــــــــــــــــأته الدينية.

ج ــ عدم تكيفه مع البيئة المحيطة به.

احتوت لزوميات أبي العلاء المعري على الكثير من النصوص التي يمكن توظيفها للتعرف على أسباب ودوافع ذلك النقد, التي بدا من خلالها موضوعياً وغير غوغائي؛ بحيث يمكن للباحثة تقسيمها إلى مجموعتين؛ أوّلهما: بواعث ذاتية (خاصة بأبي العلاء), وثانيهما: بواعث خارجية (خاصة ببيئة أبي العلاء الاجتماعية)؛ أما البواعث الذاتية فيظهرها:

**أ ــ إباؤه و عزة نفسه:**

يقول أبو العلاء:

**وَوَجَدّتُ نَفْسَ الحُرّ تَجعَلُ كَفَّهُ صِفْراً, و تُلْزِمُهُ بما لم يَلْزَمِ**[1] (الكامل)

**يَلْزَمِ**[1]

فتلك النفس القوية التي يحدثنا عنها أبو العلاء؛ تعني أننا أمام إنسان لديه إحساس حادّ بالذات, إحساس قد يحول بينه وبين التوافق مع الآخرين[2].

أي أننا أمام إنسان يعيش التفرد وينشده, والإنسان الذي لديه هذا الإحساس الحاد بالذات لا يستطيع أن يلتزم تحت وطأة ظرف ما, ثم يُنهي ذلك الالتزام إذا تغيرت الظروف؛ " فأبو العلاء لا يعترف بوجود الآخرين لأنه لا يريد أن يتمثل بهم, إذ أحسّ بجميع صفات التفرد الإنساني, تلك التي جعلت منه نوعاً من الشخصية الممتازة التي علت على الآخرين, وهذا كله يعني ــ وهو في سياق التفرد ــ أنه يشعر بأنه حاصل بنفسه على القيم الأخلاقية المثلى, وأنه ليس بحاجة إلى الاتصال بالمجتمع, إذ هو لا يعترف بأخلاقية المجتمع"[3], وقد رأى "نيتشه" أن الرجل الممتاز هو الرجل المتوحد الذي يعتزل الناس, ويعيش بعيداً عن المجتمع منطوياً على نفسه مؤمناً بذاته, كما أنه في نظر "زرادشت" إنما هو ذلك المخلوق الفريد الذي ينفر من الجماعة, ويأنف من الناس ويحلق بجناحيه فوق السحاب, فترمقه أعين الحاسدين, أو ترشقه نظرات الحاقدين, وليس بدعاً أن يثور الناس على الرجل الممتاز, ما دام من دأب العامة دائماً أن

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لم يلزم , 468/2 .

([2]) شاخت, ريتشارد: الاغتراب, ترجمة كامل يوسف حسين, ط1, بيروت, المؤسسة العربية, 1981م, ص184.

([3]) خضر, سناء: النظرية الخلقية عند أبي العلاء بين الفلسفة والدين, ص90 .

تتمرد على كل إنسان لا يلتصق بها[1]؛ وهذا ينطبق على أبي العلاء الذي أحس بذاته؛ بحيث مضى يفلسف ما يحسُّه في واقع حياته العقلية والاجتماعية, مصوراً بذلك مشاهد دقيقة في رسم شخصيته وإظهار اعتزازه بها, محدداً بذلك موقعه من العالم من حوله من خلال تلك النظرة التي برزت في قوله:

**ألا في سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلُ　　عَفَافٌ وإقْدامٌ وحَزْمٌ و نَائلُ**
**وإني و إنْ كُنْتُ الأخيرَ زمانُهُ,　　لآتٍ بما لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأوائلُ**[2]　　(الطويل)

وفي ذلك يؤكد الدكتور صالح اليظي قائلاً: " إن شعر أبي العلاء يفصح عن غلبة التيار القائم على احترام النفس, واعتبار الذات والشعور بالقيمة الإنسانية على فكره ووجدانه "[3], على على نحو ما نرى في قوله:

**ولي مَنْطِقٌ لم يَرْضَ لي كُنْهَ مَنْزِلي,　　على أنّني بين السّماكين نازلُ**[4]　　(الطويل)

وقوله:

**ورائي أمامُ و الأمامُ وراءُ　　إذا أنا لم تُكْبِرْنِيَ الكُبراءُ**[5]　　(الطويل)

كثيرة هي الأبيات التي اعتز فيها أبو العلاء بنفسه, ولم يكن اعتزازه هذا مصحوباً بالتعالي والكبرياء قط, حيث يقول:

**عيوبي, إنْ سألتَ بها, كثيرٌ　　وأيُ النّـــاسِ لَيْسَ لَهُ عُيوبُ؟**
**وللإنسانِ ظـــاهرُ ما يَـــرَاهُ,　　ولَيْسَ عليه ما تُخفي الغُيوبُ**[6]　　(الوافر)

"إن كبرياءه دفعه إلى محاولة ما لا يطيق, والى الطمع فيما لا مطمع فيه"[7], ولعلنا نرى نرى عكس ما جاء به الدكتور طه حسين؛ فالمعري لم يكن متكبراً على أي حال, لأن هناك فرقاً

---

([1]) إبراهيم, زكريا: مشكلة الإنسان, ص165 .
([2]) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص56 .
([3]) اليظي, صالح حسن: الفكر والفن في شعر أبي العلاء, ص36 .
([4]) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص57, كُنْهَ الشيء: جوهره .
([5]) نفسه, ص258 .
([6]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,105/1 .
([7]) حسين, طه: مع أبي العلاء في سجنه, ص48 .

كبيراً بين الاعتزاز بالنفس والعقل من جهة, وبين تعاليه وكبريائه على الناس من جهة أخرى, فلا ينبغي بعد ذلك كله وصف المعري الطموح المعتز بنفسه بأنه متعالٍ متكبر, ولعل هذا القول يلتقي مع ما ذهب إليه الدكتور عمر فروخ حين قال: " إن المعري كان أنوفاً, عزيز النفس, صلب الإرادة, لم يحتمل ملاحظة تمسّ به, ولا قبل عطية من أحد, ولا لان فيما اعتقد أنه الحقّ, كاتباع العقل و إباء الخضوع لما يخضع الناس له عادةً "[1].

وهذا إن دلّ على شيء؛ فإنما يدل على أنه كان قوي القلب, لا يخاف لومة لائم, فقد كان حريصاً على أن يكون إنساناً كاملاً طاهراً من أدناس الخداع والرياء والخيانة, ويظل أبو العلاء الإنسان القادر على انتقاد كل ما لا يقبله الخُلق الكامل والعقل السليم بحرية وجرأة غير مبالٍ بما جرّته عليه آراؤه بالنسبة لعصره من مقت ونكبات.

لم يتكسب أبو العلاء في شعره, وأبى الوقوف على أبواب الخلفاء والأمراء, يطلب المال أو يسأل العطاء منهم, وإنْ سأل يسأل ربه, على نحو ما يُفهم من قوله:

**ولَـــمْ يَحْبُنِي أَحَدٌ نعْمةً, ولكن مَوْلى المَوالي حَبَا**[2] (المتقارب)

وإنْ مدح, فالمديح لله وحده لا شريك له, كقوله:

**إذا مَدَحـــوا آدَمــيّاً, مَدَحْـــ ـــتُ مولى الموالي وربَّ الأممْ**[3] (المتقارب)

فالمعري كان عالماً يرفض خصال العلماء من حب الملوك والأمراء, والتزلف إليهم من أجل الكسب أو العطاء[4],لذلك كان منكراً أشد الإنكار لتلك الطبقة الخاضعة المتزلفة من أجل العطاء, محاولاً دائماً نقدها نقداً لاذعاً, هدفه في ذلك تقويم سلوكهم على سُنة الصادقين والمؤمنين والعفيفين, لأنهم يمثلون القدوة الصالحة في المجتمع, فعزة نفسه هي التي دفعته إلى إطلاق أفكاره التي تؤمن بضرورة نقد المجتمع, وإصلاحه إصلاحاً يلائم أنفةَ العربيّ وكبرياءه,

---

([1]) فروخ, عمر: حكيم المعرة, ص25 .

([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 139/1, يحبوني: يعطيني, مولى الموالي: الله تعالى, حَبَا: أعطى.

([3]) نفسه , 491/2 .

([4]) مسعود, ميخائيل: أدباء فلاسفة , ص189 .

وتقويماً يدعو إلى العزة والحياة الكريمة, والتخلق بكريم الصفات, وعدم تسليم النفس إلى شهواتها ونزواتها, والترفع عن مزالق الجهل وعتمته(1).

وفي ذلك يقول القفطي: " وكانت له نفس تشرف على تحمل المنن, فمشى حاله على قدر الموجود "(2).

وقد حارب المعري المظاهر الكاذبة التي يستتر بها المنافقون والدجّالون, وأراد بذلك أن يكون ظاهر الناس هو باطنهم, كما أراد أن تكون الرحمة سلوكاً, والإحساس عملاً, وقد ضاق ذرعاً بمسوح الدين, وطباع الذئاب, فكان أكثر قسوة على الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم(3).

ويمكننا أن نستدل على ذلك ببعض نصوص من "رسالة الغفران", حيث يقول المعري: "وإذا رُجِعَ إلى الحقائق, فَنُطْقُ اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان, لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق, ويحتمل أن يُظهر الرجل بالقول تديناً, وإنما يجعل ذلك تزيناً يريد أن يصل به إلى ثناء, أو غرض من أغراض الخالبة أم الفناء, ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفيما بَطَنَ ملحدون"(4).

كما أن الله وهبه العفاف, والقناعة, والشمم, فحظي عند أعيان الدولة والأمة ما لم ينله كثير من المقربين لهم من العلماء والشعراء, وفي ذلك يقول الأستاذ الجندي: "إن الخلفاء والأمراء وأصحاب الكلمة الناقدة بذلوا له أموالاً جمة فأباها على ضيق ذات يده, وكان غيره من العلماء والشعراء يبذل ماء وجهه في عتبات الأمراء والأثرياء, ويجوب الآفاق ليزيد ثروته الزائدة عن حاجاته(5).

---

(1) الخواجا, زهدي صبري: موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري, ط2, الرياض, دار صبري, 1994م, ص284.

(2) القفطي, أبو الحسن: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص31.

(3) سعفان, كامل: في صحبة أبي العلاء بين التمرد والانتماء, ص141.

(4) المعري, أبو العلاء: رسالة الغفران, ص419 وما بعدها .

(5) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره, 382/1 .

وهذا إن دلّ على شيء؛ فإنما يدل على أن أبا العلاء ظل في عسر ماديّ, لم تقبل نفسه المساعدة من أحد؛ فرفض الأموال والجاه, ولعل خير دليل على ذلك, ما قاله في رسائله حين عودته من بغداد إلى المعرة:" وانصرفتُ وماءُ وجهي في سِقاء سَرِب. ما أرقتُ منه قطرةً في طَلَبِ أدبٍ ولا مال, وقد فارقتُ العشرينَ من العُمْرِ ما حدّثتُ نفسي باجتداءِ علم من عراقيٍ ولا شآمٍ. من يُهدِ اللهُ فهو المهتدي...والذي أقدمني تلك البلادَ مكانُ دارِ الكُتُبِ بِهَا"[1], لأن المال ــ من وجهة نظره ــ مجلبة للأذى والهموم والهلاك, محوّلاً بلباقته اللفظية أسماء الجواهر إلى ألم وأذى[2],على نحو ما نرى في قوله:

**ما فِضّةُ الإنســـانِ إلا فَضّةٌ, والتّبرُ تَتبيرٌ, وجَدُّكَ ظاهرُ**
**والدُّرُّ دَرٌّ للهـــــمومِ,تُسِرُّهُ؛ إنَّ الجَوَاهِرَ,بالأذاةِ, جَواهِرُ[3]** (الكامل)

لأن كثرة المال ــ من وجهة نظره ــ تجلب البطر لصاحبه, وتجرّ له الضرر والأذى, على نحو ما نرى في قوله:

**وكَثْرَةُ المالِ سَاقَتْ للفتى أَشَراً, كالذّيلِ عَثَّرَ, عند المشي, ضافيه[4]** (البسيط)

والصبر عنده أروح من تكلّف الطلب, لأنه يستطيع حمل نفسه عليه, حين يعزّ عليه سبيل الطلب وسائله[5], على نحو ما نرى في قوله:

**والصَّبْرُ أروَحُ من حاجٍ تَكلّفُهُ, تُرْجي له الخَيْلَ والمُهْرِيّةَ القوَدا[6]** (البسيط)

فالأنفة تغلغلت في أعماق طبعه[7], إذ فضَّلَ القليل على الكثير, قانعاً, زاهداً, حيث يقول:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: رسائل أبي العلاء مع شرحها, ص77 وما بعدها, اجتداء: طلب.
([2]) الخولي, أمين: رأي في أبي العلاء, ص31, وكذلك الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره, وآثاره, 1633/3.
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,449/1, الفِضة: المعدن المعروف, الفَضة: من فضَّ الشيء أي كسره, فتفرقت فتفرقت كسره, وفض ما بينهما: قطع وفرق, التتبير: الإهلاك.
([4]) نفسه, 630/2 .
([5]) الخولي, أمين: رأي في أبي العلاء, ص161 .
([6]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 355/1, الحاج: الشوك, وجمع حاجة, وربما كان هذا هو المقصود .
([7]) العقاد, عباس محمود: رجعة أبي العلاء, ص34 .

يقول:

**الحمدُ للهِ قد أصبحتُ في دَعَةٍ, أرضى القَليلَ ولا أهتمُّ بالقوتِ**
**وشَاهدٌ خالقي أنّ الصّلاةَ لهُ, أجَلُّ عِنْديَ من دُرّي و ياقوتي[1]** (البسيط)

فالبيتان السابقان يشيران إلى أن نفس المعري كانت قد ألفت القناعة والعفاف؛ فالصلاة خير له من المجوهرات والياقوت, وتعويد النفس على القلة مجاهدة وثبات, فإن ضاقت الدنيا به لا يشكو ولا يتألم, لأن في الشكوى ذلاً وخضوعاً, على نحو ما نرى في قوله:

**لا تَشكُونّ, ففي الشّكايَةِ ذِلّةٍ؛ ولتُعْرَضَنَّ الخَيْلُ بالمِشْوارِ[2]** (الكامل)

**بالمِشْوارِ[2]**

ولتعففه وقناعته حسبه الناس غنياً, حتى ظنه الرحالة الفارسي ناصر خسرو ثرياً, إذ كان يقول فيه: "كان واسع الثراء, وعنده كثير من العبيد والخدم, وكان أهل البلد خدم له"[3], وفي ذلك ذلك يقول المعري مشيراً إلى جهل الناس فقر حاله:

**مَــنْ لــيَ أنْ أُقــيمَ فــي بلدٍ, أُذْكَرُ فيه بغير ما يجبُ**
**يُظَنُ بي اليُسرُ والديانةُ والعلــ ــمُ,وبيني وبينها حُجُبُ[4]** (الكامل)

وقوله:

**إني أُواري خَلّتي, فأُريهمُ رِيّاً, وفي سرّ الفؤادِ أُوارِ[5]** (الكامل)

متذمراُ من تلك التهمة (بأنه مليء موسر لما سمعوه من سعة علمه وجاهه), فهو لا يستطيع إسعافهم[6],لأنه فقير بائس, وفي ذلك يقول:

**واتّهامي بالمالِ,كلِّفَ أنْ يُطــ ــلَبَ مني ما يَقْتَضي التّمويلُ**

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 226/1 .
([2]) نفسه 73, المشوار: الموضع الذي تعرض به الخيل.
([3]) خسرو, ناصر: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص462.
([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 110/1 .
([5]) نفسه, 461/1, أوار خلّتي: أستر فقري, الري: الارتواء, الأوار: العطش.
([6]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره, 1193/2 .

**وَ يقولُ الغُواةُ: خَــوّلَكَ اللهُ؛ كَذَّبْتُمْ, لغيــريَ التخـــويلُ**[1] (الخفيف)

متحدياً بذلك نفسه, التي كَلّفها ما لا تطيق, حتى صارت ذلولاً طيّعة, على نحو ما نرى في قوله:

**وقَوتيَ الشيءُ, أبَى مثلَهُ فصيحُ هذا الخَلْق, والألكنُ**[2] (السريع)

إنّ نزعة التحدي هي التي دفعته إلى الترفع عن ملذات الحياة وأطايبها وجعلت منه شخصية تريد أن تعلو على ذاتها, وبالتالي على الصغائر التي من حولها.

وقد حدث مرة أن "المستنصر بالله", صاحب مصر علم فقر حال المعري, فبذل له ما ببيت المال بمعرة النعمان من الحلال, فلم يقبل منه شيئاً,و في ذلك كان يقول:

**كــأنما غــانَةُ لي مِــنْ غِنــىً فَعَــدٍّ عن مَعْــدَنِ أُســوانِ**
**سِرتُ بِرَغْمي عن زمانِ الصِّبا يُعْجِلَني وَقــتي وأكْـــواني**[3] (السريع)

ويذكر أن أهل بغداد لم يسمعوا بعزمه على السفر, حتى ارتاعوا له, وألحوا في نهيه عنه, وبذلوا له الأموال, ورغبوه في ألوان النعمة, فأبى ذلك كله[4].

وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على عفته وإبائه, رافضاً المال والجاه, وملذات الحياة وأطايبها التي كان يستمتع بها سابقوه ومعاصروه من العلماء والشعراء, وقد كان منكراً أفعالهم, ناقداً عيوبهم وأمورهم نقداً بليغاً لكل ما لا يقبله خلقه الكريم وعقله السليم بكل جرأة وحرية, غير مبالٍ بما تأتي به آراؤه بالنسبة لعصره من مقت ونكبات, ولم يكن نقده فطرياً طبيعياً, وإنما كان مكتسباً مستمداً من بيئته الفاسدة التي أوحت له بضرورة النقد الهادف لإصلاح المجتمع وتقويم اعوجاجه, وهكذا كان في نقده هذا كارهاً للجور والفساد، مُحباً للخير والمودة والإخاء بين

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 285/2 .

([2]) نفسه, 506/2 .

([3]) نقلاً عن ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص578, لم يرد البيتان في لزومياته وسقط الزند, غانة: بلاد ينبت فيها الذهب نباتاً في الرمل كما ينبت الجزر, وبأسوان أيضاً معادن للذهب.

([4]) حسين, طه :تجديد ذكرى أبي العلاء المعري , ص145 .

الناس.

**ب ــ نشأته الدينية:**

إن من يقرأ نتاج أبي العلاء المعري, شعراً أو نثراً, رسالةً أو حواراً, أو كتاباً, أو شرحاً, أو تعليقاً, يجده وثيق الصلة بنشأته الدينية, وانشغال ذهنه بأمور فقهية وعظية أو اجتماعية إصلاحية وكلها على صلة بالشريعة وتطبيقها, وطرائق فهمها, ومسالك الأخذ بها والاعتراض عليها؛ ولا غرابة في ذلك، إذ نشأ الشاعر في بيت علم وقضاء ورياسة, "فقد تولى جماعة من أهله قضاء المعرة وغيرها, ونبغ منهم قبله وبعده كثيرون؛ رأسوا وساسوا, وكان فيهم العالم والشاعر والكاتب, ولأهل المعرة اعتقاد كبير فيهم, ولواذ بهم, وفزع إليهم في أمورهم"(1).

تلك الأسرة التي اتصفت بالورع والتقوى والصلاح, جعلته ذا أخلاق رفيعة وصاحب أنفة وإباء, كما كان جريئاً في طرح آرائه وأفكاره, وإن أغضب ذلك الآخرين من عامة وخاصة, لا يخشى من إعلان ما يراه حقاً لومة لائم, فالحقّ عنده فوق كل اعتبار"(2).

" ولم يفسق في حياته, ولم يكن يدعو في أدبه إلى فسق؛ لأنه كان عالماً رافضاً خصال العلماء من حب الملوك والأمراء والتزلف إليهم"(3).

وقد "ضبط أبو العلاء نفسه, وقهر شهواته, معتزلاً الناس والحياة؛ فترك الكثير من الحلال خشية الوقوع في الحرام, وابتعد بنفسه عن كثير من الملاذ المباحة زهداً فيها واحتقاراً لشأنها, "ولم يُذكر يوماً أنه لوّث يده أو لسانه باقتراف منكر, ولا دنّس ذيله بارتكاب فسق أو فجور"(4).

عاش أبو العلاء حياة دينية عملية, كان يصلي ويصوم ويتلو القرآن ويسبح الله, وما

---

(1) تيمور, أحمد: أبو العلاء المعري, ص7 .

(2) بكري, عطا : الفكر الديني عند أبي العلاء المعري , ص 55 .

(3) مسعود, ميخائيل: أدباء فلاسفة, ص189 .

(4) ذياب, عبد المجيد: أبو العلاء المعري (الزاهد المُفترى عليه), ص150 .

علمنا أنه تخلى عن ذلك يوماً[1], وتلقى المعري علوم الدين على أبيه الذي " كان عالماً أديباً, يعتقد من الدين لبابه, ويهزأ بقشوره, يؤمن بالله والإسلام,"[2], ذلك الوالد الذي تعهد جسمه وعقله وعقله وخلقه بالتربية والتنشئة, فصاغه على مثاله ما استطاع, وأشربه أخلاقه[3]تاركاً في نفسه حسّاً قوياً وشعوراً صادقاً بضرورة توجيه المجتمع بهدف الإصلاح والتقويم.

وبذلك؛ فقد أخذ أبو العلاء عن أبيه ذلك التسامح في الدين واليسر لا التعصب والتبعية, لأنه كان " يفضل التخلق بالأخلاق الفاضلة التي يقرها العقل السليم, ويؤثره على التدين"[4]؛ وأداء الفرائض الدينية ــ من وجهة نظره ــ يجب أن تحتل ثانياً بعد التأدب بالأخلاق المحمودة من جهة, ولأنه يعتقد أن أحد أغراض الدين الهامة أن يكون هادياً ووازعاً في المجتمع من جهة ثانية, ولهذا فقد أنكر على هؤلاء القوم الذين فهموا الدين بحرفه لا بروحه؛ فلزموا الواجبات الشكلية, وأهملوا أغراضه العملية, داعياً إياهم إلى وجوب العناية بما يرمي الشرع إلى تحقيقه عملياً, قبل التمسك بالصورة الشكلية, وبالصيغة الحرفية[5], وفي ذلك يقول:

**الدينُ هَجْرُ الفتى اللذاتِ عَنْ يُسُرٍ, في صِحّةٍ واقتدارٍ منه ما عَمِرا**[6] (البسيط)

ويقول أيضاً:

**أديــنُ بربٍّ واحــدٍ وتَجَنُّبٍ, قَبيحَ المسَاعي, حين يُظْلَمُ دَائِنُ**[7] (الطويل)

ولعل آراء المعري وأفكاره تلك, سرّعت في عملية اتهامه بالزندقة والإلحاد من قبل حاسديه وجاهليه, لكنه رأى أن:

---

(1) حمادي, محمد الحبيب: المعري وجوانب من لزومياته, ص120 .

(2) مسعود, ميخائيل: أدباء فلاسفة, ص180 .

(3) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء المعري, ص115 .

(4) عبد القادر, حامد: فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره, ص160 .

(5) اليازجي, كمال: أبو العلاء ولزومياته, ص535 وما بعدها .

(6) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 502/1 .

(7) نفسه, 493/2 .

**أخو الدينِ مَنْ عَادَى القبيحَ, وأصبَحَتْ     له حُجــرةٌ من عِفّةٍ, وإزارُ**[1]     (الطويل)

فالعمل ــ من وجهة نظره ــ محك الدين, فمن لا تظهر أثمار دينه في أعماله؛ فلا فائدة من تقواه, ولو لزم جميع الفرائض, وهذا حق لا يختلف عليه اثنان.

ولعل هذا ما دفعه لانتقاد كل ما لا يقبله عقله ووجدانه, غير خائف أو ملتفت إلى قيود محيطه وعقيدته؛ فجاء بما جاء به من انتقاد للمجتمع ولبعض المظاهر الدينية[2], وكان لطبيعة الحياة الفاسدة في زمنه الأثر الأعمق في سوء ظنه من بني البشر عامة؛ لأنهم ــ كما رأى ــ ماضون في متاهات مضنية, ويرتدون ألواناً زاهية, ويجملون أنفسهم في سبيل نفاق آثم! فالذين يتظاهرون بالتقوى, وكثرة العبادة ــ من وجهة نظره ــ هم أكثر خطورة على المجتمع لكثرة من ينخدع بهم, وفي ذلك يقول:

**لعلَّ أُناساً, في المحاريبِ خَوّفوا     بآيٍ,كَناسٍ, في المشارِب, أطْرَبُوا**
**إذا رامَ كَيْداً, بالصــلاةِ,مُقيمُها,     فتاركُها,عمــداً, إلى اللهِ أَقْــرَبُ**[3]     (الطويل)

ليس من المستبعد إذن, أنْ يتولد لديه شعور بالاشمئزاز من الحياة, التي مجّ مذاقها وسخر بها, وكره البشر للأحوال التي كانوا يعانونها من فساد وظلم وجهل, ناقداً إياهم نقداً لاذعاً, لعله يوقظهم من غفوتهم التي طال مداها.

ورجوعاً إلى تلك السلالة التليدة في الفضل والعزة والتقوى, والتي أسهمت في تطور هذا النقد لديه؛ فإنه لم ينسَ فضل أبيه عليه, ذلك الأب الذي يفيض إكباراً وإجلالاً, ويشع نقاوة في ضميره ولسانه ويده, على نحو ما نرى في قوله:

**مضى طاهرَ الجثمانِ والنَّفْسِ والكَرَى     وسُهْدِ المُنَى والجَيْبِ والذيلِ والرُّدْنِ,**
**فيا ليتَ شِعــرِي, هَــلْ يَخــفُّ وقارُهُ     إذا صارَ أُحُــدٌ فــي القيامةِ كالعِهْنِ؟**
**سأبكي إذا غنَّى ابنُ ورقـــاء بَهْجَةً     وإنْ كان ما يَعْنيهِ ضــد الذي أعني**
**وبَعْـــدَكَ لا يهــوى الفــؤادُ مَسَرَّةً     وإنْ خانَ في وَصْلِ السُّرور فلا يَهْنِي**[1]     (الطويل)

---

([1]) نفسه , 427/1, حجرة : ما يحجر الإنسان, يحفظه و يمنعه .

([2]) وهبة, أديب: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص325 .

([3]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 87/1, الكيد: الخداع.

كما أنه لم ينسَ أمه الحنون التي تُوفيت قبل و صوله المعرة عائداً إليها من بغداد؛ ولم ينسَ أيضاً أنه في ذلك اليوم كأنما ارتد لفرط جزعه وحزنه طفلاً رضيعاً فَقَدَ أُمه, ولعل مراثيه فيها ما تزال تشجينا على بعد العهد بها؛ فهي ومضات لهب متقد في فؤاده المتصدع, حيث يقول: " يا سلوةَ الأيام موعِدُكِ الحَشْرُ موعِدٌ واللهِ بعيدٌ "[2], وفي "سقط الزند" رثاها رثاءً حاراً في قصيدة يقول فيها:

**وأمّتني إلى الأجـــداث أمٌّ يَعزُّ عليّ أن سارت أمامي**
**وأُكْبِرُ أن يُرَثّيـــها لساني بلفظٍ سالكٍ طُرُقَ الطّعامِ[3]** (الوافر)

لم يكن حزنه على أمه حزناً عابراً, بل كان حزناً متواصلاً في نفس ألفت الأحزان والآلام.

ومن الملفت للانتباه حقاً "أن طريقة حياته وتصرفاته, واضطراب نفسه, وسلوكه العام, بعد موت أمه أمور كانت أعمق وأبلغ من الحزن الظاهر في قصائده الرثائية؛ فحزنه كان حزناً عملياً, أبعده عن أفراح العالم و معاشرة الناس, ودفعه إلى أبعد حدود التشاؤم والانطواء على الذات "[4]والتوجه إلى نقد عادات الناس السيئة, وتوجيهها إلى طريق الخير والصواب.

وقد كتب إلى خاله أبي القاسم بن سبيكة رسالة يعبر فيها عن لوعته لفقد أمه, يقول فيها: "وحُزْنِي لِفَقْدِهَا كنعيمِ أهلِ الجنّةِ, كلّما نَفِدَ جُدِّدَ,..."[5]وهذا يعني أن موتها فجعه, فسبب له حزناً كلما انتهى تجدد.

فهذان الوالدان العطوفان كان لهما الأثر الأكبر في أخلاق المعري الفاضلة؛ إذ أشرباه أخلاقهما وفضلهما وخيرهما وحنانهما, كما أطلعاه على تلك البيئة العربية الأصيلة التي عرفت بالمروءة والشرف والكرم.

---

([1]) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص103 و106, أحد: اسم جبل, العهن: الصوف المنفوش.
([2]) المعري, أبو العلاء: رسائل أبي العلاء المعري, ص68, يوم الحشر: يوم البعث.
([3]) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص166, أم ,تقدم.
([4]) مسعود, ميخائيل: أدباء فلاسفة, ص186 وما بعدها .
([5]) المعري, أبو العلاء: رسائل أبي العلاء المعري, ص69 .

ومن هذا المنطلق "كان الخمر والزنا والسرقة في درجة واحدة من ناحية التحريم عند المعري, فالخمرة من العادات الشائعة في الجاهلية, كان قد حرمها الإسلام, وأبو العلاء يؤيد الشرع في التحريم لما يتخلف عن السكر من رذائل وفواحش, وأهم آفاتها أنها تخلع القلب من العاطفة الدينية"(1),على نحو ما نرى في قوله:

**جاءَتْكَ لـذّةُ ساعَةٍ, فأخـذْتَها بالعـارِ, لم تَحْفِـلْ سـوادَ العَارِ**
**وعَريتَ بالكأسِ الكُمَيْتِ عن التُّقى, فاعْجَبْ, لجسمِكَ, وهو كاسٍ عارِ**(2) (الكامل)

فالشارب وإن كان كاسي الجسم, يبدو عرياناً من التقى والدين.

كما أنه يؤيد رفض إدخال الوليد على النساء بعد بلوغه سن العاشرة, ويأبى إدخال المرأة إلى الحمام؛ فتلك الأخلاق التي تليق بالمرأة الشريفة في شريعة تلك البيئة الدينية التي نهل منها؛ فالمعري عربيّ الطبيعة, يعرف أن العرض قوام الشرف والعزة, وأن الابتذال هو الهوان نفسه(3), لهذا كان يرفض إذلال المرأة وهوانها عن طريق جعلها سلعة رخيصة تطالها يد الفحش الفحش والمنكر, وإذا ما نظرنا إلى أخلاق المعري وسلوكه العملي, فإننا نجد أن تلك الأخلاق هي" أخلاق مثالية في طابعها, وسلوكه قويم يقترب من المثال أو النموذج الذي ينبغي أن يحتذي به الناس"(4).

وقد رأت الدكتورة بنت الشاطئ في نفور أبي العلاء من الدنيا, وتحريم الزواج على نفسه, وامتناعه عن تناول بعض ما أحلّ الله من طيبات الرزق, وما جهر به من انتقادات لبعض رجال الدين ما استحق أن يطلق عليه لقب " عدو أعداء المجتمع"(5).

ولكن تلك النزعة الدينية التي تحدثنا عنها آنفاً هي نفسها التي زينت له النفور من الحياة الدنيا من جهة, وهي التي أوحت له بذلك الواقع الفاسد الذي يعيشه هؤلاء البشر الذين يعيشون في

---

(1) البستاني, بطرس: موسوعة بطرس البستاني الحضارية (العصر العباسي), 833/5 .
(2) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 580/1 .
(3) خضر, سناء: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين, ص12 .
(4) نفسه, ص16 .
(5) عبد الرحمن, عائشة: جديد في رسالة الغفران, بيروت, دار الكتاب العربي, 1983م, ص41-45 .

الأرض فساداً من جهة ثانية, فما كان منه إلا أن انهال على الواقع بسياط اللوم والتقريع, ليتحول من شاعر يتخيل, إلى ناقد يحلل ويعلل, ومن ثم إلى قائد جبار يقود حملة شرسة مدمرة على النفاق والغرور وسوء الأخلاق التي أضحت صورة ملازمة لمجتمعه آنذاك.

### جـ ــ <u>عدم تكيّفه مع البيئة المحيطة به:</u>

عرَّف النفسانيون التكيف بأنــــه "عملية ديناميكية مستمرة يهدف بها الشخص إلى تغير سلوكه , ليحدث علاقة أكثر توافقاً بينه وبين البيئة"(1).

وبناء على ذلك الفهم؛ فإن الفرد الذي لا يقبل المجتمع بكل ما فيه يعاني سوءاً في تكيفه الاجتماعي, وغالباً ما يكون هذا الفرد عرضة للمواقف الإحباطية التي تشعره بالعجز والفشل, مما يدفعه إلى الانطواء أو العدوان, هذا بالنسبة للفرد العادي, فكيف إذا كان ذلك الفرد كفيفاً؛ فإن البيئة التي يعيش فيها الكفيف تلعب دورها في نمو شعوره بالعجز, وأن عجزه يفرض عليه عالماً محدوداً, فينشأ عن هذا وقوعه في قلق مستمر, يؤدي به إلى أن يحيا حياة نفسية غير سليمة, فيصبح عُرضة للإصابة بالاضطرابات النفسية التي تؤدي به إلى سوء التكيف مع البيئة التي يعيش فيها(2).

فالناس يتصرفون عادة مع ذوي العاهات بأسلوب مغاير للأصحاء, والكثير من الناس يجعلون الشكل من أهم مكونات الحكم على الفرد, وهذا ما حدث مع المعري عند وصوله إلى بغداد, فلم يعطَ حظه من التقدير بسبب دمامة وجهه التي أضحت مدعاة إلى احتقاره.

تعرض أبو العلاء المعري بسبب آفة العمى إلى عدد من المواقف المحرجة, ومن ذلك ما تعرض له من امتهان وإذلال في مجلس الشريفين (الرضي والمرتضى), والسبب في ذلك أن المرتضى انتقد المتنبي وذمه, فتصدى له المعري بقوله: لو لم يكن للمتنبي في الشعر إلا قوله لك يا منازل في القلوب منازل, لكفاه فضلاً وشرفاً, فأدرك المرتضى ما يرمي إليه المعري بهذا

---

(1) فهمي, مصطفى: مجالات علم النفس, ص42 .

(2) خير الله, سيد: وصاحبه: سيكولوجية الطفل الكفيف وتربيته, ص31 وما بعدها .

الاستشهاد وطرده من المجلس مسحوباً من رجله كما يُقال, ثم توجه إلى المرتضى قائلاً: إن الأعمى اختار هذه القصيدة دون سواها, لأن المتنبي قال فيها(1):

**وإذا أتتكَ مَذَمّتــي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأنّي كاملُ**(2) (الكامل)

ومن ذلك أيضاً, أَنه دخل منزلاً للتعزية , وعندما حاول أن يتقدم في المجلس, صرخ فيه أحدهم, إلى أين يا كلب؟ فأجابه المعري: " الكلب مَنْ لا يعرف للكلب سبعين اسماً "(3).

ولعل تلك المواقف وغيرها, أظهرت للمعري بشكل لا يدع مجالاً للشك أن شخصيته بمظهرها غير مقبولة من الناس, فانقدح ذلك في نفسه, مولّداً لديه شعوراً بالنقص والاضطهاد, قرر على إثره اعتزال الناس, "غاضباً على المستطيعين, لأنه غير مستطيع مثلهم"(4),وغاضباً على الدنيا لأنها لم تحسن استقباله, فخلع الثقة من البشر قريبهم وبعيدهم, لتقززهم وازدرائهم له, فكان " لا يأكل إلا في مغارة وحده منفرداً"(5),وكان يقول: " العمى عورة و الواجب استتارها في في كل الأحوال"(6), إذ يشق عليه أن يساعده الآخرون في توجيه يديه إلى الأوعية إذا ما أخطأ؛ أخطأ؛ فيشعر بالنقص والعجز أمامهم, وما أصعب هذا الشعور, وما أقساه على نفسية مثل نفسية أبي العلاء, لذلك كان "شديد الحذر من الناس, ساخطاً عليهم بقدر غير قليل لسوء أخلاقهم وفساد طبعهم"(7), وفي ذلك يقول:

**أمّا الأنامُ, فقــد صاحبتُهُمْ زَمَنَاَ. فما رضيتُ, من الخِلاّنِ, مَصْحُوبا**(8) (البسيط)

وقوله:

---

(1) نقلاً عن الحنبلي, ابن عماد: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص349, وكذلك ص267 وص287.

(2) المتنبي, أبو الطيب: ديوان المتنبي, بيروت, دار الجيل, ص180.

(3) نقلاً عن الصفدي: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص266.

(4) عبود, مارون: أبو العلاء المعري زوبعة الدهور, ص291 .

(5) ابن حجر: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص312.

(6) نقلاً عن القفطي: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص36.

(7) حسين, طه : تجديد ذكرى أبي العلاء المعري , ص 170.

(8) المعري, أبو العلاء :لزوم ما لا يلزم, 125/1.

**فاحْذَرْ من الإنسِ,أدناهُمْ وأبعدهُمْ,      وإنْ لقوكَ بتبجيلٍ و تَرْحابِ[1]**      (البسيط)

ويدل البيتان السابقان على أن أبا العلاء كان قد درس أحوال الناس عن كثب, فخلص أثناء دراسته لهم إلى نتيجة مفادها: أن الناس في طبيعتهم متشابهون, لأنهم ممزوجون من طينة شريرة يكنون لك الكره والحسد, وإنْ أبدوا لك الترحاب والتبجيل.

إن سخط أبي العلاء ونقده كان مصدرهما الرحمة للناس والحدب عليهم, فما "كان أبو العلاء في تقريعه إياهم إلا مؤثراً لهم بالنصيحة"[2].

صحيح أن أبا العلاء استقصى عيوب الناس المشتركة بينهم, وتعمق نفوسهم, فأظهر دخائلها في لهجة عنيفة قاسية, إلا أنه تجنب الإقذاع وإذاعة الفحش, لأنه ــ كما أسلفنا ــ " لا يريد بهجائه إساءة ولا انتقاماً ولا تشهيراً, وإنما هو صاحب أخلاق يريد التهذيب والإصلاح"[3].

ولا شك في أن أبا العلاء بنقده وسخطه على الدنيا والناس من حوله, أثار في نفس بعض الأدباء ضرباً من الشفقة على حاله؛ حيث يقول الدكتور شوقي ضيف: " لو أنه أخذ نفسه بالرضا والتسليم, فاقتنع بحظه وحظ الناس من حوله, وما في دنيانا من نصب وعذاب لاستراح وآوى إلى ظل ظليل, ولكنه لم يرضَ ولم يسلم ولم يقتنع, فسعر نفسه وأودى بها في هذا الجحيم المظلم من الإحساس بالشقاء والتعاسة, وما ينطوي فيهما من تشاؤم شديد, وظلّ في هذا الجحيم يصارع الناس ويصارع الحياة حتى صرعته"[4].

ولكننا لا ندري كيف يأخذ الإنسان نفسه بالتسليم والرضا, فيتجنب الشقاء كما تمنى الدكتور شوقي ضيف من المعري, فمبلغ علمنا أن التكوين الفكري والنفسي عند الإنسان لا يكون بقرار إرادي, وإنما هو على العكس يتم بظروف خارجة عن إرادة الإنسان.

---

(1) المعري, أبو العلاء :لزوم ما لا يلزم , 157/1 .

(2) حسين, طه : تجديد ذكرى أبي العلاء المعري , ص170 .

(3) حسين, طه: مع أبي العلاء في سجنه , ص152 .

(4) ضيف, شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي , ص385 .

ومن الجدير بالذكر أن المعري شعر إثر ذلك بالكمال الأخلاقي وبأنه غريب عن مجتمعه بكل ما يحمله هذا المجتمع من رذائل وأخلاق فاسدة لا تتفق وأخلاقه[1].

إنه "يحسّ بأنه شخصية غير مرغوب بها لأنه وإن جالس المبصرين, فهو أعزل وإن بزّهم بأدبه وعلمه, وفاقهم في ذكائه وفطنته؛ فقد يتندرون عليه بإشارات الأيدي, وغمز الألحاظ, وهزّ الرؤوس, وهو عن كل ذلك غافل محجوب, وليس له من ذلك إلا ألم يكتمه وحزن يخفيه, وأنّ ما يلقاه من رأفة الناس به, ورحمتهم له وعطفهم عليه, إنما يذكّي الألم في صدره, ويضاعف الحزن في قلبه"[2], فالعلاقة المتوترة بين الشاعر الكفيف وبيئته كانت سبباً كبيراً في اختياره السخرية كوسيلة للدفاع, فيجد الاستخفاف بالمجتمع الذي يحاصره أسلوباً ناجعاً في مواجهة خصم يريد سحقه, وقد نجح الشاعر الكفيف في استخدام هذا السلاح إلى حد كبير, فوفر له قدراً من الأمن والحماية[3].

عبر المعري عن شعوره هذا تعبيراً عنيفاً؛ فانتقد فساد عصره أعنف نقد, وصور شقاء الإنسان أمرّ تصوير[4], لأنه وجد في نفسه ذلك الرجل القوي المبدع الذي لا مثيل له في كل المجتمعات, فأحب الوحدة لأنه لا يشبههم في كل شيء, وهذا ما كان من شأن الفيلسوف "زرادشت" الذي تحدث عن حشرات المجتمع, فقال: "إن الأحداث العظيمة لا تنشأ إلا بعيداً عن ميدان الجماهير, وبمنأى عن الأمجاد الزائفة, فإن أولئك الذين ابتدعوا القيم الجديدة, قد اختاروا لأنفسهم مكاناً قصياً, فعاشوا بمعزل عن العامة, وظلوا بمنأى عن أمجاد الناس, إذن فليهرع الرجل الممتاز إلى الوحدة, وليتفرد بنفسه كالدوحة الحبيبة إليه تشرف على البحر في سكون, وتصغي في صمت"[5].

ومما لا شك فيه أن أبا العلاء صاحب حس مرهف, أحس من خلاله بعجزه, وعدم قدرته

---

(1) خضر, سناء: النظرية الخلقية عند أبي العلاء بين الفلسفة والدين, ص100 .

(2) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء المعري, ص 112 وما بعدها .

(3) حسين, طه: حديث الأربعاء, ط12, القاهرة, دار المعارف, 1977م, 190/2 .

(4) قمير, يوحنا: أبو العلاء المعري في لزومياته, ط3 (نسخة مصورة), ص37 .

(5) إبراهيم, زكريا: مشكلة الإنسان, ص114 .

على ملاءمة مجتمعه الذي نظر إليه نظرة عداء وازدراء من غير إساءة له, فجلب عليه العذاب والشقاء و تنكر له زملاؤه بعد إقبالهم عليه, فبخسوه حقه وقللوا من علمه ومقامه, فتولدت فيه الكراهية للحياة, والنفور من المجتمع(1).

ذكر بعضهم أنه "لمّا ورد أبو العلاء إلى بغداد قصد أبا الحسن عليّ بن عيسى الرَّبَعي, ليقرأ عليه, فلما دخل إليه قال عليّ بن عيسى: "ليصعد الإسطبل"(2) وهو الأعمى بلغة أهل الشام, ولعل وقع لفظة الإسطبل على سمع أبي العلاء كانت ثقيلة جداً, وخاصة لما عُرف عنه برهافة حسه و رقة قلبه؛ فانصرف أبو العلاء , وفي قلبه أثر السهم الجارح.

وهذا يعني أن أبا العلاء خلق حساساً جداً, "حتى إنه يحس الدنيا بأعصاب عارية لا يسترها لحم ولا يقيها جلد ؛ فهي أبداً مكشوفة معرضة للمؤثرات مباشرة"(3), ولهذا كان خجولاً من أن يُرى منه ما يُعاب, حريصاً على اجتناب كل ما يعرضه للمهانة أو السخرية.

كما كانت غريزة أبي العلاء المعري سبباً رئيساً في عدم تكيفه مع تلك البيئة الاجتماعية التي عاصرها, وخاصة أن تلك الغريزة كانت قد تغلبت على طبيعته الإنسانية والاجتماعية, وأبت إلا أن تتفرد من هذه الجماعة وتشذ على ما ألفت من نظام(4).

ويتضح ذلك بكل جلاء ووضوح في شخصيته, حين قال عن نفسه أنه وحشي الغريزة ,أنسي الولادة من جهة, وعندما قال لتلميذه التميمي عندما جاءه طالباً منه المجيء معه إلى والي مصر من جهة ثانية: " رغبتني منه يا إسماعيل التميمي, وزيَّنتَ لي لقاءَه لو أنني لم أكن في قيدين, وقيدٌ واحدٌ منهما كافٍ, العمى والطبع, والعمى يا تميمي مصيبةٌ, إذا رافقه طبعٌ سوداويٌّ كطبعي, فما أنا أولُ أعمى, ولكني أوّلُ رجلٌ من العميان في هذه الغريزة ,آنفُ أن أقادَ كالكبش, ولا أغتفرُ لنفسي ذلة أو تقصيراً"(5).

---

(1) اليازجي, كمال وصاحبه: أعلام الفلسفة العربية, ص169 .
(2) الحموي, ياقوت: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري, ص75.
(3) المازني, إبراهيم عبد القادر: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص157 .
(4) حسين, طه: مع أبي العلاء في سجنه, ص62 .
(5) نقلاً عن ابن خلكان, أبو العباس: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, 1/127-128.

وبهذا فالمعري يأبى أن يجري وراء أبناء مجتمعه, ويؤثر مفارقتهم, فما كان له إلا أن يشتري نفسه منهم بالعزلة, لأنه كان سيء الظن بهم, قليل الاحترام لهم, ولذلك كان شديد الريبة بهم, عظيم الحذر منهم, " بعد أن أحس نفسه بأنه شقيّ في هذا الوسط الاجتماعي الذي قسا عليه كل القسوة, بينما هو ضعيف غير قادر على دفع أذاهم عنه"[1],لذلك سارع إلى سبق الناس إلى ذم نفسه,لئلا يدع لهم ما يقولون فيه أو يعيبونه, وذلك عن طريق اتباع العدل والإنصاف, لأن الإنصاف سبيل النجاة والأمن لمن كان يفطن فطنته إلى مواطن ضعفه وقصوره ويحس بها إحساسه[2], ففي هجاء نفسه, كان يقول:

**دُعيتُ أبا العلاءِ,وذَاكَ مَيْنٌ,      ولكنّ الصّحيحَ أبو النُّزولِ**[3]      (الوافر)

وهكذا ظلت نفسه تواقة لأماني عظيمة, صرح بها في مطلع حياته, حاول جاهداً تحقيقها, فعجز, وحالت تصرفات الناس دون تحقيق تلك الآمال, فحقد على البشر الذين لم يهيئوا له فرص تحقيق الآمال, ونقدهم نقداً لاذعاً, رأى فيه الأستاذ يوحنا قمير بأنه "نقد يحوي مواطن ضعف؛ ففيه تضخيم لكل ما خبر ورأى, وتعميم ضخم على كل إنسان, في كل زمان ومكان"[4].

وفي ذلك يؤكد الأستاذ إدوارد البستاني, قائلاً: " وليس في آرائه الاجتماعية نظام لرؤية المجتمع في تطوره, ولا مذهب أخلاقي معين؛ بل فيها تأمل في عصر معين, وبيئة معينة وفيها إلى ذلك, أحكام يطلقها ويعممها, ودعوة يوجهها إلى الناس[5].

ومهما يكن هذا النقد مضخماً أو معمماً, مقنعاً أو غير ذلك, إلا أنه يبقى رسالة تطلعنا من خلالها على فكر المعري و خبرته لما رآه في مجتمع شح فيه الخلق والخير والعطاء.

ولعل البواعث السابقة الذكر كانت من أهم البواعث الذاتية التي انفردت بها الباحثة في

(1) سلامة, يسري: النقد الاجتماعي في أثار أبي العلاء المعري, ص170.
(2) المازني, إبراهيم عبد القادر: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص157.
(3) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 348/2 .
(4) قمير, يوحنا: أبو العلاء المعري في لزومياته, ص37 .
(5) البستاني, إدوارد أمين: أبو العلاء المعري متأمل في الظلمات, ص66 .

دراستها, ولكنها رأت لضرورة استكمال الدراسة, بشكلها اللائق والمفيد, الكشف عن أهم ما جاء به بعض الدارسين في هذا المجال, فرأت أن الدكتور زكي المحاسني كان قد عزا نقد المعري إلى عماه أولاً, ثم إلى إخفاقه في تحقيق آماله من رحلة بغداد, وموت والدته الرحيمة[1].

وأما الدكتور يسري سلامة؛ فقد تحدث مفصلاً عن بواعث ذاتية كان لها الأثر الأكبر في

إيقاظ قلب المعري وفكره لمثل ذلك النقد الإصلاحي, فكان من بين تلك البواعث؛ كارثة العمى[2]وحساسيته المفرطة[3], ورحلته إلى بغداد[4],إضافة إلى عزلته الجسدية[5].

---

([1]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص13-16.

([2]) سلامة, يسري: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري, ص153-163.

([3]) نفسه, ص163-171.

([4]) نفسه, ص171-180.

([5]) نفسه, 180-188.

## المبحث الثـــــاني: بواعث خارجـــــــية, ويشتمل على:

أ ــ اضطراب الحياة السياسية في عصره.

ب ــ تدهور الحياة الاقتصادية في عصره.

ج ــ سوء الحياة الاجتماعية في عصره.

د ــ ضعف الوازع الديني في عصره.

أما البواعث الخارجية فيظهرها:

## أ ـ اضطراب الحياة السياسية في عصر المعري:

شهد المعري عصراً سياسياً مضطرباً, مَزَّقَهُ الصراع والفتن, وانقسمت دولته الكبرى إمارات و دويلات متقاتلة متنازعة, يترصدها عدو مشترك للجميع على حدود الشام من الروم البيزنطيين, مما شهد انهيار الدولة العباسية, وربما يكون أوضح بداية للانهيار؛ مقتل المتوكل سنة (247هـ) حيث أصبح المُلك و النفوذ للأتراك(1).

وفي هذا يقول ابن الطقطقي: "استولى الأتراك على المملكة منذ مقتل المتوكل استضعفوا الخلفاء؛ فكان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاؤوا أبقوه, وإن شاؤوا قتلوه"(2).

أكد على ذلك القول؛ الدكتور محمد نبيه حجاب مبيناً ذلك في قوله: " أخذ نفوذ الأتراك يتزايد يوماً بعد يوم حتى استبدّوا بأمور الدولة, وطغى سلطانهم على سلطان الخليفة, فقد كان الخليفة بمعزل عن النصير, أسيراً في قصره, وإذا حاول الإبقاء على شيء من جلال الملك وهيبته تآمروا عليه وقتلوه على مرأى ومسمع من أهل بيته وذويه, أما الدولة فقد اعتراها الكساد والفساد, وهجر العلماء والأدباء بغداد إلى أقاليم أخرى, حيث الأمن والسلامة, وحيث الإجلال والتقدير"(3).

لم يكن هؤلاء بأصحاب ثقافة وحضارة ــ كما يقول الطبري ــ: " ولم يكن لهم معرفة بإدارة وسياسة, بل كانوا عجماً جفاة, يركبون الدواب, فيركضون في طرق ببغداد وشوارعها, فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبية"(4).

ومن ذلك الحين بدأ عصر الضعف والانقسام, إذ استلزم هذا الانقسام أشياء منها تزعزع

---

(1) عبيد العلي, عدنان: المعري في فكره وسخريته, ص19 .

(2) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية, القاهرة, مط محمد علي صبيح وأولاده, 1962م , ص181.

(3) حجاب, محمد نبيه: معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول (عصر الدولة الموحدة) ,ط1, القاهرة, دار المعارف, 1973م, ص10.

(4) الطبري : تاريخ الأمم والملوك, القاهرة, مط الحسنية, 311/10 .

القوة وانتشارها, وعجز الخليفة في بغداد عن حماية الحدود والثغــور, ومنها حرص هذه الدول على القوة وانبساط السلطان واستمتاعه, مما نتج عن ذلك ظهور إغارات تنتقص بها كل دولة أطراف جاراتها, وبروز ضروب متعددة من الظلم في جباية الأموال لتعبئة الجيوش, وإتراف الملوك والأمراء للجري وراء لذّاتهم[1].

وقد ساعد في إضعاف الأتراك وانحطاط الخلافة انشغال أمرائها وخلفائها باللهو والمجون, إذ تحكمت النساء اللامباليات المستهترات في شؤون الخلافة وبزمام أمورها, "فالخليفة المستكفي مثلاً كان أسيراً لامرأة فارسية سيئة الخلق تدعى حُسْن"[2].

ولم يكتف الدارسون بهذا؛ بل حدثوا عن مدى الهيمنة التي كانت للمرأة في تلك الحقبة ــ أيام حكم العباسيين على مقاليد الأمور ــ وهذا الأستاذ "آدم متز" يذكر أخباراً عن أم المقتدر, فيقول: "...وهي أم ولد رومية, قبضت على زمام الأمور هي وأولياؤها بيد القوة والحزم, فكانت تولي وتعزل"[3], فأدت سياستهم الفاشلة إلى غروب شمس الخلافة رويداً رويداً, حتى أصبح الخليفة لا يستطيع الحفاظ على مظاهر السيادة الصورية " إذ تقلصت حدود حكم الخلفاء منذ العقد الرابع من القرن الرابع[4],وقد سقطت هيبة الخلافة مع دخول البويهيين بغداد عام (334هـ) زمن الخليفة المستكفي, إذ أصبح العامة ينهبون قصرها بعد موت الخليفة, فأصبح البويهي هو الحاكم الحقيقي[5].

لم يكتف البويهيون بتجريد الخليفة من سلطته السياسية فحسب, بل راحوا يخلعون خليفة ويضعون آخر, إذ لم تمضِ فترة قصيرة على دخول معز الدولة بغداد حتى دخل على المستكفي ومعه رجلان سحبا الخليفة, وطرحاه أرضاً, ووضعا عمامته في عنقه, وسحباه ثم ساقاه ما شياً

---

([1]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء المعري, ص47 .

([2]) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية, القاهرة, دار إحياء الكتب العربية, 1930م, ص506.

([3]) متز, آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري, ط4, ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة , بيروت , دار الكتاب العربي , 1967م , 34/1 .

([4]) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية, ط2, ترجمة حمزة طاهر, القاهرة, دار المعارف, ص53 .

([5]) ابن الأثير: الكامل في التاريخ, بيروت , دار صادر, 1966م, 55/9 وما بعدها .

إلى دار المعز, وأقيم المطيع مكانه[1], وبهذا بَسَطَ البويهيون نفوذهم على العراق, والجزيرة, وغرب فارس نحو قرن من الزمن, ولم يأمنْ الخليفة العباسي على نفوذه الروحي, فكان هذا النفوذ موضع نزاع ومنافسة[2]؛و ظل النزاع والصراع على الزعامة الروحية قائماً بين البويهيين البويهيين والفاطميين[3].

عاصر أبو العلاء المعري عدة دويلات ارتبطت صورياً بالخلافة العباسية و هي:

دولة بني سامان (261–389هـ): "وتنسب هذه الدولة إلى سامان الذي أسلم إبان الفترة التي كان فيها هشام بن عبد الملك خليفة للمسلمين, ولأنه ساهم بدور فعال في الدعوة للثورة العباسـية بوقوفه بجوار أبي مسلم الخراسـاني, فقد أخـذ مكانة تليق بدوره ذلك لـدى الخلفاء العباسيين و رثها بعده أبناؤه"[4].

لقد توالى ابناء تلك الأسرة حكم تلك المنطقة, فكان آخرهم أحمد بن إسماعيل, إذ قُتل, وأخذ الضعف والوهن يدب في أوصالها حتى جاء آل سبكتكين الأتراك فأنزلوهم عن مكانتهم, وحلوا محلهم في السيادة[5], حيث "عُرفت هذه الدولة باسم "الغزنوية" ومقرها في الهند وأفغانستان وبلغ حكمها ثلاثين عاماً من (351–381هـ)"[6].

واشتهر من أبناء سبكتكين ابنه محمود (387–421هـ) حيث وطّد ملكه ووسعه, فوسع فتوحه في الهند إلى ما وراء كشمير وبنجاب, واستولى من ناحية أخرى على بخارى وما وراء النهر, وأخذ إقليم الريّ وأصفهان من البويهيين إلى العراق[7],ورأى الدكتور شوقي ضيف "أن محموداً هو الفاتح الحقيقي للهند, وأنه استطاع بفتوحاته تلك أن يقوي الدين الإسلامي في هذه

---

(1)ابن الأثير: الكامل في التاريخ , 450/8 وما بعدها .

(2) نفسه, 223/9 .

(3) نفسه, 100/9 .

(4) زيدان, عبد القادر: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري, ص43 وما بعدها .

(5) أمين, أحمد: ظهر الإسلام, ط3 , القاهرة , مكتبة النهضة المصرية, 1964م, 259/1.

(6) زيدان, جورجي: تاريخ آداب اللغة العربية, الفجالة, مط الهلال, 1912م, 222/2 .

(7) أمين, أحمد: ظهر الإسلام, 277/1 .

لبلاد"[1], ثم جاء من بعده ابنه مسعود الذي تغلب على أخيه محمد الذي كان له العهد من أبيه, وحكم البلاد من بعد أبيه[2].

يبدو أن المعري كان قد سمع بأصحاب هذه الدولة, وعلى رأسهم محمود وابنه مسعود, فهذان الخليفتان كانا معاصرين لأبي العلاء, فكان يقول:

**محمودُنا اللهُ و المسعودُ خائفُهُ فَعَدِّ عن ذِكرِ محمُودٍ ومسعودِ**
**مَلْكانِ لو أنني خُيِّرْتُ مُلكَــهُما, وعُودَ صلْبٍ أشارَ العقْلُ بالعودِ**
**القبرُ لا رَيْبَ منزولٌ ,فما أرَبي إلى ارتقاءِ رفيعِ السَّمْكِ مصعُودِ[3]** (البسيط)

لم يكن الشام إلا كغيره من الفساد في الأوضاع, من جراء التهديد الرومي الدائم على حدوده, إذ تعرضت لهجمات الروم, وتم تخريبها الذي طال البشر والعمران[4], ولطالما تحدث أبو العلاء عن الشام مظهراً في ألفاظه و دلالاتها طعم المرارة والألم الذي يحفر داخل الإنسان عندما يفتقد في وطنه ما يأمله من أمن وسكينة أو حتى استقرار, وعلى هذه الأرض, قامت الدولة الحمدانية, التي حققت صدارة ورئاسة؛ ففتح سادتها الثغور, وظفروا في المعارك بنصر إثر نصر, ولكن دولتهم لم تلبث أن أصبحت مظهراً من مظاهر الضعف السياسي العنيف, وقد أدرك الخليفة العباسي "المتقي" بعد فوات الأوان ما أحدثه غياب العنصر العربي, وغلبة العناصر الأجنبية على مقدرات الحكم, وانعدام السيطرة الفعلية للخليفة العباسي, ولعله حلم بالقضاء على النفوذ التركي, وإحلال العنصر العربي مكانه[5].

تتحدث الدراسات عن مساعدة الأتراك الخليفة على سيف الدولة الحمداني, لاستعادة بغداد من أيديهم[6],ولكن هذا الحلم لم يكتب له التحقيق, فضلاً عن استحالة البقاء على سيف

---

([1]) ضيف, شوق : عصر الدول والإمارات, القاهرة, دار المعارف, ص490 .
([2]) حسن,حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام , ط8 , القاهرة , النهضة العربية , 1973م ,96/3 .
([3]) المعري , أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم و 381/1 , المراد محمود بن سبكتكين الغزنوي وولده مسعود .
([4]) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب , تحقيق سامي الدهان , بيروت ,مط الكاثوليكية , 1951م , 158/1 .
([5]) زيدان , عبد القادر : قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري , ص130.
([6]) حسن, حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام, ص130.

الدولة في بغداد, بعد استيلاء "توزون" التركي عليها(1).

يصور أبو العلاء في آثاره فساد عصره السياسي؛ ففي جحيم غفرانه مثلاً, يقف الملوك والجبابرة موقفاً مرعباً في محشره المعد لهم, فيقول: "كأنك لم تشهد أهوالَ الحسابِ ومُنادي الحَشْر يقول: أين فلان بـــن فلان؟ والشُوسُ الجبابرةُ من الملوكِ تجذُبُهم الزَّبانيةُ إلى الجحيم, والنسوة ذواتُ التيجان يُصرَرْنَ بألسنةٍ من الوقود, فتأخذُ في فُرُوعِهن وأجسادِهنَّ, فَيَصِحْنَ: هَلْ من فِداءٍ؟ وهَلْ من عُذرٍ يُقام؟ والشبابُ من أولاد الأكاسرة يتضاغون في سلاسلِ النّارِ, ويقولونَ: نحنُ أصحابُ الكنوزِ, نحنُ أربابُ الفانيةِ... فلا فاديَ ولا مُعين ! فَهَتَفَ داعٍ من قِبَلِ العرش: (أَوَلَمْ نُعمّرْكُمْ ما يتذكَّرُ فيه مَنْ تذكّرَ وجاءكُم النذيرُ, فَذوقوا فَمَا للظّالمينَ من نَصير)"(2).

إنّ هذا التردي السياسي رافقه تردٍ في الأوضاع الأمنية في الدولة, حيث "أبيح فيها إراقة دماء الأبرياء, وهتك أعراض المخدرات, وسلب أموال الضعفاء, فمنهم من كان يَسُرّه رؤية النار تلتهم الناس والمنازل والأثاث والمعاهد والحوانيت"(3), وغلب السوء على الخلفاء والملوك والأمراء والرؤساء, فاستبدوا بالأمر دونهم, وأكثروا من الظلم والعدوان, حتى كان منهم من يُعمل السيف في الناس, فيقتل الألوف الكثيرة, إرضاء لنزعة الشر في نفسه, فإذا رفع له رافع المصحف, وقال له: اتقِّ الله وارفع السيف عن هؤلاء الذين لا ذنب لهم ولا جناية يستحقون بها ما نزل بهم, كان جزاؤه أن يأخذ منه المصحف فيضرب به وجهه, ثم يؤمر به فيذبح, وقد بلغ الظلم ببعض هؤلاء الأمراء, أنه كان يحط السروج عن الدواب, ويجعلها على ظهور الناس, يُقادون كما تُقاد البهائم(4).

إن عناية المعري بالحياة السياسية, "لم تجلب له إلا الحزن والأسى, وإلا الحسرة والأسف, وإلا السخط والمقت"(5)بسبب الشر والظلم الذي يحيق بقومه, فثار عليه وعلى الظالمين,

(1) زيدان, عبد القادر: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري , ص33.
(2) المعري, أبو العلاء: رسالة الغفران, ص 247 وما بعدها, الشوس: الشديد, يُصرن: يمالون, يتضاغون: يتصايحون
(3) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري , 3/1644-1645 .
(4) النكدي, عارف: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص125 .
(5) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص65 .

الظالمين, على نحو ما نرى في قوله:

**وما سرّني أني أَصَبْتُ مَعَاشِراً بظلمٍ, وأني في النعيم مُخَلَّدُ**[1] (الطويل)

**ب ــ <u>تدهور الحياة الاقتصادية في عصره:</u>**

فرغ الناس من البرهان على أن استقامة الحال الاقتصادية في بلد من البلدان, موقوفة على العدل والسّلم والأمن, والأمة العربية أيام أبي العلاء كانت قد حُرمت من العدل, لأن دولاً تقضي حياتها في الحروب, لم تستطع أن تقيم الحق أو تبطل الباطل, كما وأنها حُرمت من السلم بما جرى على أرضها من غارات للروم والفرنج, ومن ضعف حاضرة الخلافة, وحُرمت أيضاً من الأمن, لضعف حكوماتها باشتغالها في ردّ الغارات وقمع الفتن, وانشغالها بلهوها ومجونها؛ على حساب الطبقة المعدمة التي أسهب كثير من الدارسين في تفصيل أحوالها, وما لحقها من مجاعات, ففيها يقول الدكتور حسن إبراهيم: "...فعدمت الأقوات, وغلبت الأسعار, وانتشرت جرائم القتل, حتى بيع كر الحنطة بعشرين ألف درهم, وأكل الناس بعضهم بعضاً, إذ وُجدت امرأة في ذلك العصر تشوي صبياناً وتبيع ما تشويه"[2].

ويقول الدكتور طه حسين في المجال نفسه: " واضطر الناس في تلك الفترة إلى أكل الكلاب والميتات, وإلى أن يتخذ بعضهم بعضاً طعاماً, والى أن يضعوا في الدروب والحارات الشباك والأشراك يتصيدون بها الأطفال والضعفاء , ليجعلوا منها شواءً يأكلونه"[3].

إن تردي الأحوال الاقتصادية إلى الدرك الأسفل, دفع أبا العلاء إلى العناية بقضية الفقر والغنى رغم أنه لم يكن غنياً ولا ذا ثروة, فكان يقول لتلامذته الذين قصدوه من أقاصي البلاد, وكأنه يعتذر إليهم عن عدم البذل والإحسان:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 309/1 .

([2]) حسن, إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام, 63/3 .

([3]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء المعري, ص67 .

**ما كُنْتُ ذا يُسْرٍ فأجْمَعَهُ ولا ذا صِحّةٍ, فأحالفَ التغليسا**[1] (الكامل)

وليس مستبعداً حاله الفقيرة, "فهو لم يرث من أبيه أو جده مالاً؛ فقد كانا قاضيين موصوفين بالوقار والاستقامة وحسن السمعة والسيرة, ومن وُصف بذلك من القضاة , كان من الطبيعي أن يكون بعيداً عن احتجان المال وتناول الرِّيش"[2].

كان أبو العلاء على ثقة بأن المال والثراء يزيدان المرء فقراً وحاجة, على نحو ما نرى في قوله:

**إذا زادكَ المالُ افتقاراً وحاجةً إلى جامعِيْهِ, فالثراءُ هو الفَقْرُ**
**ألم تــرَ أنَّ المَلْكَ لَيْسَ بــدائمٍ على مُلكِهِ, إلاّ وعســكرُهُ وِقْر؟**[3] (الطويل)

**جـ ــ <u>سوء الحياة الاجتماعية في عصره:</u>**

أثر فساد الحياة السياسية, واختلال النظام الاقتصادي, وضعف الأثر الديني في النفوس على الحياة الاجتماعية؛ فالحياة الصالحة ليست إلا مزيجاً يأتلف من سلسة مستقيمة, وعدالة شاملة, ونظام اقتصادي معتدل, ولكن كل هذه الخصال كانت مفقودة[4].

ومن مظاهر فساد الحياة التي ساعدت على تفكك المجتمع وتمزيق أوصاله, تولي الأعاجم والغرباء زمام أمور الدولة, وقيام أغلبهم بإفساد الحياة العربية الإسلامية تلبية لأطماعهم الشخصية, وأهوائهم الرخيصة, إضافة إلى كثرة الجواري ذات الجنسيات المتعددة ولما لهنَّ من أثر مدمر في تنشئة أولادهنّ فتتباين ميولهم وتنحرف وفقاً لتباين تربية أمهاتهم, كذلك تعدد الزوجات وظلم الحكم, كان له الأثر الأعظم في تفكك المجتمع لما يجره الأول من انقسام بين الأخوة والأخوات, ويتبعه الثاني من شيوع الخنوع والخوف والنفاق[5], وقد أدى ذلك إلى اندثار اندثار الأخلاق والمثل السامية, وركب الناس الجوع, فانتشرت الفوضى رغم التكالب على

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 37/2 .
([2]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع , ص70 وما بعدها .
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 418/1, العسكر الوقر: العسكر الثقيل السير لكثرة عدده .
([4]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص72 .
([5]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره, 131/1 .

المطامع والنزوات[1], وانتشرت ظاهرة الغزل بالغلمان والتعلق بهم, أو إظهار التوجع من هواهم, "حتى عُرف عن ذوق ذلك العصر أن يكون الغلام الذي يُستهتر به أغنّ الصوت, غناجاً, ألثغ السّين، من مثل.

**وشادنٍ قلتُ له ما اسمكا فقالَ لي بالغــنج عَبّاثُ**
**فَصِرْتُ من لثــغتِهِ ألثغا فقلتُ: أين الكاثُ والطاثُ**[2] (السريع)

"وقد روى ابن اسحق الصابي أنه كان لمعز الدولة غلام تركي أمرد, منهمك في الشرب لا يعرف الصحو, ولا يفارق اللعب واللهو, ولفرط ميل معز الدولة إليه وشدة إعجابه به جعله رئيس سرية جردها لحرب بني حمدان, وكان الملهبي يستظرفه ويستحسن صورته, ويرى أنه من عِدَد الهوى, لا من عدد الوغى, فقال فيه:

**ظبــيٌ يَرِقُّ المــاءُ في وجْنَاتِهِ و يرقُّ عودُهُ**
**ويكادُ من شبه العذارى فيه أن تبــدوَ نهودُهُ"**[3] (مجزوء الكامل)

في تلك الحقبة ارتفع الانحطاط الخلقي, وتدنى مستوى الآداب الجنسية, وكثر الانغماس في الملذات والتهتك, وتدنت منزلة المرأة إلى الدرك الذي تصفه قصص ألف ليلة وليلة, حيث جُعلت المرأة مثالاً للمكر والدسيسة و الفساد الخلقي[4].

كان من الأخلاق التي كثر استنكار أبي العلاء لها, ولومه الناس عليها شرب الخمرة, والغلو في إشباع الرغبة الجنسية[5], مما جعله ينسحب من مجتمعه محتجاً, رافضاً إياه, مقراً اعتزاله, قائلاً: "أَفلا يرى إِلى هذه الأُمَّةِ كيف افتتّتْ في الضلالةِ, كافتتانِ الربيعِ في إخراجِ الأكلاءِ, والوحشِ الراتعةِ في تربيبِ الأطْلاءِ!؟"[6].

---

([1]) خريباني, جعفر: أبو العلاء المعري رهين المحبسين, ص40 .
([2]) نقلاً عن الحموي, ياقوت: معجم الأدباء, القاهرة, مط دار المأمون, 240/2 .
([3]) نقلاً عن أمين, أحمد: ظهر الإسلام, 36/1 .
([4]) حتي, فيليب: تاريخ العرب, ترجمة إدوار جرجي وصاحبه, ط2, بيروت, دار الكشاف, 1953م, 410/2.
([5]) عبد القادر, حامد: فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره, ص46 وما بعدها .
([6]) المعري, أبو العلاء: رسالة الغفران, ص498, الأطلاء: ج طلا وطلو, وهو ولد الظبية ساعة يولد, وتربيب الصغير: الصغير: تربيته حتى يدرك.

وعلى وجه العموم؛ فمن درس الآداب في ذلك العصر أدرك مقدار ما بين أخلاقه وبين الفضيلة من الأمد البعيد ؛ فليس في هذه الآداب خلق أَظهر, ولا خلة أجلى من الدعارة وأقبح من المجون(1).

ولا شك أن كل ذلك أثار حفيظة أبي العلاء النقدية , فما كان له إلا أن نقد تلك الأحوال التي آل إليها المجتمع, على أن هذا النقد الاجتماعي لم يقنع الدكتور زكي المحاسني, لأنه كان يرى "أن إصلاح المجتمع لا يتم بقصائد تنظم أو رسائل تحبر, فالقول لا ينفع دون العمل"(2), ولكننا نرى خلاف تلك الرؤية التي رآها الدكتور المحاسني, لأن أبا العلاء كان يحاول ذلك جاهداً صابراً؛ فالكلمة الناقدة والدقيقة قد تكون أمضى سلاحاً وأقصى من حدة السيف في بلوغها المراد المطلوب.

**د ــ <u>ضعف الوازع الديني في عصره:</u>**

من الحقائق الثابتة أن كل الديانات ذات منبع واحد هو الله تعالى وأن الإسلام خاتمتها, ولذلك كان أشمل وأكمل؛ لأن من طبيعة اللاحق أن يضيف جديداً للسابق, ولكن الحقيقة أن كثيراً من المسلمين بعدوا عن الدين القويم, لأنهم عرفوا مبادئ الإسلام, ولكنهم بعدوا كل البعد عن أخلاقه," فإهمال الإيمان بالله يحدث ارتباكاً واضطراباً, لأن الإيمان بإله اتجاه نفسي قوي لا يقل عن قوة الغرائز في البشر"(3).

في عصر المعري اشتد التناقض في الأديان رغم منبعها الواحد, ومن الدلائل على الاختلاف في الأديان" أن هناك نوعين من المسيحية, يتبع المفكرون نوعاً, وتتبع الكنيسة وعامة الناس نوعاً آخر بعيداً عن النوع الأول, في حين أن مبادئ الإسلام لو قورنت بالمسيحية فهي واحدة عند جميع المسلمين ومفكريهم؛ فوحدانية الله و كون محمد ــ صلى الله عليه و سلم ــ عبده ورسوله, ونظام الزواج و الطلاق والمواريث أمور لا تختلف عند المسلمين كافة, ولهذا

---

(1) حسين , طه : تجديد ذكرى أبي العلاء , ص74 .

(2) المحاسني , زكي : أبو العلاء ناقد المجتمع , ص 16 .

(3) شلبي, أحمد :مقارنة الأديان (اديان الهند الكبرى) , ط8 ,القاهرة,مكتبة النهضة المصرية,1986م,172/4 .

يزداد المسلم حباً للإسلام, كلما زاد تعمقاً في دراسته, أما المسيحي فعلى العكس كلما تدارسها ظهر له ما في المسيحية من تعقيد واستحالة"[1], ولا شكَّ أن الانحراف بالأديان هو الذي سبب الصراع بين معتنقيها, ولو سارت الأديان سيرها الطبيعي كرسالات من عند الله سبحانه وتعالى دون تحريف لالتقت جميعاً في أهدافها ووسائلها.

تعددت في عصر المعري الفرق والمذاهب في الدين الواحد, فكان منها فرقة الشيعة المنتصرة لبني هاشم, وفرقة الجماعة, وفرقة الخوارج، وفرقة المرجئة ,وانقسمت هذه الفرق فيما بينها أقساماً كثيرة[2], ونتيجة لذلك فقد كثرت الفرق المسلمة التي أخذت تكَّفر بعضها بعضاً,وفي ذلك يقول المعري:

**مِلَلٌ غَدَتْ فِرَقَــاً,وكلُّ شريعةٍ تُبدي لِمضْمَرِ غيرِها, إكفارَها[3]** (الكامل)

فاختلاف المذاهب والعقائد أدى إلى ظهور الصراع فيما بينها, وقد انعكس ذلك على سلوك وعقول الناس, مما أدى إلى ضعف العقيدة الدينية بطغيان النزعات والفلسفات الأجنبية, وانتشار الإلحاد والزندقة, كما انتشر التصوف والدروشة أو الشعوذة الدينية[4].

إن ضعف العقيدة الدينية كان له الأثر الأعظم في العصر, حيث كثرت المظالم القائمة, والمحارم المنتهكة, والنفوس المهدرة بغير إثم, والدماء النازفة بغير ذنب, والأموال المسلوبة بغير حق, واستبيحت الخمور, وانتشرت مقالات الإلحاد, وحالات الاغتصاب, كاغتصاب لؤلؤ زوج صالح بن مرداس[5], ولهذا فقد كان لرجال الدين عامة, والمتظاهرين منهم بالتقوى خاصة خاصة نصيب كبير من نقمة أبي العلاء, يقول الدكتور عمر فروخ: "...فلقد أفسد هؤلاء الحياة الاجتماعية أكثر مما أفسدها رجال السياسة والإدارة؛ لأنهم اتخذوا الدين "كلباً" يصطادون به المناصب والأموال, ويتسترون به عند إتيان الكبائر والمنكرات, ولقد فرضوا على العامة أموراً,

---

([1]) شلبي, أحمد: مقارنة الأديان فصل (المسيحية), 1984م, 89/2 وما بعدها .

([2]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص 70.

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,511/1 .

([4]) حسين, طه:تجديد ذكرى أبي العلاء, ص 68-71 .

([5]) نفسه, ص69 .

وأوجدوا لهم المذاهب زيادة في كسب المال, ثم لجأوا إلى النفاق والكذب في سبيل الحصول على القوت, وعلى ثمن اللهو والمجون"[1].

ولعلنا نتفق والدكتور عمر فروخ في رؤيته بأن أبا العلاء قد انتقد تلك الفئة التي تجعل من الدين ستراً وغطاءً لرذائلهم وأفعالهم الدنيئة, ولكننا لا نتفق معه حين استحضر لفظة "الكلب" وألبسها صفة للدين, فكان عليه أن يستحضر لفظة تليق بأدبه الراقي, لأن الدين أسمى من أن يُشَبَّه بالكلب أو غيره من الحيوانات.

وخلاصة القول فيما أسلفنا حول فساد عصر أبي العلاء على الأصعدة كافة, فإننا نخلص إلى نتيجة مفادها: أن عصر المعري كان عصراً فاسداً مضطرباً؛ حيث سادت فيه الفتن والحروب, وأصبح سوقاً للصفقات, وجلجلة أصوات النّحل والملل الغريبة, فتاهت القيم من حيث لا رجعة, وضربت الطبقية المجتمع, ونجم عن ذلك فساد في الأوضاع السياسية, إذ كان الملك وحشاً لئيماً, كما نتج عن ذلك خلل في الأوضاع الاقتصادية لأنه باضطراب أحوال السياسة, أفسح المجال للشّطار والعيارين التطاول على الناس وترويعهم, فنجم عن ذلك ذهاب الأنفس العاملة, والضمائر الحية, وهلاك الأموال, ما بين إحراق وإغراق, وما شاكل ذلك من مصائب وعلل تفقد الأمة قوتها وغناها وراحتها, مما أدى إلى خلل في الأوضاع الاجتماعية؛ فقام بنقدها نقداً لاذعاً لا ظالماً, لأنه كان حرّ الفكر كغيره من رجال الفكر, الذين خُلدوا في جبين الدهر قالوا حقاً, ولم يتهيبوا نقد المؤاخذين, ولقد ضحى بعمره الطويل في سبيل فكره النبيل, فاتخذ الشعر والنثر أداة لنقد أحوال المجتمع ومساوئه, فكان رسول إصلاح للأمة العربية, على الرغم مما كُتب له من قلة الحال, وقلق البال, كارهاً الدنيا, مؤثراً عزلتها, تاركاً وراءه رسالته الإصلاحية معلقة ما بين الخيبة والأمل.

---

([1]) فروخ, عمر: حكيم المعرة, ص80, وكذلك المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع,ص80.

## الفصل الثالث

ضروب النقد الإجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري ، ويشمل على :

1- النقد السياسي :

2- النقد الإقتصادي :

3- النقد الإجتماعي :

4- النقد الأدبي :

نقد المعري المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه؛ فلم يكن منكراً له دافعاً الناس إلى الكفر به؛ بل كان داعياً إلى رفض رذائله, ومواطن فساده, رغبة منه في الصعود به إلى الكمال والنموذجية الأخلاقية, ويمكن لنا أن نتبين ضروب هذا النقد من خلال:

## 1. **النقد السياسي:**

من المعلوم أن أبا العلاء كان قد عاصر أربع قوى رئيسة, وهي الحمدانية أصحاب الأمر في حلب التي ضعف أمرها فيما بعد, والفاطمية أصحاب الأمر في مصر, وكان لهم مطامع في حلب, فحرصوا على دسّ الدسائس لها وإرسال الجيوش لفتحها, والمرادسية التي عملت على إحداث الاضطراب السياسي في البلاد, إضافة إلى دولة الروم المجاورة التي لم تنقطع حروبها مع الدول الإسلامية, وخاصة غاراتها على إمارة بني حمدان, مثيرة البلبلة والفوضى في صفوف المسلمين, فنشأ عن ذلك حروب, أدت بهم إلى نصرة العدو على أهل عمومتهم, وهذا ما ذهب إليه الدكتور زكي المحاسني حين قال: "جار بنو حمدان على أهل عمومتهم بني معروف, حتى أخرجوهم من دينهم إلى النصرانية فراراً من عتوهم واعتسافهم[1], كما أنه عاصر الدولة البويهية, واستظل بظلها سنة وسبعة أشهر عند إقامته في بغداد.

كانت الحياة السياسية في عهد المعري تعج بالفوضى والاضطراب, وبالصراع والمنازعات, وبالكيد والفساد, وبالظلم والجور والاستبداد, فتبادلت أجزاء البلاد الإسلامية أيدي الفاتحين وتقاذفتها أهواء الغزاة المسيطرين, فكانت أحوال الناس ومقدراتهم بأيدي من لا يرحمون وأموالهم نهباً بأيدي الساسة المتجبرين.

تحرك وجدان أبي العلاء المعري وضميره الحيّ لاستخلاص القيم والعبر, من تلك الأحداث الجسام التي عصفت بالعراق والشام وخاصة حلب, فإذا بالخزي والعار يثقل كبرياء كل عربي مسلم, بعد ما كان الفخر والوقار يعزّ ويرفع من شأنهم بين الأمم والدويلات, وبعد ما كان الأمير رمزاً للدين والتقوى, بات رمزاً للنهب والاستغلال, "ولعل المعري أول شاعر استثار

---

([1]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص55.

سخط الأمة على أمرائها, وعرّفها أن الأمراء أجراء, والأجير يجب أن يعمل لمصلحة مستأجره, إذا أخل بذلك استحق العزل والطرد, ولم أرَ شاعراً اجترأ على ملوك زمانه وأماط النقاب عن مخازيهم مثل أبي العلاء المعري"[1], على نحو ما نرى في قوله:

**مُلَّ المُقــامُ, فكــم أُعاشِــرُ أُمّةً, أَمَرَتْ, بغير صَلاحها, أُمراؤها**
**ظلموا الرعيةَ, واستجازوا كيدها, فعدَوْا مصالحها وهُمْ أُجَراؤها**[2] (الكامل)

هذا يكشف لنا أن نظرية المعري في الحكم تتلخص في أن الحاكم يجب أن يكون خادماً للناس يسهر على راحتهم, ويؤمن أمنهم واستقرارهم, وقد هيئت له أسبابٌ شتى ليؤدي واجب الخدمة, فالمرء لا يكون حاكماً إلا بوجود الناس الذين يسعون به إلى تحقيق ما تصبو إليه نفوسهم, كقوله:

**إذا ما تَبَيّنّا الأُمــورَ تكَشّفَتْ لنا, وأميرُ القومِ للقَوْمِ خادِمُ**[3] (الطويل)

بيد أن تلك النظريات يجب أن تكون مؤسسة على أساس ديني, خلاصته أن المُلك والحكم لله وحده, وأما حاكم الملوك فهو حاكم مآله إلى الزوال والانهيار, كقوله ساخراً منه باعتداد:

**تسَمَّتْ رجالٌ بالملوكِ سَفاهَةً, ولا مُلكَ إلاّ للذي خَلَقَ المُلْكا**[4] (الطويل)

وبسبب جهل أولئك الأمراء والملوك لمفهوم الحكم والإمارة, فقد نصبوا أنفسهم آلهة مطالبين الرعية بعدم إشراكهم الملك وهو في غايةِ الشر وذروته, حيث يقول المعري:

**له العزُّ, لم يَشركهُ,في المُلكِ,غيرُه؛ فيا جَهْلَ إنسانٍ يقولُ: ليَ المُلكُ**[5] (الطويل)

فلا عجب إذن, أن يهاجم المعري الأمراء والحكام وأصحاب الزعامة والسياسة متهماً

---

([1]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره, 1604/3 .
([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 54/1, عدوا مصالحها: تجاوزوها, أجرؤها: خدامها, واحدها أجير.
([3]) نفسه, 389/2.
([4]) نفسه , 225/2 .
([5]) نفسه, 214/2 .

إياهم بالجهل والطمع والانحلال, كقوله:

**فشأن مُلوكهمْ عَزفٌ و نزفٌ؛ وأصحابُ الأمورِ جُباةُ خُرْجِ**[1] (الوافر)

رأى أبو العلاء أن سيادة الحكام الجهلاء كانت نتيجة لصمت الرعية, وتقصيرهم في رفع الظلم عنهم ودفع الأذى عن أسرهم وممتلكاتهم, على ما نرى في قوله:

**كم أُمَـــةٍ لعبتْ بها جُهّالُها, فتنطّسَتْ من قبلُ في تعذيبها**
**الخوْفُ يلجئها إلى تصديقها, والعَقلُ يَحملُها على تكذيبها**[2] (الكامل)

فكان من حصيلة هذا الصمت الأخرس, والتسليم بالواقع الأليم والسكوت عنه ـــ من وجهة نظر المعري ـــ أن صارت الناس في أيدي هؤلاء الجائرين كالأغنام يسوقهم هؤلاء الطغاة بالعصا أو بالسيف, على نحو ما نرى في قوله:

**أُسكتْ وخَلّ مُضلِّهم وشؤونَهُ, ليسوقَهمْ بعَصاهُ, أو بحُسامِهِ**
**نُصحوا فما قَبِلوا وباعوا كثِكثِاً, من شـــرّ معدنِهِ, بقيمَةِ سامِهِ**[3] (الكامل)

وكان أشد ما يؤخذ عليهم أنهم مع ما يقاسونه من ظلم الحكام يتملقونهم ويعظمونهم, آملين بإزالة الظلم عنهم, أو أن تخف وطأته, وإذا خطر لهم الثورة على الحكام, فما أن يمثلوا أمامهم حتى يخافونهم, فيتخاذلون, على نحو ما نرى في قوله:

**قدْ يُنصِفُ القومُ في الأشياءِ,سيّدَهم, ولوْ أطاقوا لهُ ريبـــاً لرابُوهُ**
**لم يقـــدروا أن يُلاقُـــوهُ بسيَـئّةٍ من الكَلامِ,فلما غـــابَ عابوهُ**
**تَحَـــدّثوا بمّخـــازيهِ, مُكتّـــمَةً, وقابَلوهُ بإجـــلالٍ, وهابُوهُ**[4] (البسيط)

إنّ هؤلاء الطغاة يحكمون الرعية بالقوة والبطش, ولا يحكمونهم بالعقل والاتزان, لهذا فهم لا يستحقون لقب الساسة الشرفاء, لأن لهذه التسمية شروطاً ليست فيهم, يقول المعري:

**يَسوسونَ الأمورَ بغَيرِ عقلٍ, فيَنفُذُ أمرُهُم, ويقالُ: ساسَهْ**

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 273/1,العزف: الضرب بالمعازف, اللهو. النزف: السكر .

([2]) نفسه, 168/1, تنسطت: تأنقت .

([3]) نفسه, 469/2, الكثكث: التراب, السّام: الذهب.

([4]) نفسه , 596/2 ,

فأُفَّ من الحياةِ, وأُفَّ مني,            ومن زَمَنٍ رئاستُهُ خَساسَهْ[1]      (الوافر)

إنَّ اتباع العقل ـــ كما رآه المعري ـــ هو أساس السياسة لقيام الرئاسة الصالحة؛ فلا رئاسة أو زعامة لمن لا عقل له, وإنما هي لأهل العقل والمنطق, على نحو مل نرى في قوله:

وإذا الرئاسةُ لم تُعَنْ بسياسةٍ            عقليّةٍ, خطئ الصَّوابَ السَّائسُ[2]      (الكامل)

ما كان لأبي العلاء جَرّاء جور الحكام وظلمهم إلا أن يتجنب صحبتهم, فهم لا يمثلون نهجاً أو فكرة ليدافع بها عنهم عند مسبّتهم من قبل الناس, ولأنه يرى في تلك الصحبة نوعاً من النفاق والخداع الذي لا يرتضيه لنفسه ولا لنفس ممدوحه, وقد بدا الأمر واضحاً حينما أرسله أهل المعرة ليكون شفيعاً لهم لدى صالح بن مرداس الكلابي, فقال:

بُعِثْتُ شــفيعاً إلى صــالحٍ,            وذاكَ من القومِ رأيٌ فَسَدْ
فيسْمعُ مِنِّيَ سجْعَ الحَمامِ,            وأسمَــعُ منه زئيرَ الأسَدْ
فــلا يُعجِبَنّيَ هذا النفــاقُ,            فكمْ نفّقــتْ محنةٌ ماكسَدْ[3]      (المتقارب)

إنّ هؤلاء الحكام بجورهم وبطشهم لن يستمروا طويلاً في الحكم, لأن حياتهم لن تطول كثيراً, فلابد للشر أن يخمد يوماً, ويرتفع الخير عوضاً عنه, فإن كانوا سادة اليوم, فهم عبيد أذلة غداً, كقوله:

أجمِلْ فَعَــالَكَ, إنْ وليتَ, ولا تَجُرْ            سُبُلَ الهدى, فلكلّ والٍ عازِلُ
للعــالَمِ العُلْــويّ, فيــما خبّروا,            شِيَمٌ بها قَــدْرُ الكواكبِ نازلُ
أترَى الهلالَ, وليسَ فــيه مظنّةٌ,            يَصبو إلى جَــوْزائهِ ويُغازل
ويُقيمُ في الــدّارِ المُــنيفةِ ليــلَةً,            وإذا تَرَحّــلَ لم يُعِقْهُ الآزلُ[4]      (الكامل)

بتلك الأبيات؛ نلحظ المقارنة الدقيقة بين أفعال الحكام الضالين عن سبيل العقل والهدى,

---

(1)المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 35/2 .

(2) نفسه, 32/2 .

(3) نفسه , 404/1, صالح: قائد عند بعض ملوك حلب, حاصر المعرة فلما اشتد الضيق على أهلها بعثوا إليه أبا العلاء متشفعاً, فامتدحه بقصيدة, فقبل شفاعته ورحل عن المعرة.

(4) نفسه, 274/2, المظنة: موضع الشيء, الجوزاء: النجم.

وبين أفعال الكواكب والنجوم المهتدية عبر فلكها, وكأن لها عقولاً تهتدي بها على عكس الحكام الذين يتخبطون دون أن يكون لعقولهم دور في هدايتهم ورشدهم, فهم لم يتولوا الرئاسة والحكم بالكفاءة والإخلاص,وإنما تولوها بالمكر والخديعة والباطل, على نحو ما نرى في قوله:

**فأميرُهمْ نالَ الإمارةَ بالخَنى, وتَقيُّهُمْ, بصلاتِه متصيِّدُ**[1] (الكامل)

إنهم شياطين مسلطة على الضعفاء لا يهمهم إلا ملء بطونهم من الشهوات, وإن كان الناس في أقصى درجات الشقاء, على نحو ما نرى في قوله:

**ساسَ الأنامَ شياطِينٌ مُسَلَّطَةٌ, في كلّ مِصْرٍ,من الوالينَ شَيْطانُ**[2] (البسيط)

لأنهم لصوص وقطاع طرق, حيث يقول:

**قد عَمـــّنا الغشُّ, وأزرى بنا في زمــنٍ أعْــوَزَ فيه الخُصوصْ**
**وكلُّ مَنْ فـــوقَ الثّرى خائنٌ, حتى عُدولُ المِصرِ مثلُ اللّصوصْ**[3] (السريع)

والأنكى من ذلك كله أنهم يمتنعون عن قبول النصح والإرشاد, لذلك فالحذر من بطشهم كان من أقوى السبل الدفاعية, لأنهم قوم لا يخافون الله, ولا يقبلون النصح والإرشاد, على نحو ما نرى في قوله:

**غَضِبَ الأميرُ من المَلامِ,وهل تَرى أحداً يَفوزُ بعِرْضِهِ لم يَدْنَسِ؟**[4] (الكامل)

إنهم فسقة فجار, زيرة نساء, لا يهمهم إلا النساء ومتاعهم, على نحو ما نرى في قوله:

**ملـــوكُنا الصّالحونَ, كُلُّهمُ زيرُ نساءٍ, يَهَشُّ للزِّيَرَهَ**[5] (المنسرح)

ورأى الدكتور شرارة" بأن الفرق في الموقف السياسي بين المتنبي والمعري من الولاة

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 339/1 .
([2]) نفسه, 502/1 .
([3]) نفسه , 88/2 .
([4]) نفسه, 60/2 .
([5]) نفسه, 514/1, الزيرة: جمع الزير, وهو الذي يكثر من زيارة النساء ويحب مجالستهنّ, والزير أيضاً دن الخمر.

والأمراء والملوك أن الأول ناقم طامع, متجبر, متعالٍ, والثاني ناصح, مرشد, متألم, يناشد الرؤساء الرحمة ويهديهم إلى سواء السبيل, ويحضهم على نبذ التمذهب, والإصغاء لهتاف العقل"[1].

إن أبا العلاء لم يكن ناقماً على المُلك ولا ساخطاً على كل مَلك لأنه مَلك, ولا متمرداً على كل ذي سلطان وقوة, وإنما كان يعنف وينقم على الملك الذي يستبيح أموال الناس وأعراضهم ومقدراتهم, ويعرضهم للشر, ولا يدفع الأذى عن حمى بلاده, ويسخط كل السخط على ذلك الملك الذي يحكم ويجور دون الاستناد إلى منهج عقلي يسدد خطاه.

اختلف بعض الدارسين في تقييم موقف المعري من الحكام والملوك؛ فمنهم من عدّه ناقماً على أرباب السياسة, ساخطاً عليهم, وخاصة أنه عندما "قرر الذهاب إلى بغداد أعدّ له خاله أبو الطاهر سفينة تنقله إليها من نقطة تسهل فيها الملاحة, ولدى بلوغه القادسية تصدى له أصحاب الأعشار من عمال بهاء الدولة صاحب بغداد, واغتصبوا منه السفينة, فأجبر على أن يسلك إلى بغداد طريقاً برية وعرة, محفوفة بالأخطار والمخاوف, وهو الضعيف الكفيف, وفي بغداد بذل المساعي الحثيثة لاسترداد السفينة في غير طائل, فآلمه أن يكون السبب في وقوع هذه الخسارة على خاله, ومنذ ذلك الحين نقم على السياسة وأربابها[2].

وإذا كان الدكتور اليازجي يرى أن للمعري ثأراً عند أصحاب السياسة لأنهم سرقوا منه السفينة, وأبوا إرجاعها له, فما كان منه إلا أن يسخط عليهم وينقم ليتحول السخط والنقمة طبعاً من طباعه, فإننا لا نرى في ذلك مسوغاً للسخط والنقمة والثأر؛ فأبو العلاء وإن سخط ونقم, فليس لأن من طبعه السخط والنقمة والتمرد, وإنما ليوصل إحساسه بالظلم المرير الذي لاقاه وما سيلقاه غيره من أرباب السياسة, وليفضح أعمالهم وأفعالهم الشريرة.

أما النكدي فقد عدّ موقف المعري من الحكام, ومن لف لفّهم موقفاً إيجابياً متميزاً, "قد سبق به غيره من رجال القرون المتأخرة وفلاسفتها الذين قاموا بالثورات علىالعروش العاتية

---

([1]) شرارة, عبد اللطيف: أبو العلاء المعري, ص49 وما بعدها.

([2]) اليازجي, كمال وصاحبه: أعلام الفلسفة العربية, ص168 .

فدكوها, وأقاموا على أنقاضها أسس الحرية والإخاء والمساواة"(1), وقد رأى الدكتور المحاسني أن أبا العلاء "أخطأ في سكب إصلاحه بقوالب هذا الشعر الذي لزم فيه ما لا يلزم, وعقّد معانيه, وأوعر مبانيه على الشعب الذي ينبغي أن يوضّح لسواده, شعر سهل المباني, واضح المعاني, ليرجى تأثيره فيه, فيوقظ عيونه النائمة, وينبه نفوسه الوانية الجانية"(2).

إلا أننا نرى أن ما يزعمه الدكتور المحاسني من تعقيد المباني, ووعورة المعاني أمر غير مقبول على الإطلاق, لأننا نرى أن شعر المعري في الحكام, ونقده الأوضاع السياسية, ليس من الصعوبة بحيث يستغلق على أولئك الذين يعرفون حقيقة الأحوال في عصرهم وبيئتهم, ثم أية صعوبة يمكن أن يلقاها القارئ في مثل تلك الأقوال التي سبق ذكرها؟!

بينما رأى الدكتور عدنان عبيد العلي أن المعري "وقف موقف التقية في منهجه الإصلاحي فهي تحفظ الرافضين من البطش والتعسف, لذلك فقد راح المعري ينصح المظلومين ألاّ يخسروا معركتهم مع الطغاة بضرورة التزامهم التريث والتقية في معالجة ظلمهم, ومواجهة تعسفهم"(3),على نحو ما نرى في قوله:

**واخشَ الملوكَ وياسرْها بطاعَتِها, فالمَلْكُ للأرضِ مثلُ الماطرِ السّاني**

**إن يظلِـموا, فلـهُمْ نَفعٌ يُعاشُ بهِ وكم حَمَـوكَ بَرجْـلٍ أو بفُرْسانِ**

**وهَلْ خلتْ,قبلُ,من جورٍ ومَظلمةٍ, أربابُ فارسَ, أو أربـابُ غَسّانِ؟(4)** (البسيط)

**غَسّانِ؟(4)**

ربما لم يكن الدكتور عدنان العلي موفقاً في رأيه ذلك, لأن من يقرأ اللزوميات قراءة جيدة يجدها مليئة بالنقد اللاذع لتلك الطبقة الحاكمة الجائرة, مصوراً فيها جورهم وفسادهم, معلناً على الملأ ضرورة الإطاحة بهؤلاء الجائرين.

أما الأستاذ بطرس البستاني؛ فقد رأى في موسوعته الحضارية أن المعري "أشار في

(1) النكدي, عارف: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص128.

(2) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص 57-58 .

(3) عبيد العلي, عدنان: المعري في فكره وسخريته, ص214 .

(4) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 554/2, السّاني: المطر يسني الأرض أي يسقيها.

بعض أشعاره الناقدة للسياسة وأربابها إلى المجاز أو الرمزية"[1], ولقد استعان لتأكيد فكرته بقول بقول المعري:

**لا تُقَيِّدْ عليّ لفَظي, فإنّي مثلُ غَيري, تكلُّمي بالمَجــاز**[2] (الخفيف)

وجاء رأى الدكتور طه حسين مماثلاً لهذا الرأي[3],مستعيناً بقول المعري:

**أهوى الحياةَ, وحسْبي, من معائِبها أنيّ أعيشُ بتَمويهٍ وتَدليسِ**[4] (البسيط)

ولعلهما أرادا أن يقولا إن أبا العلاء لم يلجأ إلى صيغة الحكمة المباشرة أو الوعظ المباشر حين أراد البيان أو الإفصاح عن آرائه السياسية, وإنما لجأ إلى أن يسوق أفكاره في صيغ رمزية لاستنهاض الهمم الخائرة, والنفوس الضعيفة لمقاومة الظلم والجور الذي أحدثه الحكام, ومن لف لفهم, ولعلنا نرى في هذا الرأي أمراً عارياً عن الصحة, لأن المعري كما سبق لنا القول, كان لا يخاف أحداً, وكان سباقاً في إظهار الوجه الحقيقي لهؤلاء الحكام الجائرين.

أما حجة الدكتور طه حسين؛ فكانت أنه رأى أن أبا العلاء "لم يكن له بالسياسة العملية كبير اتصال, ذلك لأن ذهاب بصره يحول بينه وبين لقاء الملوك والأمراء, وخاصة أن حياءه كان شديداً, وأن حرصه على ألا يظهر تقصيره عن شأوِ المبصرين في الأوضاع العامة كان عظيماً, كما أن فطرته ودرسه وفلسفته, وجملة من حياته المادية والعقلية, كانت تحول بينه وبين قصور الملوك والأمراء ودواوين المشورة والحكم"[5].

ولكننا نرى عكس ما رآه الدكتور طه حسين, لأن المعري ساهم في السياسة عن طريق إعلاء كلمة الحق, فإذا خنس كان شيطاناً أخرس, وبذلك يعين الآخرين على استمرار آثامهم, والتمادي في تجاوزاتهم, وقد وجد أبو العلاء في تلاميذه وطلاب علمه, خير وسيلة لترويج

---

([1]) البستاني, بطرس: موسوعة بطرس البستاني الحضارية (العصر العباسي), ص826 وما بعدها.

([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 633/1.

([3]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء, ص244.

([4])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 52/2.

([5]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء,ص160 وما بعدها.

أفكاره, وإعلان آرائه, لهذا فهو يسخر ممن يكتم, وممن يخون أمانته, على نحو ما نرى في قوله:

**قد نالَ خيراً, في المعاشر, ظاهراً, من كـــان تحتَ لسانه مخبوءا**
**بـــاءَ الكـــلامُ بمـــأثمٍ, والصّمْتُ لم يَكُ, في الأعـــمّ, بمأثمٍ ليبوءا**[1] (الكامل)

ببنما الأستاذ أحمد أمين يرى أن نقد المعري السياسي إنما كان "تابعاً من سلطان عقله وإرادته, وأنه كان يخضع الظواهر الاجتماعية والأخلاقية للتحليل والربط بين الأسباب والمسببات, فإذا ساءت حال الأمة؛ فالسبب سوء معاملة الحكام, وإن صلح حال الأمة؛ فالسبب صلاح معاملة الحكام"[2].

ولعلنا نؤيد ما قاله الأستاذ أحمد أمين, وخير دليل على ذلك ما علمناه من تقديس المعري للعقل؛ لأنه يرى أن العقل هو الإمام الحقيقي الذي يهدي إلى سواء السبيل, فخير الحكام من يستخدم عقله لإرشاد الرعية وإصلاحها.

ولم يكتفِ أبو العلاء بتناول الكثير من مظاهر الحياة السياسية بالنقد, بل راح يتوغل في الكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية, وكشف المتناقضات العجيبة بين الناس, ولعل أهم ما لفت انتباهه, ذلك التفاوت الطبقي الصارخ في المجتمع, وقد أنكر ذلك التفاوت أشد الإنكار, وهاجمه أعنف هجوم, لأنه يتنافى مع العدل الذي على أساسه تبنى علاقات الناس بعضهم ببعض في المجتمع؛ فالأغنياء ــ من وجهة نظره ــ طبقة تشترك مع الطبقة الحاكمة في أنهما تستمدان غناهما من فقر الطبقة الكادحة المنهارة, على نحو ما نرى في قوله:

**شغلَ, السعادةَ عنـــك, أهلُ ممالكٍ, رُزقوا الذي حُرم الكرامُ, وسادوا**
**رقدوا, ولم ترقُدْ, ونالوا ما ابتغوا, وعجِـــزتَ عنـــه, وللكيانِ فســـادُ**
**مُهِّدَتْ لهـــمْ فُرشٌ, وبـــاتَ لديهمُ, وُسُـــدٌ, وبِتَّ, وما لدَيــك وِســـادُ**[3] (الكامل)

دفعت هذه الأبيات وأمثالها عدداً غير قليل من الدارسين إلى تأكيد اشتراكية المعري في

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 62/1, باء: رجع.
([2]) أمين, أحمد: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص53.
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 341/1.

نظرته الاجتماعية, ومنهم الدكتور المحاسني الذي أقرَّ "باشتراكية المعري,على نحو ما يُفهم من قوله:

**لو كانَ لي أو لغَيري قَدْرُ أُنْمُلَةٍ, فوق الترابِ, لكانَ الأمرُ مُشتَرَكا[1]** (البسيط)

لعلمه ويقينه بأن المعري كان قد عرف معانيَ الاشتراكية نتيجة اطلاعه على ثقافات اليونان وغيرها من الثقافات الأجنبية"[2].

أما الدكتور طه حسين فقد رأى في ذلك البيت السابق تعبيراً عن كره المعري لانقسام المجتمع إلى طبقتين, طبقة فقيرة, وأخرى غنية, دون التطرق إلى مفهوم الاشتراكية, حيث يقول: "اغتر بعض الناس بقول المعري السابق, فظن أن أبا العلاء اشتراكيّ يرى مذهب الاشتراكيين من الفرنج, وهذا نوع من الغلو لا نحب أن نتورط فيه لأننا لا نعرف الرأي المفصل لأبي العلاء في تقسيم الثروة, وإنما نعرف أنه كره انقسام الناس إلى فقراء وأغنياء"[3].

وبذلك يكون الدكتور طه حسين أول من فتح المجال للباحثين للاجتهاد في تعليل مصادر المعري (الاشتراكية) على أنه رأى في ثورة القرامطة والزنج تأثيراً في فلسفته التي ترى الشعور بالظلم في توزيع الثروة والإنكار لما يكون من انقسام الناس إلى طبقات الأغنياء والفقراء[4].

لكن هذا الرأي لم يحظ بقبول البعض, ومنهم الدكتور يسري سلامة الذي عزا اشتراكية المعري أو موقفه في المساواة بين البشر إلى مصادر إسلامية[5],عادّاً نظرته تلك نظرة إسلامية إسلامية بحتة, وذلك اعتماداً على موقفه من فريضة الزكاة التي أعجب بها إعجاباً عظيماً, إذ رأى فيها إصلاحاً لأحوال الناس ونفوسهم,على نحو ما نرى في قوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 229/2.

([2]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص76.

([3]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء المعري, ص284 وما بعدها.

([4]) حسين, طه: مع أبي العلاء في سجنه, ص184.

([5]) سلامة, يسري: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء, ص228.

**وأحسبُ الناسَ,لو أعطَوا زكاتَهمُ,   لَمَا رأيتُ بنَي الإعدامِ شاكينا**[1]   (البسيط)

وتتمثل نظرته الإسلامية في قوله بحبس الأرض وتوزيع غلتها على المستحقين فيها, حيث يقول:

**الأرضُ للهِ, ما استَحيا الحُلولُ بها   أن يَدّعوها, وهمْ في الدّارِ أضيافُ**[2]   (البسيط)

ولعلنا نؤيد الدكتور يسري سلامة في رأيه أشد التأييد؛ فموقف المعري موقف إسلامي بحت, يرى رأي الإسلام في المال, بينما نرى أن دعوة الزنج والقرامطة كانت مزدكية لما تبعها من الفساد والسوء والظلم والاضطراب, ولقد مرّ بنا سابقاً بأن مزدك الفارسي كان يرى الناس شركاء في المال والنساء على حدّ سواء.

إن ما جاء ذكره سابقاً كان من أهم الدراسات التي قامت بدراسة موقف أبي العلاء من السياسة وأربابها, ولكن ما نود ذكره هنا, أن هناك بعض المآخذ التي أخذت على المعري, كان من أهمها أنه جعل الظلم والجور من شيم الملوك, فالظلم والجور ــ من وجهة نظره ــ أضحى غريزة في الإنس, ولعل خير دليل على ذلك ما قاله في أحد رسائله: " وهَلْ في الأرضِ ملكٌ لا يجورُ, إن اللهَ جعلَ الظلمَ غريزةً في الإنس, وسَلّطَهُمْ على كلِّ جنس"[3].

وخلاصة القول: إن أبا العلاء كان نعم الدارس الصادق والأمين الذي درس أحوال الملوك و الرؤساء والأمراء, ومن تبعهم في عصره درساً متقناً, وألمّ من أخبار وأحوال بعضهم بما تقشعر منه الأبدان, فرآهم يتكالبون على السلطة, ويسعى كل منهم بمعاونة حاشيته والمرتزقة للقضاء على منافسيه, ولو كانوا من ذوي القربى, والاستعانة حتى بأعدائهم وأعداء الأمة في سبيل تحقيق نزواتهم وأهوائهم في السيطرة على الأمة وخيراتها وممتلكاتها؛ فما كان منه وهو الضعيف الكفيف العاجز إلا أنْ وقف في وجههم ليعلن صيحاته الصارخة, تلك الصيحات التي ربما تكون أداة مفيدة تزيل عن عيونهم غشاوة الجهل؛ فيعيدوا بذلك سيرة أجدادهم العظام في

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم: 517/2 .

([2]) نفسه, 155/2 .

([3]) المعري, أبو العلاء: رسائل أبي العلاء المعري, ص184.

البطولة والتضحية والنضال, تلك الصيحات الموجعة التي ربما تكون المواسي الوحيد لنفسه بأنه فعل ما وجب عليه فعله, وحسبه أنه كان راضي النفس, حريصاً على مرضاة الله, صادق القول والفعل, على نحو ما نرى في قوله:

**إن عذُبَ المينُ بأفواهِكم, فإنَّ صِدْقي بفَمي أعــذَبُ**

**طَلبتُ للعـــــالَمِ تهذيبَهم, والناسُ ما صُفّوا ولا هُذِّبُوا**[1] (السريع)

2. **النقد الاقتصادي:**

إن تدهور الأحوال السياسية في عصر أبي العلاء المعري أدى إلى انعدام الأمن والاستقرار في البلاد, فنتج عنه سوء الأحوال الاقتصادية, إذ أصبحت العامة تقاسي الحرمان والفقر والانحلال, وعزّت الأرزاق على الناس, فضرب اليأس في نفوسهم, وتقاعسوا عن السعي وراء تحصيل الأرزاق, مما أدى بأبي العلاء إلى مخاطبتهم ليتذرعوا بالصبر, ويؤمنوا بالله تعالى وبحكمته في الرزق, على نحو ما قال:

**لمّا رأيتُ سجايا العَصْرِ تُرخِصُني, رَدَدْتُ قَدري إلى صبري, فإغلابي**[2] (البسيط)

كما أن سوء الأحوال الاقتصادية أسهم في ظهور ظاهرة الطبقية في البلاد, اذ انقسمت البلاد إلى طبقتين؛ الأولى طبقة الأغنياء الثرية, والأخرى طبقة الفقراء المعدمة؛ وكانت حياة البذخ والترف في قصور المترفين من معاصري المعري موضوع أحاديث الناس وأسمارهم, كما أضحت حياة الحرمان في أكواخ البؤساء, وخرائبهم سيرة على كل لسان,حيث يقول المعري:

**إنّ الأديمَ,الذي ألقاهُ صاحبُهُ, يُرْضي القَبيلَةَ في تَقسيمِهِ شُرُكَا**[3] (البسيط)

ولا يخفى ما في البيت من إشارة إلى أن الطعام الذي لا يحصل عليه الفقراء في قوتهم

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 107/1 .

([2]) نفسه , 156/1, إغلابي: أراد به الغلبة.

([3]) نفسه, 229/2, الأديم: الجلد المدبوغ, والطعام المأدوم.

اليومي كان يُرمى منه في المزابل إثر الوجبة في منزل أحد الأثرياء المترفين, كان يكفي لإعاشة جماعة فقيرة معدمة, "وقد يحسبه البعض أنه شيوعياً"[1].

وقد فصلنا ذلك سابقاً, ولكنا لا نريد أن ندخل في جدل لفظي بشأن انطباق تسميات المفاهيم الاقتصادية السياسية الحديثة على تفكير المعري, أو عدم انطباقها, لأن ذلك ينسينا شيئاً أساسياً هاماً وهو أن المعري, كان يدعو في آرائه الإصلاحية إلى الإخاء والمساواة والتعاون بين الناس كافة, فأميرهم كحقيرهم, وغنيهم كفقيرهم,حيث يقول:

**والناسُ بالناسِ من حضْرٍ وباديِةٍ,　　　بعضٌ لبعضٍ,وإنْ لم يَشعُروا خَدَمُ**

**وكلٌّ عُضــوٍ لأمرٍ ما يُمــارِسُهُ,　　　لا مَشْيَ للكفّ بل تمشي بكَ القَدَمُ**[2] (البسيط)

فالمعري لم يكن يفرق بين الناس, وإن اختلفت أديانهم, ولا يهمه أن يكون الرجل مسلماً أو غير ذلك, مادام يفعل الخير والصواب, على نحو ما نرى في قوله:

**والخيرُ أفضلُ ما اعتقدتَ, فلاتكُنْ　　　هَمَلاً,وصلّ بقبلةٍ أو زمزَمِ**[3] (الكامل)

وكأنه أراد (بعد دراسته أحوال الأمم والجماعات ورؤية ما قاساه العامة من الحرمان والفقر والجوع) أن يرسم مثلاً أعلى للأمور, ويود لو كان العالم يشبه هذا النموذج الخلاق الذي وضعه أمامه, وفي ذلك يقول أحمد أمين: "فهذا العالم الذي يرسمه خير لاشك فيه, ولذة لا ألم فيها, وعلم لا جهل معه, وعقل لا تشوبه خرافة, وصلاح ليس فيه ذرّة من فساد, وعدل صرف, وحكمة بالغة, وتعاون على الخير, وسير على الجادّة"[4].

ولكن هيهات أن يتحقق هذا العالم المثالي, فالفقر والقحط والخراب يضرب البلاد الإسلامية عامة, كما يضرب ساكن القفر,كقوله:

**خَبَرْتُ البرايا, والتّصعلُكَ, والغِنى　　　وخَفضَ الحشايا, والوجيفَ مع السّفرِ**

---

([1]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص75.

([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 398/2.

([3]) نفسه, 468/2.

([4]) أمين، أحمد: نظرة أبي العلاء إلى العالم الديني، مجلة الهلال، 1938، ص587، نقلاً عن سلامة، يسري: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري، ص259.

**فأطيبُ أرضِ اللهِ ما قــلَّ أهــلُهُ,        ولم ينأْ فيه القــوتُ عــن يدِكَ السّفرِ**

**يُعــاني مقيمٌ بالعــراق, وفارسٍ,        وبالشّام, ما لــم يَلْقَهُ ساكــنُ القــفرِ**[1] (الطويل)

فالفقر حينما يحل على بلد ما, فإنه لا يفرق في أي بلد يحط أولاً.

ونتيجة ذلك الوضع المأساوي الذي يعانيه العامة, أضحى حب المال داءً من أدواء البشرية عامةً, يريدون به رخاء العيش, وضمان الغد, وهذا ما نراه معقولاً أن يبحث الإنسان عن قوته ولباسه, وألا يكون معوزاً متسولاً, على أن لا يصبح حب المال داءً يتفشى في الناس, وأما الغلو والإسراف في رقيق المأكل وناعم الملبس, وحلو المشرب من جهة, واستثمار المال والحرص عليه والخوف الرهيب من فقدانه من جهة ثانية؛ فلا نراه معقولاً على الإطلاق, لأن المعري يرى أن المال مجلبة للهم والقلق, كما أنه وسيلة للتيه والضلال في الوجود, وما الفقر إلا الثراء والغنى, حيث يقول:

**إذا زادكَ المالُ افتقاراً وحاجةً        إلى جامِعِيهِ, فالثراءُ هو الفقرُ**[2] (الطويل)

ولذلك كله فإنّ أبا العلاء لم يسعَ مرّة للحصول على المال, ولم يحاول مرّة التزلف إلى الأمراء, ومدحهم بالقصائد الطويلة, كما يفعل أكثر الشعراء, ولم يكن هذا ضعفاً منه, بل كان قناعة وزهداً في المال, فلا يقلقه همّ الكسب أو تضنيه خسارة المنكوب, فيقول:

**الحمدُ للهِ قد أصبحتُ في دَعَةٍ,        أرضى القليلَ ولا أهتمُّ بالقوتِ**[3] (البسيط)

وهذا إن دلّ على شيء؛ فإنما يدل على أن أبا العلاء قطع حبل الوصل بينه وبين الدنيا, فلم يحرص على أسبابها المادية, واستغنى بالنزر اليسير, وما جدوى كل ذلك؟ والأمر برمته في النهاية إلى زوال؛ فالفقر ــ عنده ــ هو أصل حال الإنسان, والغنى ليس سوى صفة عارضة اكتسبها الإنسان على نحو ما نرى في قوله:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 524/1, الخفض: اللين, الحشايا: الفرش الواحدة حشية. الوجيف: السير السريع, السفر: المسافرون, السّفر: السّافرة,الظاهرة وهو نعت بالمصدر.

([2]) نفسه , 418/1.

([3]) نفسه, 226/1.

**ألم ترَ أنَّ المَلْكَ ليس بدائمٍ          على مُلكِهِ إلا وعسكُرهُ وِقْرُ؟**[1]     (الطويل)

لأن الغنى الحقيقي ــ من وجهة نظره ــ هو قناعة النفس, حيث يقول:

**وإنّ اقتناعَ النفسِ من أحسنِ الغنى,          كما أنَّ سوءَ الحِرْصِ من أقبح الفقر**[2]     (الطويل)

لذلك فهو يعجب لأن الناس في عصره غالوا في حب المال, حتى بلغ حبهم له درجة العبادة, فمنهم من وصل ــ عن طريقه ــ إلى الزعامة والشهرة, ومنهم من تاجر في الدين, فاصطنع المذاهب والطرق للحصول عليه, أما هو فقد قال: "وأحلف ما سافرت أستكثرُ من النّشَب, ولا أتكثّرُ بلقاء الرِّجال, ولكن آثرتُ الإقامةَ بدارِ العلم"[3], فما طمع في شهرة أو زعامة, ولا ابتغى استزادة في ثروة أو كنز, وإنما كان مطمعه الوحيد الحصول على العلم من موارده الحقيقية, وخير دليل على ذلك, أنه أبى ذلّ السّوال والتكسب بالمدح, لأن المديح ــ باعتقاده ــ كالنفاق تماماً, إذ لا يجوز الحصول على المال بالنفاق و الاحتيال, بل يريد للناس أن يكون كسبهم حلالاً,حيث يقول:

**إذا فاتَكَ الإثراءُ من غيرِ وجهِهِ,          فإنَّ قليلَ الخَلِّ أولى وأبرَكُ**[4]     (الطويل)

فالمعري يرى أنه للحصول على خير وسائل الرزق وأفضلها, لابدّ من السعي الشريف, كقوله:

**وقلّما تُسعِفُ الدّنيا بلا تَعَبٍ,     والدّرُّ يُعْدَمُ فوقَ الماءِ طافيه**[5]     (البسيط)

إنَّ الرزق لا يُحصل عليه إلا بمجهود وتعب, كالدرّ, فإنه لا يُجمع عن سطح البحر, وإنما يحتاج إلى غواص لجمعه.

---

([1]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 418/1, العسكر الوِقر: العسكر الثقيل السير لكثرة عدده.

([2]) نفسه, 523/1 .

([3]) نقله ابن العديم, ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص516.

([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 217/2.

([5]) نفسه,630/2.

إن المعري يوصي الناس بالجد والسعي, وخاصة في سن الشباب (عهد العمل)؛ ففيه تنعقد الآمال, وتتوفر القوى, فهو أثمن من أن يُقضى بالخمول والكسل, على أن يكون رائدهم التوسط والاعتدال, وهدفهم الإخلاص والأمانة, على نحو ما نرى في قوله:

**أكفئ سوامَكَ في الدنيا مُياسرةً. وأعْرِضَنْ عن قوافي الشعر تُكفِئُها**

**إنَّ الشبيبةَ نــارٌ,إنْ أردتَ بـــها أمــراً, فبادِرْهُ إنَّ الدهــرَ مُطفئُها**[1] (البسيط)

فالشباب عهد العمل لا الكلام, وهو عهد فانٍ؛ فالأولى استخدامه فيما يُجدي وينفع, في وجوب المبادرة بالسعي, حيث يقول:

**عاينْ أواخــرَ كــائنٍ بأوائلٍ, إنّ الهـــلالَ يُحَقّ بالإبدارِ**

**والليلُ يُؤذِنُ بالصبّاح,فإن تَرُمْ فيه سُراكَ لحـــاجةٍ, فَبدارِ**[2] (الكامل)

وكأنه أراد بالبيتين السابقين تنبيه بعض الزهاد المتصوفين الذين يحرّمون السعي ويحللون الاستعطاء, وانتظار الرزق دون تعب أو إرهاق, لأنه يرى أن العمل والسعي والحرفة أدعى إلى التقوى من التواكل والانتظار, على نحو ما نرى في قوله:

**ترومُ رزقاً بأن سمّــوكَ مُتّكلاً, وأدْيَنُ الناسِ مَن يَسعَى ويحتَرِفُ**[3] (البسيط)

وذلك خير من النصب والاحتيال, حيث يقول:

**لا تأنَفَنَّ من احتـــرافِكَ طالباً حِلاً, وعَدِّ مكاسبَ الفُجّارِ**

**فالمَجدُ أدركَـــهُ, على عِلاّتِهِ, قَوْمٌ, بيَثْرِبَ من بني النَّجّارِ**[4] (الكامل)

فالمعري يمتدح العمل, ويحث على طلب الرزق بالطرق المشروعة, ويؤثر الحرف ويقدسها, على أن تكون مشروطة بالإخلاص والأمانة والقناعة بالرزق الكافي المعتدل, لأنه لا

---

([1]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم,49/1, أكفئ سوامك, من أكفأ غيره إبله: أعطاه إياه ليأخذ نتاجها عاماً واحداً, السوام:الإبل, تكفئها:من الإكفاء.

([2]) نفسه, 594/1, يحق: يثبت.

([3]) نفسه, 151/2.

([4]) نفسه ,575/1, الحل: ضد الحرام, بنو النجار: قبيلة من الأنصار.

يرى معنى للتزاحم والتهالك على موارد العيش, ينهبونها نهباً عظيماً, كقوله:

**بنـــو آدمٍ يطلـــبون الثّرا ءَ, عند الثريّا, وعند الثّرى**

**فتـــىً زارعٌ وفتـــىً دارعٌ؛ كلا الرجلين غدا, فامترى**[1] (المتقارب)

لأنه يخاف أن تكون نتيجة ذلك التزاحم والخصام سفك الدماء, حيث يقول:

**للرزق أسبابٌ تَسبَّبْ, والعيشُ مأمولٌ,مُحَبّبْ**

**وصبابةُ الإنسانِ بالدّ نيا, أرتك دماً تَصبّبْ**[2] (مجزوء الكامل)

وكأنه أراد بذلك تصوير الناس في صراعهم, وكأنهم في شريعة الغاب؛ فالقوي هو الذي يظفر بالبقاء, ولو أنه لم يكن صاحب حق فيه, فيصبح غنياً يحترمه الناس ويخدمه, وأما الضعيف فيفوته الحق, وإن كان به أولى وأجدر, فيصبح فقيراً يقلل الناس من شأنه ويعيبونه, يقول:

**أجَلّوا مُكثِراً, وتنّصفوه؛ وعابوا مَنْ أقَلَّ وأنبّوُه**[3] (الوافر)

لذلك نراه " ينظر إلى أمر الغني والفقير بين الناس, فيلمز ما دَرج البشر عليه من تنكر للفقير وممالأة للغني, فهم في قديم الزمن وحديثه يخطّئون الفقير, ولو كان مصيباً, ويستصوبون فعل الغني ولو كان خاطئاً "[4].

والمعري يعود دائماً إلى وصف حياة الفقير, فكأنما تلك الوسيلة الوحيدة لاستعطاف الأغنياء لتلك الحياة التي يكشفها الشتاء برياحه العاصفة, وأمطاره الغزيرة, ويكشف الفرق الكبير بين الفقير العريان, والغني المدثر بالثياب, حيث يقول:

**لقد جاءَنا هذا الشـــتّاءُ, وتحتَهُ فقيرٌ مُعــرّى, أو أميرٌ مـــدَوّجُ**

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 76/1, الثراء: المال , الثرى: التراب, دارع: آكل الزرع, امترى: جاء بالطعام بالطعام لأهله.

([2]) نفسه, 184/1, تسبّب: أصلها تتسبّب, تكون سبباً, تصبّب: سالَ.

([3]) نفسه, 602/2, تنصفوه: خدموه.

([4]) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص73 .

وقد يُرزقُ المَجدودُ أقواتَ أمّةٍ؛ ويُحرَمُ, قوتاً, واحدٌ وهو أحوجُ[1] (الطويل)

إنَّ أشدّ ما آلم المعري, سعة انتشار الفقر بين الناس, واقتران ذلك كله بقلة الجود وشدة الحرص في المجتمع, حيث يقول:

إنَّ الغِنى لعزيــزٌ, حيــنَ تطلُبُه, والفقرُ في عنصر التركيب, موجودُ
والشّحُّ ليس غريباً عند أنفُسِنا, بل الغريبُ, وإنْ لم يُرْحَمِ الجــودُ[2] (البسيط)

إنه يتأذى ليسر حال الأغنياء بمقدار ما يتألم لعسر حال الفقراء, قال متألماً من سوء توزيع الثروة:

وكَمْ من آكــلٍ رزقاً هَنيئاً, وباشَرَ غيرُهُ عَنَتاً بطهوِ[3] (الوافر)

وهذا إن دلّ على شيء؛ فإنما يدل على اتفاق " رؤيته في توزيع الثروة مع ما يراه الدين الإسلامي"[4].

ومن هنا لابدّ من الانتباه إلى أن نقده لهؤلاء الأغنياء لم يكن سببه حسده لهم كما يظن البعض, أو لأنه كان فقيراً, فلم يكن ذلك إلا من باب الشفقة على الفقراء, لأنه متأكد بأن أمر الدهر لن يبقى على حاله, فلا يديم الغني على غناه, ولا يُبقي الفقير على فقره, وعليه فلا يجوز البطر في الغنى, ولا حتى الضجر في الفقر, حيث يقول:

يرُجّي مَعاشاً مــن له بــدواحِهِ؛ وهل يتركُ الدهرُ الفقيرَ وما رَجّى؟
فلا تبتَئِسْ للرزّق, إنْ بَضّ فاتِراً, ولا تغتبطْ إنْ جاشَ رزقُك أو ثَجّا[5] (الطويل)

وصفوة القول: إن الإنسان ــ كما يرى المعري ــ يجب أن يسعى وراء رزقه متوكلاً على الله لا متواكلاً, وأن يرضى بما يقسمه الله له, ويأخذ النفس بالقناعة فهي تُثري مع فقد

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 253/1-254, المدوج: نوع من الثياب يشبه اللحاف من حيث الكثافة وكونه محشواً قطناً أو صوفاً, ولذلك أطلقوا عليه اسم اللحاف الذي يلبس.

([2]) نفسه, 329/1.

([3]) نفسه, 637/2, الطهو: الطبخ.

([4]) خضر, سناء: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين, ص279.

([5]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 261/1, بضّ: سال قليلاً قليلاً , جاش: ارتفع, ثج:سال .

المال, كما أن الغنى الحقيقي غنى النفس والعفة, لا غنى الجيوب, وأنّ الفقر الحقيقي فقر التقوى والإيمان والعقل.

## 3. النقد الديني:

حرص المعري في مقدمة لزومياته على تبيان الهدف من نقده الديني, وكأنه أراد بذلك رسم منهج علمي قبل الشروع في عملية النقد تلك, حيث يقول: " وكان من سوالفِ الأقضيةِ أني أنشأتُ أبنيةَ أوراقٍ, توخّيتُ فيها صدقَ الكلمة, ونزّهتُها عن الكذبِ والمَيْط[1]ولا أزعمها كالسِّمْط[2]المتخذ وأرجو ألا تُحْسَب من السُّمَيْطِ[3], فمنها ما هو تمجيدٌ لله شَرُفَ عن التمجيد, التمجيد, ووَضَع المَنن في كلّ جيد, وبعضُها تذكيرٌ للناسين وتنبيه للرَّقَدَةِ الغافلين"[4].

وعليه فإن المعري جعل من قضية تنبيه الرقدة الغافلين موضوعاً رئيساً وهاماً في عمليته النقدية والإصلاحية, ومضى ينتقد رجال الدين لأنهم غفلوا عن أداء واجباتهم اتجاه الشعوب والأمم, حيث يقول:

**رُويدَكَ قد غُررتَ, وأنتَ حُرٌّ, بصاحــبِ حيلةٍ يعظُ النّسَاءَ**

**يحرّم فيكُم الصّهباءَ صُبْــحاً, ويشربُها, على عمدٍ, مساءَ[5]** (الوافر)

**مساءَ[5]**

وكأنه أراد أنْ يرسم صورة صادقة وعالمة بنفسية بعض ضعاف الدين الذين يدّعون بأنهم رجال دين, لأنهم يتخذون من الدين وسيلة لترويج بضائعهم ومكاسبهم الدنيوية الزائلة.

وهذا ما ذهب إليه أحمد أمين حيث قال: " وكان مما تصوره أبو العلاء في مثله الأعلى للمجتمع رجال دين التزموا أوامره, واجتنبوا نواهيه, وآمنوا بالله سراً وجهراً, وأخلصوا له حقاً,

---

([1]) الميط: البعد, وأراد هنا المغالاة.

([2]) السمط: الخيط إذا كان منظماً فيه خرزات العقد وإلا فهو السلك.

([3]) السميط: الآجر المبني بعضه فوق بعض.

([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 5/1.

([5]) نفسه, 61/1, الصهباء: من أسماء الخمر.

ودرسوا الدين وعرفوا أسراره, وميزوا بين ما أُوتي به حقاً, وما أُلصق به خرافة, وكانت أعمالهم الظاهرة وفقاً لعقائدهم الباطنة؛ فلا رياء ولا غش ولا خداع, إن قضوا بين الناس, فحكم بما أنزل الله, وتحرٍّ للعدل لا يشوبه ظلم وقوة في تنفيذ الحقّ لا يخالطها ضعف, وإن خطبوا أو وعظوا صدر قولهم من قلوبهم"[1].

كان المعري مخلصاً أشد الإخلاص لدينه ولأمته, وكان دائم الحرص على الحض على التمسك بدين الله, لما فيه من فائدة ومنفعة, كَرِهَ النفاق والرياء في الدين, ورأى أن الدين الحقيقي هو الدين الكامل التام, حيث يقول:

**أُرائيكَ, فليـــغفِرْ لـــيَ اللهُ زَلّتي بذاكَ, ودينُ العالَمينَ رياءُ**
**وقد يُخلفُ الإنسانُ ظَنَّ عشيرِهِ, وإنْ راقَ منهُ منظرٌ ورُواءُ**
**إذا قومُنا لم يعبدوا اللـــهَ وحدهُ بنُصحٍ, فــإنّا منـــهمُ بُرَآءُ[2]** (الطويل)
**بُرَآءُ[2]**

دعا المعري الأمة إلى أن تفيق من غفلتها, وما أحاطها به تجار الدين من دعاوى وخيالات يريدون بها التكسب المادي والحياة الدنيوية, حين يقول:

**أفيـــقوا أفيقوا يا غُـــواةُ! فإنما دياناتُـــكُمْ مكـــرٌ من القُدَماءِ**
**أرادوا بها جَمعَ الحُطام فأدركوا, وبادوا ومـــاتت سُنّةُ اللّؤماء[3]** (الطويل)
**اللّؤماء[3]**

إنَّ هؤلاء المنافقين في الدين ــ باعتقاده ــ كالكلاب التي تنبح؛ لا يعرفون الله ولا يخشونه, لذلك فهو يحذّر الناس منهم بأن لا يغتروا بما تمسك أيديهم من سُبَح, أو أن يغتروا بشيبهم, فيحسبونهم شيوخ دين يُعتزُّ بهم, فهم بلحاهم كالماعز لا أكثر, لا يفقهون شيئاً, لذلك فالدعوة إلى تطهير الأرض منهم هي خير الدعوات, وفي ذلك يقول:

---

([1]) أمين، أحمد: نظرة ابي العلاء إلى العالم الديني، ص258، نقلاً عن يسري، سلامة: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء، ص292.

([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 45/1, أرئيك: أخادعك, رواء: حسن المنظر.

([3]) نفسه, 65/1, يقصد أصحاب الدين وليست الديانة, حطام الدنيا: ما فيها من مال قليل أو كثير .

دَعَــوْا, وما فيهمُ زاكٍ,ولا أحــدٌ,     يخشى الإلهَ, فكانوا أكلُــباً نُبُحا
وهَــلْ أجــلُّ قتيلٍ من رجــالِهمُ,     إذا تُؤُمّــلَ, إلاّ ماعِــزٌ ذُبــحا؟
وليــسَ عندَهُــمُ ديــنٌ ولا نُسُكٌ,     فــلا تغّــرك أيدٍ تــحمِلُ السُّبَحا
وكم شيوخٍ غدَوْا, بيضاً مفارقُهُمْ.     يُسَبِّحونَ,وباتوا في الخنى سُبُحا
لو تَعْقِلُ الأرضُ ودّتْ أنها صَفِرَتْ     منهم, فلم يرَ فيــها ناظرٌ شَبحا[1]     (البسيط)
شَبحا[1]

" وإذا كان أبو العلاء يرى في الملوك الشر المستطير الذي أذلَّ الأمة ومزق وحدتها وسلبها مالها وثروتها, فهو يرى أن رجال الدين ــ إلا أقلهم ــ قد خرجوا عن الدين السوي المستقيم بما ابتدعوا من آراء, وبما أحدثوا من مذاهب وطرق لا عهد للدين بها, لأن كلّ ما تأتي به هو البلاء والشر"[2].

إن أبا العلاء يحذر الأمة أشد التحذير من هؤلاء المتكسبين بالدين لئلا تقع في شباكهم, حيث يقول:

فــلا يَغُرّنْكَ من قُرّائِــنا زُمَرٌ,     يتلونَ, في الظُّلَمِ, الفُرقانَ والزُّمَرا
يُقامِرونَ بما أُوتوهُ منْ حِكَمٍ,     وصاحبُ الظّلْمِ مَقمــورٌ إذا قَمَرا
يُبدي التديّنَ, محتالاً,ضمائرُهُ,     غيرُ الجميل,إذا ما جسمُهُ ضَمَرا[3]     (البسيط)
ضَمَرا[3]

إن الدين وسيلة لا غاية, وما هدفه إلا تزكية النفوس, وتنقية القلوب والضمائر, وتطهيرها من الصفات الذميمة, وهذا يتجلى في مثل قوله:

ما الخيرُ صومٌ يذوبُ الصائمونَ لهُ,     ولا صلاةٌ,ولا صوفٌ على الجسدِ
وإنــما هــوَ تركُ الشــرّ مُطّرَحاً,     ونفضُكَ الصّدرَ من غِلٍّ ومن حسَدِ[4]     (البسيط)
حسَدِ[4]

لأن الإنسان مهما فعل من أنواع النسك, لا يُعَدّ ناسكاً إذا لم يمسك نفسه عن أطماع نفسه

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم ,292/1 .
([2]) النكدي, عارف: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء, ص128 .
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 496/1, الزمر: من سور القرآن.
([4]) نفسه, 375/1, غلّ: حقد وضغن.

وشهواتها, بل على العكس تماماً يُعدّ جاهلاً بحقيقة الدين, وهذا ما عبر عنه المعري في قوله:

**سبّح وصلّ وطُفْ, بمكةَ زائراً, سبعينَ, لا سبعاً, فلستَ بناسكِ**
**جَهِلَ الديانةَ من إذا عَرَضتْ لهُ أطمــاعُهُ, لم يُلْفَ بالمُتَماسكِ[1]** (الكامل)
**بالمُتَماسكِ[1]**

ولعل الاحتيال والنصب الذي يستغل سذاجة العامة من الناس أشد ألماً وحزناً على أبي العلاء, إن من كانوا كذلك لهم أشدّ خطراً على ذلك المجتمع, وذلك للسهولة التي يستطيعون بها استغلال سذاجة الناس, وكان من بين هؤلاء المحتالين نفر من:

أ_ **المتكلمين**: وهم الذين يدعون إلى مذهب خاص, أو التعصب لفرقة معينة, طمعاً في الرزق, أو رغبة في منفعة, فما صناعتهم إلا الكلام, فلا روح فيها ولا أحلام,على نحو ما نرى في قوله:

**كأنَّ نفوسَ الناسِ, واللهُ شاهدٌ, نفوسُ فَراشٍ, ما لهنَّ حُلومُ**
**وقالوا: فقيهٌ, والفقــيهُ مُمَوِّهٌ, وحِلْفُ جدالٍ, والكلامُ كُلومُ[2]** (الطويل)
**كُلومُ[2]**

ب_ **الفقهاء المنشغلين بقضية الجدل**, وفيهم يقول المعري:

**فــلا يَغرنّــكَ من قُرّائنا زُمَرٌ, يتلونَ,في الظُلَمِ, الفرقانَ والزُّمَرا**
**يُقــامِرونَ بما أُوتوهُ منْ حِكَمٍ, وصاحبُ الظّلْمِ مقمورٌ إذا قَمَرا[3]** (البسيط)
**قَمَرا[3]**

وبعض القراء المنشغلين بالقراءة, الذين جعلوا غاية قارئهم التطريب والكسب, حيث يقول:

**وقارئكمْ يرجو بتطريبه الغِنَى, فآضَ كما غنَّى, ليكسِبَ زلزلُ[4]** (الطويل)
**زلزلُ[4]**

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 242/2 .

([2])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 392/2 .

([3]) نفسه 496/1, الزمر: من سور القرآن .

([4]) نفسه, 261/2, زلزل: عواد مشهور.

فمعظم القراء ــ كما يصورهم ــ يرفعون الأصوات بالقراءة, وكأنهم يشقشون بالغناء, حيث يقول:

**صارَ الكتابُ مزاميرَ الغُواةِ,لهم به أغانيُّ في حاميمَ والزُّمَرِ** [1] (البسيط)

**والزُّمَرِ** [1]

**جـ ــ حماة الكعبة:** وهم الذين يقومون باستغلال مواسم الحج, لفرض الأجعال على الزائرين, حيث يقول:

**ما بالُ مكّةَ فيها مَعْشَرٌ سُدُنٌ, مَنْ يَطْرُقِ البيتَ يُؤثرهمْ بأجعالِ** [2]
(البسيط)

**بأجعالِ** [2]

جاعلاً همهم الوحيد هو جباية الأجعال, لا المحافظة على البيت.

**د ــ فئات خاصة من المتعبّدين في الجوامع والسّاكنين في الصّوامع:** فهؤلاء الناس يأخذون ما يسمعونه قضية يسلمون بها دون مناقشة, أو تمييز بين الصدق والكذب, أو الصواب والخطأ, حيث ينقلون هذه القضية برمتها إلى من بعدهم فتستمر سلسلة الخطأ متواصلة إلى ما لا نهاية, ويقول المعري فيهم: " والذين يَسكُنونَ في الصّوامعِ, والمتعبِّدون في الجوامِعِ, فيأخذون ما هم عليه كنقلِ الخَبَرِ عن المُخبرِ, لا يُمَيِّزون الصدقَ من الكذبِ لدَى المُعَبِّر "[3].

أراد أبو العلاء إبراز أهمية العقل في الأمور الدينية, لذلك فهو ينعى على الناس الذين يصدقون ما يخالفه العقل, والنتيجة في ذلك أنهم يصدقون المحال, حيث يقول:

**قد صدقَ الناسُ ما الألبابُ تُبطِلُه, حتى لظنّوا عَجوزاً تحلــبُ القَمَرا**
**وحَدّثَتْكَ رجــالٌ عــن أوائلِــها؛ فاسمعْ أحاديثَ مَيْنٍ تُشْبِهُ السَّمرَا** [4] (البسيط)

"فالعقل هو الذي يحدد القيمة التي تستمد طبيعتها من طبيعته, ومكانتها من مكانته, ليكون

---

([1]) نفسه , 535/1, حاميم والزمر: من سور القرآن .
([2]) نفسه , 333/2 .
([3]) المعري, أبو العلاء: رسالة الغفران, ص464 .
([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,497/1.

كل توجه نحو العقل هو في نفس الوقت توجهاً نحو القيمة"[1].

وهذا ما أكّدَ عليه الأستاذ كرّو حين قال: " إن المعري يعتقد أن كل مشكلة في الحياة, وخاصة المشاكل الفكرية والدينية, لا يمكن الاهتداء إلى حلها إلا بالعقل وحده"[2], حيث يقول المعري:

**فشاوِرِ العقلَ, واترك غيرَهُ هَدَراً؛ فالعقلُ خيرُ مشيرٍ ضمَّهُ النادي[3]** (البسيط)

**النادي[3]**

إن المعري لا يرى الدين خزعبلات وخرافات, ويرفض كل ما يتعارض مع العقل والمنطق من غير المسلّمات, على نحو ما نرى في قوله:

**أوقدْتَ نـــاراً بافتكاركَ أظهَرَتْ نَهْجاً, وأنتَ على سَناها عاشِ**
**مُتكـــهِّنٌ, ومـــنجِّمٌ, ومُــعزِّمٌ, وجميـــعُ ذاكَ تَحيّلٌ لمعـــاشِ[4]** (الكامل)

**لمعـــاشِ[4]**

لذلك فهو ينعى على تلك الفئة التي لا تُحكّم عقلها في دينها, بل تتبع عادات وتقاليد لا صحة لها من الأساس,على نحو ما نرى في قوله:

**ويَنشأُ ناشـــئُ الفتيانِ, مِنّا, على ما كانَ عَوّدَهُ أبوُه**
**وما دانَ الفتى بحِجىً, ولكنْ يُعَلّـــمُهُ التَديّنَ أقربـــوهُ[5]** (الوافر)

**أقربـــوهُ[5]**

إن المعري يؤمن كل الإيمان بأن، العقل هو الهادي والمرشد, وبه يتجنب الفرد كل خطيئة وزلل, وهو الرائد إلى الحق والصواب, والقائد إلى الزعامة والسعادة.

**هـ ــ المنجمين والعرافين:** وما لهؤلاء علم بأي شيء, ولكن لهم شباك تنصب لاستدرار الأموال

---

([1]) خليفات, سرحان: دراسات(العلوم الإنسانية والشريعة), عمان, الجامعة الأردنية, مجلد12,عدد8, ص89 .

([2]) كرو, أبو القاسم محمد: شخصيات أدبية من الشرق والغرب, بيروت, دار مكتبة الحياة, 1966م, ص273.

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 379/1.

([4])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 77/2, عاش, من عشا الإنسان: ساء بصره.

([5]) نفسه, 601/2.

من المغفلات والمغفلين, حيث يقول:

**سألتْ مُنَجّمَها عن الطفـلِ الذي ... في المهد: كَمْ هو عائشٌ من دهرِهِ؟**
**فأجابها: مائةٌ, ليــأخذَ دِرهــماً, ... وأتى الحِمــامُ وليدَها في شهــرِهِ[1]** (الكامل)
**شهــرِهِ[1]**

والأنكى من ذلك كله أن هؤلاء الدجالين لا يكتفون بابتزاز الأموال, بل ربما عمدوا إلى خداع النساء واستغلال سذاجتهن, ويتناول المعري النساء اللاتي يقفن بباب المنجمين يسألنهم علم الغيب, فيقول واصفاً إحداهن, وقد جاءت تسأل عن حال زوجها الذي تغيّب, فراح هذا يكتب لها تعويذة بالزعفران:

**وقَفَتْ به الورْهاءُ, وهيَ كأنها, ... عند الوقوفِ,على عرينٍ تَهجُمُ**
**ســألتْهُ عن زوجٍ لــها مُتَغَيّبٍ, ... فاهتاجَ يكتبُ بالرِّقــانِ ويُعْجِمُ[2]** (الكامل)
**ويُعْجِمُ[2]**

يود المعري لو أنه كان حاكماً ليمنع هؤلاء الدجالين من عملهم البشع, ولأنه لم يكن هذا الحاكم أو صاحب السلطة, فقد اكتفى بدعوة الحكام إلى رجمهم, على نحو ما نرى في قوله:

**هُمُ ناسٌ ولو رُجِموا استحقّوا ... بأنهّم شَيَــاطينُ الرّجوم[3]** (الوافر)
**الرّجوم[3]**

ويقول أيضاً مسفهاً العرّاف, محذراً من أباطيله:

**لا تُصغِيَنّ إلى حازٍ لتَسْمَعَهُ, ... فما يُطيقُ لما أخْفَيْتَ إبرازا**
**أرادَ إحرازَ قُوتٍ كيف أمكَنَهُ, ... فَظلَّ يكتبُ للنسوانِ أحرازا[4]** (البسيط)

---

([1]) نفسه , 570/2.
([2]) نفسه , 403/2, الورهاء: الحمقاء, الرقان: الحناء والزعفران, يعجم: ينقط الحروف.
([3])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 465/2 .

أحرازا[1]

فهؤلاء المنجمون والعرافون يتظاهرون بمعرفتهم للغيب, وهم لا يعرفون شيئاً حتى عن أنفسهم, لأن الله وحده هو الذي بيده مفاتيح الغيب وخفاياه, كقوله:

**يُحَــدّثُنا عَمّــا يكونُ مُنَجّمٌ,**　　**ولم يَدْرِ إلا اللهُ,ما هو كائنُ**[2]　　(الطويل)

كائنُ[2]

و_ **القضاة:** عرف أبو العلاء حالات زاغ فيها القضاة عن الحق, فلم يسكته ذلك عن التنديد بهم, لذلك فهو يحذر من كل ما قد يحمل على التحيز, لأنه يتألم لحقّ الضعيف الذي يُزهــق تحــاملاً وتحيزاً, والباطل القوي الذي ينقلب حقاً, فيصيح بالقضاة مذكّراً بوجوب العدل, وإعطاء كــل ذي حق حقه, محذراً إياهم من الجور, على نحو ما نرى في قوله:

**وقد جارَ القُضــاةُ, إذا أشــاروا**　　**بأيْسَرِ نَظْــرَةٍ, مُتَحـــاملينا**
**ونُــودوا في إمــارَتِهِمْ, فجفّوا,**　　**وعــادوا للثّقـــائلِ, حاملينا**
**لعلَّ معاشراً, في الأرض, جُوزوا**　　**بما كانــوا, قديمــاً, عاملينا**[3]　　(الوافر)

إنه يستنكر الرشوة أشد الاستنكار, حتى لو جاءت على شكل هدية, لأنها قد تُغري القاضي بمحاباة أحد الجانبين المتقاضيين حيث يقول:

**لا تُهادِ القُضاةَ كي تَظْلِمَ الخَــ**　　**ــصمَ, ولا تذكُرَنّ ما تُهديهِ**
**إنَّ من أقبَحِ المــعايبِ, عاراً**　　**أن يَمُنَّ الفتى بمــا يُســديهِ**[4]　　(الخفيف)

وأكثر ما يندد به المعري من مزالق القضاء, شهادة الزور, والتي هي أخطر مزالق القضاة, وأوسعها انتشارا, وأكثرها تداولاً وممارسة, حيث يقول ذاماً إياها:

**بئسَ الشهادة,إنْ سألتَ,شهادةٌ,**　　**يَرجو الملاطفُ قَرْضَها وقِراضَها**
**ولَشرُّ أصحابِ الرجالِ عصابةٌ**　　**تــعطيكَ دونَ ثيــابِها أعراضَها**[5]　　(الكامل)

---

([1]) نفسه, 625/1, الحاز: الكاهن .

([2]) نفسه , 493/2 .

([3]) نفسه , 529/2, جفوا: لعله من جفّ المال: جمعه.

([4])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 635/2 .

([5]) نفسه, 91/2, القرض: ما يقرض من المال, القراض: المجازاة.

إن أشد ما ينكره المعري أن يكون القاضي على علم بأن الشهادة زور, فيقبلها ويؤيدها زيادة في ثروته أو شهرته, فيقول:

**ورُبّ شهادَةٍ ورَدَتْ بِزورٍ, أقامَ لنَصّها القاضي عُدولَهْ**[1] (الوافر)

إنه يتألم أشد الألم لما يراه من عدول القضاة عن الحق, بدلاً من أن يعدلوا بين الناس بالحق, حيث يقول:

**يقولونَ: في المِصْرِ العُدولُ, وإنما حقيقةُ ما قالوا: العدولُ عن الحقّ**[2] (الطويل)

وبهذا فقد كان يشق عليه أن يكون قومه أصحاب قضاء, ويتمنى لو أنهم كانوا قد استعفوا منه, كقوله:

**ولستُ بمُختارٍ لقوميَ كَوْنَهُمْ قُضَاةً, ولا وَضعَ الشهادةِ في رِقّ**[3] (الطويل)

**ز_ مُحَرّفي الكتب السماوية:** لقد أخطأ من ظن أن المعري هاجم الكتب المقدسة, لأن الحقيقة أنه هاجم الذين اعتدوا على الكتب المقدسة, وقاموا بتحريفها, ونزعوا عنها قدسيتها, واشتروا بها ثمناً قليلاً, مستغلين غريزة التدين في نفوس بعض الناس, وسرعة استجابتهم على غير بصيرة, لدرجة أنه:

**ولو قالَ سِيدُ غضاً: بُعِثْتُ بمِلّةٍ من عند ربّي, قال بعضهمُ: نعمْ!**[4] (الكامل)

إن أشد ما كان يؤلم المعري أنهم إذا ما أرادوا تأييد ما يذهبون إليه يتجهون إلى أقوال السابقين, على نحو ما نرى في قوله:

---

([1]) نفسه , 301/2 .

([2]) نفسه , 202/2 .

([3]) نفسه, نفس الصفحة .

([4])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 480/2.

**وإذا غَلَبْتَ مُنَاضلاً, عن دينِهِ, ألْقى مقالِدَهُ إلى الأخبار[1]** (الكامل)

وقوله في غفرانه: "ولعلّ كثيراً ممن شُهِر بهذه الجهالاتِ تكونُ طويتُه إقامةَ الشريعةِ, والإرْتاعَ برياضِها المَريعَةِ, فإنَّ اللسانَ طمَّاحٌ, وله بالفَنَدِ إسْمَاحٌ"[2].

وليس من المستبعد إذن أن نراه, وقد وجّه إلى بعض المذاهب الإسلامية نقداً لاذعاً وساخراً متهكماً عنيفاً, لأن غايتها كانت المنفعة والارتزاق, على نحو ما نرى في قوله:

**مذاهبٌ, جَعلوها من معايشهم, مَنْ يُعْملِ الفكْرَ فيها تُعْطِهِ الأرقا[3]** (البسيط)

نعى على الغلاة من الشيعة الذين يؤلّهون علياً, لم يقبل بقول الخوارج والناصبين وهم من غلاة الخوارج الذين يكفرون معاوية وعلياً ــ رضي الله عنهما ــ كقوله:

**والناسُ, في ضِدِّ الهُدى مُتشيّعٌ لزمَ الغُلُوّ, وناصبيٌّ شاري[4]** (الكامل)

ونقد المعتزلة في قوله:

**ومُعتَزِليٍّ لــم أوافقْهُ, ساعةً, أقولُ له: في اللفظِ دُنياكَ أُجْزَلُ[5]** (الطويل)

وهاجم الباطنية في سخرية عنيفة, لإحلالهم نساءَهم, في مثل قوله:

**فما أفادوا سوى إحلالِ نسْوَتِهِم, معّرضاتٍ لأهلِ الباطنِ الفُجُرِ[6]** (البسيط)

ومنهم النصيرية الذين يؤمنون بالتناسخ, وأن روح الإنسان بإمكانها الانتقال إلى غيرها من نبات أو حيوان بعد موتها, لذلك يقول المعري ساخراً:

**يا آكِــلَ التُّفّــاحِ لا تَبْعِدَنْ ولا يُقِمْ يومُ ردىً ثاكِلَكْ**

---

([1]) نفسه, 588/1 .

([2]) المعري, أبو العلاء: رسالة الغفران, ص446 وما بعدها, طماح: بعيد الطرف.

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 196/2.

([4]) نفسه, 583/1, ناصبي شاري: (الخوارج الذين زعموا أنهم شروا أنفسهم من الله أي باعوها).

([5]) نفسه, 260/2 , المعتزلي: من المعتزلة, إحدى فرق المسلمين المشهورة.

([6])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 540/1, أهل الباطن: أراد بهم الباطنيين .

قد كنتَ, في دَهْرِكَ, تُفّاحةً, وكانَ تُفّاحُـكَ ذا آكِلَكْ[1] (السريع)

وفي الناصبية والروافض, يقول ناقداً اختلافهم في مبايعة عليّ رضي الله عليه:

لــم يُثبِتــوا بقيــاسٍ أصــلَ دينــهِمُ فيحكمــوا بيــن رُفّاضٍ ونُصــــاّبِ
ما الركنُ في قول ناسٍ, لستُ أذكرهم, إلا بقــــــيةُ أوثــــانٍ وأنصــــابِ[2] (البسيط)
وأنصـــــابِ[2]

كما سخر من المتصوفة, ورأى أنهم جند لإبليس, فيقول:

لــو كُنْتُمْ أهلَ صفوٍ قال ناسبُكم, صفــويّةٌ, فأتى باللفظِ ما قُلِبَا
جنــدٌ لإبليسَ في بدليسَ,آونَةً؛ وتارةً يحلِبون العيشَ في حَلَبَا
طلبتمُ الزّادَ في الآفاقِ من طمعٍ؛ واللهُ يُوجَـــدُ حَقّاً أينما طُلِبا[3] (البسيط)

ففي البيت الأخير؛ إشارة إلى طرقهم المعقدة في البحث عن ماهية الله وفق مناهج ملتوية غامضة, لأن المعري يرى أن الله يصل إليهم بغير تلك الطرائق المبهمة, فالطريق إليه لا لبس فيه, ولا غموض, ويتضح نقده لذلك المنهج والفكر الصوفيين بشك جلي عن طريق دعوته لهم بمخافة الله, وتحذير الناس من اتباعهم لنهجهم الفاجر والعاصي, حيث يقول:

خافــي إلهكِ, واحــذري من أُمّةٍ لم يَلْبَسوا, في الدينِ, ثوبَ مُجاهد
أكــلوا فأفنَوا ثم غَنّــوا وانتَشَوا فــي رقْصِهِمْ, وتمتعوا بالشّــاهد[4] (الكامل)

ويقول: في جدل ونقد ساخر, جاعلاً نفسه من أهل (القطنية) مقابل (الصوفية) لأنهم لا يخافون الله, ولا يهمهم سوى إشباع بطونهم وفروجهم:

نحــنُ قطنّيةٌ, وصــوفيّةٌ أنــ ـتُمْ, فقَطْنيٌ من التُجمّل, قُطني
تقطعونَ البلادَ بطــناً وظــهراً؛ إنمــا ســعيُكــُمْ لفَــرْجٍ وبَطنِ[5] (الخفيف)

ففي البيت الأخير؛ إشارة إلى تهكم بالغ ونقد ساخر, إذ جعل المتصوفة دون مستوى

---

([1]) نفسه, 252/2.

([2]) نفسه , 154/1, الرفاض والرافضة: فرقة إسلامية بايعت زيد بن عليّ ثم تركته, النصاب والناصبة: الذين يدينون يدينون

تتمة – ببغض عليّ, فهم ضد الرافضة.

([3]) نفسه , 120/1 , الصفوية: فئة من الخوارج, بدليس: بلدة من نواحي أرمينية .

([4]) نفسه, 393/1 .

([5])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 575/2 .

البشر, فهم كالبهائم لا تطلب غير (الجنس والطعام).

إنَّ أبا العلاء المعري يرى أن أصحاب تلك المذاهب هم أكثر الناس ضلالة, ولذلك فهو يكرههم جميعاً ويستغرب كيف أنهم لا يهتدون, ولا يرجعون عن فحشهم وضلالهم إلى العفة والصلاة, حيث يقول:

**و كَمْ من فقيهٍ خابطٍ في ضـــلالةٍ,       وحُجّتُهُ فيها الكتابُ المُنزَّلُ**
**فعفّوا وصلّوا واصمتوا عن تَناظُرٍ,       فكلُّ أميرٍ بالحوادث يُعزَلُ**[1] (الطويل)

إنّ من المعقول أن نجد المعري وقد أنكر على تلك الفئات الفساد والضلال والانحلال, فراح ينقدهم نقداً لاذعاً, لعله يردعهم إلى سبيل الحق والصواب.

لم يكتفِ المعري بنقد المذاهب الإسلامية فحسب, بل راح ينكر على أصحاب الديانات السماوية أفعالهم, آخذاً على النصارى تعظيم الصليب, والقول بصلب المسيح عليه السلام, وعلى اليهود (آل إسرائيل) إنكار نبوة المسيح, على نحو ما نرى في قوله:

**وما أرى كلَّ قومٍ, ضلَّ رُشْدُهُمُ,       إلاّ نظيرَ النّصارى أعظموا الصُّلُبا**
**يا آلَ إسرالَ هَلْ يُرجى مسيحُكُمُ,       هيهـــاتَ قد مَيّزَ الأشياءَ من خُلبا**
**قُلنا: أتانا,ولم يُصْــلَبْ, وقولُكُمُ,       ما جـــاءَ بعدُ, وقالتْ أمةٌ: صُلِبا**[2] (البسيط)

إنه يرى أن معتقدات اليهود ليست ثابتة, وإنما هي دعاوى سُطّرت في الكتب, بل يَسْخر منهم لتجرئهم على تحريف التوراة بأيدي أحبارهم, كقوله:

**وليسَ الذي قالَ اليهوديُّ ثابتاً,       سوى أنه بالخطّ أُثبِتَ في السِّفر**[3] (الطويل)

إنه يرى أن تلك الأخبار المتضاربة التي جاء بها أصحاب تلك الديانات المتعددة, ما هي إلا أنباء ملفقة غايتها تحيير الناس وتضليلهم عن طريق الصواب, لذلك فهو متأسف على تلك الأوراق والأحبار التي ضيعت جزافاً, على نحو ما نرى في قوله:

---

([1]) نفسه, 261/2.
([2]) نفسه,120/1.
([3])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 525/1.

أتتَنْــيَ أنبـــاءٌ, كثيــرٌ شُجــونُها, لها طُرُقٌ أعيا على الناس خُبرها
هَفا دونـها قَسٌّ النصارى ومُوبَذُ الــ ــمجوسِ, وديّانُ اليهودِ وحَبرها

وخطّوا أحــاديثاً لهم في صحــائفٍ, لقدْ ضاعتْ الأوراقُ فيها وحِبرها[1] (الطويل)

رأى أبو العلاء أن تلك الديانات التي يديرها فئة من الضالين ستؤول في النهاية إلى ضلال مبين, لأنها مبنية على ضلال, حيث يقول:

مسيــحيةٌ من قبلـــها موســويّةٌ, حكَتْ لك أخبــاراً, بعيداً ثُبوتها
وفارسُ قد شبّتْ لها النارَ وادّعتْ لنيرانها أنْ لا يجــوزُ خُبوتُها
فــما هَــذِهِ الأيـــامُ إلا نظـــائرٌ؛ تساوتْ بها آحــادُها وسبوتها[2] (الطويل)

**ح_ فئة من خطباء المساجد:** كان من المفروض لتلك الفئة أن تكون مثلاً حسناً للناس, لكن المعري خبر أحوالهم ودرس سلوكهم, فرأى أنهم اتخذوا الدين وسيلة لتحقيق شهواتهم ونزواتهم الدنيوية, فكانوا يمدحون الملوك في المساجد والمنابر التي خصصت لذكر الله ورسوله, ولإرشاد الناس ووعظهم, وقد عزّ على المعري مدحهم في غير موضعهم, لأنهم كانوا يفترون لهم أعمالاً وهمية, ويسكتون عن مساوئ لهم تقشعر لها الأبدان ويعظّمون الحقير منهم تزلفاً وبهتاناً, على نحو ما نرى في قوله:

ما أجهلَ الأُمَمَ الذينَ عرفْتُهمْ, ولعلَّ ســالفِهُمْ أضــلُّ وأتبرُ
يَدْعونَ في جُمْعَاتهمْ, بسفاهةٍ, لأميرهِمْ, فيكــادُ يَبْكي المِنْبرُ
ما قيل في عِظَمِ المَليكِ وعزّهِ, فاللهُ أعظمُ في القياسِ وأكبرُ[3] (الكامل)

حتى أنه يعجب لأمر أولئك الخطباء كيف لا تخسف بهم الأرض, ولا تميد بهم المنابر لكثرة ما يكذبون وينافقون على ما روي من قوله:

كِذْبٌ يُقالُ على المنابرِ دائماً, أفلا يَميدُ, لما يُقالُ, المنبرُ؟[1] (الكامل)

---

([1]) نفسه, 423/1.
([2]) نفسه, 196/1 .
([3])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 445/1.

وقد حذر الناس من أن يخدعهم أولئك بخطبهم المحبرة, وعظاتهم المضللة, لأنها خارجة من قلب ليس للإخلاص فيه أثر, وإنما هي حيلة للكسب والارتزاق, وفي ذلك يقول:

**لا يخــدعَنَّكَ داعٍ قــامَ, فــي مَلإٍ, بخُطْبَةٍ, زانَ معنــاها وطَــوَّلَها**
**فما العِظَاتُ, وإنْ راعتْ,سوى حِيَلٍ من ذي مَقالٍ, على ناسٍ تحوَّلَها**[2] (البسيط)

وخلاصة القول؛ فإن المعري كان قد التزم ـــ بنقده الديني ـــ أمرين اثنين؛ **أولهما:** الإصلاح الاجتماعي لما رآه معوجاً ومنكسراً من قبل تلك الطبقة العليا التي كان من المفروض أن تكون المثل الأعلى في العلم والخُلق والأدب والحياء, **وثانيهما:** الاعتصام بحبل اللـــه والتشبث بالتقوى والإيمان, لأنه يعد الدين عاطفة روحية سامية نابعة من القلب والضمير, ولم يكن نقده عرضاً لمقدرته الأدبية وقوته البيانية على نحو ما يفهم من قول الأستاذ أمين الخولي: "لقد جعل ذخيرته اللغوية وثقافته الأدبية وسيلة للتعبير الدقيق عن خواطر نفسية, وتأملات فنية, وخلجات داخلية كانت تزخر بها نفسه, ويجيش بها صدره"[3].

## 4. النقد الاجتماعي:

ساد الانحلال الخُلقي في المجتمعات العربية أيام المعري, مما أدى إلى انهيار الأسر العربية وتفككها من ناحية, وانتشار الرذائل الخلقية وسيادتها من ناحية أخرى, لذلك كان للمعري تجاه ذلك موقفان:

1. **موقفه من الأسرة العربية؛** ويمكن لنا تبيانه على النحو الآتي:

**أ ـــ موقفه من المرأة:** ويبدو لنا أنه كان قاسياً على المرأة بما نظم في بعض أشعاره في تجريحها, ونفي الشرف والخلق عنها, حتى إنه ليراها فتنة للرجل تتعرض له بأساليب غواية متعددة؛ بدلالها وزينها وتمايلها, على نحو ما يفهم من قوله:

**أُلاتُ الظَّــلم جِئْنَ بشرّ ظُلْمٍ, وقَــدْ واجَهْنَنا متظلّماتِ**

---

([1]) نفسه , 448/1 .

([2]) نفسه, 294/2 .

([3]) الخولي, أمين: رأي في أبي العلاء, ص136 .

**فوارسُ فتنةٍ, أعــلامُ غَيٍّ, لَقِيْنَكَ بالأســاورِ معلِمَاتِ**
**خمورُ الريقِ لسْنَ بكلّ حالٍ, على طُــلا بهنّ مُحرَّماتِ[1]** (الوافر)

حتى إنه ليرى أن النساء لو اجتمعن للعبادة, واعتكفن في المساجد لاجتمعن للغواية, حيث يقول:

**وليس عكوفُهنّ,على المُصلّى, أماناً من غوارٍ مُجرماتِ[2]** (الوافر)

ويعدّ ذهابها إلى الحمام من شر الفتن, كقوله:

**إنْ شئتِ أن تحفظي من أنتِ صاحبةٌ لَهُ, فلا تدخُلي, في المصرِ حَمّاما[3]** (البسيط)

وسبب ذلك أنها ــ من وجهة نظره ــ مصدر الشر والفتنة, فهي غادرة متهالكة على لذاتها, لذلك فالحجاب ضروري للنساء حتى على وليدها ابن العشر سنوات, إذ لا يُؤتمَنّ على الشرف التليد, على نحو ما نرى في قوله:

**إذا بلغَ الــوليدُ لــديكَ عَشْراً, فلا يدخُلْ على الحُرمِ الوليدُ**
**فإنْ خالفْتَني وأضعتَ نُصحي, فأنتَ, وإنْ رُزِقتَ حِجىً بليدُ**
**ألا إنَّ النســاءَ حِبَــالُ غَــيٍّ, بهنَّ يُضيَّعُ الشــرفُ التّلــيدُ[4]** (الوافر)

بل هُنّ عبء على كاهل الرجال في كل الأمور, لا يشتركن في حرب, ولكنهن مشتركات في إنجاب الأعداء (الأبناء العاقون), على نحو ما نرى في قوله:

**ولَسْنَ بدافعاتٍ يومَ حَرْبٍ, ولا في غـــارةٍ مُتَغَشّماتِ**
**وقد يفقدنَ أزواجاً كراماً, فيـــا للنســوةِ المتأيّماتِ!**
**يلدن أعادياً, ويكُنّ عاراً, إذا أمسَيْنَ في المتهضّماتِ[5]** (الوافر)

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 231/1 وما بعدها,أولات الظلم: صاحبات الأسنان التي فيها ظَلَم, وهو ماء الأسنان وبريقها, معلمات: موسومات بعلامات أو مزينات .

([2]) نفسه , 236/1, الغواري: الخادعات.

([3]) نفسه, 430/2 .

([4])نفسه , 337/1 .

([5])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 233/1, المتأيمات: المترملات, الأرامل, المتهضمات: من تهضمه: ظلمه وغصبه.

لعل تلك الأبيات وما شابهها في لزومياته دفعت الباحثين إلى تتبع مواقفه منها وتعليلها, ومن هؤلاء الباحثين الدكتور كامل سعفان الذي رأى أن السبب الرئيسي في سوء ظن المعري في النساء "أن والده الشيخ كان قد وقع في شغف جارية له, ولما ماتت حزن والده لفراقها حزناً شديداً, فكان لابدّ للمعري من أن يتخذ من خضوع الأب لهذه الجارية امتهاناً لمثله الأعلى, وانتهاكاً لحرمة بيته, ثم إنْ كان الشيخ الوقور قد وقع في حبائل جارية تربّت في بيته كإحدى بناته, فأي رجل يملك النجاة من أية امرأة؟!(1).

ولعلنا نتساءل: ما مصدر الدكتور كامل سعفان في تلك الرواية؟ إذ أننا بعد البحث والتنقيب لم نعثر على أصل تلك الرواية ولا على أحداثها.

وأما الدكتور حمادي؛ فإنه يعزو أسباب عزوف المعري عن المرأة إلى "وضعه المادي الفقير الذي لا يستطيع فيه إعالة زوجته وأولاده القادمين, كما أن قبحه ودمامة وجهه وقفا حائلاً دون زواجه"(2).

لعلنا لا نرى في مثل هذين السببين؛ ما يطلعنا على السبب الحقيقي لعزوف المعري عن المرأة, فكثير من الناس كان فقيراً أو قبيحاً ومع ذلك فقد تزوج وأصبح معيلاً لأسرته, وهذا لا ينطبق على عصر المعري فحسب, بل إننا نراه ينطبق على كل العصور والأزمنة.

وأما الدكتور اليازجي فقد رأى "أن المرأة ـــ من وجهة نظره ـــ مخلوق ضعيف يستخفه كل مثير ويستهويه كل معسول وطريف, ولما كان مجتمعه على نحو ما عرف عنه من الانحطاط والفساد, فقد خشي منه عليها, فأوصى بصونها بالبيت, ونصح بمنعها عن ارتياد المجتمعات العامة"(3).

والباحثة لا توافق على وجهة نظر الدكتور اليازجي مطلقاً, لأن المرأة الملتزمة والجادة لا يستخفها كل مثير ولا يستهويها كل معسول وطريف, هذا من ناحية, وأما فساد المجتمع فإنه

---

(1) سعفان, كامل: في صحبة أبي العلاء بين التمرد والانتماء, ص166 .

(2) حمادي, محمد الحبيب: المعري وجوانب من لزوم ما لا يلزم, ص97.

(3) اليازجي, كمال: أبو العلاء ولزومياته, ص231.

يؤثر على المرأة ناقصة العقل والدين, دون أن يؤثر على تلك الرزينة الحريصة على أخلاقها ودينها.

وهناك من ذهب بعيداً عن تلك الأسباب, ليعالج تلك القضية من خلال ربطها بمذهب فلسفي أو عقدة نفسية اتصف بها المعري وفق مذهب فرويد, وقد رأى الدكتور المحاسني "أن المعري كان مكبوت الغريزة, وعندما كُبتت غريزته الجنسية تغلغلت سمومها خلال نفسه حتى ظهرت في شعره"(1).

ربما لا نوافق على رأي الدكتور زكي المحاسني, من أن كبت الغريزة عند أبي العلاء كانت وراء حملته العنيفة ضد المرأة, وموقفه الصارم منها, ولا يمكن كذلك أن نقرّ بأن المعري كان بطبعه عازفاً عن المرأة, فما من إنسان يولد حاملاً مشاعر عدائية نحو أحد من البشر, وأن مشاعر الكره والحب, أو الرفض والقبول لا تتبلور إلا من خلال موقف فكري متكامل, فلو حاولنا تتبع مرحلة شباب المعري, لوجدنا أنه لم يحمل في أغلبه مظاهر عدائية نحو المرأة, حتى إنه كان يحسن الظن بها, خاصة حين "ينظر إليها كأم, إذ يجعلها رمزاً للتضحية والإيثار, لأن نصيبها من العناء أوفر"(2).

كان أبو العلاء ــ في تلك النظرة الطيبة نحو المرأة ــ متأثرا بحبه الشديد لأمه وتعلقه بها, إذ لم يكن يحمل موقفاً عدائياً من المرأة في مرحلة حياته الأولى, وقد حفظ لنا "سقط الزند" عدداً من قصائد الغزل الذي يضم مجموعة من الغزليات الصادقة لما تحمله ألفاظها ومعانيها من رقة وعذوبة, ففيها يعبر المعري عن معاناته من شدة الحب والوله, حتى فاضت أشواقه تنفيساً عما يكابده من ظمأ ولهفة, حيث يقول:

| | |
|---|---|
| **إن كان طيفُكِ برّاً في الذي زعما** | **فــإنَّ قــومَكِ ما برّوا لهم قسما** |
| **آلى أميرُكِ لا يَســري الخيالُ لنا** | **إذا هجعــنا, فقد أسرى وما عِلما** |
| **وكــم تمنّتْ رجــالٌ فيكِ مُغضَبَةً** | **أن يُبصِرُوه, فلم يَظْهَرْ لهم سقما** |
| **نشــوف من آل هنــد بارقاً أرِجاً** | **كأنما فُضَّ عن مســك وما خُتِمَا** |

(1) المحاسني, زكي: أبو العلاء ناقد المجتمع, ص46 وما بعدها .

(2) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره, 1576/3 .

إذا أطـلَّ علــى أبيــات بــاديةٍ قــامَ الــولائدُ يَستَقبِسنَهُ الضَّرما[1] (البسيط)

ففي الأبيات تصريح واضح بأن شاعرنا بدأ حياته مولعاً بالمرأة, راغباً في أن تكون قرينته وعشيقته, وهذا ما يبطل دعوى كل من يجعل المعري كارهاً المرأة بالفطرة أو الغريزة, مما يؤكد أنه لم يتأثر بنظرة أو رؤية فكرية معينة تنظر إلى المرأة نظرة تعكس سوء الظن بها أو الكره لها, ولعل ذلك ما دفع الدكتور يسري سلامة إلى القول: "إن نظرة المعري للمرأة, وموقفه منها لم يكن نتاج فلسفة خارجية, وإنما كان جرياً على فساد الرأي العام للعصر بالنسبة للمرأة, كما لم يكن ناتجاً من موقفه النفسي الخاص إزاء عجزه عن ممارسة الحياة الطبيعية من حبٍّ ومطارحة غرام أو زواج"[2].

كما لم يكن نتيجة لما رآه الدكتور طه حسين, حين قال: " إن المعري كان يسيء الظن بها في جميع أطوارها, ويرى أن تُقطع الأسباب والوسائل بينها وبين الحياة العامة, إذ هي لا تصلح لشيءٍ"[3].

إنّ من يمعن النظر إزاء موقف أبي العلاء من المرأة, يتبين له أن أبا العلاء ناقض نفسه في تلك القضية؛ فمرة يصفها بالفاجرة, ومرة أخرى يقدرها ويحترمها بشدّة, وخير دليل على ذلك ما جاء به في "رسالة الغفران" عندما بين إعجابه بحمدونة وتوفيقة السوداء اللتين عملتا وكافحتا من أجل بناء أسرة شريفة, فما كان فيه إلا أن يجعل نهايتهما حوريتين, مكافأة لهما من عند الله " ... أُعْرَفُ بحمدونة, وأسكن في باب العراق بحلب...تزوجني رجل يبيع السقط, فطلّقني لرائحة كرهها من فِيَّ, وكنت من أقبح نساء حلب, فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا العرارة وتوفرت على العبادة, وأكلت من مغزلي, فصيّرني ذلك إلى ما ترى, ...وأنا توفيقة السوداء التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد...وكنت أُخرج الكتب إلى النُسّاخ"[4].

كان المعري يحترم المرأة الشريفة ويكنّ لها كل الاحترام والتقدير, وأما فيما يتعلق بالمرأة الفاجرة فإنه يراها ــ كما نراها ــ لا تستحق الحياة, على هذه الأرض, التي خُلقت لأن يكون فيها الإنسان خليفة الله عليها, بأعماله الصالحة وأفعاله التقية لا بالفجور والعصيان.

وأبو العلاء يرى أنّ خير النساء هي المرأة الشريفة, المتواضعة, المتدينة, العاملة, المجدة التي تقوم بتدبير منزلها على خير وجه, وتحترم زوجها وتطيع أوامره كما يُفترض, ولا

---

([1]) المعري, أبو العلاء: شرح سقط الزند, ص264 .

([2]) سلامة, يسري محمد: النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء,ص237 .

([3]) حسين, طه: تجديد ذكرى أبي العلاء المعري, ص282 .

([4]) عبد الرحمن, عائشة (بنت الشاطئ) : جديد في رسالة الغفران, ص171 وما بعدها .

تتطلع إلى الحياة الخارجية المبهرجة, وتسلك مسلك العفة والقناعة في حياتها الخاصة والعامة, فيقول:

**وخيرُ النساءِ الحـــامياتُ نفوسَها    من العار, قبلَ الخيلِ تحمي ذمارَها**
**أراني غِمراً بالأمـــور, ولم أزلْ    أجوبُ دُجاها, أو أخــوضُ غِمارَها**
**وأفضلُ من مِزمـــارِ شَربٍ نَعامةٌ    تُكَرِّرُ, في السَّهب الرحيبِ, ذِمارَها[1]** (الطويل)

**ب ــ موقفه من الرجل:** وأما الرجل, فلم يكن أفضل حظاً من المرأة عند المعري, فقد وقف إزاءه وقفة مطولة, انتقد فيها تصرفاته وأفعاله, طالباً منه أن يكون عفيفاً مهما تكاثرت من حوله الإغراءات, وأن يحفظ عليه شبابه بالعفة, ليجد منه بقية في شيخوخته, حيث يقول:

**وصُنْ في الشرخ نفسَك عن غوانٍ    يزُرنَ مـــع الكــواكبِ مُعتمات**
**فقد يســـري الغــويُّ, إلى مخازٍ,    بجنحٍ فــي سحــائبَ مُنجمات[2]** (الوافر)

ويطلب منه أن يكون مهيباً عند زوجته, وإلا تنمرت عليه وافترسته, فيقول:

**متى يطمعنَ فيك يُرينَ, تيهاً,    لأطيب مطـــعمٍ متأجِّماتِ**
**ويرفَعْنَ المقالَ, عليك, جهلاً,    ويُنْفِدنَ الذَّخائرَ مُغرماتِ**
**توهّمـــنَ الظّنونَ, فكـــنَّ ناراً    لمـــا أُشعِرنَهُ متوهّماتِ[3]** (الوافر)

ويحثه على الفروسية والنضال بعيداً عما ينتظره من المغانم من أحوال ونساء, بل يطلب منه أن تكون أهدافه من غاراته سامية كريمة, حيث يقول:

**أدنى الفوارس مَنْ يَغِيرُ لِمَغْنَمٍ    فاجعلْ مَغَارك للمكارم تُكْرَمِ**
**وتَـــوَقِّ أمـــرَ الغــانياتِ فإنَّهُ    أمـــرٌ إذا خالفــتهُ لم تَندمِ[4]** (الوافر)

ويطلب منه الابتعاد عن كل ما يجلب المعصية له, وأن يحكّم عقله قبل وقوع الخطيئة, لأن العاقل من يتجاهل النظر إلى المرأة الغاوية, على نحو ما نرى في قوله:

**فلا تســـألْ: أهنـــدٌ أم لميـــسٌ    ثَوَتْ في النِّسوة المَتخيّمـــاتِ**

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 494/1, ذمارها:ما يلزمك حفظه وحمايته كالعرض والوطن.
([2]) نفسه, 238/1, الشرخ من الشباب: أوله, المعتمات: السائرات في العتمة, المنجمات: التي أقلع مطرها.
([3]) نفسه, 235/1 , متأجمات: كارهات, ينفدن: يفنين, مغرمات: من أغرمه الدين ألزمه بأدائه, أشعرنه: أخبرن به
([4]) المعري, أبو العلاء: شرح سقط الزند, ص38 .

ولا ترمُــقُ بعينــكَ رائحــاتٍ,    إلـــى حمّامِهـــنّ, مكمّمـــاتِ
فكم حَلّــتْ عقودُ النّــظم وهْناً    عقــوداً للرشـــادِ منظّمـــاتِ

**وكَمْ جَنَتْ المعاصمُ من معاصٍ, تعودُ بها المعاضدُ مُعصِماتِ**[1] (الوافر)

ويوبخ بشدة ذلك الرجل الذي يقبل المنكر على نفسه, حيث يقول:

**قــد أصبحَ الدينُ مُضمحلاً, وغُيّرتْ آيَــهُ الدّهــــورُ**
**فــلا زكــاةٌ, ولا صيــامٌ, ولا صــلاةٌ, ولا طَهــورُ**[2] (مخلع البسيط)

وينتقد النصراني الذي يأبى الزواج بابنة عمه, ويسفه من شأن المجوسي الذي يحلل الزواج بين الأخ والأخت, وينكر على ذلك المزدكي تحليل زواجه بابنته, حيث يقول:

**أيوجَدُ, في الورى, نفرٌ طهارى, أمِ الأقــوامُ كُلُّــهمُ رجُــوُسُ؟**
**بنــاتُ العــمِّ تأبــاها النصارى, وبالأخواتِ أعرستْ المَجوسُ**[3] (الوافر)

ويقول على لسان مزدك:

**ووَطءُ بــناتــنا حِــلٌّ مُبــاحٌ؛ رُويدكُــمُ فقــد بَطَــلَ العتــابُ**[4] **(الوافر)**

وقد نعى على الرجل العجوز الذي يتزوج من فتاة شابة, لأنها ــ من وجهة نظره ــ ستكون في مأتم دائم, وتعب مستمر, وأقصى أمانيها أن تتخلص منه, وفي ذلك يقول:

**وعِرْسُــهُ فــي تعــبٍ دائمٍ, لا تخضُبُ الكَفَّ ولا تكتحِــلْ**
**مَلّتْ, وإنْ أحســنَ أيّامَــهُ, تقولُ في النّفس: متى يَرْتحِلِ؟**[5] (البسيط)

إننا نخلص إلى نتيجة مفادها؛ أنَّ الرجل هو النصف الثاني المكمل للمرأة ــ وكلاهما ــ مؤديان إلى الفساد إن أرادا والعكس صحيح, وفي ذلك يقول الدكتور محمد سليم الجندي: "وليس الرجل في اعتقاده أحسن حالاً من المرأة, بل هما غصنا شجرة, وجناحا طائر, وفرسا رهان يتباريان في الفتنة والشّر, فهو يخاف من الرجل على المرأة, بقدر ما يخاف على الرجل منها, لأنَّ الطينة واحدة, والطبع واحد, فهي تغويه كما يغويها"[6].

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 235/1 . ثوت: أقامت, المتخيمات: الناصبات خيامهن, مكممات: متسترات, عقود النظم: عقود الجواهر المنظومة, وهناً: ليلاً, الرشاد: العقل.

([2]) نفسه, 440/1 .

([3]) نفسه, 29/2 .

([4]) نفسه , 99/1.

([5]) نفسه, 371/2 .

([6]) الجندي, محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء, 1546/3 .

**جـ ــ موقفه من الزواج:** بات موقف المعري من الزواج معروفاً؛ فقد عزف عن الزواج طوال حياته, وكان قد أعلن في أدبه عن رفضه الزواج بكل صراحة, داعياً الناس إلى ذلك محبباً إليهم حياة الوحدة والزهد في متاع الدنيا كله, مبرراً ذلك العزوف بأمور ثلاثة؛ **الأول:** خوفه على الأبناء الذين سيأتون من بعده في ظلّ فساد و انحلال عَمَّ البلاد بأكملها, " فكيف يضحي بابنه على مذبح هذا الزمان الذي لا يلبث أن يفتكّ به أو يسوّد عيشه؟ وما قيمة أن تنجب ابنك لشقاء العيش, ثم لرماد الموت"[(1)].

وخير دليل على ذلك الأبيات الآتية التي يعرض فيها المعري حواراً غريباً يدور بين أحشاء الأم والجنين الذي اشتملت عليه تلك الأحشاء؛ فالأحشاء تُغري الطفل بالموت, وتصورّ له الأذى والشقاء الذي سيلقاه حين يخرج إلى الحياة, ولكن الطفل الجنين لو أُتيح له التكلم, لقال إنه كان مرغماً على الوجود, فما تمّ ذلك باختياره, لذا فلا مجال لمعاتبته ولومه على هذه الحياة التي مُنحت له, يقول المعري:

**نادى حَشَا الأُمّ بالطّفل الذي اشتملت    عليه: ويحكَ لا تظهرْ ومُــتْ كَمَدا!**
**فإنْ خرجــتَ إلى الــدّنيا لقِيتَ أَذىً    من الحوادثِ, بَلْهَ القيــظَ والجَمَدا**
**ومــا تَخَلّصُ يومــاً من مكــارِهِها    وأنــتَ لابُدَّ فيـــها بالــغٌ أمَــدا**
**وإنْ سَــعدتَ, فما تَنفكُّ في تَــعَبٍ,    وإنْ شقيتَ, فمن للجــسمِ لو هَمَدا؟**
**فلــو تكلّــمَ ذاكَ الطّفــلُ قــالَ له:    إليــكَ عنّــي! فما أُنشــئتُ مُعتمِدا!**
**فكيف أحــمِلُ عَتْباً؟ إنْ جرى قَــدَرٌ    عليَّ, أدركَ ذا جِـــــدٍّ ومَنْ سَمَدا**[(2)] (البسيط)

**وأما الأمر الثاني؛** فخوفه من عقوق الوالدين, حيث يراه أكبر حجة لعزوفه عن الزواج ومقاطعة النسل, ولعلَّ الأبيات الآتية توضح كيف وقف المعري وقفة طويلة ومتأملة عند هذا الموضوع, وهو في هذا بين ألمين, ألمه على الأبناء الذين دفعهم أهلهم إلى الحياة يعانون مشقّاتها, وألمه على الأهل الذين يُعاملون من قبل أولادهم معاملة سيئة وأليمة جاحدة, حيث يصورّ في تلك الأبيات, كيف أن هؤلاء الأبناء يضيّعون حقوق آبائهم ليكافؤهم بالبخل في

---

([1]) سعفان, كامل: في صحبة أبي العلاء بين التمرد والانتماء, ص 162 ,

([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,354/1, بله: اسم فعل بمعنى دّعْ, الجمد: الثلج, معتمداً: حراً مختاراً, سَمَد: أي أي لها من اللهو ضد الجد, وقوله: أدرك أي مدرك, نعت قدر.

إحسانهم, فهم يحرمونهم من القوت الزهيد, بينما يسعى الآباء أيام الشباب للكسب لإطعام القوت الوفير لأبنائهم, وإن كان الآباء لا يستبدلون ابنهم بالفرقدين, فإن هذا يستبدل بهم أيّ حيوان, يقول المعري:

**فكَـمْ ولَـــدٍ, للوالـدينِ, مضـيِّعٍ, يُجـازيهما بُخـلاً بما نَجـلاهُ**
**طوى عنهما القوتَ الزهيدَ, نفاسَةً, وجَرَّاهُ سَارًا الحَزْنَ, وارتحلاهُ**
**يَـرَى فَرقَدَيْ وحـشّيةٍ بَدَليـهما, ومـا فَـرقَدا مَسْراهُـما بَدلاهُ**[1] (الطويل)

وليس من المستبعد حقاً بعد هذه النظرة الجاحدة من قبل الأبناء, أن يحبذ المعري الوحدة, فيدعو إليها, لأنها الخلاص الوحيد من هذا الظُّلم البشري الأليم, كقوله:

**اجتنبْ النّاسَ وعِشْ واحداً, لا تَظلِمِ القومَ, ولا تُظْلَمِ**[2] (السريع)

**وأما الأمر الثالث؛** فكان عسر الوضع المادي الذي منعه من الزواج, لأن الزواج ــ من وجهة نظره ــ يكلّف كثيراً؛ فالزوجة تحتاج إلى مهر, ومأكل, وملبس, ومسكن, وكل ذلك غير متوفر لديه, لذلك فقد عَدَّ من علامات اضمحلال الدين وتغيير آياته أن يعتاض قوم النكاح الحلال بنسوة مالها مهور, حيث يقول,

**واعتاضَ, حِلَّ النكاحِ, قومٌ بنُسوةٍ, مالَهَا مُهور**[3] (مخلع البسيط)

وينكر على هؤلاء القوم الذين يجعلون المرأة تدفع مهراً للزوج, لأنه مخالف للمألوف ويعده من انقلاب الزمان, فيقول:

**قُلِبَ الزمانُ, فَرُبَّ خَوْدٍ تبتَغي زَوَجاً, وتَبْذُلُ غالياً من مَهْرِهِ**[4] (الكامل)

كان موقف المعرّي من الزواج موقفاً سوداوياً, إلا أنه ــ من وجهة نظره ــ كان خير

(1) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم: 594/2 وما بعدها, فرقدا وحشية: ولداها, فرقدا مسراهما: النجمان المعروفان. المعروفان.
(2) نفسه, 472/2.
(3) نفسه, 440/1,
(4) نفسه,570/1.

وسيلة للابتعاد عن الفحش والفجور, فافترض على الزوج اختيار الزوجة الفاضلة, لأن اختيارها من المسائل العائلية الكبرى, وذلك لما يترتب على هذا الاختيار من شؤون الحياة وشجونها, لذلك فإن المعري يشير إلى وجوب النظر في العرق الكريم, والعقل الراجح النير, وإيثار العفيفة المتسترة والمحبة لعملها وزوجها, على نحو ما نرى في قوله:

**وخيَرُ النّساءِ الحامياتُ نفوسَها    من العار, قَبلَ الخيلِ تحمي ذمارَها**
**إذا شئتَ يوماً أن تُقارنَ حُرّةً    من النّاسِ, فاخترْ قومَها ونِجارَها**[1] (الطويل)

كما حضَّ على التقارب في أعمار الزوجين, وبيّن المفاسد التي تنجم عن التفاوت في العمر, أورد لنا صوراً تدلّ على أنه بحث في هذا الموضوع كثيراً, حتى إنه استطاع أن يطّلع على خبايا النفس في الرجل والمرأة, فالشاب إذا تزوج عجوزاً شمطاء كانت حياته كلها شديدة, ثقيلة مكروهة, حيث يقول:

**إذا أنت زُوّجتَ العجوزَ, على الصِّبا,    فأيامُها صِنٌّ, عليكَ, وصِنَّبر**[2] (الكامل)

والشابة كذلك, فإذا تزوجها شيخ كبير في السن؛ فإنها في مأتم دائم وتعب مستمر, وأقصى أمانيها الخلاص منه, كقوله:

**وعِرْسُهُ في تَعَبٍ دائمٍ,    لا تخضُبُ الكَفَّ ولا تكتحِلْ**

**ملّتْ, وإنْ أحسنَ أيّامَهُ,    تقولُ في النّفسِ: متى يَرْتحِلِ؟**[3] (البسيط)

لذلك فإن الشابة تؤثر الزوج الفقير على الهرم الغني, لأن قدرة من بلغ الستين لا تساوي قدرة الشاب في ربيع عمره, ومن ثم فهي أحوج إلى أن تداعبه وتلاعبه منها إلى شيخ ميسور كثر ثراؤه, وقلَّ غناؤه, حيث يقول:

---

(1) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 494/1-495, الذمار: ما يلزمك حفظه وحمايته كالعرض والوطن, النجار: الأصل.

(2) نفسه, 412/1, الصن والصنبر: من أيام العجوز السبعة عند العرب.

(3) نفسه, 371/2.

إذا خَطَبَ الزهراءَ كَهْلٌ وناشئٌ, فإنَّ الصِّــبا فيها شفيعٌ مُشفَّعُ

ولا يُزْهِدَنْـــها عُدْمُهُ, إنّ مُــدّهُ لأبرَكُ من صاعِ الكبيرِ, وأنفَعُ
وما لأخـــي ستّيــنَ قُدرةُ سائرٍ إليها, ولكنْ عجزُهُ لَيْسَ يُدفَعُ[1] (الطويل)
يُدفَعُ[1]

إن المعري كان ينتقد ذلك الفساد الذي نشأ نتيجة اقتران الزوجين دون تقارب أعمارهما, مما يؤدي إلى انهيار الأسرة وتفككها, لأن هذا النوع من الزواج غير متكافئ أبداً.

ولم يكتفِ أبو العلاء بنقد تلك الظاهرة (ظاهرة الزواج غير المتكافئ في العمر) فحسب, بل راح ينقد هؤلاء الرجال الذين يسعون بالزواج من أكثر من واحدة, فعلى الرجل الاكتفاء بواحدة, فإذا تزوج اثنتين كان مضطراً إلى أن يحارب على جهتين, وإذا تزوج ثلاثة جلب لنفسه الشر والبلاء, حيث يقول:

إذا كنـــتَ ذا ثنْتينِ فاغْدُ مُحارِباً عدوّينِ, واحذَرْ من ثلاثِ ضَرَائرِ
وإن كنتَ غِرّاً بالزمـــانِ وأهْلِه, فتكفيك إحدى الآنســـاتِ الغرائر[2] (الطويل)

**د ـــ موقفه من الأبناء والبنات:** لأبي العلاء آراء تربوية كثيرة في تربية الأبناء والبنات, وقد أباح بضرب الطفل بهدف هدايته إلى الصواب والحقّ, على نحو ما نرى في قوله:

فاضرِبْ وليدَكَ, وادلُلْهُ على رَشَدٍ, ولا تَقُــلْ: هو طفلٌ غيــرُ مُــحتَلِمِ
ورُبّ شـــقٍّ برأسٍ جرَّ مَنْفَعَـــةً, وقِسْ على نَفعِ شقّ الرأسِ في القلمِ[3] (البسيط)

أما آراؤه التربوية تجاه البنات؛ فقد رأى أنّ للفتاة طبيعة ميالة إلى الغنج والدلال, لذلك فقد حثّ الآباء على الحد من نشاطها, وخروجها من البيت, والعمل على تربيتها تربية منزلية دينية, كأنْ تتعلم حرفتي الغزل والخياطة, فهما بها أليق وأنفع لمستقبلها, على نحو ما نرى في قوله:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم 117/2, الزهراء: الشابة البيضاء المشرقة, مشفع: المقبولة شفاعته.
([2]) نفسه, 526/1, الغر: الشاب الذي لا تجربة له, الغرائر: ج الغريرة وهي الفتاة التي لا تجربة لها.
([3]) نفسه, 454/2 .

**غَدَتْ ببُرْسٍ إلـــى مَرادنِها,       أو خيطِ غَزَلٍ إلى خياطتِها**[1]      (المنسرح)

على أن يتم تعليمهن (إن أحببن التعلم) من قبل رجل عجوز أعمى, مرتعش اليدين, حيث يقول:

**ولا يُدنَينَ من رجُلٍ ضرير,       يلقّنُهُنَّ آياً محكَمـــات**
**سوى مَنْ كان مرتعشاً يداهُ,       ولِمتّه من المتثغّمـــات**[2]      (الوافر)

أو أن تتولى تعليمهنّ امرأة عجوز, تكسرت أسنانها من الكبر, يقول:

**ليأخذنَ التّلاوةَ عن عجوزٍ,       من اللائي فَغَرْنَ مهتّمات**[3]      (الوافر)

عاب المعري على الأهل تفضيل الأبناء على البنات, أما هو فكلا الجنسين عنده سواء, فالأبناء يعقّون ويجحدون, والبنات تظهر تبعتهم الكبرى بأعبائهن في الزواج والترملّ, وبعجزهن عمّا ينفع, وقد يتسببن في الظلم والشر, على نحو ما نرى في قوله:

**يفندّنَ الحليمَ, بغير لُبٍّ,       وهُنَّ, وإنْ غَلَبنَ, مُفَنَّداتُ**
**إذا عوتبْنَ في جَنَفٍ وظُلْمٍ,       أَبَتْ إلاّ السّكوتَ مُبلِّداتُ**[4]      (الوافر)

لذلك فقد رأى أخيراً أن الخير للأبناء والبنات أن يظلوا في ظهر آبائهم, حيث يقول:

**وإذا أرَدْتُــمْ للــبنينَ كَـــــرَامةً,       فالحزمُ أجْمَعُ تركُهُمْ في الأظهُرِ**[5]      (الكامل)

**2. موقف المعري من بعض الرذائل الخُلقية السّائدة في عصره:**

بات من المعلوم أن عصر المعري كان غارقاً في التفسخ الاجتماعي, والانحلال الخلقي, فلا عجب إذن أن نرى المعري يشمئز مما وصلت إليه الصلات الاجتماعية من تناحر وتقاطع, حيث كثر الكذب والرياء والنفاق, وساد الحقد والكره, وانتشرت السّعاية والنميمة, وغدر الناس

---

(1) نفسه , 242/1, البُرْس: القطن, مرادنها: واحدها مردن: المغزل,

(2)المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 236/1, المتثغمات: المبيضات من الشيب.

(3) نفسه, نفس الصفحة, فغر: فتح فاه, مهتمات: مكسرات الأسنان من الكبر.

(4) نفسه, 200/1 وما بعدها, يفندن الحليم: أي يخطّئن رأي العاقل, مبلدات: بخيلات.

(5) نفسه, 566/1.

بعضهم ببعض, وتنكرّ الأخ لأخيه, والصديق لصديقه, وإذا بالحياة الاجتماعية على أسوء ما يمكن أن تكون, وكان من بين هذه الرذائل:

**أ ــ الكذب:**

رأى المعري الناس من حوله يمالئون ويراوغون, ويصغون إلى الكذاب المنافق, وينفرون من المرشد الصادق,على نحو ما نرى في قوله:

**أطاعوا ذا الخداعِ وصَدّقوه؛ وكَمْ نَصَحَ النّصيحُ, فكَذّبُوه**[1] (الوافر)

وعلى ذلك؛ فقد غدا الكذاب محبوباً والصادق ممقوتاً,يقول:

**والناسُ شَتّى, فيُعطى المقتَ صادقُهم, عن الأمــورِ, ويُحْبَــى الكــاذبُ المَلِــقُ**
**وربــــما عَــذَلَ الإنســــانُ مهجَتَهُ في الصّدق, حين يرى جَدَّ الذي يَلِقُ**[2] (البسيط)

وعليه فلا بدع إذا راج الكذب وكسد الصدق,يقول:

**ما نَفَقَ الصَّدْقُ في البرايا, ولم تَزَلْ للمُــحالِ سوقُ**[3] (مخلع البسيط)

ولما كان الكذب شديد الشيوع بين الناس, فقد دعا إلى الحذر من الكذابين, على نحو ما نرى في قوله:

**ولا تُصدّقهمْ, إذا حَدّثُوا, فإنّني أعهدُهُمْ يَكْذبُونْ**[4] (السريع)

وكان لابد من الحذر من المنافقين, لأنهم يضمرون خلاف ما يظهرون, يقول:

**يلقاكَ, بالماءِ النّميرِ, الفتى, وفي ضميرِ النفّس نارٌ تَقِدُ**
**يُعــطيكَ لفــظاً, ليّناً مسُّهُ, ومثلُ حدّ السّيف ما يَعتَقِدُ**[5] (السريع)

---

([1]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 601/2.
([2]) نفسه, 182/2.
([3]) نفسه, 183/2.
([4]) نفسه , 586/2.
([5]) نفسه, 401/1.

ومن يمعن النظر في أقوال المعري في هذا الموضوع يتبين له بوضوح تام أن هذا الخلق الذميم تفشى وانتشر بين الناس, وقلما خلا منه أحد حتى الأخلاء والأصحاب, على نحو ما نرى في قوله:

**وما عند خِلّكَ, غيرُ النّفاق, وما خِلْتُهُ ناسياً, فادّكَر**[1] (المتقارب)

**ب ــ الأنانية:**

غالى المعري في ذمها, وذم أهلها, ولم يؤد إلى أربابها إلا ما يستحقون, فالناس ــ من وجهة نظره ــ لا يهمهم سوى مصلحتهم, بل إنهم يتفاخرون باغتصابهم حقوق الآخرين, وسرقة مقدراتهم, ويعدون ذلك لباقة وجرأة, وشجاعة, بعيداً عن الحق والصواب, وإقبالاً على الظلم والجور بكل قوة وجبروت, يقول المعري في عِزّ القناعة وذل الطمع:

**وهي النفوسُ, إذا تُمَيِّزُ بينها, فأعزُّها في العيشِ مُقتنعِاتُها**
**ومتى طَرَدْتَ أمورهَا بقياسِها, فأحقُّــها بمذلّةٍ طَمِــعاتُها**[2] (الكامل)

ويقول في الأناني الذي يظل طماعاً في الحصول على المزيد, متسائلاً لم الطمع؟ والإنسان نفسه زائل, بل هو لا يقوى على استهلاك أكثر مما تقتضي به الحاجة:

**عجبتُ للمالكِ القنطار من ذهَب, يَبْغي الزيــادَةَ, والقيــراطُ كافيه**
**وكثرةُ المالِ سَاقَتْ للفتى أشراً, كالذيلِ عَثّرَ, عند المشي ضافيه**[3] (البسيط)

**جـ ــ الجهل:**

كان من بين الأشياء التي زادت من مقت المعري للبشر, خضوعهم للجهل, وقد رأى أناس عصره يعيشون في ضلال, وكان أكثرهم سفهاء,يقول المعري:

**نُضحــي ونُمســي كبنــي آدمٍ, ومــا علــى الغَبــراءِ إلا سَفيهْ**

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 616/1.

([2]) نفسه, 209/1, طردت: عزمت بالحد أو عللت بالوصف, وهو من كلام المناطقة.

([3]) نفسه , 630/2.

**فنـــــسألُ العـــالمَ إنقـــاذَنـــا      من عالَمِ السّوءِ, الذي نحنُ فيهْ**[1]      (السريع)

ففي البيتين السابقين يتمنى المعري من ربه أن يخلصه من عالم الأشرار, لينقله إلى عالم الأخيار, وأهل اليقين, فهو لم يجد في هذه الدنيا إلا السفهاء الجهّال, لأن مثل هؤلاء البشر ــ من وجهة نظره ــ يعيشون في غفلة تامة عما يحيط في واقعهم, إلا إذا أصابتهم مصيبة, أو ألمت بهم نازلة, أو حان أجلهم, ففي ظلِّ تلك البيئة لا يُعطى كل فرد حقه في هذا الوجود, حيث يقول:

**أُولو الفضلِ, في أوطانهم, غرباءُ      تَشِذُّ وتنأى عنهمُ القُرَبَاءُ**[2]      (الطويل)

فأولو الفضل في ظل هؤلاء الأشرار غريبون في أوطانهم, لأنهم لا يحصلون على استحقاقتهم, حتى من أقرب الناس إليهم, حيث لا يقف شرهم ــ من وجهة نظره ــ عند حدّ ضلالهم, بل يعملون على إفساد الفطرة السليمة التي من حولهم؛ فيدفعون بسواهم إلى الشر, حيث يقول:

**والناسُ جــائرُ مسلكٍ مُسترشدٌ,      وأخٌ, على غيرِ الطّريق يدلّه**[3]      (الكامل)

وإذا كانت تلك هي حال الناس في ضلالهم؛ فإنّ المعري يرى الخير كل الخير في مخالفتهم, بل إنه يدعو لذلك صراحة, ويرى فيه الرشد المطلق, يقول:

**فَخالفِ النَّاسَ ترشُدْ, كلّما نطقوا      فاصِمتْ حميداً, وإنْ هُمْ أنصتوا, فَقُلْ**[4]      (البسيط)

**د ــ الغدر والمكر:**

انتشر الغدر والمكر نتيجة الانحطاط الأخلاقي أيام المعري انتشاراً عظيماً, وأضحى الغدر عند البعض أسهل طريقة للوصول إلى مصالحهم, والرغبة في بلوغ مطامعهم بسرعة كبيرة, وفي ذلك يقول المعري:

---

([1]) نفسه , 635/2.

([2])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 41/1.

([3]) نفسه , 277/2.

([4]) نفسه, 329/2.

أبانُوا عَنْ قبائحَ منكَــراتٍ,      فَدَعْ مالا يُبينُ من الأُمــورِ
وعاشوا بالخِداعِ, فكلُّ قومٍ,      تُعاشِرُ من ذئابٍ, أو نُمورِ[1]      (الوافر)

فالغدر ــ من وجهة نظره ــ طبع أصيل في البشر, لأنهم يبلغون أهدافهم وأغراضهم عن طريق ذلك الطبع, فإذا ما دعتهم إليه الحاجة, نسوا الوفاء وطلبوا المصالح والمطامع عن طريق الغدر والخيانة,يقول:

الغدرُ فينا طِباعٌ, لا ترى أحداً,      وفاؤهُ لــكَ خَيرٌ من تَوافيهِ
أينَ الذي هُوَ صافٍ لا يُقالُ لهُ:      لو أنهُ كانَ, أولولا كذا فيه؟[2]      (البسيط)

حتى إنه ليوصي المرأة, محذراً إياها من غدر الرجال, يقول أبو العلاء:

والغَدْرُ, في الآدميّ, طَبْعٌ,      فاحترزي قبلَ أن تنــامي
مَن ادّعــى أنّــهُ وَفــيٌّ,      فليَنْتَسِبْ في سوى الأنامِ[3]      (مخلع البسيط)

لأن الغدر في كل نفس, والخيانة في كل قلب, يقول:

أرى مَرَضاً بالنفس ليسَ بزائلٍ      فَهَلْ رَبُّها ممّا تكابُد شافيها؟
وفي كــلّ قلبٍ غَدْرَةٌ مُستكِنّةٌ,      فلا تُخدَعَنْ من خُلّةٍ بتَوافيها[4]      (الطويل)

وأما اللؤم, فالناس ــ باعتقاده ــ كتلة من اللؤم والدهاء والمكر, وهم أشبه بنسل إبليس, يقول:

أنسلُ إبليسَ أم حوّاءَ, ويْحَــكُمُ,      هذا الأنــامُ, ففي أفعــالِهِمْ دَلَسُ
إنْ يُؤمَنُوا لا يُؤدّوا, أو يكن لهمُ      عزٌّ يضيموا, وإن أعياهُمُ اختلسوا[5]      (البسيط)

**هـ ــ الثرثرة (القيل والقال):**

"خير الكلام ما قل ودل" حكمة أحبها المعري كثيراً, لأن أكثر ما كان ينفّره من المجالس

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 558/1
([2]) نفسه, 629/2.
([3]) نفسه , 460/2.
([4]) نفسه, 610/2.
([5]) نفسه, 18/2 , دلس: خداع.

كثرة الهذر, وفرط الثرثرة, ولذلك فهو يدعو ويحثّ الجليس بأن يزن كلامه قبل النطق به, وأن يبتعد عن مجالسة الثرثارين بقدر المستطاع, حيث يقول:

**فزِنْ, من الوزن, لفظاً, حينَ تُرْسِلِه,      وزِنْ, من الزّين, إعطاءً بترويجِ**[1]      (البسيط)

لأن الكلام الكثير يفقد الرزانة, ويكثر من الوقوع في زلات اللسان, على نحو ما نرى في قوله:

**أسهبَ الناسُ في المقالِ, وما يَظْـــ      ـــفَرُ, إلا بِزَلّةٍ, مُسهِبُوهُ**[2]      (الخفيف)

لذلك فإن المعري يفضل الابتعاد عن مجالس الثرثارين, ويبتعد عن القيل والقال بقدر المستطاع,يقول:

**إذا صلّوا فصلّ, وعِفَّ وابذُلْ      زكاتَكَ, واجتنبْ قالاً وقيلا**[3]      (الوافر)

ولئن كان يفضل الصمت على الكلام, فلا عجب من تفضيل العيّ والخَرَسْ, كما في قوله:

**يستحسنُ القومُ ألفاظاً, إذا امتُحنَتْ      يوماً, فأحسنُ منها العِيّ والخَرَسُ**[4]      (البسيط)

**و ــ الحقد:**

ذمّ المعري الحقد وأهله ذمّاً عنيفاً, لأنه يذكي العداوة والكراهية, ويحول دون الاتصال البشري, حتى ظنه فطرة يفطر عليها الناس, فمهما حاول الحاقد جاهداً إخفاء ما في قلبه إلا أن ذاكرته ستبقى قوية للأذى, لا تهدأ حتى ينتقم لنفسه من الآخرين, وفي ذلك يقول:

**وللحقودِ علاماتٌ يَبِنُّ بها,      كما رأيتَ, بشدْق الهادِرِ, الزَّبَدا**[1]      (البسيط)

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 271/1.

([2]) نفسه, 609/2.

([3]) نفسه , 299/2.

([4]) نفسه, 20/2.

فالحاقد ــ باعتقاده ــ لن يهدأ ما لم ينتقم لنفسه من صاحبه حتى ولو كان هذا الصاحب بعض أهله, على نحو ما نرى في قوله:

**فويحَهُمْ, بئسَ ماربّوا وما حضنوا؛ فهي الخديعةُ, والأضغانُ والحَسَدُ**[2] (البسيط)

**ز ــ الغيبة والنميمة:**

وقف المعري من الغيبة والنميمة موقف كره وعداء, وكان يقول في ذمّ أهلها:

**وتمضي بنا السّاعاتُ مُضمِرَةً لَنا قبيحاً, على أنّ الوجوهَ وَسَائمُ**
**نَمَمْنَ بمـــا يخفيه حـــيٌّ وميّتٌ, ومن شرّ أفعالِ الرجالِ النّمائم**[3] (الطويل)

وفي انتشار النميمة والحسد في الناس, كان يقول:

**ومَنْ عَاشَ بينَ النّاسِ لم يخلُ منْ أذىً بما قالَ واشٍ, أو تكلّم حاسد**[4] (الطويل)

لذاك نراه زاجراً عن هذه الرذيلة, يقول:

**ولا تُبـــدوا عَداوتَـــكُمْ لقومٍ, أتَوكم في الحَياةِ مُجامِلينا**
**ولا ترضَوْا بأن تُدْعَوْا وُشاةً, وتَسْعَوا بالأقارب ناملينا**[5] (الوافر)

موصياً بالبعد عن المغتاب, لأن جليس المغتاب شريكه في الغيبة, على نحو ما نرى في قوله:

**وإنّكَ, إنْ أهديتَ لي عيبَ واحدٍ, جديرٌ, إلى غيري بنقلِ عيوبي**[6] (الطويل)

**ح ــ التكبّر والغرور:**

كره المعري هذه الرذيلة كرهاً شديداً؛ فتعالت صيحاته مندداً بأهلها, ليقول:

---

([1]) نفسه, 353/1. يبن: يقيم, الهادر: أراد به الأسد.

([2])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 323/1.

([3]) نفسه , 389/2.

([4]) نفسه, 312/1 .

([5]) نفسه, 529/2, ناملين: نمامين.

([6]) نفسه, 152/1.

**خفّفِ الوطءَ ما أظنُّ أديمَ الأر ضِ إلاّ من هذه الأجسادِ**[1] (الخفيف)

حاثاً الناس على الدعة والتواضع, لأن التكبر يدل على الصّغار والحقارة, يقول:

**ولكلّ ما أصبحْتَ تُدْرِكُ حِسّهُ ضدٌّ, وكِبْرَةُ مَنْ ترى كصِغارِ**
**فاصغُرْ لتعَظُمَ, كم تجمَّعَ واثبٌ ثُـمَّ استُـعِزَّ فَعَزَّ بَعْـدَ صَغارِ**[2] (الكامل)

إن التكبر ــ من وجهة نظره ــ دليل الصّغار والحقارة, حيث يقول:

**لو لم تكُنْ, في القومِ, أصغَرهم, ما بانَ فيكَ, عليهمُ, كِبَرُ**[3] (الكامل)

والتكبر مقدمة الضعة, في حين إن التواضع مقدمة الرفعة, حيث يقول:

**تواضعوا, في الخطوب, ترتَفعوا, فالشُّهبُ, عندَ الرُّجومِ, تنكدرُ**[4] (المنسرح)

لذلك كان يقول ساخراً من المغالين بالتكبر والغرور:

**لا تفتخرْ! إنَّ كلّ فــخرٍ للهِ, واستعجَمَ الفخورُ**
**ألا تــرى أنَّ أُمّ دَفْــرٍ, كأنها آلُها السَّخُــورُ؟**[5] (مخلع البسيط)

**ط ــ البُخْل:**

عدَّ المعري البخل من أقبح الرذائل وأبشعها, لأنه يعمل على حبس الخير عن المحتاجين من جهة, وعلى عدم الانتفاع به من جهة أخرى, فالبخل ــ من وجهة نظره ــ من أفعل عوامل الغنى, لذلك تراه يتبرأ من هؤلاء الذين يأسرون أموالهم ويزجونها في سجون الخزائن, بدليل قوله,

**مَنْ كان, من أسراهُ, مالٌ له, فَلَسْتَ, للمالِ, من الآسِرينْ**
**أَعدُّ أسنى الرّبح فِعلَ التُّقَى, فلا أَكُنْ, ربِّ, من الخاسِرينْ**[6] (السريع)

(1) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص111.
(2) المعري, أبو العلاء, لزوم ما لا يلزم, 591/1.
(3) نفسه , 474/1.
(4) نفسه, 481/1.
(5) نفسه, 441/1, استعجم: سَكَتَ عجزاً, آلها: سرابها, السّخور: الساخر المستهزئ, أم دفر: كناية عن الدنيا.
(6) نفسه, 587/2.

فالغني الباذل ــ باعتقاده ــ وكيل على المال للناس, والغني البخيل خازن للوارثين, لذلك يُوصي قائلاً:

**لا تَجْمَعُوا المالَ, واحبُوه مواليَهُ,     فالمُمسِكُون تُراثٌ كلُّ ما جَمَعُوا**[1]     (البسيط)

فعلامَ البخل ما دام الإنسان زائلاً؟ وعلام الحرص وحرمان النفس والآخرين؟ فضلاً عن أن المال معرض للتلف بالحوادث, لذلك فإنفاقه أحزم وأحسن, يقول:

**أُفنُوا الذخائرَ, فالقضاءُ مُجَهِّزٌ,     أجنادَهُ, لخبيئَةِ المِذخارِ**[2]     (الكامل)

والبخل ضرب من ضروب الفقر, وهما سيّان في الحرمان والتقشف على أنَّ البخل رذيلة, لأنها فعل اختياري, فخير الغنى القناعة, وشر الفقر البخل, كقوله:

**وإنّ اقتناعَ النّفسِ من أحسن الغنى,     كما أنَّ سوءَ الحِرْصِ من أقبحِ الفقرِ**[3]     (الطويل)

**الفقرِ**[3]

ومما يؤلم المعري حقاً أنه كان يرى في زمانه الغنى نادراً كالجود, والبخل شائعاً شيوع الفقر, على نحو ما نرى في قوله:

**إنَّ الغنـــى لعزيزٌ, حيـــنَ تطلُبُهُ,     والفقرُ, في عنصر التركيب, موجُودُ**
**والشحُّ ليس غريباً عنـــدَ أنفُسِنا,     بـــل الغريبُ, وإنْ لم يُرْحَمْ,الجُــودُ**[4]     (البسيط)

لذلك فهو يوصي الناس بالجود بقدر استطاعتهم, لأن للجود فضائل عديدة, وهو أساس المجد, ودعامة الوجاهة, وأصل السّؤدد, حيث يقول:

**جَمَدَ النُّضارُ له, فما هُوَ سائلٌ,     من جُودِ راحتِهِ, براحةِ سائلِ**
**ما المرءُ نائلُ رُتْبَةٍ من سؤدُدٍ,     حتـــى يُصَيِّرَ مالُهُ في النّائلِ**[5]     (الكامل)

---

([1]) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم, 119/2, احبوه: أعطوه.
([2]) نفسه, 590/1, المذخار: الذي يخبئ الأشياء لوقت الحاجة.
([3]) نفسه, 523/1.
([4]) نفسه, 329/1.
([5]) نفسه, 355/2 وما بعدها.

**ي ــ الحسد:**

عدَّ المعري الحسد من الرذائل الخلقية, المتأصّلة في النفس, كغيره من الرذائل السّابقة, فإذا ما مارسه الإنسان, فإنه يجاري طبيعته, حيث يقول:

**العينُ من أَرَقٍ, والشخصُ من قلقٍ, والقلبُ من أملٍ, والنفسُ من حسَدِ(1)** (البسيط)

لذلك فليس من المستبعد حقاً أن يرى المعري الحسد وقد انتشر بين الناس, وفي كل مكان, حيث يقول:

**ومَنْ عَاشَ بينَ النّاسِ لم يخلُ منْ أذىً بمـــا قالَ واشٍ, أو تكــلّم حاسِدُ(2)** (الطويل)

وقد وقف المعري إزاء تلك الرذيلة الخلقية موقف المندد الذي يحثُّ على الابتعاد عنه بقدر ما أمكن, فيقول:

**فلا تَحسُدَنْ يوماً على فضلِ نعمةٍ, فحسبُكَ عاراً أنْ يُقالَ حَسُودُ(3)** (الطويل)

وحثَّ على الرجوع إلى الله والتقوى, لأن التقوى الحقيقية لا تجتمع والحسد في صدر, كما لا يجتمع الأسد والظبي في مكان, فيقول:

**إنْ كانَ قَلْبُكَ فيه خــوفُ بارئِـهِ, فـــلا تجاوزْ حِــذارَ الله بالحَسَدِ**
**هـــما نقيضانِ لا يستجمعانِ به, والظّبيُ غير مقيمٍ في ذَرا الأسدِ(4)** (البسيط)

كما أنه يُوجِب على من يقع عليه الحسد, الصَّفح عن الحاسد, شاكراً ربّه على نعمة الصّفح عن الحاسدين, يقول:

**وإذا حُسِدْتَ, فإنَّ شكرَ فضيلةٍ أنْ لا تُؤاخذَ في الإساءةِ, حَاسِدَا(5)** (الكامل)

---

(1) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 373/1.
(2) نفسه, 312/1 .
(3) نفسه, 313/1.
(4) نفسه, 373/1, الذرا: الجانب.
(5) نفسه, 358/1.

لأن الصفح مظهر من مظاهر الشكر, وهو شعور في قمة الشرف وذروة النبل.

**5 . النقد الأدبي:**

قبل الشروع بالبحث والدراسة عن النقد الأدبي لدى المعري, لابد لنا من إيضاح دلالة النقد الأدبي أولاً, " فالنقد الأدبي يعني استعراض القطع الأدبية لمعرفة محاسنها ومساوئها, ثم قصرت فيما بعد على العيب لما كان من مستلزمات فحص الصفات ونقدها عيب بعضها"[1].

"والنقد في اصطلاح الفنيين هو تقدير القطعة الفنية, ومعرفة قيمتها ودرجتها في الفن سواء كانت القطعة أدباً أو تصويراً أو حفراً أو إيقاعاً[2].

و" الناقد الفذ هو الذي يستطيع تمييز الجيد والرديء من القول, ويُعتمد في هذا التمييز على الخبرة؛ والخبرة متعددة الجوانب, منها ما هو طبيعة وأصل في الناقد, وهي موهبة فيه, يوهبا كما يوهب الشاعر ملكة الشعر, ومنها ما هو مكتسب بالدربة والممارسة, والصلة الطويلة بالصناعة يتولاها الناقد, فيلمّ بأصولها وخفاياها"[3].

ولقد رأى ابن رشيق أن الناقد الشاعر أبصر من الناقد غير الشاعر, ويتضح ذلك جلياً في قوله: "وأهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو غريب ومثل وخبر"[4].

رأى الدكتور محمد النويهي أن السر في نجاح الناقد الأدبي يعود إلى عدة مصادر من أهمها " دراسة الأدب الغربي أحسن دراسة, والإلمام العميق بالفلسفة, وعلم الاجتماع, وعلم عقائد الإنسان, ودراسة الأديان المقارنة"[5].

ويضيف الدكتور سلام عاملاً آخر وهو ملكة الذوق, ويرى أن "ملكة الذوق ملكة لا غنى لأيّ ناقد عنها, لأنها تمكنه من التعرف على مواطن الجمال والقبح فيما يعرض له من النصوص

---

([1]) أمين, أحمد: النقد الأدبي, ط5, القاهرة, مكتبة النهضة المصرية, 1983, ص1 .

([2]) نفسه, نفس الصفحة.

([3]) سلام, محمد زغلول: تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري, القاهرة, دار المعارف, 1964م, 10/1.

([4]) نفسه, نقلاً عن (ابن رشيق,75/1) في كتابه العمدة.

([5]) النويهي, محمد: ثقافة النقد الأدبي, ط2, بيروت, مكتبة الخانجي, 1969م, ص37.

عند سماعها أو قراءتها"[1].

وأما الغرض من دراسة النقد الأدبي, فيقول الدكتور أحمد أمين: " الغرض من دراسة النقد الأدبي أمران اثنان؛ **أولهما:** معرفة القواعد التي نستطيع بها أن نحكم على القطعة الأدبية أجيدة أم غير جيدة, فإذا كانت جيدة أو رديئة فما درجتها من الحُسْن أو القبح, و**ثانيهما:** معرفة الوسائل التي تمكننا من تقويم ما يعرض علينا من الآثار الأدبية"[2].

كان لأبي العلاء قدرات متميزة, وكان صاحب نظرية نقدية, ساعده على ذلك ذوقه المرهف وخبراته الواسعة التي أهّلته إلى أخذ دوره المميز بين نقّاد عصره وأبناء زمانه, "فهو أديب من حيث دوره الاجتماعي الفعال في النقد والإصلاح والتوجيه, وأديب في الإفصاح عن ذلك الدور بلغة أدبية قَلَّ من يَحْسُنُ مثلها, وهو أديب أيضاً في سلوكه المتميز, وأخلاقه السّامية"[3].

فالمعري أعجوبة زمانه في العربية وقواعدها, وفي ذلك يقول ابن العديم " نقل عن ابن الشجري عن أبي زكريا التبريزي أنه قال: ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري"[4], وفي ترجمة للمعري," يقول العباسي المكّيّ عنه, هو أحمد بن فلان...اللغوي الشاعر الماهر, أحد فحول الفضلاء العاملين, الصّلحاء الزاهدين, سار فضله في البراري والبحور...أقرَّ له بالبلاغة والأدب كلُّ بليغ وأديب"[5].

والدليل على ذلك, أنه كان "يحتكم إلى بعض العلوم كاللغة والنحو والعروض لوضع المسألة في موضعها الحقيقي بغية الوصول إلى حلّ نهائي لها, وقد وُجدتْ هذه الخصال في معظم مواقفه النقدية من الشعر سواء أكان هذا النقد لغوياً أم عروضياً أم تصحيحاً لرواية

(1) سلام, محمد زغلول: تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري,12/1.
(2) أمين, أحمد: النقد الأدبي, ص1 .
(3) مسعود, ميخائيل: أدباء فلاسفة, ص210.
(4) ابن العديم: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص569.
(5) المكي, العباس: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص351.

معينة"[1], على خلاف ما رآه في بعض أدباء عصره, الذين كانت غاية أدبهم وشعرهم؛

**1 ـ إما للتعقيد وبيان القوة اللغوية أو النحوية عند البعض** (أمثال الخليل والأخفش والكسائي والفرّاء وغيرهم من علماء النحو), وقد تناول المعري هؤلاء النحاة واللغويين بنقده اللاذع, إذ وجدهم يوعّرون النحو ويعقدون مسلكه حتى إنهم أحالوه إلى طلاسم وألغاز, حتى تَفَرَّعوا نتيجة ذلك إلى شيع وأحزاب تتناحر وتتصارع, وقضوا الوقت كله من دون فائدة أو جدوى, وبات نحوهم ولغتهم هملاً لم ينتفع بهما أحد, ولم يبكهم علمهم الذي ضيعوا العمر فيه, على نحو ما كان يقول فيهم:

**تولّى سيبويهِ, وجاشَ سَيْبٌ — من الأيّامِ, فاخْتَلَّ الخَليلُ**
**ويونُسُ أوحَشَتْ منهُ المَغاني, — وغيرُ مُصابهِ النَّبأُ الجليلُ**
**أتَتْ عِلَلُ المَنونِ, فما بكاهُمْ, — من اللّفظِ, الصّحيحُ ولا العَليلُ**[2] (الوافر)

وفي رسالة الغفران يتناول أبو العلاء النحاة واللغويين بأقوى نقده ولواذع تحليله, ويغمز جوانب هؤلاء النحاة واللغويين غمزة, أبان فيها أنهم كانوا في حال الدنيا متخاصمين, قضوا العمر في جدال ومهاترة, مظهراً في رسالته تقعر طباعهم وافتراء علومهم وتصحيفهم أقوال باطلة, حيث يقول: " فهم كما جاء في الكتاب العزيز﴿ونزعنا ما في صدورِهِم من غلٍّ إخواناً على سررٍ متقابلين, لا يمسهم فيها نصبٌ وما هم منها بمخرجين﴾ فصدر أحمد بن يحيى ( إمام الكوفيين في النحو واللغة في زمانه) هنالك قد غُسل من الحقد على (محمد بن يزيد المبرد) فصارا يتصافيان,...وأبو بشر عمر بن عثمان سيبويه قد رُخصت سويداء قلبه من الضغن على (علي بن حمزة الكسائي) وأصحابه لما فعلوا به في مجلس البرامكة"[3].

**2 ـ أو للتكسب والوصول إلى عتبات أصحاب السلطة والجاه**, كبعض الشعراء الذين جعلوا من الشعر وسيلة للكسب والثروة, يقول أبو العلاء في خطبة الفصيح: "الشعرُ إذا جُعل مكسباً, لم يترك للشاعرِ حسباً, وإن كان لغيرِ مكسبٍ, حَسُنَ في الصفاتِ والنّسبِ ما لم تُسبّ

---

([1]) خالص, وليد محمد: أبو العلاء المعري... ناقداً, أبو ظبي, مكتبة المكتبة, 1986م, ص54.

([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 272/2, سيبويه والخليل ويونس: من أئمة العربية في أواخر القرن الثاني.

([3]) المعري, أبو العلاء: رسالة الغفران, تحقيق بنت الشاطئ, ص169 وما بعدها.

المحصّنة, وتُعَدّ للعارِ المصنة, فاتّقِ ربَّك, وإذا رأيتَ الشاعرَ, فلا تقلْ (والشعراءُ يتّبِعُهُمْ الغاوون) فإنّ الآيةَ وصلت بالاستثناءِ, وجنيُ السيئةِ شرُّ الجني...لا تجهلوا فضيلةَ الشّعرِ, فإنه يذكّرُ الناسَ, ويُحِلُّ عزمةَ الفاتك, ويَعْطِفُ مودّةَ الكاشح, ويشجّعُ الجبان"[1].

لأن الأصل في الشعر ـ من وجهة نظره ـ تذكير الناس, وإحلال عزمة الفاتك, وعطف مودة الكاشح, وتشجيع الجبان, وأما " التكّسب فهو تدنٍ بالفكر والفن والروح الإنسانية الرفيعة التي كرمها الله لتبدع"[2].

وما كان موقف المعري السلبي اتجاههم إلا لأنهم دعاة إلى الكذب, تجار بأقوالهم, سراق للأموال والأقوال, وأنهم شر فئة من الناس لأنهم يبذلون ماء وجوههم, ويمتهنون قرائحهم بامتداح مَنْ لا يستحق المديح, لينالوا خسيساً من المال, ولو ترفّعوا عن التكسب بأشعارهم لصانوا كرامة الشعر وكرامة أنفسهم, على نحو ما نرى في قوله:

**بنـــي الآداب! غرّتكُمْ, قديماً,        زخارفُ مثلُ زمزمةِ الذُّبابِ**
**وما شعــراؤكُــمْ إلا ذئابٌ,        تلصَّصُ في المدائحِ والسِّبابِ**
**أضرُّ لِمنْ تودُّ من الأعادي,        وأسرَقُ, للمقالِ من الزَّبابِ[3]**        (الوافر)

وسواء ـ عنده ـ المديح والهجاء حين يسبغ الشاعر صفات ليست في الممدوح, من مثل قوله:

**إذا أثنى عليّ المرءُ, يَوْمــاً,        بخيرٍ ليسَ فيَّ, فذاك هاجِ[4]**        (الوافر)

أما إذا أسبغ الشاعر على ممدوحه من مستحيل الصفات البشرية, فإن الهجاء خير منه, يقول:

---

([1]) خريباني, جعفر: أبو العلاء المعري (رهين المحبسين), ص47 وما بعدها, نقلاً عن خطبة الفصيح لأبي العلاء.
([2]) سلام, محمد زغلول: الأدب في العصر الفاطمي (2) الشعر والشعراء, الإسكندرية, منشأة المعارف, ص269.
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 165/1, الزباب: فأرة كبيرة صماء يضرب بها المثل في السرقة.
([4]) نفسه, 279/1 .

**إذا كان التّقارضُ من مُحَالٍ, فأحسنُ من تمادُحِنَا التَّهاجي**[1] (الوافر)

أما هو فقد آثر الصدق, لأنه ربط الأدب بالأخلاق, والشعر ـــ عنده ـــ منزّهٌ عن أسباب التكسب الدنيوية الزائلة, ولذلك لم يدنّس نفسه بالاستجداء يوماً للحصول على المال من أصحاب العروش والجاه, حيث يقول:

**أُنَبِّئُكُمْ أنّي على العهـــدِ سالمٌ ووجهيَ لمَّا يُبْتَذَلْ بسُؤَالِ**[2] (الطويل)

إنه وحده الذي يقول كلمة الحق في عصر أُخرست فيه السيوف والضمائر, وقد أبى عليه ضميره أن يكون في أمته شيطاناً أخرس, يقول:

**فَمَا لي لا أقولُ, ولـــي لسانٌ وقَدْ نَطَقَ الزمانُ بلا لِسانِ**
**وبيعتْ بالفلوسِ, لكُلِّ خَزْيِ, وُجُـــوهٌ كالدنانيرِ الحِسانِ**[3] (الوافر)

وأما الأدباء, فقد كانت غاية البعض من أدبهم الحصول على الثروة والشهرة ذائعة الصّيت, وفي ذلك يوجّه المعري نقده التقويمي لأدباء عصره قائلاً:

**وما أدَبَ الأقوامَ, في كلّ بَلْدةٍ, إلى المَيْنِ, إلاّ مَعْشَرٌ أُدبَاءُ**[4] (الطويل)

فصناعتهم مذمومة تجلب الفقر والهوان, برغم ما يبذله الأديب من ذل ومهانة في تسويقه وترويجه بضائعه الأدبية في أسواق الملوك والأغنياء, ولعل ما وضعه أبو العلاء على لسان إبليس حين التقى بأديب حلبي خير دليل على فقر حال الأديب وهوانه, "يقول إبليس: مَنْ الرجل؟ فيقول: أنا فلانٌ بنُ فلان (عليُّ بنُ منصورٍ الملقبُ بابنِ القارح) من أهلِ حلب. كانت صناعتي الأدب, أتقربُ به إلى الملوك, فيقول إبليسُ: بئسَ الصناعة! إنها تَهب غُفَّةً من العيش[5]لا يتسعُ

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 279/1.
([2]) المعري, أبو العلاء: شرح ديوان سقط الزند, ص145.
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 567/2.
([4]) نفسه, 43/1, أدب: دعا.
([5]) غُفّة من العيش: بلغة منه.

يتسعُ بها العيال, وإنها لمزلةٌ بالقدم, وكَمْ أهلكتْ مثلَك, فهنيئاً لك إذ نجوت"[1].

نقد أبو العلاء المعري الأدباء وأشفق على أحوالهم, ورأى أنه رغم ذهابهم وإيابهم إلى قصور الملوك والأمراء, إلا أنهم لا يجدون ما يسدّون رمقهم, في حين أن الجهلاء ينعمون بالنعم والخيرات الوفيرة, وفي ذلك يقول منددًا:

**أُفٍّ لما نحــنُ فيه مِــنْ عَنْتٍ, فكلُّــنا فــي تَــحَيُّلٍ ودَلَــسْ**
**ما النّحوُ والشّعْرُ والكلامُ, وما مُرَقِّشٌ, والمُسَيّبُ بــن عَلَسْ**
**طــالتْ علــى ســاهرٍ دُجْنَتُهُ, والصّبحُ ناءٍ, فَمَنْ لنا بعَلَسْ؟[2]** (المنسرح)

وخلاصة القول: إن الفكر الأدبي الملتزم والنهج الأخلاقي الذي اطمأن إليه المعري, وآمن به, ودعا إليه هو الذي حدّد مسار أدبه, ومضامينه, فآثر الصدق والنزاهة, ونعى على أصحاب الكلام من نحويين ولغويين وأدباء وشعراء نفاقهم وتشويههم الحقائق, داعياً الناس بألا ينخدعوا لمثل تلك الفئة الضّالة المضللة, فأدبه ما سُخّر إلا لغايات أخلاقية وتهذيبية وإرشادية, وقد تبين ذلك جلياً في مقدمة ديوانه اللزوميات, ولذلك جاء نقده أمضى سلاحاً, وأعمق مضموناً, وأشدّ تأثيراً على النفس البشرية.

---

([1]) عبد الرحمن, عائشة (بنت الشاطئ): جديد في رسالة الغفران, ص188.

([2]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 70/2, المرقش والمسيب بن علس: شاعران من شعراء الجاهلية, علس: الطعام.

# الفصل الرابع

## الخصائص الفنية للزوميات أبي العلاء المعري.

1. اللغـــــة والأســـــلوب.
2. الصّـــــــــــــورة.
3. الموســـــــــــــيقا.

يقول الدكتور شوقي ضيف: "إن الشعر العربي فن متطور جداً, فهو ذو أسلوب خاص محدد في الشكل كما في المحتوى...إنه يتميز بصناعة التعبير والأبحر المعقودة, وفوق كل هذه الأفكار والمعاني المشتركة التي لا يمكن تفسير وضعها إلا إذا نظرنا في تلك القصائد المتضمنة لكل هذا على أنها كانت نتيجة فترة طويلة من التطور"[1].

وهذا القول إن دلّ على شيء, فإنما يدل على أنه لا يجوز للباحث قط الاكتفاء بالبحث عن تفسير معاني الألفاظ والتشبيهات وما شابه ذلك, لأنّ فهم النص الأدبي يتطلب " استكشاف العلاقات اللغوية القائمة في النص والظواهر المميزة التي تشكلّ سمات خاصة فيه, ثم محاولة التعرف على العلاقات القائمة بينها وبين شخصية الكاتب الذي يشكلّ مادته اللغوية وفق أحاسيسه ومشاعره, التي تجعله يلحّ على أساليب معينة, ويستخدم صيغاً لغوية, تشكل في مجملها ظواهر أسلوبية لها دلالاتها في النص الأدبي[2].

إن تتبعي لموضوع النقد الاجتماعي في لزوميات المعري أرانيه موضوعاً عظيماً يمثل موقف المعري الصّارم إزاء المجتمع, كما أنه يعد بمثابة قضية وعظية إرشادية بالغة الأهمية؛ نبَّه فيها المعري أولئك الغافلين المنغمسين بأمور الدنيا وسفاسفها, غافلين عن دورهم في بناء المجتمع أكثر مثالية وإنسانية, ولذلك اعتمد أبو العلاء في التعبير عن موضوعه هذا على مخزونه الفكري والثقافي واللغوي, مستخدماً الصياغات والأساليب المختلفة معبراً بها عن إبداعه الفنّيّ, ونظراً لأهمية البحث في ذلك الأسلوب, وتوضيحه؛ كان لا بدّ من دراسة أسلوبه دراسة فنية, وفق أطر ثلاثة: اللغة والأسلوب, والصّورة, والموسيقا.

1. **<u>اللغة والأسلوب:</u>**

"ليست وظيفة اللغة مجرد نقل أفكار أو التعامل مع حقائق ثابتة, وإنما تتعامل اللغة مع عواطف الناس ومشاعرهم وتخاطب هذا الجانب فيهم, وما من شك في أن المبدع يستعين باللغة

---

([1]) ضيف, شوقي: فن النقد الأدبي, ص29.

([2]) عودة, خليل: المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي, مجلة النجاح للأبحاث, م2ن, ع8, 1994م, ص99.

لخلق عمل فني يكشف فيه عن مشاعره"[1].

فاللفظ هو وسيلتنا الوحيدة إلى إدراك القيم الشعورية في العمل الأدبي, وهو الأداة الأساسية المتاحة للأديب لينقل إلينا من خلالها تجاربه الشعورية, وهو لا يؤدي هاتين المهمتين إلا حين يقع التطابق بينه وبين الحالة الشعورية التي يصورها, وعندئذ فقط يستنفذ ـــ قدر الإمكان ـــ تلك الطّاقة الشعورية ويوجهها إلى نفوس الآخرين[2].

ومن أجل التعرف على الحالة الشعورية التي يصوّرها أبو العلاء في لزومياته كان لابد من التعرف على الجوانب الجمالية, والوقوف عند الظواهر الأسلوبية التي ظهرت في لزومياته بشكل واضح وجليّ, إضافة إلى الصيغ اللغوية والبلاغية التي يكثر الشاعر من استخدامها.

إن أول ما يلفت الأنظار في لزومياته استخدامه الأساليب الإنشائية كالنداء, والأمر, والاستفهام, والنهي, ومن الجدير بالذكر أن تلك الأساليب كانت لا تحمل معناها الحقيقي في كل شعره, فقد خرجت إلى أغراض بلاغية متنوعة, ومن الصّعب حصرها جميعاً هنا, لذلك فقد رأت الباحثة أن تبدأ بدراسة نماذج متنوعة من لزومياته من أجل استجلاء هذه المعاني, وبيان قيمتها البلاغية الفنية من حيث الدلالة, ومن حيث ارتباطها بالحالة النفسية والشعورية, على نحو ما نرى في قوله:

---

([1]) قطب, سيد: النقد الأدبي, أصوله ومناهجه, ط بيروت, ص79.

([2]) عبد المطلب, محمد: البلاغة والأسلوبية, ط الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1984م, ص129.

**أيا جسدَ المـــــرءِ! ماذا دهاك؟ وقد كنــتَ مــن عُنْصُــرٍ طيّــبِ**
**تخبّثتَ, إذا جُمـــــعَتْ أربــــعٌ لديكَ, وأضحكتْ في الحي بي**[1] (المتقارب)

في البيت الأول نلاحظ أن أبا العلاء لجأ إلى أسلوب النداء ممزوجاً بالاستفهام, حيث استعمل الاستفهام للإيقاظ والتنبيه, ودعوة إلى التفكير والمساءلة, وأما أداة النداء فقد جاءت لنداء هذا الجسد الذي انقلب حاله من طيّب إلى خبيث.

وأما قوله:

**أمَا رأيتَ صروفَ الدهرِ غاديةً, على القلوبِ, بتبغيضٍ وتحبيبِ**[2] (البسيط)

ومثل هذا الاستفهام, يدعو به المعري إلى إيقاظ الناس من غفلتهم وتنبيههم بأن الدنيا ومصائبها قائمة على البشر أجمعين, فالذي تصيبه سهامها يغدو بائساً منهاراً, وإلا فإنه يكون مسروراً فرحاً.

وقوله:

**يا أُمَّـــةً من سَفَاهٍ لا حُلومَ لها, ما أنتِ إلاّ كضأنٍ غابَ راعيها**[3] (البسيط)

إن استخدام أسلوب النداء في البيت السَّابق أدى وظيفة نفسية, حيث كان بمثابة آهٍ تخرج من صدر المعري للتنفيس عن الألم الذي يعانيه من تلك الأمة التي أذهب حب الدنيا عقولها.

ومن الأساليب الإنشائية أيضاً ورود أسلوبي الأمر والنهي, وقد خرجا عن معناهما الحقيقي ليؤديا معاني جديدة يظهرها سياق البيت, فقد تباينت معانيهما, على نحو ما نرى في قوله:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 180/1, الأربع: أي الطبائع الأربع.
([2]) نفسه, 161/1.
([3]) نفسه, 616/1.

وحـــاذرْ من الصّهباءِ, فهْيَ عدوّةٌ من الصُّهب, مَشَّتْ في مفاصلك السُّكرا[1] (الطويل)

ومن الملاحظ, خروج فعل الأمر الذي خاطب به الناس من خلاله عن معناه الأصلي إلى معنى النصحُ والإرشاد, وبيان جلال الموقف, وخطورة السكر إزاء تعاطي الخمور والمسكرات من خلال الفعل (حاذرْ).

وأما قوله:

تَوَخَّىْ جَميـــلاً, وافعَليه لحسنِهِ, ولا تَحكُمي أنَّ المليكَ به يُجزي[2] (الطويل)

استخدم المعري في هذا البيت أفعال الأمر للتعبير عن مشاعره المضطربة, فقد تضافر الأمر (توخي, افعليه), والنهي (لا تحكمي) من أجل إضفاء معنى النصيحة والإرشاد للمرأة, بشكل عام لما رآه من فساد بعضهن في تلك الفترة. وهذه الأفعال عكست اضطراب مشاعره ما بين النصح والخوف عليها من الانحلال.

وقوله:

طِباعُ الورى فيها النّفاقُ, فأقصِهم وحيداً, ولا تَصْحَبْ خليلاً تنافِقُه[3] (الطويل)

لجأ أبو العلاء إلى أسلوب الأمر في (فأقصهمْ), وأسلوب النهي (لا تصحبْ) ليؤكد فكرته التي استقاها من تجاربه مع الناس, لأنه رأى أن الدنيا خالية من الرفاق الحقيقيــين لأنهـــا أرض ملأى بالمنافقين والمحتالين.

وأما قوله:

لا تَحْلِفَنّ على صِدْقٍ ولا كَذِبٍ, فإنْ أبَيْتَ فَعَـدِّ الحَلْفَ باللهِ[4]
باللهِ[4] (البسيط)

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 483/1
([2]) نفسه, 628/1.
([3]) نفسه, 181/2.
([4]) نفسه, 632/2.

استخدم أبو العلاء أسلوب النهي (لا تحلفن), ليؤكّد على فكرته التي استقاها من عقيدته الإسلامية والتي تمنع الحلفان سواء أكان الحالف صادقاً أو عكس ذلك.

وفي قوله:

**لا تأسفنّ على شيءٍ تُفاتُ به,      فقد تَساوى لديكَ الجَونُ والكرِكُ**[1]      (البسيط)

استخدم أبو العلاء أسلوب النهي (لا تأسفن), ليعلن فيها أن الإنسان العاقل هو الإنسان الذي لا يأسف على ما فاته, فالعرب والعجم متساويان في هذه الدنيا وكأنه أراد في ذلك البيت إعلان ما حصل عليه من عقيدته وموروثه الإسلامي بأن العربي لا يختلف عن الأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

ومن الظواهر الأسلوبية في لزوميات المعري؛ التزامه نظام القافية في آخر كل بيت من أبيات لزومياته أكثر من حرف قبل الروي؛ وهذا ما سمّاه "لزوم ما لا يلزم" وقد نظمه على حروف المعجم كلها مضمومة, ومكسورة, وساكنة, على نحو ما نرى في قوله:

**إنْ كانَ مَنْ فَعَلَ الكبائرَ مُجْبَراً      فعِقابُـــهُ ظُلْـــمٌ علـــى مايَفْعَـــلُ**
**واللهُ, إذْ خَلَقَ المعادنَ, عالمٌ      أنَّ الحِدادَ البيضَ منها تُجْعَلُ**[2]      (الكامل)

لم يكتفِ أبو العلاء هنا باللام بل التزم قبلها العين أيضاً, وهو ما يسمّى التزامه بحرفين قبل الروي.

وأما في قوله الآتي؛ فقد التزم ثلاثة حروف قبل الروي:

**إنْ كانَ رَضْوى وقُدْسٌ غَيْرَ دائمةٍ,      فهل تَدومُ لهذا الشّخصِ أركانُ؟**
**ما أحسنَ الأرضَ لو كانتْ بغير أذىً,      ونحنُ فيـــــها, لذكرِ اللهِ, سُكّان**[3]      (البسيط)

وهذه الحروف على الترتيب الكاف والألف والنون.

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم: 220/2, الجون هنا, الأسود, الكرك: الأحمر, وأراد بها العرب والعجم.
([2]) نفسه, 273/2, الحداد البيض: السّيوف.
([3]) نفسه , 500/2, رضوى وقدس: جبلان.

لم يكتفِ المعري بذلك الالتزام, بل راح يلتزم أربعة حروف أو خمسة قبل الروي, على نحو ما نرى في قوله:

**هُوَ الموتُ, مُثْرٍ عندهُ مِثْلُ مُقْتَـــرٍ,        وقاصـــدُ نَهـــجٍ مثـــلُ آخـــرِ ناكـــبِ**
**ودِرْعُ الفتى, في حكمه, دِرْعُ غادةٍ        وأبياتُ كِسْرى من بيوتِ العناكبِ[1]**        (الطويل)

حيث التزم في تلك الأبيات بأربعة أحرف قبل الروي, وهي على الترتيب النون والألف والكاف والباء.

ولعل التزام أبي العلاء لنظام القافية, يضعه في مقدمة الشعراء العباقرة الـــذين ابتـــدعوا مثل هذه الظاهرة الأسلوبية الفريدة, وكأنه راح يتعمد ذلك تعمداً؛ ليظهر علمه الواسع وليزيد من تعقيدات لزومياته, ورفعها عن مستوى الشعراء العاديين.

ومن الظواهر الأسلوبية في لزومياته استخدام الألفاظ الغريبة والغامضة لتحقيق هدفه مستعيناً بالأساليب الخبرية, على نحو ما نرى في قوله:

**ترى الهِمَّ لا شيءٌ, سوى الأكل, هَمَّه        لهُ جَسَدٌ ما اسطـــاعَ حَرّاً ولا بردا**
**يُقلُّ العَصا, مستثقِلَ الطِّمــرِ, بعــدما        عـــلا فرساً, واجتـــابَ ماذِيّةً سرِدا**
**ولا تتـــركُ الأيّـــامُ مَـــــردىً لظـــبيةٍ        من الأُدْم, تختارُ الكِباثَ ولا المَردا[2]**        (الطويل)

نلاحظ في هذا النص الشعري تضافر الألفاظ الوعرة الغريبة كألفاظ, الهمّ والطمر, واجتاب, وماذية, ومردىً, والأُدم, والكباث, والمردا مستخدماً الأساليب الخبرية التي لم يكن هدفه فيها الإعلام أو الأخبار بقدر ما كان هدفه التعبير عن آرائه وأفكاره حتى يحقق ما كان يريده له أحياناً من رمز, يترك الباحثين في تيه مبهم من التأويل, مما قاده إلى تقليب وجوه المعاني والدلالات, على نحو ما نرى في قوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 144/1, الناكب: العادل عن الطريق, وهو مقابل قوله: قاصد نهج, الدرع الأولى: ما يلبسه الرجل من الزرد, والثانية: ثوب المرأة.

([2]) نفسه, 349/1, الهم: الشيخ الفاني, همه: شغله, الطمر: الثوب البالي, اجتاب: لبس, الماذية: الدرع اللينة, السّرد: الدرع المنسوجة, مردى: مهلك, الأدم: الواحدة أدماء: المشرب ولونها بياضاً, الكباث والمَرْد: ثمر الأراك.

شُربي, على المُقلةِ, في مَقْلَتٍ, وأكلـــيَ المشْـــرقَ بــــالمغرِبِ
آثرُ عندي مــن طعــامٍ لهــمُ يُشْفَعُ بالمُـــطرفِ والمــطربِ
يا تَربَ الحـــالةِ! كــلٌّ إلى التُّرْبِ, فجنّـــبْ حَسَــدَ المُتْرِبِ[1] (السريع)

تكاد ألفاظ أبي العلاء في تلك الأبيات تكون من الأحاجي, لأن مقصده في تلك الأبيات يكاد يغمض على سامعيها, ولا عجب بعد التأمل إذا قلنا إنَّ قصده من تلك الأبيات كان أنه يكتفي بماء قليل بمقدار محدود في مغاور مهلكة, ويتعشّى على اللحم القديد, وينصح الفقير بالتخلي عن النظرة الحاسدة لتلك الطبقة الغنية, مادام مآل الجميع إلى التراب.

فأبو العلاء لجأ إلى وسائل مختلفة لإضفاء سمة التعقيد, ومنها تلك الألفاظ الغريبة المعقدة التي تحتاج إلى معجم لتفسيرها واستعان بالمجانسة التي كان يشغف بها شغفاً شديداً كما نجد في " المطرف" و"المطرب" و" تَرِب" و"التّرب", كما استعان بالمطابقة في "المشرق " و" المغرب".

وقد أشـــار البطليوسي إلى هذه الظـــاهرة بالقول: "ومن شـــأن أبي العلاء أن يؤمئ إلى المعاني إيماءً, خفياً, لذلك تعقّد كثير من شعره, وجرى مجرى الألغاز"[2].

ومن أساليب التعمية والغموض اللفظي, اللجوء إلى تزاحم المفردات المتشابهة في اللفظ, مما يحدث تنافراً بينها لتقارب مخارج الحروف, على نحو ما نرى في قوله:

وهل يَنْفَعُ التّمسيكُ والمسكُ تَحتهُ خَبيثٌ نبيــثٌ, والــذي فوقَــهُ المِسْــكُ؟
إذا مَسّكَ الإعدامُ, فاصْبِرْ ولا تكُنْ جَزوعاً, لكيْ يَرْدَى الفتى وبه مُسْكُ[3] (الطويل)

زاد أبو العلاء أسلوبه تعقيداً وغموضاً لا توضيحاً, وخاصة عندما كرّر ألفاظاً متشابهة في اللفظ بنحو خمس مرات في البيتين من مثل ألفاظ التمسيك, المِسْكُ, المَسْكُ, مَسَّكَ, مُسْكُ معتمداً في ذلك على المجانسة بين تلك الألفاظ.

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 175/1, المقلة: الحصاة, المقلت: المهلكة في الأرض مأخوذ من قلت إذا هلك, هلك, المشرق: اللحم القديد, آثر: أفضل, الترب الحالة: الفقير, المترب: الغني.

([2]) البطليوسي وزملاؤه: شروح سقط الزند, 840/2.

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 216/2, التمسيك: التطيب بالمسك, المُسك: العقل.

كما أنه لجأ في حكمه ومواعظه لمثل ذلك الغموض, ويتبين جلياً على نحو ما نرى في قوله:

**الصَّبرُ يوجَدُ, إنْ باءٌ له كُسِـرَتْ,        لكنّـــه, بســـكون البـــاءِ, مفقـــودُ**
**ويُحْمَدُ الصَّابرُ المُوفي على غَرَضٍ,        لا عاجزٌ, بعرى التقصيرِ, معقودُ**[1] (البسيط)

ففي هذين البيتين نحتاج إلى فضل روية وإمعان لنتفهم ما عناه في أسلوبه الذي يشبه الأحاجي والألغاز, فأراد أنه بكسر الباء في الصّبر يعني عصارة الشجر المرّ, أمّا بسكون الباء فيعني التجلّد.

كما نجد أبياتاً كثيرة في لزومياته يسودها الغموض والتعقيد, بحيث لا يستبين المعنى إلا إذا شرحنا مفردات البيت كلّها, وذلك لوجود جناس وكنايات وتورية ومجاز فيبتعد كثيراً عن الحقيقة, على نحو ما نرى في قوله:

**لا يصبرون, فقيرٌ تحت فاقته؛        إنَّ السَّباريتَ جابتّها السّباريتُ**[2] (البسيط)

ففي البيت السّابق يَعُزّ على القارئ فهم الدلالة والمعنى الذي أراده أبو العلاء من خلال المجانسة بين لفظتي السّباريت الأولى والسباريت الثانية وكأنه أراد بتلك المجانسة إظهار قدرته الفنية في تقليب وجوه المعاني والدلالات؛ فإكثار المعري من الجناس يدلّ على تمكّنه من المفردات أشد تمكناً؛ لأنه كان يتلاعب بالألفاظ والمعاني, على نحو ما نرى في قوله:

**ما قرّ طاسُكَ في كفّ المُديرِ لَهُ,        إلا وقرطاسُكَ المرعوبُ مرعوبٌ**[3] (البسيط)

حيث جانس في " قرّ طاسك" و" قرطاسك", فاللفظة الأولى مؤلفة من لفظتين قَرَّ بمعنى ثبت, وطاس بمعنى الوعاء؛ أما اللفظة الثانية "قرطاسك" بمعنى الصّحيفة التي يكتب فيها, ثم عاد وجانس بين لفظتي المرعوب الأولى بمعنى المملوء, ومرعوب الثانية بمعنى الخائف على سبيل الجناس التام.

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 328/1, الموفي: المشرف.
([2]) نفسه , 199/1, السباريت الأولى: القفار, والثانية: الصَّعاليك, الفقراء, والواحد سبروت.
([3]) نفسه, 96/1.

ولم يكتفِ المعرّي بمثل هذه المجانسة لإظهار مقدرته البلاغية والفنية, بل راح يجانس بين مطلع البيت وقافيته, على نحو ما نرى في قوله:

**لَواكِ اللهُ عَنّا, حــينَ بِتْنــا     قريباً من صريمك, أو لِــواكِ**
**شَواكِ منعته ذَهْباً مَصُوغاً,     مخافةَ ما يفوهُ به شِواكِ[1]**     (الوافر)

حيث جانس بين مطلع البيت ( لَواك: بمعنى أمالك) وقافيته (لِواك: بمعنى منقطع الرمل) وكذلك بين (شَواك: بمعنى اليدان والرجلان والعنق) و(شِواك: ج شاة), وهذا ما يسمى في علم البديع " ردّ الأعجاز على الصّدور".

وراح أيضاً يجانس أحياناً جناساً غريباً ونادراً بين القوافي, وحشو البيت, على نحو ما نرى في قوله:

**عذِيري من الدّنيا عَرتني بظُلْمِها,     فتمنحنـــي قُـــوتي لتأخـــذَ قـــوّتي**
**وجدْتُ بها دينـــي دَنِيّاً, فصرتُني,     وأَضْلَلتُ منها في مُروتٍ مُروّتي[2]**     (الطويل)

حيث جانس بين حشو البيت (قُوتي بمعنى الطعام) والقافية (قوّتي بمعنى الشدة), وبين (مُروت بمعنى الأرض القاحلة) و(مروّتي بمعنى القوة والشدة).

وقد استطاع أبو العلاء حقاً أن يُحدث جناساً أشد صعوبة من ضروب الجناس السّابقة, على نحو ما نرى في قوله:

**ذوَى كالرّوضِ روضُكَ يومَ شَبَّتْ     جِمـــارٌ من لظى أسَفٍ ذواك[3]**     (الوافر)

وقد ألّفه من كلمة وحرف في كلمة أخرى, كأنه أراد بمثل هذه المجانسة أن يخطو بالشعر خطوة جديدة في سبيل التعقيد والابتكار اللفظي, ويتضح هذا الجناس بين (ذوى ك) و(ذواك).

كما راح يجانس بين الفعل والاسم, على نحو ما نرى في قوله:

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 241/2.
([2]) نفسه , 219/1.
([3]) نفسه, 241/2.

**كَبِرْتَ, فأصبَحْتَ, للراشدين,     كَبُرْتٍ يُعَدُّ لَهـدْيٍ دلــيلا**
**كَبُرْتَ, فمازالَ هذا الزمـــانُ,     كَبَرْتِ, يَجُـذُّ قليلاً قليلا[1]**
**قليلا[1]**     (المتقارب)

حيث جانس بين الفعل (كَبِرْتَ بمعنى عمرّتَ), والاسم (كَبُرْتٍ بمعنى الدليل), كما جانس بين الفعل (كَبُرْتَ بمعنى عظمتَ), والاسم (كَبَرْتِ بمعنى الفأس).

ومن الجدير بالذكر في هذا الموضع أن تسمية أبي العلاء ديوانه باسم " لزوم ما لا يلزم" يُعَدُّ باباً من أبواب المجانسة في البلاغة أيضاً.

فأبو العلاء في مثل هذا الضرب من المحسّنات البديعية يُظهر لنا سراً من أسراره اللغوية التي مازال الباحثون يعيرها الاهتمام الأكبر في دراساتهم وأبحاثهم, معللين ذلك بغموضه ووعورة ألفاظه تارة, وبعمق أفكاره وسعة ثقافته تارة أخرى.

كما حفلت لزوميات المعري بألفاظ لها دلالات مختلفة, نهلها من الموروث القديم, إذ كانت تمثل قيمة فنية طالما اعتزّ بها المعري...وفي ذلك يقول محمد أبو الأنوار: " والأخذ من التراث كان أمراً ضرورياً وفطرياً في كثير من جوانبه الفنية في عملية الإبداع الشعري لدى عامة الشعراء؛ لأنّ ثقافة الشعراء كانت تقوم على التشيع به ومدارسته"[2].

فجاءت ألفاظه ممثلة لانعكاس ثقافته على شعره، ففيها تلميحات دالة على عقائد وحوادث تاريخية, ووقائع مذكورة, على نحو ما جاء في قوله:

**إنْ رابنا الـــدّهرُ بأفعالِــهِ,     فكلُّنـــا, بالـــدهْرِ, مرتـــابُ**
**فاعفُ, ولا تعتب عليه, فكم     أودى به عوفٌ وعتّابُ[3]**     (السريع)

ففي البيت الأخير, يشير أبو العلاء إلى شخصيتين تاريخيتين مشهورتين, وهما عوف ابن شيبان, وعتّاب جد عمرو بن كلثوم الشاعر, ولعله بذكره لتلك الشخصيتين يوضّح أهمية معرفة الشاعر بأجداده الأقدمين وتراثهم القديم, وكأنه أراد بذكر عوف أن يوصِلَ مثلاً عظيم

---

([1])المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم , 312/2.
([2]) أبو الأنوار, محمد: الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية, بيروت, دار المعارف, ص438.
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 108/1, أودى به: أهلكه.

الشأن وهو المثل القديم الذي يقول: "أوفى من عوف".

ومن هذا القبيل قوله:

**إيّـــاكَ والخمـــرَ؛ فهـــي خالبـــةٌ, غالبـــةٌ, خـــابَ ذلـــك الغَلَـــبُ**
**أشأمُ من ناقة البسوسِ على النا سِ, وإن يُنَلْ عندها الطّلبُ**[1] (المنسرح)

ففي البيت الأخير يؤكد على المثل القديم الذي يقول: "أشأم من البسوس" من خلال تلميحه في البيت الأول بأن الخمر خطيرة وتجلب الشؤم لصاحبها, فهي بخطورتها تكون أشأم من البسوس؛ والبسوس: هي بنت منقذ المنقري خالة جسّاس بن مرة البكري التي اشتعلت بسببها الحرب المنسوبة إليها.

ولعل ما سبق ذكره دليل على اتجاهه الشعبي في اللغة، لأن استخدام الأمثال واستعمالها بكثرة دليل على شعبية اللغة لديه.

إن أبا العلاء يستغل الحوادث التاريخية في استنباط مواعظه وحكمه للوصول إلى نتائج تؤيد مذهبه في الحياة, على نحو ما نرى في قوله:

**أصحابُ لَيْكَةَ أُهْلِكـوا بظَهيـرَةٍ, حَمِيتْ, وعادٌ بالرّياح الصَّرصَرِ**
**هَوّنْ عليكَ أنِلْتَ نصراً في الوغى, أم قال جدُّكَ, صـــادقاً, لا تُنْصَرِ**
**كِسْرَى أصابَ الكَسْرُ جـــابرَ مُلكه, والقصرُ كَرّ على تَطـــاوُلِ قيصرِ**[2] (الكامل)

(أصحاب ليكة) وهم قوم النبي شعيب الذين هلكوا في ظهيرة يوم حار, و(قوم عاد) كذلك أُهلكوا في يوم شديد البرودة, (كسرى) و(قيصر) كانا ملكين على دولتين عظيمتين, (الروم وفارس) من قبل مجيء الإسلام ثم سقطتا على يد المسلمين أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ , وأبو العلاء أتى بهذه الألفاظ من التاريخ القديم مستعيناً بأسلوب الأمر المدعم بالاستفهام (هَوّنْ) و(أَنِلْتَ) ليؤكد الحكمة من وراء تلك الألفاظ وهي أن الموت آتٍ لا محالة, وأنه قضى على الملوك والعظماء.

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 109/1, خالبة: خادعة, حفلت: امتلأت لبناً.
([2]) نفسه, 567/1, ليكة: لغة في الأيكة وهي الغيضة, وليكة هنا اسم القرية: أيكة, وأصحابها هم قوم النبي شعيب.

ويقول في مثل هذا القبيل:

**شبَّ فِكرُ الحصيفِ ناراً, فما يُحْـ ـسُنُ, يوْمـاً, بعاقـلٍ, تشـبيبُ**
**أينَ بُقْـراطُ, والمقلّدُ جاليـ ـنوسَ؟ هيهاتَ أنْ يعيشَ طبيبُ**[1] (الخفيف)

فكما استأثر الموت بأهل القوة والجور, استأثر بأهل الحكمة والطبّ, فلم يسلم منه أبقراط, ولم يفر منه جالينوس, وكيف ينجو من الموت طبيب! أو يسلم منه حكيم؟.

إنَّ المعري يوظف ثقافته لخدمة شعره, وبذلك يكون قد وسّعَ دائرة الشعر لتضمّ معارف تاريخية وفلسفية وفلكية, على نحو ما نرى في إشارته التاريخية قائلاً:

**يرتجي الناسُ أن يقومَ إمامٌ ناطقٌ, في الكتيبةِ الخَرْسَاءُ**[2] (الخفيف)

ويريد بالكتيبة الخرساء السلاح الذي لا صوت له، ويريد بالإمام الناطق المهدي المنتظر.

ومن خلال شعره أيضاً يتضح جلياً سعة معرفته بأعلام الشعراء والفرسان والرجال الذين كان لهم حضور تاريخي, على نحو ما رأينا في قوله:

**سلكَ النّجدَ, في قِطـار المنايـا, قَطَـريٌّ, ونَجـدةٌ, وشَـبيبُ**
**أينَ بُقْـراطُ, والمقلّدُ جاليـ ـنوسَ؟ هيهاتَ أنْ يعيشَ طبيبُ**[3] (الخفيف)

ففي البيت الأول يتحدث عن قطري بن الفجاءة التميمي الشاعر, ونجدة بن عامر الحروري, وأما شبيب فهو ابن يزيد, وكلّهم من فرسان الخوارج وخطبائهم المشهورين, وأما بقراط وجالينوس فهما طبيبان يونانيان مشهوران, ففي البيتين السّابقين أحبّ المعري إعلان فكرته التي تقول إن الموت سار على الجميع, فالموت لا يعرف شاعراً ولا فارساً ولا حتى طبيباً.

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم,111/1, الحصيف: الجيد العقل, بقراط وجالينوس: طبيبان مشهوران وهما يونانيان.
([2]) نفسه, 66/1.
([3]) نفسه, 111/1,

ومن هذا القبيل, قوله:

**بدءُ السّعادةِ أنْ لم تُخْلَق امرأةٌ,      فهل تَودُّ جُمادى أنها رَجَبُ؟**[1]     (البسيط)

لم يأتِ أبو العلاء "بجمادى" و" رجب" لأن مقطوعته هي في الباء المضمومة مع الجيم, بل إنه قصد أن يهدي القارئ إلى دلالة كل من الشهرين, فالشتاء عند العرب جمادى لجمود الماء فيه[2]وأما رجب فشهر, سموه بذلك لتعظيمهم إياه في الجاهلية حتى إنهم كانوا لا يستحلون القتال القتال فيه[3].

وقال في مقطوعة أخرى:

**كلُّ شهوري عليَّ واحدةٌ,      لا صَفَرٌ يُتّقَى ولا رجبُ**[4]     (المنسرح)

يقصد أبو العلاء من وراء هذا البيت بيان دلالة كل من الشهرين "صفر" ثاني الشهور العربية, الذي كانت تتشاءم به العرب حتى مجيء الإسلام, فنهى عن ذلك فيما نهى من عادات الجاهلية أيضاً, و"رجب" الذي تحدثنا عنه سابقاً.

ويستعين أبو العلاء المعري في مقطوعته الآتية بألفاظ موروثة من المصطلحات التي خص الفلك والأبراج, للتعبير عن معتقده الديني الذي ينفي صلب سيدنا عيسى عليه السَّلام, كما استشهد في نفس المقطوعة بألفاظ الصليب والسهى والثريا والسّماكين والدلو والرشاء, ليستدل بها على قدرة الله على خلق هذه النجوم والكواكب بشتى أنواعها, على نحو ما نرى في قوله:

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 91/1.

([2]) ابن منظور: أبو الفضل, لسان العرب, ضمن مادة (جمد), ص130.

([3]) نفسه, ضمن مادة (رجب), ص411.

([4]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 110/1.

**أطلَّ صليبُ الدّلو, بين نجومِهِ, يكُفُّ رجالاً عــن عبادتهــا الصُّــلبا**
**فربُّكُمُ اللهُ الذي خلقَ السُّهى, وأبدى الثريّا, والسّــماكين والقَلبــا**
**وأنحلَ بدْرَ التّمّ, بعد كمالــهِ, كأنَّ بــه الظّلمــاءَ قاصــمةٌ قُلبــا**
**وأدنى رِشاءً للعَراقي, لم يكنْ شريعاً, إذا نصَّ البيانُ ولا خِلبا**[1] (الطويل)

ومن العبارات والألفاظ التي يتجلى فيها علم المعري الواسع بأنساب العــرب والقبائــل العربية, ما جاء في قوله:

**ليالٍ ما تُفيق من الرزايا, فويحي من عجائبها وويبي!**
**أَعَادَتْ أُسدُها أسداً أكيلاً, وأودى ذئبُــها بأبي ذَؤيب**[2] (الوافر)

إن أبا العلاء في البيت الأول يُظهر حزنه وألمه على حال الدنيا, التي ترزح تحت وطأة المصائب والرزايا, متعجباً من أمر تلك الليالي التي انهالت عليها العجائب والمشاكل, مسبّبة الأذى لبني آدم ومنهم قبيلة أسد لما حل بها حين قتلت "حُجراً" والد امرئ القيس, وكذلك الشاعر الجاهلي أبو ذؤيب حين مات أولاده الخمسة, معتمداً بذلك على المجانسة بين الأُسد وأَسد، وبين الذئب والذؤيب.

إن جزالة ألفاظ المعري, وقوة عباراته من أهم الظواهر الأسلوبية التــي امتــازت بــه لزومياته, على نحو ما نرى في قوله:

**لأمواهِ الشبيبةِ كيفَ غِضْنَهْ, وروضاتُ الصِّبَا كالَيبْس إضْنَهْ**

**وآمالُ النفــوسِ مُعَلّلاتٌ, ولكنَّ الحـــوادثَ يعترِضْنَهْ**[3] (الوافر)

فهاء السكت التي التزمها المعري في آخر كلّ بيت بعد النون المفتوحة, وبعد الضاد

---

([1]) نفسه , 112/1, الصليب: الأنجم الأربعة التي خلف النسر الطائر, الدلو: برج في السماء, في الشطر الثاني يعرض يعرض أبو العلاء بالنصارى اعتقاداً منه أنهم يعبدون الصّلبان, السُّهى: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى, الثريا: سبعة كواكب مجموعة في عنق الثور, القلب: هو قلب العقرب من منازل القمر, قاصمة: كاسرة, القلب: سوار للمرأة غير ملوي, الرشاء: حبل الدلو, ومنزلة من منازل القمر, العَراقي: واحدتها عرقوة: خشبتان تعرضان على الدلو كالصليب, الشريع: الحبل من الكتان, الخلب: الحبل من الليف.

([2])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 164/1, ويحي وويبي: ويلي, أُسدها: أسودها, أسد: قبيلة, أبو ذؤيب: شاعر شاعر جاهلي.

([3]) نفسه , 522/2, أمواه: ج ماء, غضن: نقصن, اضن: عدن.

الساكنة, تمنح البيت قوة معتدلة وهي الجزالة نفسها.

ومن الظّواهر الأسلوبية التي تشيع في لزوميات المعري, ظاهرة التكرار التي باتت صورة ملازمة ومنطقية لأفكاره وألفاظه؛ فالتكرار يمثّل بعداً فنياً ونفسياً وشعورياً وفكرياً[1].

ومن تكراره ما يكون في اللفظ, على نحو ما نرى في قوله:

**أدراكَ دهْرُكَ عن تُقاكَ بَجْهدِهِ,     فدَراكِ, من قبل الفواتِ, دَراك**[2]     (الكامل)

فتكرار لفظة دراك, تكرار هام لتأكيد المعنى الذي يعكس عمق فكره وفلسفته في الحياة, وهي أن الدنيا بملذاتها ستبعد كل إنسان عن إيمانه ما دام إيمانه ناقصاً, لذلك فإنه يحذر (بتكرار تلك اللفظة) ليؤكد مدى خطورة الموقف, مستخدماً المجانسة لإضفاءِ إيقاع موسيقي على ذلك البيت.

ومثل هذا التكرار, تكراره (كم الخبرية) التي تفيد الإخبار أو الإفصاح عن "حادث مثير يصحّي حزنه أو ندماً أو سخرية موجعة, أو التعليق عن حالة حاضرة تؤلمه"[3], على نحو ما نرى في قوله:

**كَمْ صَرَفَ المولودُ, عن والدٍ,     خَيْراً, وكَمْ أُمٍّ لَهُ لم يَمُنْ**[4]     (السريع)

يبدو لتكرار (كم) دور هام في تأكيد المعنى الذي طالما صرح به أمام الجميع, وهو أن الآباء يتعبون كثيراً على أبنائهم, ولكنهم في نهاية تعبهم لا ينعمون إلا بالصّد والهجوم من قبل أولادهم الذين تنمّروا عليهم في هذه الحياة, وكأنه بهذا التكرار يريد التأكيد على برّ الوالدين وطاعتهم, لا الصرف والصّد عنهم.

---

(1) الشوري, مصطفى عبد الشافي: شعر الرثاء في العصر الجاهلي, مكتبة لبنان, الشركة المصرية العالمية للنشر, لونجمان, ص152.

(2) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 243/2, أدراك: دفعك, دراك: اسم فعل بمعنى الأمر أدرك.

(3) الملائكة, نازك: قضايا الشعر المعاصر, بيروت, دار العلم للملايين, ص287.

(4) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 589/2, يمن: من مانه يمونه: إذا احتمل مؤنته.

وهو يكرر أداة النداء في البيت الواحد, على نحو ما نرى في قوله:

**فيا طائرُ ائمَنيّ, ويا ظبيُ لا تَخَفْ شَذَايَ, فما بَيْني وبَينكما فَرْقُ**[1] (الطويل)

استعمل أبو العلاء أداة النداء للبعيد (غير العاقل), وقد استخدمت للقريب (العاقل) ليؤكد حقيقة اندماجه مع حيوانات الأرض من طائر وظبي, كما تخلل أسلوب النهي (لا تَخَفْ) في محاولة منه لبيان أن الحيوان يفهمه ويفهم قصده من وراء ندائه هذا, وأن المعري عطوف على تلك الحيوانات, مشفق عليها, لذلك فهو يطلب منها عدم الخوف من جبروته وقوته لأنه لا فرق بينهما, وكأنه أراد في ذلك البيت إعلان حق الحياة للحيوان والإنسان على حدّ سواء.

ومن أمثلة هذا التكرار تكرار حروف العطف في أول كل بيت من المقطوعة ـ في الأغلب ـ على نحو ما نرى في قوله:

**وإذا تَساوى, في القبيح, فعالُنا, فَمَنِ التّقيُّ, وأيُّنا الكَفّارُ؟**
**والناسُ بينَ إقامةٍ وتَحمّلٍ, وكأنما أيّامُهُمْ أسفارُ**
**والحتَفُ أنصفَ بينهم, لم تمتنع منه الرّئالُ, ولا نجا الأغفارُ**
**والذّنبُ, ما غُفرانُهُ بتصنّعٍ منّا, ولكنْ رَبُّنَا الغَفّارُ**[2] (الكامل)

إن تكرار حرف العطف (و) في أول الأبيات السابقة بشكل متتال ومنسق يؤدي وظيفة نفسية بحتة, حيث كان بمثابة الزفرة الطويلة الأمد التي تخرج من صدر أبي العلاء لتكون المتنفس الوحيد المعبرّ عن الحقيقة التي ينكرها أو يتناساها بعض الناس, وهي أن الموت آتٍ لا محال, وهو الحقّ والمُنْصف للناس أجمعين؛ فالناس في هذه الحقيقة بين إقامة وسفر, فمنهم من قضى نحبه, ومنهم من ينتظر, وما بدلوا تبديلا.

ولم يكتف المعري بمثل هذا التكرار في الألفاظ والأدوات والحروف فحسب, بل راح يكرر في الأفكار والمعاني, على نحو ما نرى في قوله:

---

(1) نفسه , 175/2, شذاي: حدّتي.

(2)المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 464/1, الرئال: أولاد النعام, واحدها رأل, الأغفار: أولاد الأراوي, واحدها واحدها غفر.

بني آدمٍ بئسَ المَعــاشِرُ أنتُمُ,        وما فيكمُ وافٍ لمقتٍ, ولا حبِّ[1]        (الطويل)

وقوله:

فاحْذَرْ من الأنس أدناهم وأبعدهم,        وإنْ لقــوكَ بتبجيلٍ وتَرحاب[2]        (البسيط)

وقوله:

ما أغدرَ الإنسَ! كم خَشْفٍ تربَّبَهُم,        فغادَرُوهُ أكيلاً بعد تَربيب[3]        (البسيط)

وهذا غيض من فيض؛ فالتكرار في تلك الدلالات يؤكد فكرة المعري التي استقاها من تجاربه وخبراته في تلك الحياة, وهي أن الفساد عَمّ البشرية أجمعين, وأن الإنس أصبحوا أكثر فساداً وفجراً, لذلك أبى اعتزالهم والابتعاد عنهم ــ بقدر الإمكان ــ إلا أن عزلته تلك كانت أشبه بأمنية ضائعة إذ أصبح مورداً, بل مَعْلَماً وصرحاً علمياً وأدبياً لعامة الناس وخاصتهم.

كما راح يكرّر الصّور والتشبيهات, مثل تكرارِه صورة الليل المحملة بالأعباء والرزايا, على نحو ما نرى في قوله:

ليلٌ بلا نورٍ, أجَنَّ بمَهمَهٍ        حبَسَ الأدلّةَ, ليس فيه مَنَارُ[4]
مَنَارُ[4]        (الوافر)

ففي مثل هذه الصّورة المكررة في معظم لزومياته تأكيد على عمق الفاجعة التي أصابته مذ كان صغيراً, تلك الفاجعة التي أطفأت نور عينيه, وما خلفته من ألم وحزن على نفسية أبي العلاء المعري وفكره؛ فالظلام أسدل ستاره, ولم يعد يرى إلا ما يراه عقله؛ وراح يؤكد تعويضه عن البصر, عن طريق إتيانه بتراكيب, وعبارات تنحو منحى تعويضياً, يؤكد فيه أهمية العقل,

على نحو ما نرى في قوله:

---

(1) نفسه , 140/1.

(2) نفسه, 157/1.

(3)المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 161/1, الخشف: ولد الظبي أول ما يولد, تربيهم, إما من ترىب الصبي: ربّاه ربّاه حتى أدرك, أو من تربيهم: اتخذهم أرباباً.

(4) نفسه , 468/1, أجن الليل: ستر الأشياء بظلامه, المهمه: القفر.

**سأتْبَعُ مَنْ يَدعو إلى الخيرِ, جاهداً,        وأرحَلُ عنها, ما إمامي سوى عقلي**[1]

(الطويل)

**عقلي**[1]

لذلك عُني أبو العلاء بتراكيب الإسقاط, على نحو ما نرى في قوله مُسفهاً ومحطاً من شأن أمته التي أعطاها الله النور, وأفقدها العقل والحلم:

**يا أمةً من سَفاهٍ لا حُلومَ لها        ما أنتِ إلاّ كضأنٍ غابَ راعيها**[2]

(البسيط)

**راعيها**[2]

إن صورة الأمة التي لا عقل لها, والمشبهة بالبهائم كثيرة في لزومياته, تكشف خفايا نفس المعري الملأى بالألم والحزن لفقده حبيبتيه (عينيه).

لذلك فإنه يكثر من استخدام المجاز لألفاظ الرؤية, والمشاهدة, فراح يمارس إزاحة المعنى الحقيقي إلى دلالاته العقلية, على نحو ما نرى في قوله:

**ورأيتُ شرَّ الجارِ يَشْمَلُ جارَهُ,        كَرَحى الفمِ انْتُزِعَتْ بذنبِ المقْوَلِ**[3]        (الكامل)

كما أنه أكثر من المفردات ذات الصلة بالأذن علّها تعوض عن فقدانه نعمة البصر, حيث إنها الوسيلة الثانية المعوّضة بعد العين, على نحو ما نرى في قوله:

**لا تَعْرِفُ الوزنَ كفّي, بل غَدَتْ أُذُني        وَزّانةً, ولبعضِ القولِ ميزانُ**[4]        (البسيط)

وكأنه بلفظة الأذن أراد أن يؤكد على أهمية الأذن ليعوض نقصه بفقده نعمة البصر, ليخفي مشاعر الألم والفجيعة لذلك المصاب الجلل.

وفي مثل هذا القبيل قوله:

---

([1]) نفسه , 317/2.

([2])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 616/2.

([3]) نفسه , 349/2, رحى الفم: الأضراس, المقول: اللسان.

([4]) نفسه, 503/2.

**الخيرُ كالعَرْفجِ المَمْطُورِ, ضرَّمَهُ راعٍ, يَئِطُّ, ولَمّا أن ذكا خَمَدَا**[1] (البسيط)

إن استخدام الروائح العطرة في بيته السابق دليل على تعويضه هذا النقص الذي أصابه إثر فقدانه نعمة البصر, وإخفائه حزنه وألمه على فقدها.

ومن الصّور التي تكررت كثيراً في لزومياته صور الدنيا, فمرة يصورها بالضلالية التي يعدم فيها الوضوح والجلاء, على نحو ما نرى في قوله:

**تضلّلني في مَهْمَهٍ, بعدَ مَهْمَهٍ, عدمتُ به أنوارَها ومنارَها**[2] (الطويل)

ومرة يصورها بالغانية الفاسقة, على نحو ما نرى في قوله:

**إنما دُنيـــــاكَ غانيَةٌ, لم يُهنّئْ, زوجَها, العُرُسُ**[3] (المديد)

ومرة أخرى يصورها ويشبهها بأم دفر, كقوله:

**عَرَفْتُكِ جَيـــداً, يا أُمَّ دَفْرٍ, وما إنْ زِلْتِ ظَالمةً فزولي**[4] (الوافر)

ولعل هذا ما أوضحته الدكتورة رسمية السّقطي حين قالت: " إنّا نلمح التكرار خلال كثير من شعره, حيث يستغل المعاني أعظم استغلال, ويعتمد عليه في تكرار الوصف على صور, ونواحٍ مختلفة"[5].

إن الحكمة والموعظة من أهم المظاهر التي وظفت في لزوميات المعري, وهي تأتي نتيجة تجربة أو رؤية في الحياة من أجل الاعتبار والموعظة, أو للتأكيد على حقيقة ثابتة, أو التأمل في الكون والحياة والإنسان.

---

(1) نفسه , 351/1, العرفج: شجر سهلي شائك, يئط: يصوّت.

(2) المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 495/1.

(3) نفسه , 17/2.

(4) نفسه, 348/2، سبق شرح مفردات هذا البيت.

(5) السقطي, رسمية: أثر كف البصر على الصورة عند المعري, ص244 وما بعدها.

وحكم المعري ومواعظه تعبر بصدق عن تجاربه ومعانيه, فجاءت حِكَمُهُ عميقة شاملة خالية من التصنع أو التكلف.

يقول الدكتور أحمد زكي في تعريف الحكمة بأنها "درجة من الوعي الفكري يجمع معاني

عامة تأتي دائما عن طريق تجربة أو نظرة في الحياة"[1].

إن أسلوبه في شعر الحكمة في لزوميات المعري مبني على الحوار والمناقشة, على نحو ما نرى في قوله:

**سألنا المَعَاشرَ عَنْ خَيْـرهم, فقالوا, بغيْرِ اكتراثٍ: قُبِـرْ**
**فقلنا: وكيفَ أتــاهُ الحِمـامُ, عاجَلَــهُ بَغْتَــةً أمْ صَــبِرْ**
**فقـــالوا: تمادى به وَقْتُهُ, وأدركَــهُ المــوتُ لمّا كَبِرْ**
**وغادرَ, في أهلِـهِ, ثروةً, ومالاً أُذيــعَ, ونخــلاً أُبِرْ[2]**
**أُبِرْ[2]** **(المتقارب)**

إن أبا العلاء في المقطوعة السابقة يمزج الحكمة بالفلسفة, ويُحاور الأحياء في أهم القضايا ــ وهي قضية الموت ــ مازجاً محاورته تلك بالاستفهام لإيقاظ الغافلين وتنبيههم عن تلك القضية, مبيناً لهم في نهاية المطاف حقيقة ثابتة وهي أن الميت لن يأخذ شيئاً من دنياه فلا المال ولا الثروة سينقلان معه في قبره, وهي حقيقة ممزوجة بالألم والحزن على مصير البشرية المُنْتَظَر.

ومن المقطوعات التي مزج فيها أبو العلاء حكمته بعقلانيته, تلك المقطوعة التي قال فيها:

**تَــزَوّجَ الشّــيخُ, فألْفَيْتُــهُ, كأنّــهُ مُثْقَــلُ إبــلٍ وَحِــلْ**
**وعِرْسُــهُ فــي تعــبٍ دائــمٍ, لا تخضُــبُ الكــفَّ ولا تكتحــلْ**

---

([1]) زكي, أحمد كمال: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي, القاهرة, دار الكتاب للطباعة والنشر, 1969م, ص280.

([2]) المعري, أبو العلاء, لزوم ما لا يلزم, 620/1, يُبِر: يهلك.

مَلَّتْ, وإن أحَسْسَنَ أيّـــامَهُ,  تقـــولُ في النّفسِ: متى يَرْتَحلْ؟
لو ماتَ لاستبـــدلْتُ منهُ فتىً؛  إنّـــــي أراهُ مُحــرِماً لا يَحِــلّ[1]
يَحِــلّ[1]  (السريع)

إن حكمة أبي العلاء في تلك المقطوعة جاءت بمثابة عظة نافعة, ودرساً اجتماعياً هادفاً وظف خلالها الأسلوب الاستفهامي( متى يرتحلُ؟) المدعم بالتوكيد (إنّي أراه) لتقرير وتأكيد حقيقة اجتماعية خالدة وهي أن الزواج بين الرجل و المرأة يجب أن يكون مبنياً على التكافؤ الاجتماعي, ومن بين عناصر هذا التكافؤ الذي تحدث فيه المعري (التقارب في السّن), موضحاً بذلك خطأ زواج الشيخ الكبير من الشابة الصغيرة التي تتمنى دنو أجله لتنعم ببديله الشاب, وكان بإمكان المعري صياغة ذلك المعنى على شكل حكمة يضمنها بيتاً واحداً, ولكنه عالج الفكرة في عدة أبيات, ولعلّه ارتأى ذلك ليقرّ حكمته في النفوس, ويمكنها من القلوب.

وهنالك أبيات له مصبوغة بالحكمة والعقل تعكس تجربة حقيقية في الحياة مستخدماً أسلوب الأمر الذي خرج عن معناه ليؤدي معنى النصيحة والإرشاد, فهو بهذه الأبيات يدعو إلى اتباع طريق الحق والهدى والابتعاد عن حب الدنيا و ملذاتها, على نحو ما نرى في قوله:

اتّبـــع طريقـــاً للهُـــدى لاحبـــاً  وخَـــــلِّ آثـــــاراً بملحُـــــوبِ
أُفٍّ لـــــدنيايَ؛ فـــإني بـــــها  لم أخلُ من إثـــمٍ, ومن حُوبِ
قُلتُ لها: امضي غيرَ مصحوبةٍ!  فقالتْ: اذهَبْ غيرَ مصحُوبِ[2]  (السريع)

وفي عقلانية المعري يقول الأستاذ محمد الشريفي: " وفي المعركة التي نشبت بين عقله, وعواطفه, تغلب العقل في أكثر المواقف, واستعلى على العواطف؛ فرفض مذهب (الفن للفن) إلى مذهب (الفن للفائدة) معتبراً غاية الشعر طلب الحقيقة والتهذيب"[3].

على أن عقلانية المعري لم تلغِ عواطفه الرقيقة في بعض لزومياته, على نحو ما نرى في قوله:

---

([1]) نفسه , 371/2.

([2])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 176/1, ملحوب: وادي متالع, ومتالع جبل, غير مصحوبة وغير مصحوب: مصحوب: أي بالسلامة.

([3]) الشريفي, محمد: ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري, ص226.

**إذا وَهَـــبَ اللهُ لـــــي نِعْمةً,     أفَدْتُ المســـاكينَ ممّا وهَبْ**
**جَعَلْتُ لهمْ عُشْرَ سقْيِ الغمامِ,     وأعطيتُهُمْ رُبْعَ عُشْرِ الذّهبْ**[1] (المتقارب)

إن عاطفة المعري في البيتين السّابقين واضحة أشد الوضوح, وهي عاطفة ممزوجة بالشفقة والرأفة على حال المساكين الفقراء, معتمداً أسلوب الشرط وفعله وجوابه للتأكيد على سوء وضعه وفقر حاله.

وللمعري شعر غزير في الحكمة الممزوجة بالفلسفة والعقل, لا يتسع المجال لسردها في هذا الموضع.

إن الوحدة النفسية تتخلل لزومياته, وخاصة عندما يسودها عاطفة جياشة, مليئة بالألم والحزن. لذلك فقد كان لأبي العلاء أساليب خاصة لتحقيق تلك الوحدة, وذلك عن طريق انتقائه للمعاني خير انتقاء, مؤلفاً بينها وبين الألفاظ تأليفاً بديعاً ليعبر عن فلسفته, وفكره في الوجود تعبيراً دقيقاً, على نحو ما نرى في قوله:

**نُصحوا فما قَبلوا وباعوا كِثْكِثاً,     من شرّ معــدنِهِ, بقيمة سامه**
**فكــأنّهُمْ غنمٌ ترودُ, أســامَها     مَنْ لا يُبالي كيفَ حالُ مَسامه**[2] (الكامل)

ففي البيتين تعبير صادق عن نفسية الشاعر القلقة المضطربة, إزاء هموم أهل زمانه.

وإذا كانت الوحدة النفسية تخللت لزومياته؛ فإنَّ الوحدة العضوية افتقرت إليها, حيث انعدمت الوحدة الفنية بين أبيات القصيدة التي كانت تشكل حكماً, ومواعظ متناثرة يسهل فيها تقديم أو تأخير بعضها دون الإخلال بالتسلسل المعنوي (الدلالي) للقصيدة, من مثل قوله:

**ترجَّ بلُطْفِ القَولِ ردَّ مُخالفٍ     إليــكَ, فكــم طِــرْفٍ يُســكّنُ بــالنَّقْرِ**
**وإنْ لم ترَ الصَّقْرَ الحَمامةُ, دَهْرَها,     فمن شِيَمِ الــوُرْقِ الحــذارُ مــن الصَّــقرِ**
**وإنْ جاءَ ضيفٌ طارقٌ,عن ضرورة     فــذُخْرٌ لقاريــه الطعــامُ الــذي يَقْــري**
**تعــوّدتَ مني عــادةً, فتركتَــــها,     وما ذاكَ من نسيانِ حـــقٍّ ولا حُقْر**
**وإنَّ اقتنـاعَ النّفس من أحسنِ الغنى     كما أنَّ سوءَ الحرصِ مــن أقبَح الفقر**[1] (الطويل)

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 190/1, عُشْرَ سَقي الغَمام: نصاب الزكاة في الإسلام.

([2])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 469/2, الكثكث: التراب, السام: الذهب, أسامها أرعاها, مسامه: رعايته.

ففي تلك المقطوعة القصيرة, عالج أبو العلاء عدة معانٍ ودلالات تُوحي بالحكمة والموعظة, حيث لا نجد الروابط المتينة بين الأبيات, ولو انتزعنا بعض الأبيات من تلك المقطوعة, لما أثّر على سياق المعنى سلباً.

نلاحظ أن الأساليب والظواهر الأسلوبية التي تم الجلاء عنها في الصفحات الماضية, كان لها الأثر العظيم في توضيح أفكار المعري وتأكيدها وإضفاء معاني جديدة في لزومياته, وبيان الحالة الشعورية والنفسية فيها.

## 2. الصورة:

إن الصورة الشعرية عنصر أساسي في بناء الشعر ولا يمكن أن يكون هناك شعر بمعزل عنها " والصورة ليست شيئاً واحداً؛ فالشعر العربي قائم على الصورة منذ أن وجد"[2], كما أنها "تشكيل لغوي كونها خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها, فأغلب الصور مستمدة من الحواس إلى جانب مالا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية"[3].

وتتلخص أهمية الصورة الشعرية في نقل التجربة نقلاً صادقاً فنياً وواقعياً[4]. كما أنها تعمل على تشكيل البناء الفني للقصيدة في إطار من العلاقات, فهي أقوى الوسائل للتعبير عن الفكر والشعور تعبيراً حيّاً ومؤثراً[5]؛ فالصورة تعبر عن أفكار الشاعر وتأملاته, وهي انعكاس لذاته ونفسيته.

إن الصورة التي نحن بصدد دراستها "صورة بصرية ينشئها المكفوف, فهي ليست أكثر من اقتران لفظي حفظه الكفيف, ثم استدعاه لتركيب صورة بصرية لا تقابل في ذهنه شيئاً يمت

---

([1]) نفسه , 523/1, النّقر: صوت تسكن به الفرس عند الركوب.

([2]) عباس, إحسان: فن الشعر, ط3, بيروت, دار الثقافة, ص230.

([3]) البطل, علي: الصورة في الشعر العربي حتى القرن الثاني, ط2, دار الأندلس للطباعة والنشر, 1981م, ص30.

([4]) صبح, علي: الصورة الأدبية تاريخ ونقد, القاهرة, دار إحياء الكتب العربية, بلا تاريخ, ص131.

([5]) عباس, إحسان: فن الشعر, ص230.

إلى الواقع المرئي بصلة؛ فهي ليست أكثر من تركيب لفظي"[1], لذلك فإن معظم المعارف التي التي حصل عليها المعري كانت عن طريق السماع, ولهذا عوّل على اللغة المسموعة, معتمداً التقليد والمحاكاة في الصورة الشعرية؛ وقد اعترف المعري بأنه قلّد غيره, وحاكى سواه بقوله: "لا أعرف من الألوان إلا الأحمر, لأني ألبست في مرضي الجدري... وكل ما أذكره من الألوان في شعري ونثري, إنما هو تقليد الغير واستعارة منه"[2].

لقد شغف أبو العلاء بالصور كثيراً؛ وإن صوره الفنية في ديوان "اللزوميات" أكثر من أن تُحصى, وقلّ أن نمرّ بصفحة من صفحاته دون أن تطالعنا صورة أو صورتان مذهلتان, وهذا ما يجعلنا نركّز اهتمامنا على ملامح صوره, ودراستها بشكل جليّ من حيث دلالتها النفسية والإيحاءات الرمزية التي تتضمنها والصور الجزئية والعناصر المتقابلة, آخذين بعين الاعتبار جميع تشبيهاته واستعاراته واستخداماته المجازية إذ يساعد ذلك على تكوين نظرة واضحة لصوره. وسنأخذ على عاتقنا الإقلال من الأمثلة لضيق المجال أوّلاً, ولأننا نرى أن هذه الأمثلة تكفي لتوضيح فكرته ونظرته ثانياً.

إن أكثر صور المعري قياساً لما تأملناه في لزومياته كانت تحمل طابعاً سوداوياً على نحو ما نرى في قوله:

**فإنْ كانَ يكتُبُهُ كاتبٌ,　　فَقَدْ سوّدَ الصُّبحَ مما كَتَبْ**[3]　　(المتقارب)

صوّر المعري الصّبح بالصّفحة التي اسودت من كثرة الكتابات, ولعل تلك الكتابات كانت رمزاً للذنوب والأخطاء التي يرتكبها الإنسان, فيتبدل صبحه الجميل بصورة الصبح المسودّ لكثرة الأخطاء والذنوب.

وقوله:

---

([1]) فهمي, مصطفى: مجالات علم النفس, ص23.

([2]) نقلاً عن القفطي, أبو الحسن: ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء, ص30.

([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 192/1.

**والحتفُ كالثّائرِ العادي يُصرِّعُنا والأرضُ تأكلُ, هلا تكتفي الضَّبُعُ**[1] (البسيط)

صوّر المعري الموت بالثائر الذي يفتك بالناس ويصرعهم, وصورة أخرى للأرض التي رأى فيها أبو العلاء ضبعاً تبتلع أشلاء كل ما يلقي إليها الموت من جثث وضحايا.

ومن الصور المقززة التي قدمها المعري للموت قوله:

**كأنهـــا ذاتُ قَـــرٍّ أطعمـــتْ لَهَبَـــاً مَا ضَمَّهُ الحَطْبُ من سِدْرٍ ومنْ غَـــارِ**
**أو أُمُّ أجرٍ جَرَى قَتْـلٌ علـــى نَفَـــرٍ حُـــرٍّ وعَبْـــدٍ, فجـــرَّتْهُمْ إلـــى الغـــارِ**
**ترمي بعُضوين ذي نُطق وذي خرَسٍ إلـــى فمٍ لصـــــنُوفِ الطعّمِ فَغّار**[2] (البسيط)

صور المعري الموت بصورتين منفرتين مستعيناً بصور حسيّة, الأولى بصورة نار احترقت في ليلة باردة بحطب من شجر السدر والغار. والثانية صوّره بذات الجراء التي تجر جثث القتلى على حد سواء من الأحرار والعبيد إلى الغابة طعاماً لجرائها حيث تفغر هذه الجراء أفواهها لتمزق أشلاء تلك الجثث.

وقدم أبو العلاء صورة منفرة للدنيا على نحو ما نرى في قوله:

**أصاحِ! هيَّ الدُّنيا تُشابهُ مَيتتة ونَحْنُ حَوَالَيها الكلابُ النوابحُ**[3] (الطويل)

حيث شبه الدنيا بجيفة بشعة المنظر, كريهة الرائحة, أما طلاب الجيفة (الدنيا) فالكلاب يتكالبون عليها من كل حدب وصوب لتمزيق أشلائها, وهي صورة حسيّة تبعث على الاشمئزاز والكراهية للموت, وتنفر منه كما تؤثر في النفس غاية التأثير.

وأما قوله:

**جَسَدي خِرْقَةٌ تُخاط إلى الأر ضِ, فيَا خائطَ العَوالمِ خِطْني**[4] (الخفيف)

---

([1]) نفسه, 123/2, الضّبع: السّنة المجدبة.
([2]) نفسه , 544/1, الأجري, الواحد جرو: صغير كل شيء.
([3])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 283/1.
([4]) نفسه, 575/2.

حيث شبه جسده بقطعة قماش, وعند بلائها سوف تُضَم إلى الأرض لتصبح جزءاً منها, وهي صورة حسّية تبعث على التأمل والتفكير بنهايتنا المقبلة حيث نرجع إلى الأرض, كما أنها تؤثر في النفس غاية التأثير.

كما صوّر فعل الأيام بالناس, على نحو ما نرى في قوله:

**تُطوى النّضارةُ, بالليالي, مثلَ ما ……… يُطْوى, بأيدي الصَّائنات, إزارُ**[1]

(الكامل)

**إزارُ**[1]

صور الليالي بصورة الإنسان الذي يطوي؛ فهو يطوي نضارة الإنسان وشبابه, كما تطوي المرأة ثيابها عند غسلها, وهي صورة حسّية تبعث على التأمل بتلك الأيام والليالي التي تسحب من أعمارنا عمراً, وقد جاءت تلك الصورة مؤثرة لأنها تذكرنا بمرور الأيام دون أن نفكر بمرورها أو العمل على استغلالها بشكل مفيد.

إلى جانب التشبيه نلاحظ الاستعارة في صوره لما تميزت به من قدرتها على إبراز الطاقة الخيالية والتشخيصية؛ فقد لجأ المعري في صوره إلى تشخيص المعاني المجردة, مسقطاً عليها مشاعره وأحاسيسه المرهفة, عاكسة نفسيته الحزينة القلقة إزاء تجاربه وصراعه مع الحياة والمجتمع, على نحو ما نرى في قوله:

**حرامٌ على النفسِ الخبيثةِ بَينُها ……… عن الجسمِ, حتى تجزيَ السُّوءَ محسنا**[2]

(الطويل)

**محسنا**[2]

يشخّص أبو العلاء النفس بإنسان خبيث قد ظلم في حكمه فهو يجزي عمل المحسن بالسيئات والأخطاء, وقد وظف المعري التشخيص في هذا البيت للتأكيد على أن المحاسبة والجزاء هي من أفعال الله وحده, لأن من حقه ذلك, ودون ذلك فلا يحق له المحاسبة أو الجزاء, يقول:

---

([1]) نفسه , 463/1.

([2])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 512/1.

**للمنايـــا حواطــب لا تبـــالي,      أهشيماً جَرَّتْ لها, أم رطيبـــا**

**صَرَفَتْ كأسَها, فلم تسق شَرْباً      مَرَّةً, خالصاً, وأخرى قطيبا**[1]

(الخفيف) **قطيبا**[1]

شخص أبو العلاء في البيت الأخير (الموت), إذ جعل له يداً تمد كأسها للشاربين, دون أن تميز المنية بينهم؛ فكلهم سيشربون منها دون أن تبالي أشيخاً كبيراً قتلت أم طفلاً صغيراً (في البيت الأول).

وجعل لليل فكراً يعمل به ليعلم السّر والخفايا, يقول:

**لَعَلّ نجومَ الليلِ تُعْمِلُ فكرَها      لتَعلَمَ سرّاً, فالعيونُ سواهدُ**[2] (الطويل)

وجعله صاحباً فاجراً له يد, على نحو ما نرى في قوله:

**لا تصحبنّ, يدَ الليالي, فاجراً,      فالجارُ يؤخَذُ أن يعيبَ الجارُ**[3] (الكامل)

كما تتضح الاستعارة جلية في بيته الآتي:

**دُنياكَ تُشبهُ ناضِــحاً متردَداً,      منْ شأنِها الإقبالُ والإدبارُ**[4]

(الكامل) **والإدبارُ**[4]

يشخص أبو العلاء الدنيا بإنسان متردد متقلب, لا يرسو على فكر واضح.

كما يشخص الموت بأنه إنسان سارق, مستخدماً الاستعارة, يقول:

---

([1]) نفسه, 133/1, الحواطب, واحدتها حاطبة: التي تحطب الحطب, تجمعه, الهشيم: اليابس وأراد أن الموت لا يبالي أشيخاً كبيراً قتل أم طفلاً صغيراً, الشرب: الشاربون, القطيب: الممزوج, عكس الخالص.

([2]) نفسه, 311/1.

([3])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 456/1, يد الليالي: مدى الليالي.

([4]) نفسه, 459/1.

**والموتُ يسلبُ ما في الأنف من شَمَمٍ,       تحتَ التُّرابِ, وما في الخدِّ من صَعَرِ[1]**

(البسيط)

**صَعَرِ[1]**

ولم يكتفِ المعري للتعبير عن صوره أدقّ تصوير باستخدام الاستعارات والتشبيهات وحسب؛ بل راح يستخدم الكناية في صوره بحيث جاءت لإثبات المعنى وتوضيحه, إذ تعد الكناية ملمحاً من ملامح الإشارة يعتمده المبدع للتعبير عما يريده بشكل غير مباشر عندما لا يريد الإفصاح عن معنى قبيح أو موقف مؤلم في حياته, وتقل وظيفة الكناية عن وظيفة الصّورة الاستعارية والتشبيهية, وذلك لأن قدرتها على الإيحاء أدنى وأقل.

وقد استخدم أبو العلاء الكناية للتعبير عما يجول في نفسه من مشاعر وخواطر, دون الإفصاح عنها بشكل مباشر, على نحو ما نرى في قوله:

**عرفْتُ من أمّ دَفْرٍ شيمَةً عَجَباً,       دَلَّتْ على اللؤمِ وهي العُنْفُ بالخَدَمِ[2]**

(البسيط)

**بالخَدَمِ[2]**

فقد كنى أبو العلاء بأم دَفر عن الدنيا للؤمها وعنفها مع البشر لأنها تخدعهم ليجروا وراءها دون وعي أو فكر.

وقوله:

**توخَّ بهجرٍ أُمَّ ليلى, فإنّـــــها       عجوزٌ, أضلّتْ حيّ طسم ومارب[3]**

(الطويل)

**ومارب[3]**

حيث كنى بأم ليلى عن الخمرة, كذلك بالعجوز لخبرتها الطويلة بأنّها ستضلّ كل القبائل والحواضر.

---

([1]) نفسه, 541/1.

([2]) نفسه , 451/2.

([3])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 147/1, أم ليلى: كنية الخمر, العجوز: من أسمائها, طسم: قبيلة من العرب العاربة, مارب: مسهل, مارب: مدينة في اليمن اشتهرت بسدّها.

وهو يكنّي عن صغر نفسه وحقارتها, على نحو ما نرى في قوله:

**ما لنفسي بَيْنَ النفــوسِ مُعنّــا ةً, إذا لم تَفُــزْ بطَــوْقٍ وسَــلسِ**
**لو يُنادَىٰ, في كلّ سوقٍ, عليها, ما اشتراها أخو رشادٍ بفَلسِ**[1] (الخفيف)

إن أبا العلاء وظف البديع ليخدم لزومياته وأفكاره, واتسم ذلك البديع بالعفوية والسلاسة, كما سيطر على شعره الطباق, ويرجع ذلك لتجاربه وخبراته الأليمة التي تجمعها المتناقضات, على أن طباقه لم يكن صنعة زخرفية متكلفة ولكنه كان طباقاً فكرياً فلسفياً جامعاً بين الأضداد, لذلك فقد كان يمثل العنصر الأساسي في بناء صوره وتشكيلها بشكل واقعي, على نحو ما نرى في قوله:

**كالغولِ غالَتْكَ بتلوينها بَين تقدّيها وتَنبيسِها**[2] (السريع)

يقيم أبو العلاء عن طريق طباقه (بين تقدّيها وتنبيسها) صورة يرسمها من تناقضات الدنيا, وتلك الصورة ممزوجة بتشبيهاته, ليخرج منها بحكمة وفلسفة مفادها أن الدنيا كالغول تتبدل وتتغير بين تقديم وتأخير, بهدف تحقيق أهدافها وهي إغراء الناس والجري وراءها، وفي ذلك تركيز من أبي العلاء على عنصر الحركة في الصورة.

فالدهر مليء بالمتناقضات والأضداد, على نحو ما نرى في قوله:

**وحُكماً لهذا الدهــرِ, صاحَ بقائمٍ من العَالمِ: اجلسْ أودعا جالساً: قُمْ**[3] (الطويل)

ففي طباقه بين (اجلسْ وقُمْ) تجاوز أبو العلاء (لعب الدهر) في الحدود المتعارف عليها هادفاً إلى الإطراف والتجديد, وذلك عندما طرق موضوعاً هزلياً مزجه بالجد, وغلفه بظلال قاتمة من الحزن و الألم والتفجّع متحسراً من لعبة الدهر تلك، وأجزاء هذه الصورة متمثلة

---

([1]) نفسه , 66/2, الطوق: ما يُوضع في العنق, السلس: ضرب من الحلي.
([2]) نفسه , 64/2.
([3])المعري, أبو العلاء : لزوم ما لا يلزم , 441/2.

بعنصر الصوت (الصياح).

وأكثر ما نلحظه في لزومياته ورود الثنائيات الغائمة على العناصر المتقابلة ليكشف بها عن ارتباط العلاقات الخفية التي كان يقيمها بين عناصر الصورة ومحتوياتها المختلفة, وبين مواقفه وفلسفته في مشكلة الوجود وظواهره المتناقضة في بيئته؛ فاستعمل المعري المقابلة في تصوير تلك الحقيقة التي آلمت الناس أجمعين, وهي حقيقة الموت والتي بها يُدفن الجسم في التراب, وتصعد الروح إلى السماء, يقول:

**ولجسمي إلى التُّراب هُبوطٌ ولروحي إلى الهواءِ صعودُ**[1]

(الخفيف)

**صعودُ**[1]

كما يبيّن فلسفته في حال الدنيا بشكل جليّ, حيث يقيم صورة تقابلية لها خرج منها بحكمة مفادها أن الدنيا غدارة فإذا ما أعطت باليمين أخذته باليسار, يقول:

**ودنيايَ إنْ وهبتْ باليمينِ يسارَ الفتى أخذتْ باليسار**[2] (المتقارب)

ويقيم صورة تقابلية تقوم على تقديم صورة بشعة للموت حيناً, وتقديم صورة جميلة حيناً آخر, يقول:

**ما أعدلَ الموتَ من آتٍ وأسْتَرَهُ, فهيّجني فإني غيرُ مُهتاجِ**
**العيشُ أفقرَ منّا كلَّ ذاتِ غنىً؛ والموتُ أغنى بحقٍّ كلَّ محتاجِ**
**إذا حياةٌ علينا, للأذى, فتحتْ باباً من الشرِّ, لاقاهُ بإرتاجِ**[3]

(البسيط)

**بإرتاجِ**[3]

وكأنه أراد بتلك المقابلة الحاوية على الثنائية التقابلية (العيش, الموت) و(أفقر, أغنى) أن يثبت أفضلية الموت على الحياة, لأنه حريص على جعل صورته أكثر عمقاً وإبداعاً حين رأى بضرورة استخدام تلك الثنائية.

---

(1) نفسه , 347/1.

(2) نفسه , 211/1.

(3) نفسه, 270/1, الإرتاج: الإغلاق.

وبهذا يكون أبو العلاء قد أبدع في صوره أيما إبداع لما فيها من دقة وإحكام, يقول الدكتور عمر فروخ: " إنه حسن التشابية والاستعارات برغم عماه الذي أصابه في الثالثة من عمره"[(1)], فجاءت صوره معبّرة عن موقفه وأفكاره إزاء دنياه ومجتمعه؛ فأضحت لزومياته مفتقرة إلى ذلك الخيال, لأنه عاهد نفسه ألاّ يضع فيها إلا ما يعتقد أنه الحق, وأنه من الكذب والمين بريء, كما جاء في مقدمة لزومياته: "توخيّت صدق الكلمة ونزّهتها عن الكذب"[(2)].

ويؤكد الدكتور شوقي ضيف على ما جاء به المعري قائلاً: " وكان حظّ شعره في هذا الطّور ــ اللزوميات ــ من الخيال قليلاً, لأنه في هذا الطّور عاشَ حياة فيلسوف يتأمل الكون والحياة, ويدرس حقائق الأشياء وجوهرها"[(3)].

ومن الجدير بالذكر أن صور المعري في شعره "اللزوميات" تُقسم إلى:

**أ- الصورة الحسية – السمعية:**

تؤكد الدراسات المتخصصة أن حاستي السمع، واللمس قويتان عند المكفوف – وفق مبدأ التعويض – ولكن هذه القوة لا ترجع إلى موهبة خاصة، وإنما تنشأ من براعة استخدامها وطول تدريبهما[(4)].

ويحرص الشاعر الكفيف على بناء الصورة السمعية للتعويض عن الصورة البصرية الأصل، فيبرز جمال الأصوات، وقيمة المسموعات، بعد أن سعى لبناء تأسيس نظري حاول فيه إقناعاً بمساواة السمع والبصر.

إن أبا العلاء مأخوذ بالصوت، ومشغول بالسماع، مرهف الأذن، حمّل إصغاءه مهام البصر، على نحو ما نرى في قوله:

---

([1]) فروخ, عمر: تاريخ الأدب العربي, بيروت, دار العلم للملايين, 124/3.

([2]) المعري, أبو العلاء: مقدمة اللزوميات, ص5.

([3]) ضيف, شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي, ص381 وما بعدها.

([4]) روس، أشبل: رحلة في عالم النور، ترجمة د. عبدالحميد يونس، دار المعرفة، القاهرة، 1961م، ص82.

**لا تعرفُ الوزنَ كفّي بل غدت أُذني وزّانةً ولبعضِ القولِ ميزانُ**[1].

ونقل المعري المعقول إلى المحسوس الشمي، فشبه الخير بنبات العرفج ذي الرائحة الطيبة، مازجاً في تشبيهه المركب بين المسموع، والمشموم :

**الخيرُ كالعرفجِ الممطورِ ضرّمَهُ راعٍ يئطُّ ولمّا أن ذكا خَمَدَا**[2]

**ب-الصورة الشمية واللمسية:**

يقف أبو العلاء في مقدمة الشعراء المكفوفين الذين أكثروا من رسم الصور الحسية الشمية، فقد افاض في وصف المشمومات من العطور، وبالغ حتى خرج عن المألوف، وأسرف إذ أشرك البدر في الشم، وجعل له منخارين؛ فجاءت الصورة مجسمة غريبة، على نحو ما نرى في قوله:

**للطيبِ في حندسها سوْرَةٌ مناخرُ البدرِ به تُفْعَمُ**[3]

ومن طيب ليلة الزفاف إلى عِطر المحبوبة المضمخة بزهر الخزامى، الذي يحبه المعري -كما يبدو - إذ أحال حلة بلزنه وطيبه، من مثل قوله:

**كأن الخزامى جُمِّعَتْ لك حُلّةً عليك بها في اللون والطيب سربالُ**[4]

**سربالُ**[4]

ورائحة الخزامى لقوتها صارت قائداً برقاب الإبل، ولكن من دون خزائم، على نحو ما نرى في قوله:

---

([1]) المعري، ابو العلاء: لزوم ما لا يلزم: 503/2

([2]) نفسه ، 351/1، سبق شرح مفردات هذا البيت.

([3]) المعري, أبو العلاء: شرح سقط الزند، ص96.

([4]) نفسه، ص47.

وتسوفُ رائحةُ الخزامى أنْيُقي فتقودُها ذُلُلاً بغير خزام(1)

3. **الموسيقا:**

تشكل الموسيقا عنصراً أساسياً من عناصر فن الشعر؛ لما لها من قيمة فنية في بناء قصيدة الشاعر؛ فهي تشكّل إيقاعاً لشعوره, وإيقاعاً لعواطفه وانفعالاته, إنه, "إيقاع متمّيز منتظم يتناسب وطبيعة الشروط الذاتية والأوضاع الاجتماعية والعوامل البيئية التي كانت تتعاور الشخصية العربية"(2)؛ فجاءت موسيقاه خير تعبير عن انفعالاته ومشاعره وأحاسيسه إزاء القضايا التي طرحها في قصائده.

فهذه الموسيقا الجميلة والمعبرة تتنوع أنغامها حتى تستقر في ذات المتلقي؛ لتشعره بالمتعة الفنية التي تدفعه للتجاوب مع الفكرة أو المعنى "تستطيع أن تصل إلى مناطق في الشعور الإنساني, تعجز الكلمات غير الموسيقية عن الوصول إليها"(3).

غير أن هذه الموسيقا لا تستطيع بغير الكلمات أن تبلغ مداها, وتحقق مرادها في نفس المتلقي ومشاعره, فهي تعبّر عن لحظات انفعالية قد انسجمت معها قوة وضعفاً, ومن ثم أودعتها ذات المتلقي, لاسيما أن أي موسيقا لا تستطيع أن تفجر في الكلمات طاقتها الدلالية والإيحائية, ولا ترتبط بالشحنة الانفعالية ارتباطاً وثيقاً هي موسيقا مفتعلة, قد تبدو للوهلة الأولى جميلة, ولكن في حقيقة أمرها لا يمكن الاعتماد عليها كأحد عناصر البناء الشعري(4).

لكن موسيقا الشعر لا تبتعد عن مضمونه, وباختلاف ذلك المضمون تتنوع الموسيقا مع وحدة الوزن والإيقاع, وبالتالي لا يمكن الحديث عن شعر بلا موسيقا "يتجلى فيها جوهره وجوّه الزاخر بالنغم, موسيقا تؤثر في أعصاب السَّامعين ومشاعرهم بقواها الخفية التي تشبه قوى السّحر, قوى تنشر في نفوسهم موجات الانفعال يحسّون بتناغمهم معها, وكأنما تعيد فيهم نسقاً قد

(1)المعري, أبو العلاء: شرح سقط الزند ، ص172، سبق شرح مفردات هذا البيت.

(2) خليل, أحمد محمود: في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي, بيروت, دار الفكر المعاصر, دمشق, دار الفكر, 1996م, ص288 وما بعدها.

(3) عبد الله, محمد حسن: الصورة والبناء الشعري, القاهرة, دار المعارف, 1981م, ص186.

(4) نفسه, ص187.

اضطرب واختلَّ نظامه"[1].

إن البحث عن الموسيقا, وإيقاعاتها وأسرارها ليس في الحقيقة إلا بحثاً عن أسرار المعنى وطرائق تقديمه وتشكيله؛ فالإيقاع الموسيقي يمثّل نبض الشعر, ومسحته الجمالية التي يباهي بها الفنون الأخرى, فهو الروح الفنية التي تميزه عن غيره من الأجناس الأدبية المختلفة, وهو ذلك الفعل الناتج عن تناسق العبارات والألفاظ والتراكيب, وتآلف الكلمات ومخارج الأصوات, فضلاً عن توازن الجمل في مقاطع طويلة وقصيرة, وبعض ظواهر التكرار التي تضمنها,لاسيما أنّ تكرار الكلمات أو العبارات والجمل والأصوات هو أصل التنويع الإيقاعي في البيت الشعري, لأنه يبث التناغم والإيقاع الموسيقي في البناء الشعري, حيث يضفي الملامح الجمالية للنص الأدبي, وليس من شك في أن الإيقاع أشد وقعاً من غيره على النفس والوجدان, فالوحدة الموسيقية وتكرار الإيقاع يخلقان للشعر موسيقا داخلية خاصة "تألفه الأذن, وتطرب له النفس, وتستقبله الأحاسيس والمشاعر"[2].

إن أبا العلاء عني بالإيقاع والموسيقا كثيراً، وكذلك عُني ببناء الشكل الأدبي لفنه، فقد ضرب أبلغ الأمثلة، وأوضحها عن اهتمام الشاعر الكفيف بالإيقاع، والتعويض السمعي المعتمد –في تأثيره– على الرنين، اذ صنع هذا الرجع شعره ونثره صناعة إيقاعية بالغة الدقة شديدة الولع بالشكل، ففي شعر لزومياته ظهر هذا الالتزام، وقد وفق المعري في ذلك على نحو ما نرى في قوله:

**لعَمرُكَ, ما الدنيا بدارِ إقامةٍ؛ — ولا الحيُّ, في حالِ السَّلامةِ, آمنُ**
**وإنَّ وليداً حلّها لمعذَّبٌ, — جَرَتْ لسواهُ, بالسّعودِ, الأيامنُ**
**ونالَ بَنَوها ما حَبَتهم جُدُودُهُم, — على أنَّ جَدَّ المرءِ في الجَدِّ كامنُ**[3] (الطويل)

التزم المعري في تلك الأبيات ثلاثة حروف قبل الروي, معطياً أبياته إيقاعاً موزوناً رائعاً, معبّراً بتلك الموسيقا عن عاطفته المتأججة في نقده الدنيا وأفعالها؛ فجاءت أبلغ تأثيراً

---

([1]) ضيف, شوقي: فصول في الشعر ونقده, القاهرة, دار المعارف, ص28.
([2]) هلال, محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث, بيروت, دار العودة, 1987م, ص435.
([3]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 494/2.

للسّامع لما حوته من تعبيرات نفسية؛ فلكل لفظة إيقاعها الخاص ودلالتها وإيحاؤها ووقعها عند أبي العلاء لأنها جزء نفسي من أعماقه وذروة فكره كما نلاحظ عند استخدامه القسم "لعمرك" واستعماله ما النافية الذي مثل إيقاعاً نفسياً عميقاً, دلَّ على أنَّ صوت المعري في ذلك كان له حضور جليّ خُيل إلينا أنه لا يكفّ عن ذمه الدنيا الزائلة؛ فهي متبدلة ومتغيرة ولا تُبقي بنيها على حال, فجاءت قافيته ممزوجة بمشاعر العطف والحنان على مصير هؤلاء الأبناء؛ فصوت النون صوت أنفي انزلاقي يعبر عن العطف والحنان, إضافة إلى تكرار حرف النون وخاصة في البيت الأخير مما يثري الموسيقا الداخلية ويجعلها أكثر ارتباطاً بالمعنى, وجاء حرف النون أيضاً منسجماً مع حالته النفسية المشفقة على حالهم والخائفة على مصيرهم, فجاءت أبياته السابقة تصويراً نفسياً معنوياً, إضافة إلى استخدامه الألفاظ والتعبيرات البسيطة, والتراكيب الواضحة في بنائه اللغوي الذي أدّى إلى تنوع موسيقاه.

ولم يكتفِ المعري بالتزامه حرفين أو أكثر قبل الروي فحسب, بل راح يحرص على ركوب القافية القوية في مقطوعاته والتي تحتوي على تجانس صوتي وتتطابق صوتي أيضاً, على نحو ما نرى في قوله:

**لَواكِ اللهُ, عنا حـينَ بِتْنـا　　قريباً من صـريمك, أو لِـواك**
**شَواكِ منعته ذَهْباً مَصُوغاً,　　مخافةَ ما يفـوهُ بـه شِـواك**
**نواكِ هيَ التي لا ريْبَ فيها,　　وللأيّـامِ أقـدارٌ نـواك**[1] (الوافر)

ففي تلك الأبيات نلحظ قافية أبي العلاء تتكون من ثلاثة حروف (الواو, والألف, والكاف), كما نلحظ التجانس الصوتي بين الكلمات الأخيرة متبعة بتطابق صوتي (لواك, شواك, نواك) وهذا ما يسمى في علم البديع " ردّ الأعجاز على الصدور"؛ فتلك القافية جزء من الوزن, حيث تتميز بوقعها الصوتي الذي يضيف بعداً حيوياً في السيطرة على مشاعر المتلقي وأحاسيسه, ويساعد في ترسيخ فكرته والاستجابة له, " ولولا القافية لفقدنا جانباً من جمال

---

([1]) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 241/2, لَواك الأولى: أمالك, لِواك: منقطع الرمل, شَواك الأولى: اليدان والرجلان والعنق, شِواك: ج شاة وهو في الأصل مأخوذ من قصر العنق, ومعنى العجز غامض.

الموسيقا الشعرية؛ فهي كضربات الناقوس المؤذنة بانتهاء معنى معين أو فكرة معينة"(1).

ومن المظاهر الموسيقية البارزة ظاهرة التصريع الذي أسهم بشكل مباشر في تحديد المظهر الموسيقي للقافية, على نحو ما نرى في قوله:

**تهاونَ بالظّنونِ وما حَدَسْنَهْ ولا تخشَ الظباءَ متى كَنَسْنَهْ**(2) (الوافر)

جاء التصريع بين كلمتي(حَدَسْنَهْ) في الشطر الأول, و(كَنَسْنَهْ) في الشطر الثاني, كما أنَّ صوت (النون المخفّفة) الذي يتسّم بالغنّة الصوتية, والجهر, ويجمع ما بين الشدة والرخاوة يُعَدُّ من مجموعة الأصوات ذات الوضوح السمعي, الذي يسهم في إضفاء النغم الجميل الذي تطرب له الآذان وتستمتع به الأحاسيس, لما في هذا الصّوت من استكانة ترتاح إليها النفس, فهذه المزايا المهمة قد مكّنت البيت من الوفرة الإيقاعية في موسيقاه الداخلية, وكذلك لما في تكرار الأصوات من تأثير في النفس ووقع على الآذان.

وتعدُّ عملية اختيار البحور الشعرية من أهم الظواهر الموسيقية لما تحدثه من أثر على أذن المتلقي ومسامعه, ولما لها من الفضل الذي يذكر في جلاء الأفكار, وتوضيح المعاني, واستكمال الصور, وتحقيق الهدف الذي قامت عليه القصائد الشعرية, وكذلك توفير الاستعداد النفسي لدى المتلقي لتقبل هذه الأفكار أو المفاهيم, على نحو ما نرى في قوله:

**فؤادُكَ خَفّـــاقٌ وبَرْقُكَ خافِقُ, وأعياكَ في الدنيا خليلٌ مُوافِقُ**(3) (الطويل)

حيث تتفجّر في هذا البيت الموسيقا الداخلية بإيقاعاتها الرنانة, فتهتف النفس معها في بهجة وسرور, مثلما تتعانق الألفاظ في جزالتها وبهائها وسرعة جريانها مع البحر الطويل الذي يتميز بالبهاء والقوة, وقد أسهم صوت القاف المتكرر في زيادة هذا الإيقاع سُمّواً وجمالاً الشيء الذي أضفى على المقطع الشعري صبغة السّحر والجمال, ومما زاد المقطع جمالاً وسيطرة صوت القاف المفخم الذي يتسم بالجهر والقوة على العبارات والألفاظ, مما أكسبه صفة الشدة

---

(1) خلوصي, صفاء: فن التقطيع الشعري والقافية, ط5, بغداد, مكتبة المثنى, 1977م, ص220.
(2) المعري, أبو العلاء: لزوم ما لا يلزم, 524/2.
(3) نفسه , 178/2.

التي جاءت انعكاساً للحظة الانفعالية والنفسية التي خيّمت على حسّه الشعري وسيطرت على مفرداته.

ومن الجدير ذكره هنا أن أبا العلاء في ديوانه "اللزوميات" التزم ثلاث لوازم ثابتة فرضها على شعره، وألزم نفسه بها مع أنها مما لا يجب التزامه في الشعر، وكأنه حبس نفسه في شعره، ومن هنا جاءت تسميته لهذا الديوان التي تدل على مذهبه فيه "اللزوميات" أو "لزوم ما لا يلزم".

وقد بيّن الدكتور يوسف خليف تلك اللوازم بما يأتي[1]:

التزم – من ناحية – أن يرتب قصائده ومقطوعاته على ترتيب البحور العروضية كما رتبها الخليل، لا من حيث أوزانها الأصلية فحسب، ولكن أيضاً من حيث تشكيلاتها الموسيقية المختلفة، التي تتمثل في اختلاف أعاريضها وأضربها. وأتاح له ذلك علمه الواسع بالعروض العربي، وهو علم أتاح له بدوره أن يقدم فيه أكثر من دراسة تدل على فقه دقيق له،ووعي عميق بأصوله وفروعه وأسراره الموسيقية، فبدأ بالبحر الطويل، ثم انتقل إلى البسيط، ثم الوافر، ثم الكامل، ثم سائر البحور حسب ترتيبها العروضي المعروف، ولم يهمل منها إلا ثلاثة: المضارع والمقتضب والمتدارك.

ولا نجد تفسيراً لذلك إلا أن يكون الأجل قد عاجله دونها، أو أن يكون قد شُغل عنها بعمل علمي أو أدبي آخر على نية أن يعود إليها بعد ذلك ليستكملها، ثم لم تُتّح له فرصة لذلك، وفي داخل هذا التقسيم العروضي مضى يرتب لزومياته ترتيباً داخلياً وفقاً لتشكيلات البحور الموسيقية المختلفة التي رصدها علماء العروض.

والتزم – من ناحية ثانية – أن يرتب قوافيها على ترتيب حروف المعجم جميعاً، حتى تلك الحروف النادرة الاستعمال في الشعر العربي لحوشيتها أو غرابة ألفاظها أو شذوذها، كالخاء والذال والصاد والضاد والظاء والغين والواو. ولم يكتف بهذا، وإنما التزم مع كل حرف أن ينظم

---

([1]) خليفة، يوسف: في الشعر العباسي نحو منهج جديد، القاهرة، دار غريب، ص223، وما بعدها.

على حركاته الثلاث: الضمة والفتحة والكسرة، ثم يأتي بعد ذلك السكون، ملتزماً هذا الترتيب لا يخرج عليه إلا نادراً، فيبدأ بالحرف مضموماً ثم مفتوحاً ثم مكسوراً ثم ساكناً، ثم ينتقل إلى الحرف الذي يليه ملتزماً نفس الترتيب، وهكذا حتى استوفى الحروف كلها.

والتزم – من ناحية ثالثة – قبل كل حرف من حروف الروي حرفاً آخر أو أكثر من الحروف الهجائية، وهذا ما أشرنا إليه سابقاً.

وقد ذهب العلايلي إلى تفسير التزام أبي العلاء المعري بالحركات من ضم وفتح وكسر وسكون تفسيراً رمزياً فلسفياً مقرراً؛ فالضم كان رمزاً عن الكمون والانضمام قبل الانبثاق، والفتح: رمز عن الظهور والشخص الماثل في الوجود، والكسر: رمز عن الفساد، وفي البناء الوجودي والحيوي، والسكون: رمز عن التوحد والرجعة إلى العدم الحي الأول[1].

---

([1]) العلايلي، عبدالله: المعرس ذلك المجهول، ص138.

# الخاتمة

أما وبعد الانتهاء من هذا البحث بعون الله, كان لابدّ لي من الإشارة إلى بعض الملاحظات والنتائج المهمة التي توصّلت إليها, وهي على النحو الآتي:

1. عُرف أبو العلاء بذكائه المفرط, وثقافته الواسعة, كما عُرف برقة قلبه, وشدة رحمته, وكثرة عطفه على الضعيف.

2. في شعر المعري طوران متميزان: الطور الأول؛ ويمثله سقط الزند, ديوان الدرعيات الصغير الملحق اليوم بديوانه الأول, والطور الثاني وهو موضوع دراستنا ويمثله ديوانه اللزوميات؛ وهو ديوان فكره وفلسفته, وقد بدأ نظمه منذ بلوغه السابعة والثلاثين من عمره, وينفرد هذا الديوان بمزيتين: خلوه من أبوب الشعر المطروقة (المديح والرثاء والفخر وما إليها) من جهة, وانصراف ناظمه إلى نقد الحياة, وقد نظمه بعد رجوعه من بغداد, ولزومه المعرة من جهة أخرى.

3. إن للعاهة تأثيراً عظيماً على نفسية أبي العلاء, إذا راح يتصرف وفق الأنماط السلوكية بغية الحصول على التكيف والتأقلم مع المجتمع المحيط به, ومن هذه الأنماط:

ما يكون تعويضياً عن شعوره الحاد بالنقص إزاء عاهته, وما يكون إنكارياً وفيه ينكر وجود تلك العاهة, وما يكون إسقاطاً على الآخرين, إذ راح يتهمهم بعمى البصيرة وقلة الحيلة, مفتخراً ببصيرته وعقله؛ وعدهما وسيلة لإثبات نفسه, والتأكيد على شخصيته المبدعة؛ فأضحى العقل عنده حجر الأساس للوجود الإنساني, وعماد الكينونة البشرية, ومنه ما يكون ميلاً نحو الانطواء والعزلة لما رآه من سوء في التكيف مع الوسط المحيط به.

4. إن لعاهته تأثيراً عظيماً في شعره أيضاً؛ مما دفعه إلى الإعراب عن بالغ ألمه, وواضح أساه لأنه لم يستطع برغم إنكاره ومكابرته إخفاء عذابه وآلامه, فمضى يربط بين عاهته والموت, كما عدّ العمى خطوة نحو الموت أو مقدمة له؛ حَبّبت إليه الموت, ورأى لحظة موته عيداً سعيداً, مما أضفى على شعره مسحة ألم وحزن, وفكر وفلسفة.

5. فشله في تحقيق العزلة التامة, لأنه وإن زهد في كل لذات الحياة وأطايبها, فإنه لم يستطع تأخير العلم وتأليفه؛ فأضحت عزلته أُمنّية ضائعة استحالت إلى أشد أنواع المعاشرة والمؤانسة.

6. إن إلمام أبي العلاء ودراسته العميقة للعلوم الإلهية, والعلوم الطبيعية و الرياضية في لزومياته جعلته يستحق لقب الشاعر الفيلسوف بجدارة؛ فاستطاع من خلال تلك الدراسة الدقيقة أن ينظم شعراً فلسفياً ضخماً, أو على الأقل استطاع أن يزاوج بينهما مزاوجة نادرة؛ وإن مثل تلك المزاوجة النادرة ــ على حد علمنا ــ لا تأتي من فراغ, إذ لابدّ من مصادر وأصول كان لها الدور الأعظم في إظهار آرائه الفلسفية؛ فقد كان واسع الاطلاع على الأديان المختلفة, وكان ملماً بثقافات الشعوب التي اكتسبها عن طريق مطالعته, وتتبعه الكتب التي كانت تُقرأ عليه في أخبار الأمم, وما يتعلق بعقائدها ونحلها, وعن طريق جولاته التي قام بها أيام شبابه, واجتماعاته بأناس يُروى عنهم طرف من أخبار الهند والصابئة وغيرهما, إضافة إلى ظروف حياته, وما كان يكتنفها من أحواله وأحوال بيئته وعصره؛ وبهذا درس أحوال البشر وعقائدهم ونحلهم في عصره وغير عصره درساً دقيقاً, مما فجّر فيه ملكة النقد الموضوعية والبناءة.

7. إن أبا العلاء مؤمن بأركان الإيمان إيماناً صادقاً, حيث عظم في لزومياته الله تعالى, ومجّد الرسل والملائكة, والكتب السماوية, والبعث تعظيماً وتمجيداً أدركه كل من تمعَّن, وتأمل ديوانه اللزوميات بصدق نابع من القلب, والعقل المفكر تاركاً وراءه التقليد والجري وراء السّلف الذين مضى بعضهم يصدر الأحكام المسبقة على أبي العلاء حتى لو حَمَّل النصوص فوق ما تحتمل أو أخذها من غير مصادرها الأساسية.

8. إن أبا العلاء وإن لم يتمتع بعين مبصرة؛ فإنه يتمتع بقلب بصير نفّاد, وروح نقدية جبارة, لأنه يستشعر عيوب الناس الخفية, ويدرك حقيقة بواعثهم, وربما يبدو في نقده اللاذع والساخر قاسياً أحياناً في أحكامه على المجتمع, وقد يعود سرّ هذه القسوة إلى رفضه المجاملة الدنيئة, والنفاق الكاذب, والمؤاخاة الزائفة؛ فجاءت لزومياته محتوية على الكثير من

النصوص التي يمكن توظيفها للتعرف على بواعث نقده التي بدا من خلالها موضوعياً وبناءً, لذلك قسّمت بواعث نقده إلى بواعث ذاتية يظهرها إباؤه, وعزة نفسه, كما تظهرها نشأته الدينية, وعدم تكيفه مع البيئة المحيطة به, وأما البواعث الخارجية؛ فكانت فساد الحياة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً في عصره؛ كلّ ذلك أدى إلى نقده مجتمعه نقداً لاذعاً لا ظالماً, ذلك العصر الذي سادت فيه الفتن والحرب, وأصبح سوقاً للصفقات, وجلجلة أصوات النحل والملل الغريبة؛ فتاهت القيم, وضربت الطبقية المجتمع, إذ أصبح الملك وحشاً كاسراً مما أفسح المجال للشطار والعيارين التطاول على الناس وترويعهم؛ فنجم عن ذلك ذهاب الأنفس العاملة, والضمائر الحية, وهلاك الأموال ما بين إحراق وإغراق, وما شاكل ذلك من مصائب وعلل تفقد الأمة قوتها وغناها وراحتها.

9. في دراستي الفنية للزومياته اعتمدت على أطر ثلاثة:

أ_ اللغة: باعتبارها الوسيلة للتواصل بينه وبين المتلقي؛ فهي التي تعمل على إظهار أشعاره إلى الوجود بما تحويه من بناء فنيّ متميز؛ حيث تراوحت ألفاظه بين الجزالة والسهولة, وبين الوضوح والغرابة, وبين الغموض والتعقيد.

ب_ الصورة: باعتبارها العنصر الأساسي في بناء لزومياته لتنقل مشاعره وأحاسيسه إلى المتلقي خير نقل, ومن أجل ذلك استخدم البيان والبديع في شعره كالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية, وغيرها من الفنون البيانية والبديعية من مثل الثنائيات القائمة على العناصر المتقابلة لما لها من أهمية كبرى للكشف عن علاقته الخفية التي يقيمها بين عناصر الصورة ومكوناتها المختلفة, وبين مواقفه وفلسفته, وآرائه حول المجتمع.

جـ_ الموسيقا: حيث تشكل عنصراً أساسياً من عناصر فنّ الشعر؛ لما لها من قيمة فنية في بناء قصائده بشكلها اللائق, كما أنها تشكل إيقاعاً لشعوره, وإيقاعاً لعواطفه وانفعالاته إزاء القضايا التي طرحها في لزومياته, معتمداً بذلك كله على الأوزان العذبة والقوافي الجزلة مما حقق له التجانس الصوتي, كما استعان بالبحور الشعرية لما لها من أثر قوي على أذن المتلقي, واستكمال الصور, وتحقيق الهدف الذي قامت عليه لزومياته, وكذلك توفير الاستعداد النفسي لدى المتلقي لتقبل هذه الأفكار أو المفاهيم.

وفي الختام أرجو أن يكون لهذا البحث بعض النفع للمتخصصين في الدراسات العربية, وغير المتخصصين الذين يبغون الاطلاع على جانب مشرق من تاريخ الأدب العربي, ينبض بالحياة ويزخر بالحركة, وتتمثل فيه روح العروبة المتوقدة المتجددة التي لا ترضى بالخمول أو السكون, وتتطلع دائماً إلى الأمام في سبيل حياة أفضل ومجد جديد, وأملي أن يسدّ هذا البحث فراغاً في الدراسات الأدبية, وإذا لم يتسنّم هذا البحث مرتبة الكمال فحسبي أني قد نشدتها, وعلى الله قصد السبيل.

# قائمة المصادر والمراجع

## أ) المصادر:


1. **القرآن الكريم.**

2. ابن الأثير, **الكامل في التاريخ**, بيروت, دار صادر, 1966م, ج9.

3. التبريزي وصاحبيه: **شروح سقط الزند**, تحقيق مصطفى السّقا وجماعة, إشراف الدكتور طه حسين, الدار القومية للطباعة والنشر, 1964م.

4. الخضري: **محاضرات في تاريخ الأمم والإسلامية**, القاهرة, دار إحياء الكتب العربية, 1930م.

5. ابن خلدون, عبد الرحمن: **مقدمة ابن خلدون**, القاهرة, دار التحرير, 1966م.

6. ابن خلكان, أبو العباس: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**, تحقيق إحسان عباس, بيروت, دار الثقافة, ج1.

7. الصفدي, صلاح الدين: **نكت الهميان في نكت العميان**, تحقيق أحمد زكي باشا, القاهرة, مط الجمالية, بلا تاريخ.

8. الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**, القاهرة, مط الحسينية, ج10.

9. ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السّلطانية**, القاهرة, مط محمد علي صبيح وأولاده, 1962م.

10. ابن العديم: **زبدة الحلب في تاريخ حلب**, تحقيق سامي الدهان, بيروت, مط الكاثوليكية, 1951م, ج1.

11. المتنبي, أبو الطيّب: **ديوان المتنبي**, بيروت, دار الجيل, بلا تاريخ.

12. المعري, أبو العلاء: **رسالة الغفران**, ط5, تحقيق عائشة عبد الرحمن, القاهرة, دار المعارف, 1969م.

: **رسائل أبي العلاء المعري**, شرح شاهين عطية, بيروت, دار القاموس, بلا تاريخ.

: **زجر النابح**, ط2, تحقيق أمجد الطرابلسي, دمشق, مط مجمع اللغة العربية, 1982م.

: **شرح سقط الزند**, ن,رضا, بيروت, مكتبة الحياة, 1987م.

: **لزوم ما لا يلزم**, بيروت, دار صادر, دار بيروت, 1961م, ج1, ج2.

13.ابن منظور, أبو الفضل: **لسان العرب**, ط1, بيروت, دار الصادر, 1990م, ج1, ج2, ج3.

14.مجموعة من العلماء القدامى: **تعريف القدماء بأبي العلاء المعري**, إشراف الدكتور طه حسين, القاهرة, دار الكتب المصرية, 1944م.

ب) **المراجع:**

1. إبراهيم, زكريا: **مشكلة الإنسان**, القاهرة, مكتبة مصر, بلا تاريخ,: **أبو حيّان التوحيدي (أديب وفيلسوف الأدباء)**, القاهرة, المؤسسة المصرية العربية, بلا تاريخ

: **سيكولوجية الفكاهة والضحك**, القاهرة, دار مصر للطباعة, بلا تاريخ.

2. أحمد, لطفي بركات: **الفكر التربوي في رعاية الطفل الكفيف**, القاهرة, مكتبة الخانجي, 1978م.

3. أدونيس, علي أحمد سعيد: **ديوان الشعر العربي**, بيروت, نشر المكتبة العصرية, 1964م.

4. الاسكندري, محمد: **المفصّل في تاريخ الأدب العربي**, القاهرة, مكتبة الآداب, بلا تاريخ

5. أمين, أحمد: **ظهر الإسلام**, ط3, مكتبة النهضة المصرية, 1964م.

6. أبو الأنوار, محمد: **الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية**, بيروت, دار المعارف, بلا تاريخ.

7. بارتولد: **تاريخ الحضارة الإسلامية**, ترجمة حمزة طاهر, ط2, دار المعارف, القاهرة, بلا تاريخ.

8. البستاني, إدوار أمين: أبو العلاء **متأمل في الظلمات**, بيروت, بيت الحكمة, بلا تاريخ.

9. البستاني, بطرس: **موسوعة بطرس البستاني الحضارية (العصر العباسي)**, بيروت, المركز الثقافي الحديث, ج5.

10. البطل, علي: **الصّورة في الشعر العربي حتى القرن الثاني**, ط2, دار الأندلس للطباعة والنشر, 1981م.

11. بكري, عطا: **الفكر الديني عند أبي العلاء المعري**, بيروت, دار مكتبة الحياة, 1980م.

12. تيمور, أحمد: **أبو العلاء المعري (نسبه وأخباره ــ شعره ــ معتقده)**, ط2, القاهرة, مكتبة الأنجلو المصرية, 1970م.

13. الجندي, محمد سليم: **الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره**, تعليق عبد الهادي هاشم, دمشق, مط المجمع العلمي العربي, بيروت, دار صادر, 1962م, ج1, ج2, ج3.

14. حتّي, فيليب: **تاريخ العرب**, ترجمة إدوارد جرجي وصاحبه, ط2, بيروت, دار الكشّاف, 1953م.

15. حجاب, محمد نبيه: **معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول (عصر الدولة الموحّدة)**, ط1, القاهرة, دار المعارف, 1973م.

16. حسن, حسن إبراهيم: **تاريخ الإسلام**, ط1, القاهرة, دار النهضة المصرية, 1973م, ج3.

17. حسين, طه: **تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي(2))**, ط1, بيروت, دار العلم للملايين, 1974م.

: **تجديد ذكرى أبي العلاء المعري**, ط6, القاهرة, دار المعارف, 1963م.

: **حديث الأربعاء**, ط12, القاهرة, دار المعارف, 1977م, ج2.

: **صوت أبي العلاء المعري**, القاهرة, مط المعارف, بلا تاريخ.

: **أبو العلاء المعري**, ط1, بيروت, دار الكتاب العربي, 1974م, ج10.

: **مع أبي العلاء في سجنه**, القاهرة, دار المعارف, 1963م.

18.حمادي, محمد الحبيب: **المعري وجوانب من اللزوميات**, ط2, الدار التونسية للنشر, 1979م,

19.حمزة, مختار: **سيكولوجية المرضى وذوي العاهات**, القاهرة, دار المعارف, 1956م.

20.حمود, كامل: **دراسات في تاريخ الفلسفة العربية**, بيروت, دار الفكر اللبناني, بلا تاريخ.

21.خريباني, جعفر: **أبو العلاء رهين المحبسين**, ط1, بيروت, دار الكتب العلمية, 1990م.

22.خضر, سناء: **النظرية الخلقية (عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين)**, الإسكندرية, دار الوفاء, بلا تاريخ.

23.الخطيب, عبد الكريم: **أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد**, ط1, الرياض, دار اللواء, 1980م.

24.خلوصي, صفاء: **فن التقطيع الشعري والقافية**, ط5, بغداد, مكتبة المثنى, 1977م.

25.خليف, يوسف: **في الشعر العباسي نحو منهج جديد**, القاهرة, دار غريب، د.ت.

26.خليل, أحمد محمود: **في النقد الجمالي (رؤية في الشعر الجاهلي)**, بيروت, دار الفكر المعاصر, دمشق, دار الفكر, 1996م.

27.خناري, علي كنجيان: **مصادر ثقافة أبي العلاء**, ط1, القاهرة, الدار الثقافية للنشر, 2001م.

28.الخواجا, زهدي صبري: **موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي و الحكمة في شعر أبي العلاء المعري**, ط2, الرياض, دار صبري, 1994م.

29.الخولي, أمين: **رأي في أبي العلاء**, جماعة الكتاب, 1945م.

30.خير الله, سيد: **سيكولوجية الطفل الكفيف وتربيته**, القاهرة, مطبعة الفنية الحديثة, 1967م.

31.ذياب, عبد المجيد: **أبو العلاء المعري (الزاهد المُفْتَرى عليه)**, القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1986م.

32.الرافعي, مصطفى: **تاريخ آداب العرب**, ط2, بيروت, دار الكتاب العربي, 1974م.

33.رمزي, اسحق: **علم النفس الفردي**, القاهرة, دار المعارف, 1946م.

34.روس، أشبل: **رحلة في عالم النور**، ترجمة د. عبدالحميد يونس، القاهرة، دار المعرفة، 1961م.

35.زكي, أحمد كمال: **شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي**, القاهرة, دار الكتاب للطباعة والنشر, 1969م.

36.زيدان, جورجي: **تاريخ آداب اللغة العربية**, الفجالة, مط الهلال, 1912م, ج2.

37.زيدان, عبد القادر: **قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري**, القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1986م.

38.السقطي, رسمية: **أثر كف البصر على الصورة عند المعري**, بغداد, مط أسعد, 1968م.

39.سلام, محمد زغلول: **تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري**, القاهرة, دار المعارف. 1964م.

40.سلامة, يُسري: **النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء**, الإسكندرية, دار المعرفة, بلا تاريخ.

41.شاخت, ريتشارد: **الاغتراب**, ترجمة كامل يوسف حسين, ط1, بيروت, المؤسسة العربية, 1981م.

42.شرارة, عبد اللطيف: **أبو العلاء المعري (دراسة ومختارات)**, ط1, بيروت, دار الكتاب العالمي, 1990م.

43.شرف الدين, خليل: **أبو العلاء المعري (مبصر بين عميان)**, بيروت, دار مكتبة الهلال, 1983م.

44.الشكعة, مصطفى: **الأدب في موكب الحضارة الإسلامية**, ط3, الدار المصرية اللبنانية, 1993م.

45.شكّور, خليل وديع: **معاقون لكن عظماء**, ط1, بيروت, الدار العربية للعلوم, 1992م.

46.شلبي, أحمد: **مقارنة الأديان (أديان الهند الكبرى)**, ط8, القاهرة, مكتبة النهضة المصرية, 1986م, ج4.

: **مقارنة الأديان (المسيحية)**, القاهرة, مكتبة النهضة المصرية, ط8, 1984م, ج2.

47.الشورى, مصطفى عبد الشافي: **شعر الرثاء في العصر الجاهلي**, مكتبة لبنان, الشركة المصرية العالمية للنشر, لونجمان.

48.شيا, محمد شفيق: **في الأدب الفلسفي**, ط1, بيروت, مؤسسة نوفل, 1980م.

49.شيخاني, سمير: **موسوعة الضحك العالمية**, بيروت, مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر, 1983م.

50.الصارم, سمير: **أبو العلاء المعري (حياته ــ شعره)**, دمشق, دار كرم, بلا تاريخ.

51.صبح, علي: **الصورة الأدبية تاريخ ونقد**, القاهرة, دار إحياء الكتب العربية, بلا تاريخ,

52.صليبا, جميل: **تاريخ الفلسفة العربية**, بيروت, دار الكتاب اللبناني, 1986م.

53.ضيف, شوقي: **عصر الدول والإمارات**, القاهرة, دار المعارف, بلا تاريخ.

: **فصول في الشعر ونقده**, القاهرة, دار المعارف, بلا تاريخ.

: **فن النقد الأدبي**, القاهرة, دار المعارف, 1962م.

: **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**, ط6, القاهرة, دار المعارف, بلا تاريخ.

54.عبّاس, إحسان: **فن الشعر**, ط3, دار الثقافة, بلا تاريخ.

55.عبد الحميد, شاكر: **الفكاهة والضحك (رؤية جديدة)**, الكويت, مطابع السياسة, 2003م.

56.عبد الرحمن, عائشة (بنت الشاطئ): **جديد في رسالة الغفران**, بيروت, دار الكتاب العربي, 1983م.

: **الحياة الإنسانية عند أبي العلاء المعري**, القاهرة, مط المعارف.

: **مع أبي العلاء في رحلة حياته**, ط1, بيروت, دارالكتاب العربي, 1972م.

57.عبد القادر, حامد: **فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره**, مطبعة لجنة البيان العربي, بلا تاريخ.

58.عبد المطلب, محمد: **البلاغة والأسلوبية**, ط الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1984م.

59.عبود, مارون: **أبو العلاء زوبعة الدهور**, ط3, بيروت, دار مارون عبود, 1970م.

60.العقّاد, عبّاس محمود: **جحا الضاحك المضحك**, بيروت, دار الكتاب العربي, 1969م.

: **رجعة أبي العلاء المعري**, ط3, بيروت, دار الكتاب العربي, 1967م.

61.العلاق, حسين صبيح: **الشعراء الكتّاب في العراق في القرن الثالث الهجري**, بيروت, منشورات مؤسسة الأعلمي, بغداد, مكتبة التربية, 1975م.

62.العلي, عدنان عبيد: **شعر المكفوفين في العصر العباسي**, عمان, دار أسامة, 1999م.

: **المعري في فكره وسخريته**, ط1, عمان, دار أسامة, 1999م.

63.غريب, جورج: **العصر العباسي**, ط3, بيروت, دار الثقافة,1978م.

64.الفاخوري, حنّا: **الجامع في تاريخ الأدب العربي**, بيروت, دار الجيل, بلا تاريخ.

:**الموجز في الأدب العربي وتاريخه (الأدب المولد)**, ط1, بيروت, دار الجيل, 1985م.

65.الفاضل, محمد: **قصد أبي العلاء من رسالة الغفران**, تونس, مجلة الثريا, 1944م.

66.فروخ, عمر: **تاريخ الأدب العربي**, بيروت, دار العلم للملايين, ج3.

: **حكيم المعرة**, ط2, بيروت, مط الكشاف, 1948م.

67.فهمي, مصطفى: **الصحة النفسية**, القاهرة, مط العربية الحديثة, مكتبة الخانجي, 1976م.

: **مجالات علم النفس**, القاهرة, دار مصر للطباعة, بلا تاريخ.

68.القباني, صبري: **الغذاء لا الدواء**, ط15, بيروت, دار العلم للملايين, 1982م.

69.قطب, سيد: **النقد الأدبي أصوله ومناهجه**, ط بيروت, بلا تاريخ

70.قمير, يوحنا: **أبو العلاء المعري في لزومياته**, ط3, بيروت, بلا تاريخ.

71.كرو, أبو القاسم محمد: **شخصيات أدبية من الشرق والغرب**, بيروت, دار مكتبة الحياة, 1966م.

72.متز, آدم: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**, ط4, ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة, بيروت, دار الكتاب العربي, 1967م.

73.المحاسني, زكي: **أبو العلاء ناقد المجتمع**, بيروت, دار المعارف, 1963م.

74.مسعود, ميخائيل: **أدباء فلاسفة**, ط1, بيروت, دار العلم للملايين, 1993م.

75.المقدسي, أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**, ط5, بيروت, دار العلم للملايين, 1961م.

76.الملائكة, نازك: **قضايا الشعر المعاصر**, بيروت, دار العلم للملايين, بلا تاريخ.

77.هدارة, محمد مصطفى: **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثالث الهجري**, ط1, بيروت, دار العلوم العربية, 1988م.

78.هلال, محمد غنيمي: **النقد الأدبي الحديث**, بيروت, دار العودة, 1987م.

79.اليازجي, كمال: **أبو العلاء ولزومياته**, ط2, بيروت, دار الجيل, 1997م.

: **أعلام الفلسفة العربية**, ط3, بيروت, دار المكشوف, 1968م.

80. اليظي, صالح: **الفكر والفن في شعر أبي العلاء**, الإسكندرية, دار المعارف, 1981م.

81.مجموعة من الأساتذة المحدثين: **المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري**, دمشق, مطبعة الترقي, 1945م.

**ج) الدوريات:**

1. خليفات، سحبان: العقل عند أبي العلاء، **مجلة العلوم الإنسانية والشريعة**، عمّان، مجلد12، 1985م.

2. الخواجة, إبراهيم شحادة: اللوحات الهزلية في حياة وشعر أبي الدلامة الأسدي, **مجلة الثقافة العربية**, ع114.

3. عودة, خليل: المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي, **مجلة النجاح للأبحاث**, م2ن, ع8, 1994م.

4. المثني, مصطفى إبراهيم: **مجلة أبحاث اليرموك**, عمان, مجلد4, ع2, 1988م.

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

# Social Criticism in Lozomiyyat Abul Ala' Al-Ma'arri

By
Maisoun Mahmoud Fakhri Alabhari

Supervisor
Prof. Ibrahim AI-Khawajah

*Submitted in Partial Fulfillments of the Requirements for the Degree of Masters of Arts in Arabic Language, Faculty of Graduate Studies at An-Najah National University, Nablus, Palestine.*

**2005**

**Social Criticism in Lozomiyyat**
**Abul Alai AI-Malarri**
**By**
**Maissoun Mahmoud Fakhri AI-Abhari**
**Supervisor**
**Prof. Ibrahim AI- Khawajah**

# Abstract

This research discusses the social criticism in Lozomiyyat Abul Alai AI-Ma'arri, it aims at knowing the problems and motivations of that criticism. Depending on his poetic texts, stanzas, and verses, and from the certified literary & historical references and resources. The research discussed those texts by analyses, auditing, and by specifying subjects connected to social criticism. In discussing the poetic forms, the research relied upon specifying the issues in which AI-Ma'ari was interested in his Lozomiyyat, and it shows each issue separately and supports it in the proper way.

Throughout studying those forms, it was possible to get a full idea about Lozomiyyat Abul Alai AI-Ma'arri, and to reveal the majority of the subjects with which he dealt, community, economy, life, death, fate, time, politics, and religion are all components of his huge directory “Lozomiyyat", So his Lozomiyyat came in a distinguished manner. AI-Ma’arri and thought about to a degree that he discussed those issues by a philosophy mixed with guides and advice, so his speculations were deep un proceeded, through which he was worthy to gain the nickname of the philosopher poet because he said a good, philosophic, and well organized poetry that lead him to know the origins and the resources that contributed in developing his philosophy, and contributed in initializing his talent of criticism, denying his illness and showing the importance of sight because - from his point of view - the basis in self realization, and the assurance on highlighting the distinguished and innovative personality. There is sorrow

and pain impressions in his Lozomiyyat, speculation and thinking about this life and about people, forming a new vision to reveal the community defects, and criticizing it in order to reach a more idealistic community. Al-Ma'arri was a good, honest researcher who researched well the kings and princes' affairs, and who followed them in his era, and he had known dangerous information about them. he saw them fighting for authority in order to achieve their own aims and desires , and he discussed the picture of those who prohibited working for winning bread and permitted waiting and depending on others for living costs without exerting an effort, because Al-Ma'arri thought that working and. having a vocation is closer to faithfulness than waiting and depending on others, he developed a new vision through showing some religious types who had mistaken in the right of religion and had gone beyond the name of religion to realize their bad desires and their own aims.

At last the research followed the integral protocol in listing and analyzing, and there are many researches from different resources and references, and from literary philosophic, historical, and scientific books that served in seeking knowledge , under supervision of Prof. Dr. Ibrahim Al-Khawajah to whom the researcher is indebted in directing this research, and expanding its horizons, the researcher hopes that the result of this effort will be acceptable.